نفائس المخطوطات

الكتاب الباشي

تأليف
العلامة الوزير الحاج حمودة بن محمد بن عبد العزيز
المتوفى في سنة 1202/1788

تحقيق
الشيخ محمد ماضور

الجزء الأول
قسم السيرة

الدار التونسية للنشر

نسخة عـ ـــــدد

ثبت المصادر والمراجع

ابن الاثير (علي بن محمد الجزري) : **الكامل** . مصر (المطبعة المنيرية 1353 هـ. 9 اجزاء

الاصبهاني (أبو الفرج) : **الاغاني**. بيروت (دار الفكر) دون تاريخ. 24 جزءا.

الاعشى (ميمون بن قيس) : **الديوان**. بيروت (دار صادر) 1960 م.

الامير (محمد) : **ثبت أسانيده**. مصر (مطبعة المعاهد) 1345 هـ.

البخاري (محمد بن اسماعيل) : **الجامع الصحيح**. الاستانة 1315 هـ. 8 اجزاء.

البكري (ابو عبيد القرطبي) : **معجم ما استعجم**. مصر (لجنة التاليف والنشر) 1345 هـ. 4 اجزاء.

بيرم الخامس (محمد) : **صفوة الاعتبار**. مصر (المطبعة الاعلامية) 1302 هـ ـ 1311 هـ. 5 اجزاء.

بيرم الرابع (محمد) : **الجواهر السنية**. مخطوط تونسي خاص.

الثعالبي (عبد الملك) : **يتيمة الدهر**. (مطبعة السعادة) 1377 هـ. 4 اجزاء.

حمودة بن عبد العزيز : **الديوان**. مخطوط تونسي خاص.

ابن خلكان (احمد بن ابراهيم) : **وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان**. مصر (بولاق) 1299 هـ. جزآن.

الزركلي (خير الدين) : **الاعلام**. مصر 1959. 10 اجزاء.

السيوطي (جلال الدين) : **الجامع الصغير**. بولاق 1286. جزآن.

الشريف الرضي : **الديوان**. بيروت 1307 هـ. جزآن.

الشعراني (عبد الوهاب) : **البدر المنير في غريب الحديث**. مصر (ط حجرية) 1277 هـ.

ابن ابي الضياف (احمد) : **اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك الزمان**. تونس 1963 ـ 1968 ـ 8 اجزاء.

عياض (القاضي ابو الفضل) : **مشارق الانوار على صحاح الاثار**. فاس 1328 هـ. جزآن

فريد بك (محمد) : **تاريخ الدولة العلية**. مصر 1311 هـ.

الفيروزابادي (محمد) : **القاموس المحيط**. مصر (بولاق) 1301 هـ. 4 اجزاء.

الكتاني (عبد الحي) : **فصل بالمجلة الزيتونية**. المجلد الثاني، الجزء الرابع. تونس.

المتنبي (ابو الطيب) : **الديوان**. بيروت (دار صادر) 1926.

مخلوف (محمد) : **شجرة النور الزكية**. مصر (المطبعة السلفية) 1349 هـ. جزآن.

المدني (احمد توفيق) : **محمد عثمان باشا**. الجزائر 1356 هـ.

المسعودي (الباجي) : **الخلاصة النقية**. تونس 1323 هـ.

مسلم بن حجاج : **الجامع الصحيح**. الاستانة 1329 ـ 8 اجزاء.

المقري (احمد بن محمد) : **نفح الطيب**. مصر (بولاق) 1279 هـ. 4 اجزاء.

الميداني (احمد بن محمد النيسابوري) : **مجمع الامثال**. مصر 1352 هـ. جزآن.

النيفر (محمد) : **عنوان الاريب**. تونس 1351 هـ. جزآن.

اليازجي (ناصيف) : **مجمع البحرين**. بيروت (دار صادر) 1924.

ياقوت الحموي : **معجم البلدان**. مصر (مطبعة السعادة) 1907 م 10 اجزاء.

مقدّمة التحقيق

أ ـ عصر المؤلف

ب ـ التعريف بالمؤلف

ج ـ التعريف بالكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

أ ـ عصر المؤلف

في استعراض تاريخ عصر المؤلف ـ سياسيا واجتماعيا وثقافيا ـ مدخل لدراسة الكتاب ، وبالأخص القسم التاريخي منه الذي تناول جزءا مهما من التاريخ التونسي ، له ميزاته وتطوراته ، وهو الدور التركي الذي امتدّ زهاء الثلاثمائة سنة (981هـ 1574م ـ 1298هـ 1881م) تداولها الدايات وآل مراد وآل حسين بن علي من البايات ، وكان له تأثير في قلب وضعيّة البلاد وإدخال تطور عميق عليها في الفكر والاجتماع والأخلاق والعادات ، وهو ـ وإن أخلّ بسيادتها السياسية ووحدتها الترابية ـ قد أدخل عليها حضارة جديدة لا يجهل مفعولها في الأخذ بأسباب التمدّن والتفنّن ـ بعد أن أنقذها من احتلال خطير غايته التنصير أو الإبادة .

المؤثّرات السياسية

والعوامل المؤثّرة في توجيه أحداث هذا العصر (القرن الثاني عشر هـ/17م) مرتبطة إلى حدّ بعيد بعلاقة البلاد مع الخلافة العثمانية الّتي تحكمها بمقتضى تبعية فرضها الفتح العسكري وصيّر الحكم المباشر فيها للعنصر التركي . ومهما ضعفت التبعية المركزية ـ لبعد عاصمة الخلافة ووهنها ـ فإنّ السلطة المباشرة بيد أمير تركي ـ ، وجيشه المدعّم لنفوذه من أخصّ الفرق التركية الّتي

كان لها شأن في التحكّم بأعلى مناصب الدولة وهي فرقة الانكشارية التي دام وجودها إلى سنة 1816/1231 (1) ، ودواوين الإدارة والجباية تدار بالقلم التركي ، والقضاء مستلزم لقاض تركي مستوْرد من الأستانة (2)؛ وبمفعول هذه الدّواليب كان لابد أن تصطبغ البلاد بصبغة السياسة التركية وتتأثّر بها طوعا أو كرها .

وكانت الدولة العثمانية قد أصابها الوهن — أواخر القرن 11هـ/17م — لأسباب داخلية وخارجية ، من أهمها توارد عدد من ضعفة السلاطين وتمرّد الجيش عليهم وتمرّسه بالسياسة وفقده صفة المحارب الكفء ، هذا مع تقوّي روسيا بزعامة بطرسها الأكبر واتّحادها مع النمسا وبولونيا والبنادقة والبابويه ورهبنة مالطة على الجيش التركي وإيقاعها به على فيانا سنة 1683/1094 — ثم موالاة الهزائم عليه إلى أن مني بالهزيمة الساحقة في زينتا بجنوب المجر سنة 1697/1109 — وعلى إثرها عقدت معاهدة كارلوفيتش في 26 جانفي 1699 رجب 1110 وبها ابتدأ انهيار تركيا حيث فقدت أهم ثغورها وسقطت هيبتها ، وانتزعت منها تلك الدول أقاليم شاسعة ، واحتلّ البنادقة جزر المورة والأرخبيل ونقطا من الدردنيل وهدّدوا العاصمة نفسها سنة 1676/1087 فارتبكت بذلك الحالة وشاعت الفوضى وعمّ الفساد وقلّت الكفاة (3) .

وكان لهذا الانهيار أثره السياسي بالبلدان التابعة للخلافة فاستقلّت القاصية منها بحكّامها وعدا بعضهم على بعض بالقوة طلبا للتوسّع وبسط النفوذ حيث لم يبق عليهم سلطان ولا وازع من السلطة المركزية ؛ ومن هنا جاء النزاع الحربي المتسلسل بين دايات الجزائر وبايات تونس الذي ابتدأ بتداخل الداي إبراهيم خوجه لتأييد الباي مَحَمّد المرادي سنة 1685/1096 (4) واستمرّت

(1) ابن ابي الضياف 3 : 115، الباجي المسعودي 140.

(2) انظر فيما ياتي : بسطة عن نظام القضاء من هذا الجزء.

(3) محمد فريد 137 — 143.

(4) الواقع انه سبق هذا التداخل حرب وقعت سنة 1614/1022 لخلاف على الحدود وانتهت بصلح سنة 1628/1037 ولم نذكرها لوضوح سببها اما ما جاء بعدها فلا سبب له الا اقتناص المال والغنائم .

نوائبه أكثر من قرن إلى أن ختم بصلح سنة 1821/1236 ولكنه لم يختم بخير فقد أعقبه الاحتلال الفرنسي للجزائر بعد ذلك الصلح بقليل ، وما يدريك أنّه لو لم يكن هذا الاحتلال لاستمرّ النزاع إلى ماشاء الله .

وممّا يقتضي العجب أن الشقين المتحاربين كانا قبل الاحتلال التركي أمة واحدة لا نشاز فيها فجنى عليها الترك بتقسيمها إلى عدة ولايات بكل منها دولة وباي وجند ، وكانت ولايات وهران والمدية وقسنطينة تخضع لداي الجزائر بالولاية والعزل وأداء الأتاوة ، فكان يعمل لإخضاع بايات تونس بالمثل ، بينما يعمل هؤلاء للاتّصال بالباب العالي العثماني رأسا على قدم المساواة مع الجزائر (1) .

ومن حلقات هذا النزاع المؤلم التداخل في الخلاف بين الباي حسين بن علي وحفيده للأخ الثائر عليه وهو الباشا علي بن محمد ، ذلك الخلاف المشؤوم الذي الذي ساد العصر المتحدّث عنه واستوفاه المؤلف في نقط عديدة من الكتاب .

ابتدأ هذا الخلاف بالتجاء الحفيد إلى داي الجزائر عبدي خوجة لمّا أخفق في ثورته على عمّه فاستغل التجاءه بمساومة العمّ على اعتقاله مقابل جُعْل ماليّ أداه ستّ سنين وكان قطعه سببا لإطلاق المعتقل وتجهيزه بجيش قضى به على دولة عمّه في وقعة سمنجه سنة 1736/1148 وحلّ محلّه على أداء مبلغ طائل من المال والقمح لخزينة الجزائر سنويا ، وكذلك كان الأمر في نهاية دولته سنة 1756/1169 حيث تحمّل ابن عمه مَحمد الرشيد بأداء سنويّ على تولّي الحكم بإعانة جيش الجزائر (2) . وتواصل شرّ هذا الخلاف مستطيرا مدى ثلاثين سنة لم تخل واحدة منها عن أحداث مهولة ودماء مطلولة وثروات سليبة وفتكات رهيبة ، وكانت آخرتها واقعة أخذ تونس من يد الباشا التي وصف أدوارها ابن أبي الضياف في **تاريخه** ، ووصف قبلها فظائع الجيش

(1) المدني 34 — 35.

(2) لم يذكر مؤرخونا هذه الجعالات استنكافا من معرّتها وانما نقلها الاستاذ المدني في كتابه محمد عثمان باشا عن مصادر رسمية.

المهاجم من استباحة البلدان وما فعله الباشا من إجلاء السكّان . ويجد القارىء بهذا الكتاب تفاصيل بشعة لهذه الحروب وضمنها صورٌ مرذولة تأباها البشرية من مثلة وكسر أعضاء وسمل أعين وجرّ بأذناب الدواب غالب وزرها محمول على كاهل الباشا .

ولنا في تعقّب تلك الصور وقفة تبدو في نظرتين :

الأولى : الشكّ في وقوع كثير من تلك الصور لأنا لمسنا من المصادر التاريخية التي دوّنت بعد انطواء دولة الباشا تجسيم مؤاخذته والتشنيع عليه تنفيرا من بقايا ذرّيته وتزلّفا لأخلافه في الحكم . ونحن لا ننفي عنه شدّة الوطأة وسفك الدماء بيد أنّ هذا قدر مشترك بينه وبين غيره من طلاب الملك – قبله وبعده – وإنّما ننفي أن يكون الرجل كلّه سيئات وتُسلَب عنه كل المحاسن حتّى مواهبه العلمية (1) .

الثانية : لا يظنّ ظانّ أن تلك الجرائم كانت خاصّة بأسلافنا ، كلاّ ، فإنّ وسائل الضغط والإرهاب في ذلك العصر كانت من طبيعة إقامة الملك ، وتصريفها جائز سواء في مقاومة الثورات أو إرضاء جوامح العصبيات ، ومن شواهد ذلك ديوان تفتيش اسبانيا وباستيل باريس ومحارق لندن ، وما زالت أدوات الإعدام والتعذيب التي كان يستعملها مجلس العشرة ماثلة في قصر الدوتشي بالبندقية وغيرها ، وفي تاريخ حروب أروبا الدينية وثوراتها الوطنية أدلّة على أكثر ممّا وصفه مؤرّخونا من قساوة معاصريهم ولعلّها لم تنقطع حتّى في عصر النور ، ومن ينسى ما ارتكبه الاستعمار في تطويع إفريقيا والإبادة الجماعية في مذابح تروتسكي وتصرفات النازية ؟! وكيف تُنْسى – وما بالعهد من قدم – فجائع الكفاح الوطني في ليبيا وتونس

(1) من تحامل المؤرخين عليه ان ابن عبد العزيز ذكر في اولية الباشا قراءته على الشيخ محمد الخضراوي وانه شرح له تسهيل ابن مالك ونسبه اليه فنكت عليه ابن ابي الضياف بان علم الباشا لا ينكر وتعاليقه على الكتب شاهدة له ولكن شرحه لم يزد على غيره من الشروح يعني انه منقول – فاجتمعا على الغض من الكتاب وصاحبه. وممّن انصفه الباجي المسعودي في الخلاصة النقية 127.

والجزائر ؟! فذلك ممّا لا نسبة له بجانب ما ذكر عن تلك الحروب ، وليس في هذا تبرير لها ولكنّه ممّا لا ينبغي أن يغفل عنه .

هذه لمحة عن التاريخ السياسي لذلك العصر الذي نشأ فيه المؤلف ودرج ، ولكنّه – بعد دولة الباشا واتاه عصر ناعم انسدل عليه رداء العافية وسادت فيه السكينة وملّ أهله نوازع الفتن وأقبلوا على العمل المثمر ، فتفيّأت ظلال الأمن ، واعتدلت موازين العيش ، وانتظم الاقتصاد وعمّ العدل ، وذلك في مدّة مخدومَيْه علي الثاني وابنه حمودة الممتاز عصرهما بالدّعَة والسكون والاستقرار وبثّ العلم والمعدلة والاعتناء بالمصالح العامّة ، وفيه ظهرت مواهب المترجم وتقلّد الرئاسة وألّف هذا الكتاب وله في وصف هذا العصر وموازنته بغيره إفادات قيّمة أثناء المقدمة التي دخل بها على الدور التركي – بالجزء الثاني – .

الحالة الاجتماعية :

المجتمع التونسي متكوّن من عناصر مختلفة ومنحدر من أصول عديدة ، فإنّ هذه البلاد – بحكم موقعها الجغرافي الذي جعلها معبرا بين الشرق والغرب – قد تداعت عليها الغزاة برا وبحرا من أقدم أزمنة التاريخ ، ومن الطبيعي أن يأتي كلّ غاز بعنصر قوّته من الخارج ويضمّ إليه ما يكملها من المتطوّعة ، وبهذا تغلّبت قرطاجنّة والرومان والوندال وبيزنطه والعرب ولكلّ قوّته من جنسه – ثمّ تغلّب الأغالبة بالعرب ، والعبيديون بقبائل كتامة ، وبنو زيري بصنهاجة ، وبنو أبي حفص بقبائل الزحفة الهلالية ، ثم كان الاحتلال الأسباني والفتح التركي والهجرة الأندلسية والموالي (المماليك) ولكلّ من هذه العناصر جوالي انماعت في الساكن وامتزجت بالقطين . فاختلفت الدماء وتعدّدت الأصول وتفاوتت الفروق وتوفّرت أسباب الخلاف ، ومن أعظمها وأعمقها أثرا في تربية روح الثورة والتعوّد بالفوضى ثورة بني عبيد الشيعة ، فإنّها أتت على حين ازدهار واغتباط بالحكم الأغلبي الموافق لعقيدة السكّان وميولهم ، فجاء العبيديون بعقيدة غامضة فيها الظاهر والباطن ، وفيها إثارة

الحزازات التي ذهبت مع الزمان ؛ كسبّ الصحابة والتحكّم فيما شجر بينهم ، وقيّدوا الفكر ، وعطّلوا العلم ، وسلبوا ثروة البلاد ، ونقلوا أحمالها المعدودة بالآلاف إلى مصر عند انتقالهم إليها . وأدّى الانتقاض عليهم إلى ردّ فعل انتقامي بتسريح قبائل الصعيد في حملة عارمة ، عرفت في التاريخ بالزحفة الهلالية ، فاجتاحت البلاد ، وخرّبت المدن ، وأركست الحضارة ، وأذهبت ريح الدولة ؛ فلم تقم لها قائمة بعد ، واستوطنت البلاد واقتسمتها أقطاعا ثم انقسمت على نفسها في عروش متعادية دأبها الغزو والفتك . فتراجعت المدينة وتقلّصت الحضارة وعادت الحياة قبلية بدائية قوامها الغارة والنهب ، وانكمشت المدن على نفسها وانقطعت السبل ، وسلخ الحفصيون القرون الأربعة من حكمهم في معاناة هذه الحالة ، ولم يتمكّنوا من ضبطها إلاّ في ظروف محدودة إلى أن جاء الترك ووطّدوا سلطانهم بالأسلحة النارية التي نهنهت من فوضى القبائل فخضعت لهم حسب الضرورة متطلعة إلى كلّ ثائر ومتشوّفة إلى كلّ مغامر . وهكذا سكنت ثائرتهم حينا من الدهر خصوصا في مدة حسين بن علي الذي تمكّن الاستقرار في عصره ، فلمّا دبّ الخلاف بينه وبين حفيده الباشا علي بن محمد تشيّعت له قبائل عديدة كالمثاليث والهمامة وبني يزيد وانضمّ إلى عمّه غيرها ، وانقسم القطر إلى شيعتَيْن : حسينية وباشية ساد التطاحن بينهم نحوا من ثلاثين عاما وبقيت آثاره وثاراته في أعقابهم إلى عهد غير بعيد من زماننا هذا ، وفي العصر المتحدّث عنه كان الانقسام على أشدّه ، والحرب الأهلية تأكل المجتمع وتبثّ فيه الإحن والعداوات ، وكانت وضعية هذا المجتمع قائمة على ثلاثة أصناف : — أولا — أهل المدن ، وهم على جانب من الحضارة ، وجلّ احترافهم التجارة النافقة الممتدة أبعادها إلى الهند والعجم فما دونهما ، وصناعتهم التقليدية — كالشاشية وهي جدّ رائجة بالخارج ، ولذا كان التجّار والصّناع أثرى طبقات المجتمع — . وفي المقدمة المدخول بها على القسم التاريخي من هذا الكتاب بيانات جامعة عن أحوال التجارة والصناعة ومبلغ رواجهما وتضخّم الثروة العامّة بذلك . وكان من نتائج اتّساع الثروة حسن معاملة الطبقة العاملة بحيث لم يؤثر في التاريخ قيام حركة مشادّة بين العمّال والأعراف أو وقوع

جبر على أحد الطرفين لفائدة الآخر — على غرار ما وقع بأروبا — لانتظام الألفة والاقتناع والانسجام بينهما — ولا شكّ أنّ للأخلاق الدينية السائدة إذ ذاك أثرا في ذلك .

ثانيا — أهل القرى وهم — في الغالب — أهل زراعة وإنتاج ، ومنهم استمداد تموين البلاد ، وشأنهم الهدوء والاستقرار ، وهم كأهل المدن في تقارب الطبقات وكلاهما يطلب العافية ولا يخشى إلاّ نوازع الفتن والحروب التي تأتي على ثرواتهم ومدّخراتهم بالفيّ ، والنهب .

ثالثا — البدو الرّحل المنحدرون من أعقاب الهلاليين وبقايا البربر ، وغالبهم ينتجع الكلا لتربية المواشي — وليس لهم قرار دائم . وأولئك هم مساعير الحروب ومواقيد الفتن من قديم .لا يحكمهم سلطان ، ولا يضبطهم ديوان ، تتردّد القبيلة منهم بين الدول ، كلّما أغضبتها دولة نزعت إلى أخرى كما تكرّر ذلك من الحنانشة واللمامشة والهمامة ودريد وغيرها — وتوجد أمثلة منه بهذا الكتاب — وربما تسببت غاراتهم في مشاكل خارجية أدّت إلى حروب. كحادثة نهب ركب الحاج الفاسي المارّ بالجريد في عهد الباشا وهي محكية بالكتاب في أسباب حربه للهمامة .

ويحدوهم لإذكاء الثورات واتّباع كلّ ناعق أمران : — أحدهما — أخذ الثارات من بعضهم وكان ذلك في العهود القبلية عنوان المجد وميزة البطولة — الثاني — تحصيل مادة العيش من النهب فإذا أتيح لهم الظهور في الحرب انصبوا على المدن فاستباحوها وعلى القرى فنهبوها . ويقدّر الملاحظون أن تصميم الأنهج والأزقّة بالحاضرة وغيرها على نوع من الضيق والتعرّج مقصود للدفاع حيث يتمكّن المدافعون في المضائق والمنعرجات ممّا لا يمكنهم في السعة والتطرق .

الحركة الثقافية :

كانت تونس قبل كارثة الاحتلال الأسباني — دار علم وفقه ورثت عن فقهاء القيروان وأخلافهم طرق استنباط الأحكام وموازنة الأدلّة وضبط النصوص

وتطبيقها ، واختصّت بطريقة في التعليم تجمع بين الفقه والتفقه انتقلت عن المازري إلى ابن عبد السلام فابن عرفة وتلاميذه ، وقد أشاد بها ومجّدها حجة المغرب ابن مرزوق الجدّ وغيره كما نقله المقّري في أزهار الرياض . نعم إن هذا الامتياز في الجانب الفقهيّ لم يتّسع في غيره من آفاق العلوم الأخرى كالأدب والتاريخ والاجتماع كما اتّسع في الفقه ، ولكن تونس تحاسب من كاشحها في ذلك – بواحد كألف – فقد أنجبت مثل ابن خلدون في التاريخ والاجتماع ، وابن الحُباب في المعقول ،وخاتمة علمائها في مختلف الفنون محمد مغوش المنتقل إلى الشرق ، وغيرهم .

وما كاد يطلع عليها القرن العاشر حتّى أخذت في التراجع بمفعول الفتن والانحلال ، ثم انعدم منها العلم تماما عند الاحتلال الأسباني الذي استباح معاهدها وأتلف كتبها واستلحم ما بقي من أعلامها ، ثم جاء الحكم التركي ممثّلا في طبقات من الجند لاصلة بينها وبين العلم فكانت ضغثا على إبّالة . وما زال الأمر كذلك إلى أن هيّأ الله بذرة التجديد العلمي من الشيخ أحمد الشريف الأندلسي ؛ فأخذت عنه طبقة معدودة الأفراد محدودة المواد ، ولم يأت العصر المبحوث حتى تعدّدت الطبقات ، وتوفّر الانتاج ، وتلاحقت الأعلام الذين أخذ عنهم المؤلّف وتخرّج بهم. وقد تحدّث عن ترتيب تلك الطبقات وطرائق االتعليم وشيوع العلم والأدب في عصره بإفادات جامعة في مقدمة القسم التاريخي المنوّه بها وهي الآتية بالجزء الثاني من الكتاب .

ب - التعريف بالمؤلف

هو الكاتب الوزير أبو محمد الحاج حمودة (لا يكاد يذكر بغير نعت الحاج) ابن العالم الفقيه المدرس محمد بن عبد العزيز التونسي – أصلا ومولدا ونشأة وحياة ووفاة – ولا يعلم ما وراء ذلك من نسبه ومحتده وأسرته سوى أن والده محمداً كان مدرّسا ممتازا متخصّصا في الفقه المالكي . ويقول عنه المترجم في مقدمة **التاريخ** : « إنه لم يكن في عصره من يحسن **المختصر الخليلي وشروحه** مثله » .

ولعل السبب في فقد آثاره أنه لم يترك خلفا صالحا يحفظ تراثه – كما يأتي بخاتمته – فضاع أكثره إلا التاريخ وما تلقّفه الطلبة عنه حين اشتغاله بالتدريس . ومن الملحوظ أنه لم يقع الاعتناء بترجمته على جدة وفاته – حين كانت أخباره معروفة ، وحليته موصوفة – فلمّا انطفأت شعلته وذهبت دولته ، أنسي الناس ذكره ، وهم في الغالب مع الحاضر ، فإذا غاب ذهب كأمس الدابر ، خصوصا وأن الدولة التي خدمها وناصرها انقطع أثرها بالانقلاب المدبّر ضد عثمان أخي حمودة باشا سنة 1230 هـ. فلا غرو أن يخمل ذكر من كان في أوساطها بطيّ بساطها، وعلى كل تقدير ، فقد بقي من تاريخه وأدبه خير كثير .

وهو رجل زكيّ المنبت ، مهذّب النفس ، موفّق النشأة ، موهوب القريحة ، طموح للمعالي ، نشأ في عصر اضطراب وحروب فما كاد يستقبله بشبابه حتّى

لانت قناته ، وسكنت فوراته ، وألقى إليه بالمودة ، وسالمه بعد شدّة ، حيث استقرّت الدولة ، وساد الأمن ، واطمأنّ الساكن ، وانجاب الكدر ، فتمهّدت له وسائل الظهور ، وتوفّرت لديه أسباب الشهرة ، وصحب أميرين صالحين قدّرا خصاله ، واستنتجا مواهبه ، وكان لهما الفضل عليه برفع ذكره ، وله عليهما بتخليد مآثرهما في **تاريخه** وشعره .

تثقّف حسب مستوى عصره ، وتهيّأ لخوض معتركه ، وكان لا يسمح لمثله بتجاوز مناصب محدودة — من تدريس وشهادة وقضاء وفتيا — وما كانت مطامح نفسه لتقف عند تلك الحدود ، وفيها توثّب إلى الرئاسة ، وتطلّع إلى ممارسة السياسة ، بينما كان جهاز الدولة لا يتحمّل مثله لقيامه على العنصر التركي ومن اندمج فيه من فتيان المماليك . فترك الترك مّا تركوه ، ورحل إلى المشرق حاجّا مرتادا ، ثم انقلب إلى المغرب طامحا متطلّعا — والظاهر أنه خاب في الرحلتين ، وخسر الصفقتين — فلم يسعه إلا العدول عن مقصده ، ومراجعة بلده فعاد إليه وهو كما قال الورغي في مقامته : «ونظرت منه ما زان ، لتبدّل حاله عن الذي كان» وتحيّن فرصته لبلوغ غايته على طريق الكتابة الديوانية التي جال فيها القلم العربي — بعد أن كان محجوبا بزميله التركي — ولم يكن في مجاله ، مستغنيا عن أمثاله ، فتقدّم لميدانه طلق العنان ، رابط الجنان ، حتّى أحرز قصب الرهان ، وأصبح قلم الإنشاء والترسيل مقصورا عليه، كما يقول ابن أبي الضياف (1) . وواتاه من تعقّل متبوعه، وتجافيه عن مناخ الدسائس والمكائد ما قلّ أن يتّفق لغيره ، فتفيّأ ظلال الأمن ، وتذوّق ناعم الحياة ، واقتعد بساط العزّ ، وغدا وراح بين أمر يُبرمه ، وفكر يبدعه ، وبين رفاهة يجتليها ، وانتزاهة يواليها ، فجاءت آثاره مظهرا لجلاء الفكر ورقّة العاطفة وراحة الوجدان . وقلّما توفّر ذلك لرواد دواوين الملوك . فهذا سلفه ابن خلدون — وهو ابن مدينته ، ومنتهج طريقته ، وكلاهما نابغ طموح لا يألف حياة الركود ، وكلاهما ينشد النفوذ ، وله — في مصلحة بلاده — رأي يريد إحلاله محلّ التنفيذ ، بيد أن السلف — ابن خلدون — لم

(1) ابن ابي الضياف 7 : 3.

يظفر بحظّه — سواء بتونس أو فاس أو غرناطة وحتّى بإمارة بني مزني في بسكرة — حيث اصطدم بأنداد يتطلّعون لما يتطلّع ، ويزاحمونه بمناكب أضخم وأرفع ، ويفوقونه في التنافس ، باستعمال المكائد والدسائس ، فاكتنفته السعايات ، ورمي بالعظائم ، حتّى لفظته العواصم ، وقضى بقية حياته بالشرق مغامرا مخاطرا يربط نفسه بالحبال للنزول من أسوار دمشق إلى الطاغية «تيمورلنك» وهو في أعقاب الشيخوخة وسنّ من لا يألف إلا الكنّ . ولكنه لم يوفّق إلى الاستقرار والرضا ، حتّى فارق الحياة الدنيا ، بخلاف صاحبنا الذي فاز بدرك غايته ، وغذّى مطامحه ، وتمكّن من النفوذ والتوجيه ، واستقرّ في دست الرئاسة عامل الفكر ، موفور الجاه ، نافذ الكلمة . ونلمس آثار توجيهاته لمخدوميه في كثير من مشاريع الإصلاح البارزة في تاريخهما ، مما يقوم دليلا على صدقه في خدمة بلاده من وراء رئاسة ديوان الإنشاء — التي كانت بمثابة وزارة داخلية في ذلك العصر — ويشبهه في الحظّ والإقدام ومسالمة الأيام القاضي الفاضل مع سلطانه صلاح الدين الأيّوبي الذي كان لا يقطع أمرا دونه ، كما يتشابهان في المصير ، والتراجع في الشوط الأخير.

مولده :

لم يسجّل تاريخ مولده أحد ممّن ترجمه ، ولكنّا نستطيع أن نقرّبه من تواريخ أختام الكتب العليا التي زاولها في عهد دراسته وصنع فيها قصائد بديوانه — وهي تتراوح بين سنة 1167 وسنة 1173 هـ — وبالتدقيق يمكننا ضبط تاريخ مقارب من مزاولته درس **صحيح البخاري** على الشيخ محمد بيرم الأول بالمدرسة الباشية التي نصّ عليها في قصيد الختم بقوله :

بفناء مدرسة المعظّم قدره   الباشا أمير المؤمنين الأغلبا

وهذه المدرسة تمّ بناؤها سنة 1166هـ كما أرّخه الورغي ونقش على بابها بحساب الجمّل :

منازل فتح حلّها أيمن السعد
1166

فيكون ابتداؤه درس **البخاري** في هذا التاريخ وتأهّله لمزاولته يقتضي سنّا لا تقلّ عن العشرين بعد استكمال تعلّمه القرآني والجامعي — أعني ما يقابل اليوم الابتدائي والثانوي — فلا جرم أن نخرج من هذا بنتيجة تكاد تكون جزما أنّ مولده حوالي سنة 1146هـ ولا يحتمل أن يكون بعدها لأن ظروف دراسته لا توافق ذلك ، كما أن ترشيحه للرئاسة في سنّ دون الثلاثين ممّا يستبعد ،كما سيذكر في وظيفه .

نشأته العلمية وشيوخه وتلاميذه :

قال ابن أبي الضياف في ترجمته : (1) « نشأ بين يدي أبيه العالم الفقيه وأخذ عنه حتى أنه كان يسامره ليلا بعلم السير والتاريخ في حال صباه » . وقد مات وتركه صغيرا ، ولكن الملكة الأدبية رسخت فيه من أثر هذه المسامرة التي طبعت صباه الغضّ ، بطابع مفترض . وبذلك تأدّب كثير من العلماء الجلّة ، نذكر منهم — استطرادا — أستاذنا شيخ الأدباء محمد العربي الكبادي — رحمه الله — ، فقد كان ينوّه بما طبعته في نفسه — على صغره — مسامرت والده الكاتب الشيخ محمد الشاذلي الكبادي ، وبسببها تعلّق بالأدب باكرا ، حتى أصبح فيه مثلا سائرا .

ثم أقبل المترجم على التعلّم بالمعهد الزيتوني — وكان قد عمر في العصرين الحسيني والباشي بطبقة من العلماء متوافرة العدد ، متينة السند — فأخذ عن الأيمّة المفاتي : أحمد المكودي ، وقاسم المحجوب ، ومحمد بيرم الأول ، ومحمد الهدة ، والعالم المسند محمد الغرياني ، وسليل العترة سيدي علي الشريف . وإمام الحكمة محمد الشحمي — وله فيهم أمداح سائرة استغرقت نحو ثلث ديوانه — . وكان من تقاليد المعهد أنّ من بلغ درجة التعليم العالي يأذن له شيوخه بالتدريس بإجازات مسندة ، وبذلك تصدّر المترجم للإقراء في سنّ باكرة ، فكان ممّن أخذ عنه ثاني البيارمة وأعلمهم ، والباش مفتي مَحمد المحجوب ، وأخوه القاضي عمر (2) .

(1) ابن ابي الضياف 7 : 22.
(2) ابن ابي الضياف 7 : 22.

مؤلفاته وأدبه :

اختصّ بالتحصيل والتقييد ، فكتب **حاشية على عقيدة الوسطى للسنوسي** ، **ورسالة في تحرير سمت القبلة** ، **وشرح موشحة ابن سهل** : « هل درى ظبي الحمى ... » بشرح أدبي لطيف التزم فيه تجرية الاستعارات البيانية ، واستخراج النكات البلاغية ، وحرّر مسائل من علم الكلام سأل عنها علماء قسنطينة ، فأجاب عنها هو وعالم عصره الذي بلغ درجة الترجيح في المذهب الشيخ إسماعيل التميمي كلّ منهما برسالة ، واستظهر في « **عنوان الأريب** » (1) أن كتابة المترجم أحسن تحريرا وتدقيقا . وكفى حجة على مبلغ علمه تسليم العلماء لحكمه ، وقد ظفرت بتقريظ ضاف لهذه الرسالة من كبير علماء الجزائر الشيخ أحمد بن عمار (2) بخطّه وختمه . وهو طويل النفس استغرق صحيفتين ونصفا من القطع الكبير ، على طراز بلاغي بالاعتبار جدير . وقد اقتطفنا منه جملا للدلالة على التجاوب العلمي الذي كان بين القطرين الشقيقين في ذلك العصر :

« وقد أطلعني ... على الرسالة المحبرة ، المنقّحة المحرّرة ، التي لهذا التاريخ أملاها ، وأولاها من باهر التحقيق والتدقيق ما أولاها ، وضمّنها أجوبة عن أسئلة كلامية وردت — كما ذكر — أعزّه الله — على الحضرة ، ذات البهجة والنضرة ، فنظرتها بعين المنّة والانصاف ، مجانبا للتعصّب والتعسّف شيمة سليمي الصدر كاملي الأوصاف ، فرأيتها قد حازت قصب السبق في مضمار الإجادة وميدان الإصابة ، وانتظمت هي ومؤلفها مع شيوخ أهل السنّة ومؤلفاتهم المحررة في تلك العصابة ، وشهدت له — أدامه الله وأدام النفع به — برسوخ القدم في المعارف وسعة الاطّلاع ، وكمال التملّي من العلوم — خصوصا الأصلين وما يتعلّق بهما — وقوة الاضطلاع ، فاللّه جل جلاله يبقيه زينة لهذه

(1) النيفر 2 : 58.
(2) ذكره الاستاذ احمد توفيق المدني في تاليفه 89. وللشيخ أحمد بن عمار مراجعات مع الشيخ اسماعيل التميمي في نوازل فقهية جريا فيها مجرى الاستنباط وقد طبعت بتونس ملحقة برد الاول على الوهابية .

الإيالة السعيدة ، وهذه الدولة تصول به ويصول بها على الدول وكتّابها أعظم صولة ، فإنّ مثله — أعزّه الله — لخليق أن يباهى به وأين مثله حتى يباهى به ويفتخر ؟ ولعمري لقد خبأه الدهر إلى هذا العصر وادّخر ، وما أحقّه بقول أبي العلاء المعري عند من وفّقه الله إلى الانصاف وأرشده ، وكأنما على لسانه أنشده :

وإني وإن كنت الأخير زمانه   لآت بما لم تستطعه الأوائل

ثم أتى بقصيدة حسنة أكثر فيها من التورية بأسماء المتكلّمين وكتبهم ، منها قوله :

شمس تجلت فما أسنى تجليّها   لاحت على غرة الدنيا تحلّيها
أبدت مطالعها أسنى طوالعها   من أين للشمس تجلّى في مجاليها
قوّى بها عضد التوحيد منشئها   فالسعد يكتبها والفخر يجليها

***

إيه أيها الساري ولا رفيق ، إلا التوفيق ، ويا أيها الشاري خذ أحرار النفوس فكلٌّ لذلك الطبع الرقيق رقيق ، هكذا هكذا ، وفي عين الشاني القذى ، أطلع شموس معارفك وعوارفك في أفلاك البداعة والاتقان ، وزيّن سماء رئاستك وسياستك من فضائلك وفواضلك بأبهى من النجوم الزاهرة والزبرقان ، جادل عن الملة الحنيفية بلسانها ، وجالد بسيف السنة ودافع بإحسانها ... وافخر وجُرّ رداء العز والسؤدد فأنت زينة المصر بل العصر ، واهصر أغصان الرئاسة بالدولة الحسينية واجن ثمارها فأنت أهل لذلك الهصر ... » إلى آخر التقريظ المؤرخ بأواسط صفر سنة 1196 .

وأهم مؤلفاته هذا **التاريخ** وهو — بشهادة الذوق — على جانب كبير من الأهمية ، لجودة وضعه ، وحسن صنعه ، وروعة ما حواه ، من أحداث لا مصدر لها سواه ، مع كونه شاهد عيان لمواقعها ، ومسند أخبار زمان إلى مراجعها ، وهو أيضا ديوان أدب لعصره ، لا مورد لمؤرخي الأدب التونسي من غيره ، هذا إلى براعة تحريره ، ونصاعة تعبيره ، واستقلاله بأسلوب

كاتبه ، واختصاصه بمذاهبه ، واستعماله حرّ الكلام ، وعزوفه عن لوثة العوامّ ، ومحاسنه أغلب من المعائب ، ولا أحيلكم على غائب .

أما أدبه فكثير منه تضمّنه هذا الكتاب — من شعر ومقامات ورسائل — ودرجته فيه فوق درجته في الكتابة ، وهو متين الحوك جيد الديباجة مسلسل المعاني سهل المآخذ .

وقال شيخ الإسلام محمد بيرم الرابع في ترجمته بكتابه **الجواهر السنية في شعراء الديار التونسية** مانصّه : « سوار معصم الدهر ، وغرّة جبين النظم والنثر ، ودوحة الأدب الوريف ظلالها ، وعين البلاغة الجاري بسحر البيان سلسالها ، طلعت كلماته في سماء البراعة زهرا ، فأخجلت من الرياض اليانعة زهرا » .

وقال الشيخ مَحمد السنوسي — في تصدير ديوانه من كتابه **مجمع الدواوين** : إنْ دعي للتسابق في ميدان الشعر ، فذلك المجلي بين فرسانها العشر ، فيبعث غوّاص فكره إلى ثبج بحوره ، فيأتي من لججها بما أعدّه الجنّان لنحور حوره » .

وقد جمع كلٌّ من هذين الفاضلين أثارة من شعره تكوّن ديوانا مستقلاّ في نحو الستين صحيفة ما تزال قيد الخطّ .

رحلاته :

ذكر كلٌّ من بيرم والسنوسي في ترجمته أنّ له رحلتين في شبابه ، وكلامهما في ذلك متّفق ، واللفظ للأول قال : « وكان الزمان مدبرا عليه في أوائل أمره إلى أن حمله عسر حاله على مفارقة وطنه والوفود على المغرب الأقصى ، فمهّد لذلك بقصيدة قالها في سلطانه المولى محمد بن عبد الله ثم رجع عن ذلك لسبب اقتضاه . وحجّ في أيام شبابه واجتمع في طريقه بخاتمة فقهاء المالكية الشيخ محمد التاودي فكان بينهما — ممّا يدلّ على إعجاب الشيخ به — طلبه منه إقراء ولده **مختصر السنوسي** في المنطق وذلك بمصر ، فأقرأه له بالأزهر » .

وهو لم يذكر فى **تاريخه** شيئا عن هاتين الرحلتين — ولو بالإشارة — وإنّما أشار إلى حجّته الثانية عند ذكره إجازات صاحبه ، ولمّا أراد أن يصفه بالذكاء قال : وكفاك أني سافرت من تونس إلى مكّة ورأيت ملوكا وعلماء وعاشرت خلقا من أهل العلم والأدب وغيرهم فما رأيت أذكى ولا أفطن منه.. الخ ، فطوى ذكر رحلته المغربية تقية — فيما يظهر — حتى لا يرمى بالانحياز والانتماء إلى غير مليكه خصوصا وهو قد بالغ فى مدح السلطان بقصيدة من مطوّلات شعره — فى ديوانه — تمنّى فيها أن ينتظم ملكه المغرب والمشرق :

متى أرى خيله من بعد وقعتها ... بالكفر تنهل فى بغداد أوحلبا
وترتمي شهبا فى أفق أندلس ... تكسوه من بهجة الإسلام ما سلبا

وكانت الرحلة والقصيدة قبل اتّصاله بالباي ، ولمّا خدمه عمل على إخفائهما لئلا يتحرّج منه — والمغرب ضدّ لدول الترك بإفريقيا الشمالية من قديم .

أما حجّته الثانية سنة 1181هـ فقد قام بها وهو فى أوج رئاسته — وكان فيها قاضيا للركب ولم يذكر من تفاصيلها إلاّ روايته عن الشيخ السمّان بالمدينة المنورة .

وذكر ابن أبي الضياف (1) أنه قام بسفارتين إلى قسنطينة والجزائر ، ويدلّ على ذلك تمكّن علاقته بعلمائهما حتى صاروا يتوجّهون إليه بالسؤال عن المسائل المشكلة كما ذكره .

وقيامه بهذه الرحلات يدلّ على إقدام وعزم لصعوبة السفر فى ذلك الزمان ، ولاشكّ أنّ لها أثرا فى توسعة آفاق فكره ومعلوماته واكتمال حصافته .

(1) ابن ابي الضياف 7 : 23.

وظائفه :

لم يعرف أنه تقلّد وظيفا قبل رئاسة ديوان الإنشاء التي ارتقى إليها رأسا كما يفهم من تعبير ابن الضياف عن ذلك فى ترجمته (1) حيث قال : « وطلبه علي باي الحسيني لقلم الإنشاء فامتنع ، ثم طلبه على يد المفتي محمد بن حسين البازودي فأجاب وقبله أحسن قبول وقرّبه نجيّا واستعان به فى تدبير دولته » وقال الشيخ النيفر (2) بعد ذكر القبول : « ولما سامره أول ليلة أعجبته محاضرته حتى أنّ الأمير لم يزل يدنو منه حتى كاد أن يماسّ مجلسه » .

ولم يذكر فى الكتاب تاريخ اتّصاله بالأمير وتقليده الخطّة ، ولكنّه يفهم من سياق حوادث ثورة وسلات التي انتهت فى أول سنة 1175 هـ أنّه كان فى هذا التاريخ متّصلا به بدليل أنّه مدحه فى هذه المناسبة بقصيدته :

مهاد لجنب العزّ ظهر السلاهب ... وبرد لصدر المجد حرّ المضارب

ثم تولّى تعليم أبناء الباي سنة 1186هـ وذكر ذلك فى **تاريخه** ، قال ابن أبي الضياف (3) : « وكان يدلّ على مخدومه الثاني وهو ابن تربيته حمودة باشا بما له من حقّ التعليم بما لا يحتمله سنّ الشباب وعلى رجال دولته ويحتملون له لقصور الإنشاء والترسيل على قلمه يومئذ » .

صفاته وأخلاقه :

قال ابن أبي الضياف (4) : وكان فصيح اللسان ، ماضي القلم ، عذب المجالسة ، آية فى المحاضرة بحيث إذا حضر مجلسا توفّرت الدواعي على سماع ما يلفظ من قول » .

ويظهر أنه لم يكن محسودا على رتبته ولا مهجورا من أقرانه حيث لم تؤثر عنه كلمة هجو — منه أو عليه — بخلاف غيره من أدباء عصره كالغراب

(1) ابن ابي الضيـاف 7 : 23.
(2) النيفـر 2 : 58.
(3) ، (4) ابن ابي الضياف 7 : 23.

وسمّية ، ولاشك أنّ لأخلاقه دخلا في ذلك ، **وبديوانه** عدة قصائد إخوانية تفيض أدبا ولطفا وسماحة ، وهي بدون ريب مرآة نفسه ودليل عواطفه ، وفي **العنوان** (1) : إنه كان مترفّها في معيشته ، فإذا ليم يقول : لا يسلّيني عن مجالس العلم بجامع الزيتونة واستبدالها بخدمة المخزن إلاّ ذلك ، وربما صرح به للأمير حمودة باشا .

خاتمته :

ونكب في آخر عمره بحادث اعتداء على حياته كان مدبّرا من بعض رجال الدولة الغاصّين بمكانه من الباي ، وذكر ابن أبي الضياف سببه في تاريخ دولة حمودة باشا بالتفصيل (2) . وخلاصته : أن الباي طلب من وزرائه إبداء الرأي في انتخاب العمّال ، وأنّ المترجم أشار بترتيب مشارطة مالية يؤدّونها ممّا يستخلصونه لأنفسهم من الرعايا بعناوين مختلفة (كالضيفة والوهبة) وقبل هذا الراي وتكلّف بتنفيذه الوزير صاحب الطابع ، فأثار ذلك ثائرة العمّال ومن ينتمون إليهم من الوزراء ومنهم الحاج فرج الجوز عامل باجة فعهد إلى ابن أخ له فاتك داعر باغتيال المترجم ، وترصّده عند منصرفه من باردو أمام سيدي عبد الله الشريف وأطلق عليه الرصاص وحمل مغشيا عليه دون أن يصاب منه مقتل ، فعظم ذلك عند الباي وأمر بحمل الجاني إلى المصاب وتحكيمه فيه — وكان موتورا بألم الجرح — فأمر بكسر يديه ورجليه وإلقائه ببطحاء القصبة حتى يموت ، ففعل به ذلك بمطارق الحدادين وألقي بالبطحاء إلى أن رقّ له جندي تركي فأجهز عليه . وندم الباي على ذلك ، فلمّا برىء الشيخ وعاد إلى باردو غضّ من جانبه ، وحدّ من نفوذه حتى زوحم في قلم الترسيل بغيره . وذكر السنوسي في ترجمته **بمجمع الدواوين** أنّه أصيب بسقوط في رجله من جرّاء ما ذكر ، قضى في معاناته بقية عمره ، ولاشكّ أنّه

(1) ابن ابي الضياف 3 : 15.

(2) ابن ابي الضياف 3 : 15.

ذهب ضحية مؤامرة خسيسة من الوزراء الانتفاعيين كما هو صريح كلام ابن أبي الضياف ، وهو مظلوم في ذلك لأنّه إنّما كان صاحب رأي أمام ملك مطلق ، إلاّ أنه تجاوز الحدّ في العقوبة بالتمثيل والتعذيب — وكان ذلك مألوفا عند ملوك الإطلاق — ولئن كان قاسيا في الحكم فالمسؤولية عمّن حكّمه أشدّ (1) ، ومهما كان الأمر فان مدّته لم تطل بعد هذا الحادث حيث توفيّ خلال سنة 1202 هـ 1788 م — غفر الله له — .

قال ابن أبي الضياف : وأعقب ابنا — اسمه محمد — أباد تراث أبيه في قليل من المدة بمذاهب الترف ، وباع الربع والعقار ، وخرج بالبيع من الدار . ولله عاقبة الأمور (2) .

(1) النيفر 2 : 59.

(2) ابن ابي الضياف 7 : 24.

ج ـ التعريف بالكتاب

هذا الكتاب من نوع تواريخ السير المحدّدة الموضوع ، وهو إيراد أخبار وشواهد عن حياة شخص أو دولة ، مدعّم ذلك بعرض الأعمال وتعداد المزايا والمناقب ، وأكثر ما يعنى به في هذا النوع تجسيم الأعمال وتكثير المناقب دعاية لفائدة ذلك الشخص وتمكين نفوذه ـ شأن الصحف والنشريات والإذاعات والوسائل الإعلامية التي تقوم بتلك المهمّة اليوم .

وإذا أردنا تمثيل هذا النوع وإلتماس أوّليته فإنّا نجد ذلك ـ إن صحّ التمثيل ـ في **السيرة النبوية** التي جمعت التاريخ والمغازي والشمائل وأعلام النبوة وحقوقها وغير ذلك من المواضيع التي يشملها مدلول السيرة ، وقد توارد عليها المؤلّفون فمن مخصّص ومن معمّم حتى صارت تآليفها المعروفة تعدّ بالمئات ـ وربّما بلغت الآلاف ـ ثم سير الخلفاء الأربعة التي كتب فيها قديما وحديثا ـ بين إفراد وجمع ـ عدد لا يحصّى من المؤلّفين ، وهناك من تجاوز الأربعة إلى غيرهم كابن الجوزي (المتوفّى سنة 597) الذي عدّ في مؤلّفاته **سيرتا العمرين** وكلتاهما مطبوعة ، والمجد الطبري (694) في **فضائل العشرة** وهو مطبوع أيضا .

أما سير الملوك وتواريخها فهناك الكثرة التي لا تستقصى لإيعازهم بوضعها وحاجتهم إلى بثها في الناس ، وهي إمّا موضوعة للدعاية ، أو لتخصيص ملك بتاريخ يخصّه في المناقب أو المثالب .

ومن الثاني كتاب أبي عبد الله اليزيدي (313) في **أخبار يزيد بن معاوية** وكتاب أحمد بن عربشاه (854) **عجائب المقدور في أخبار تيمور** وهو مطبوع .

والأعم الغالب من هذا النوع موضوع في التمجيد وتجسيم المناقب وبثّ الدعايات ، ومن أقدمه **التاريخ التاجي** — ومنه اقتبس المؤلف التسمية — وقد كتبه إمام الكتّاب أبو إسحاق الصابي (384) لعضد لدولة ابن بويه — وكاد يأتي على نفسه تحت أرجل الفيلة حيث نمي إلى الملك أنّ سائلا سأله عمّا يفعل ؟ فقال : أباطيل أنمّقها وأكاذيب ألفّقها ! (1) .

وتوالت السير مع الزمان في كلّ عصر ودولة : بتخصيص ملك وحده ، أو مع آله ، أو قرنه بنظيره ، فالأول : **كسيرة أحمد بن طولون** لابن الداية (334) **وسيرة المستنصر** لابن الساعي (674) **والملك الناصر** للقاضي الفاضل (596) **والنوادر السلطانية** — في صلاح الدين الأيوبي — لابن شداد (632) .

والثاني : **كتواريخ آل عباس** للصولي (243) **وآل سبكتكين** لأبي الفضل البيهقي (470) **وآل سلجوق** لابن القفطي (646) **وآل عثمان** لغير واحد .

والثالث : **كالروضتين** لأبي شامة (665) في تاريخ الدولتين النورية والصلاحية .

ويستطرد — في تاريخ مغربنا العربي — أنّه يوجد **تاريخ الدولتين** للزركشي التونسي (894) لكنّه ليس كسابقه في اختصاصه بدولتي

(1) الثعالبي 2 : 245.

نور الدين الشهيد وصلاح الدين الأيوبي خاصة ، بل تناول تاريخ الدولتين الموحدية بالمغرب والحفصية بتونس وأخبارهما على السنين من أولهما إلى زمان المؤلف ، شأن من كتب في مثل ذلك كابن الصيرفي الغرناطي (557) في **تاريخ لمتونة** ، وابن صاحب الصلاة (594) في دولة الموحدين **المنّ بالإمامة** ، وابن قنفذ القسنطيني (809) في **الفارسية** — نسبة إلى أبي فارس عبد العزيز الحفصي — فهؤلاء كلهم تناولوا تاريخ الدولة متسلسلا من أولها إلى المقصود بالذكر منها ، ودوّنوا التاريخ بوجه عام .

منهج ابن عبد العزيز وأسلوبه :

لكنّ هذا **التاريخ الباشي** مباين لجميع ما ذكر ، ومؤلّفه في أسلوبه مبتكر ، فهو قد ساق الخبر عن أوّلية مخدومه وبيعته والأحداث التي تلتها حتى أفضى إلى تدوين سيرته الشخصية فوضع لها مقدمة نفسيّة نفيسة هي — وإن كانت مستقاة من **الإحياء** للغزالي — لكنه رتّب فيها وجوّد ، وبنى الأخلاق على قوتي الشهوة والغضب وقيام قوة العقل كالحاكمة بينهما ، وردّ إليها سائر الأخلاق — عالية وسافلة — باعتبار التوسّط والتطرّف ثم طبّقها على صاحبه من طريق أعماله وتصرّفاته الصادرة عنه ، وفي هذا صنع كبير له موقع ممتاز في سياقة الأخبار ليس كمن يرصفها رصفا بدون علاقة ولا نظام ، وزاد على ذلك الشواهد الأدبية بإثبات القصائد الطوال التي قيلت في مناسباتها ، فكان في آن واحد — مصدرا للتاريخ وديوانا للأدب في جيل كامل ، فضرب بسهمين ، وحفظ ثروتين ، وأضاف إليهما ثروة أخرى من قلمه البليغ وأسلوبه في التدوين .

وكان بذوقه الأدبي يرتّب ما يورده من القصائد وينتقدها في بعض الأحيان نقدا محكما . وممّا ينتقد عليه إيراد بعض القطع الهزيلة

التي لا تعدّ من الشعر لما فيها من قصور ملحوظ في الصناعة وإسراف في الملق إلى حد التغزّل في قلفة الختان ، وهو شاعر بمستواها لأنّه ينعت بعضها بالغثاثة وبعضها بالتكلّف ، وأهمل ما هو خير منها ، ويكاد يعترف بهذا الخلل ، فإنّه لمّا ساق عددا من القصائد فيما زعم أنّه فتح لوسلات أعقبها بقوله : « وبقيت ههنا أشعار كثيرة أضربنا عن ذكرها لعدم بلاغتها وعدم نباهة قائلها » فمعيار الاختيار عنده أمران : البلاغة حسب ذوقه ، ونباهة القائل . ومدلول النباهة ما يرادف الشهرة والتعيّن ، ومن مسوّغات الاختيار عنده أن يكون القائل نابها مذكورا في الأعيان ، وبهذه الضابطة أضرب عن جانب لا يستهان به من الأدب التونسي نضب عنّا معنيه ، وضاع ثمينه .

وقال في مناسبة إبطال الخمر : « فلم يبق شاعر ولا ناثر إلا مدحه ، وأكثروا من عمل القصائد والمقامات فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ، ونحن نورد في كتابنا هذا ما وقع عليه الاختيار » لكنه لم يأت إلاّ بمقامتين له وللورغي وأهمل الكثرة التي نوّه بها .

وطردا للموضوع أوردنا هنا — كعينة لما أهمله — قصيدة للشيخ مَحمد ماضور (1226) طالعها :

طمحت بآمالي إلى المطمح الأسمى
فأبرز توقيع النجاح بها رسما

ومن وضع الآمال موضعها فلا
يخاف من الأيّام ظلما ولا هضما

فما كلّ مقصود الجناب رحيبه
ولا كلّ نور فاح يستأهل الشمّا

ونجم الثريا لا كنجم الثرى ، وهل
تغرّ أخا لُبٍّ مطابقة الأسما ؟

وفي الناس من يسمى الجوادَ وإنّما
على حسب المقدار كلّ به يسمى

ومن طلب العلياء من منبت العلا
فلا عجب أن أحرز الرتبة الشمّا

ومنها في ذكر الغرض :

وأحيى بجدّ سنة الله وانتضى
حساما يقدّ المنكرات به حسما

وخرّب حانات الخمور وقد قضى
لأمّ الخطايا أن يقلّدها العقما

وشارب ذاك الإثم شتّت شمله
فلست ترى من بعد ذا شاربا إثما

إذا أظهر الله الرشاد لعبده
فلا سعدت سعدى ولا سالمت سلمى

ألا قل لأهل العصر تونس جلّق
وأزكى بني مروان حاكمها الأسمى

وسوف يجد القارىء كثيرا من الشّعر الغثيث ما لا يسمو إلى رتبة هذا المهمل في سبك مبانيه ولا في تداعي معانيه ، ولعلّ فيما أشار إليه من الكثرة ما يمهّد عذره .

وقد انتقد عليه الشيخ ابن أبي الضياف مثل هذا في تاريخه — وكان مولعا بالتنكيت عليه — فقال — معرّضا به بعد أن نقل شعرا للورغي في الباشا علي بن محمد — (2:134) « وإنما ذكرنا هذه الأشعار البليغة وهي منافية لما ذكرناه من الاختصار لأن بعض الأدباء يتزلّف بعدم نقلها » ثم أضاف مصرّحا : « والعجب من ابن عبد العزيز مع ولوعه بالآداب نقل ما دون هذا الشعر بمراتب : اللهم إلاّ أن يقال : إنّ

الغرض في كتابه مدح مخدومه وهو القصد الأول » ولعلّه معذور بانفكاك الموضوعية في مثل ما ذكره المنتقد ، ولو التزمه لخرج الكتاب عن موضوعه الدالة عليه تسميته .

عنايته بالأدب :

لاشك أنّ من بواعث همّة المؤلف على وضع هذا الكتاب المحافظة على أدب عصره ، وقد لمّح إلى ذلك في مقدمته بقوله : « ولأنّ الشعر في زماننا – لعدم تدوينه ، وترك روايته وتلقينه – لا يطول له أمد ، ولا يبقى به ذكر إلى الأبد ، بخلاف التدوين في الكتب ، فإنّه سبب لبقاء الذكر لآخر الحقب » .

وقد ذكر عرضا في الفصل الذي وضعه عن حضارة تونس وتطوّرها مع الدول – وهو الذي جعله كالمقدمة للقسم التاريخي من كتابه – أنّه وضع كتابه سنة 1190 هـ وهي من أخريات مدة صاحبه ، وفي هذا الحين ، خفّ من مجمع الشعراء القطين ، وانتقل غالبهم إلى دار القرار المكين ، خصوصا فرسا رهانهم ، وحدقتا زمانهم – علي الغراب (1183) ومحمد الورغي (1190) وسبقهما أحمد الأصرم وأحمد سمية (ولم تؤرّخ وفاتهما المصادر) وقد شاخ الممدوح ، وآذنه الهرم بالنزوح ، وتوقع المؤلّف ضياع ما قيل فيه ، بعد تولّيه ، فانتدب نفسه لحفظ رسومه ، تحت ظل تخليد ذكر مخدومه ، وهو لعمري غرض شريف ، يسجّله له بالشكر من وقف على هذا التأليف .

مصادره :

لما كان موضوع الكتاب خاصّا بتدوين تاريخ مصاحب لزمن التأليف ، والمؤلف متّصل بمجرى الحوادث مباشرة – بسبب تقلّده رئاسة ديوان الإنشاء – فلا جرم أن يكون اعتماده في تسجيل الأحداث

على المشاهدة والعيان ، وعبارته التي يسوق بها الحوادث تقتضي ذلك بالتصريح تارة والمفهوم أخرى ، وقد ينقل عن الأشخاص الذين لابسوا الوقائع واتّصلوا بها ، وقد ينقل عن الباي نفسه في حروبه وسياسته وإجراءاته وخصوصياته – حضرا وسفرا قبل الملك وبعده – ويأتي بنصوص كاملة لرسائل ومخاطبات ومناظرات وإجازات وأوامر بألفاظها ، فهو من هذه الناحية بالغ الأهميّة ، دقيق الملاحظة منسجم الترتيب ، مع سيلان القلم وبراعة الأسلوب واستقلال النظريات ، هذا بالنسبة لما يتّصل بحياة مخدومه الذي هو السبب الهادف لوضع الكتاب ، أمّا ما سبق عصره من تاريخ الترك فتصرّفه فيه بالتلخيص من غير عزو للمصادر إلاّ ما قلّ وندر ، ويبدو أنه معتمد في ذلك على تاريخي محمد الوزير السرّاج **الحلل السندسية** وحسين خوجة الترجمان **بشائر أهل الأيمان** أكثر من سواهما ، وفي التاريخ الحفصي يساوق ابن خلدون في أوّله ، والزركشي وابن أبي دينار في الباقي ، ونقل في مقارنة بعض الحوادث عن ابن خلّكان ، وفي النقد الأدبي عن **زاد المسافر** لأبي بحر صفوان بن إدريس ، وعن **لمح السحر من روح الشعر** لأبي عثمان التجيبي ، وفي **التعاليل الفقهية** عن الحلبي محشّي **الدرر في الفقه الحنفي** ، إلى غير ذلك من المصادر .

ولكن ما جاء من هذا النوع في نقله ، أقلّ بكثير من مشهود العيان أو المسند إلى أهله .

أصول الكتاب وترتيبه :

مخطوطات الكتاب عديدة بالخزائن العامة والخاصة ، نذكر منها بالأخص ما إتّصل بالتحقيق :

(أ) نسخة المكتبة الوطنية بتونس (رقم 31 م) وهي حديثة النسخ – سنة 1294 هـ . جميلة الخط حسنة الوضع بيد أنّها لا تخلو عن خطإ وتصحيف سيما في الشعر ، وهي الأصل المعتمد في التحقيق .

(2) نسخة الزيتونة ، وهي أقدم النسخ تاريخا وعليها تمليك وملحوظات للأمير إسماعيل ابن الباي محمد الرشيد وتوقيفات لأفراد من العلماء المعروفين ، لكنها مشحونة بالأغاليط ، وكنت انتسخت عنها نسختي الخاصة سنة 1945 ، وبها وقعت المعارضة لتعذر مراجعة أصلها بسبب حركة التحويل والتنظيم .

(3) نسخة المغفور له الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب المعارضة بنسخة مرقونة منها ، وهي نسخة حسنة كانت من ممتلكات الشيخ محمد الأصرم باش كاتب وعليها تمليك لحفيده بالهبة سنة 1272 — وقد أحيلت بوفاة صاحبها على المكتبة الوطنية أيضا وما تزال في دور التنظيم .

(4) كان حضرة الأستاذ الرئيس المدير العام للدار التونسية للنشر اعتنى — في رحلته إلى المغرب الشقيق — بتصوير نسخة رابعة من الخزنة العامة بالرباط رقم (2265 ك) كانت من مشمولات المكتبة الكتانية ، وهي بخط المرحوم المنوبي الفراتي التونسي مؤرّخ ختامها بسنة 1320 هـ .

ومن حسن الحظّ أن كان بعض هذه النسخ يكمل بعضا في كثير من الأحيان ، وأفدنا من اجتماعها ومن توفّر المراجع ما يضمن الصحة بقدر الإمكان .

ومن الغريب أنّه رغم تواطؤ هذه النسخ على الأخطاء الواضحة لا تتّفق في ترتيب أقسام الكتاب فيحتمل أنّ المؤلف أخرج كتابه أجزاء ، فتعاورها النسّاخ ، — على حسب الدواعي — بالتقديم والتأخير (لا بتغيير النصوص) فنسخة الأصل تقدم فصل السيرة الشخصية بمقدّماته وتقاسيمه إلى نهاية مقامة الورغي الخمرية — على الأحداث التي تأتي مسلسلة الى ثورة الدعيّ عثمان الحداد ومنْها يستطرد التاريخ الحفصي وتذييله برأي ابن خلدون ثم ما كتبه المؤلّف

كمقدّمة للقسم التاريخي عن حضارة تونس وتطوّرها ثم دولة الترك ومن تداولها من دايات وبايات إلى الدور الحسيني وما تلاه من الثورة الباشية بغاية التحرير والضبط مع الاختصار والإفادة . وترتيب هذه النسخة هو الحامل على اعتمادها أصلا لمساعدته على تقسيم الكتاب إلى جزئين متكافئين : جزء خاص بسيرة الباي الموضوع فيه الكتاب ، وجزء في التاريخ .

وبقية النسخ تأتي بتاريخ الباي موصولا إلى الثورة الحدادية ثم تعرض للتاريخ الحفصي فالتركي وتختم بفصل السيرة الشخصية . وقد رمزنا بحرف (ز) إلى النسخة الزيتونية ، وحرف (ح) إلى نسخة الأستاذ حسن ، وبحرف (م) إلى النسخة المغربية فيما كانت فيه مخالفتها للأصل محل نظر ، وأثبتنا الصواب المتعيّن دون تعليق ، وبالله التوفيق .

الكتاب الباشي

الجزء الأول

قسم السيرة

بسم الله الرحمن الرحيم   صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وسلم

الحمد لله مؤيد من قام بنصرة دينه، ومسدد من احسن السيرة بنصحه وتمكينه، ومشيد
اركان الدولة بحفظ نظام العالم من الخلل، وجاعل العدل دليلا على ثبات الدولة وبقائها
والحلم سبيلا الى ظهورها على الاعداء وارتقائها، نحمده سبحانه وتعالى اذ لم يجعلنا
من سمات عدل دينه، ولم يهملنا من كامل نعم كفايته وعنايته، ونشكره جل وعز على ان قلد
اعناقنا من نعمه حليا، وبلغنا من افضل ملكه مكانا عليا والصلاة والسلام على سيدنا
ومولانا محمد الذي بعثه ليتمم مكارم الاخلاق وبين من اداب السياسة ودقائق الاحكام
بدينها بيسر الله عمالة وحمل الناس على المحجة البيضاء، وهداهم الى الحنيفية السمحاء صلى
الله عليه وعلى آله وصحبه الائمة الاعلام الذين هاجروا تبعا منهم وحاموا في الله حوزة الاسلام
وعلى من اقتفى آثارهم بحذافيرها الى يوم القيام، وبعد فان الله تعالى جلت حكمته
وعمت كلمته، حكم بالغة في عباده لا يعقلها الا الذين اوتوا العلم، والطافا سابغة
لا يقدر قدرها الا من اوتي حكما وادب الفهم، ومن حكمه التامة والطافه العامة ان
اقام لكل زمان من يقيم اوده، ويشد عضده، ويلم شعثه وينهض بكلكله، ويبين للخلق
طرق رشادهم، ويبسط عليهم امن معاشهم ومعادهم، من ملك امام لا يذهب كل امانة
وابلاغ عليهم ظلال عدله واحسانه، وانتصب من دونهم لضعيفهم، وسوى بين القوي
وضعيفهم، وشد بهم بازارا، صرفت نصاله بنفثات من الجسر اوصالا، وسياسة ذلك
كل صعب، ووضعت الهناء مواضع النقب، ارعاه ربع للدين منارا ورفع من الطهر
الحمار ليوم يعد الى الله على صراط مستقيم، واستنقذ خلائق من سوء الجحيم بعارض
قطعا على كاهل الروم مصارعه، ووجه للكفر هلاكا كالصباح المتبلج، وبراهين على الحق
اعلامها، وعيون يتفتح لنظر الدين انامها، وعجائب امتثالا زوار عباده تدبيره وهمته

بداية المخطوط أ ورقة 1 ب



نهاية المخطوط أ ورقة 255 أ

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وسلم [1 — ب]

الحمد لله مؤيد من قام بنصرة دينه ، ومميدّ من أحسن السيرة بنصره وتمكينه ، ومُشيِّد أركان الدول ، لحفظ نظام العالم عن الخَلَل ، وجاعل العدل دليلا على ثبات الدولة وبقائها ، والحلم سبيلا إلى ظهورها على الأعداء وارتقائها ، نحمده — سبحانه وتعالى — إذ لم يُغْفِلنا من سِمات عنايته ، فلم يُهملنا من كافل يحوطنا برعايته ، ونشكره — جل وعز — على أن قلد أعناقنا مِن نِعَمه حُلِيّاً ، فأقام لنا من أنفسنا مَلِكا «عَلِيّاً» ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذي بعثه لِيُتِمّ مكارم الأخلاق ، فأتى من آداب السياسة ودقائق الأحكام بنفائس الأعلاق ، وحمل الناس على المحجَّة البيضاء ، وهداهم إلى الحَنيفيَّة السمحاء ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الأيمة الأعلام ، الذين حاطوا بقيامهم في أمر الله حَوْزة الإسلام ، وعلى من اقتفى أثَرَهُم في ذلك إلى يوم القيام .

وبعد : فإنّ لله تعلى جلّت حكمته ، وعلَت كلمته ، حِكَما بالغة في عباده لا يعقلها إلا الراسخون في العلم ، وألطافا سابغة (1) لا يقدرها قدرَها

(1) ز، ح : سابغة، م : والطافه السابقة.

إلا من أوتِيَ حظًا وافرا من الفهم . ومن حِكَمِه التامّة ، وألطافه العامّة ، أن أقام لكل زمان من يُقيم أوَدَه ، ويَشُدّ عَضُدَه ، ويُحلّي عاطِلَه ، ويُجلي باطِلَه ، ويُبيِّن للخَلْق طُرُق رشادهم ، ويحفَظ عليهم أمر معاشهم ومَعادهم — من مَلِك أنام الأنام في ظِلّ أمانه ، وأفاض عليهم سِجال مَعْدَلته وإحسانه ، وانتصف من قويّهم لضعيفهم ، وسوّى في الحق بين وضيعهم وشريفهم ، بآراء سُدِّدَتْ نِصالاً ، فقطعت من المُفسدين أوصالاً ، وسياسة ذلَّلَتْ كلَّ صَعْب ، ووضعت الهِنَاء مَوَاضِعَ النَّقب (1) — أو عالم رفع للدين منارا ، وقمع من الملحدين أغمارا ، ودعا إلى الله على صراط مستقيم ، واستنقذ خلائق من سواء الجحيم ، بمعارف ، خلعها على كاهل الدهر مطارف ، (2) وحجَج ، أظهرها كالصباح المنبلج ، وبراهينَ على الحق أقامها ، وعيون تيقظت لِنَقْض الدين أنامها — أو عابد لاحت أنوار عبادته في دُهْمة / الليالي غُرَرًا وأحجالا ، وأزاحت سِهامُ أدْعِيَتِه عن الأمة [2 — أ]
ضررا وأوجالا — إلى غير هؤلاء مِمَّن تزدان به الدنيا ، وتبتهج به العَلْيا :

فَكُلٌّ أوانٍ فيه أعلامُ فَضْلِه ترادُفَ مَوْجِ البَحْرِ رَدًّا إلَى رَدّ

ثمَّ قَيَّض الله — سبحانه وتعالى — لكلّ مَكْرُمة من مكارمهم من ينشرها ، ولكل مَأْثُرة من يُبْديها على صفحات الأيام ويُشْهِرُها من شاعر ينظمها في لَبَّة الدهر عُقودا ، ويبديها زَهْرا بالقلوب معقودا — أو كاتب ينثُرها انتثار الكواكب على صفحة السماء ، والأزهار أحاطت بِضَفَّتَي الماء — أو مُصَنِّف يضُمّها من دفاتره إلى صِوان (3) ، تُجْتَنَى منه غَضَّة في كل أوان ، فلم يزالوا بذلك أحياء في الناس وإن ماتوا ، ولم يَفُت التخلّق بأخلاقهم الحميدة وإن فاتوا .

---

(1) تضمين من بيت دريد بن الصمة السائر سير الامثال :
مبتذلا تبدو محاسنه يضع الهناء مواضع النقب
— انظر **اللسان** : ن ق ب .
(2) جمع مطرف كمنبر رداء الخز، وفي الاصل مصارف ولا معنى لـه.
(3) ز : ديـــوان .

جَمالَ ذي الأرضِ كانوا في الحياةِ وهُم
بَعْدَ المَماتِ جمالُ الكُتْبِ والسِّيَرِ

وقد بعث — جلّ وعلا — في هذا العصر من الأمير الأجل المعظم الأعلى أبي الحسن الباشا عليّ باي ابن الأمير الأرْضَى المُقَدَّس المُطهَّر المرحوم حُسَين باي بن عليّ أمير المملكة الافريقية وعميدها ، القائم بتوطيدها وتمهيدها ، أدام الله تعلى دَوْلَتَه ، ومكّن من أعدائه صَوْلَتَه ، من صَيَّر ظُلْمَتَه نورا ، ونَكَدَه حُبورا ، وطاسِمَه مَعْلَما ، وغُفْلَه مُعْلَمًا ، ولَيالِيَه ثغورا بَواسِم ، وأيامه أعيادا ومَواسم ، ومسرّاتِه متتابعة ، والأمانِيّ به بعد تَعاصيها طائعة ، وألْحقَه مِنْ فَخرِه بِمَطارف سابغة ، وأتْحفه من برّه بعوارِفَ سائغة ، وأعاد كساد فضائله إلى النَّفاق ، وأباد فَساد الغوائل به والنِّفاق ، فالأيام ذاتُ بَهْجة وابتسام ، والدنيا عليها تَحيَّة وسلام ، ناهيك من مَلِكٍ أعطته السِّياسة قِيادَها ، وأمْطَتْه الرِّئاسَة جِيادَها ، فقلَّد الأعناق أطواق رَغائبه ، وخلّد على جَبْهة الدهر عيونَ غرائبه ، قَصَر أيّامه على ظلامة يزيلها ، ومَبَرَّة ينيلها ، وعَثْرة يُقيلها ، وعَطّل لياليَه إلا من دقائق مَعانِي يُبديها ، وجلائل نِعَم يُسْديها ، ونَوافِل طاعات إلى صَحيفتِه يُهْديها ، أتاح الله به صَلاحَ الأمَم ، وإيضاحَ الأمَم ، وأزاح به عن عباده الغُمَم ، واستودعه من المجد صَريحه ولُبَابه ، ومن الجود تَيّاره وعُبَابَه ، فاتَّسَقَتْ به الأحوال وانتظمت ، وانشقّت به الأهوال وانفصمت ، فالقلوب على تأميله مُفْتَرِقة متخالفة ، وعلى محبته وطاعته متفقة مُتَحالِفة ، وهو أعزّه الله تعلى — لِعِظَم فخامته ، وجلالَته في القلوب وضخامته — وإنْ أكْثَرَ شعراءُ دولته ، وأدباء حضرته ، الراضعون أخْلافَها ، الرافضون خِلافَها ، المُتَفَيِّئُون ظِلالَها ،
[2 — ب] الراتعون / خِلالَها ، وغيرهم مِمَّن انتابها من الآفاق ، واجتابها في الرِّفاق ، لاحْتلاب دَرِّها ، [واجتلاب دُرِّها] (1) . وانتجاع غَيْثها ، والامتناع بِلَيْثها ، من مَدائحه التي أطلعوها في سماء المحامد شُموسا ، وأداروا بها

---

(1) الزيادة بغير الاصل.

على الألباب كؤوسا – إلا أن خلاله المنيفة، وأخلاقه الشريفة، يضيق عنها نطاق الشعر، ويغصّ بها فضاء النثر، وتقتضي أن تخلّد، في ألف مجلّد، لِما أن التنصيص على جزئيات المكارم مِمّا لا تفي به الخطب والأشعار، ولا تحمله إلاّ بطون الأسفار، ولأن الشعر في زماننا هذا – لعدم الاعتناء بتدوينه، وترك روايته وتلقينه – لا يطول له أمد، ولا يبقى به ذكر إلى الأبد، بخلاف [التدوين] (1) في الكتب، فإنه سبب بقاء الذكر لآخر الحقب، ولأن الشاعر وإن تحرّى الصدق جهده، وأتى بما هو الحقّ عنده، فهو منسوب إلى المبالغة، التي هي في حقه سائغة، بخلاف المصنّف الثقة، المعروف بحسن الطريقة، فكل ما يأتي به محمول على الحقيقة. ولمّا لم تطمح همة أحد لتدوينها، وتحلية الدنيا بها وتزيينها، هممت أن أكون سابق هذه الحلبة، ومحلّي هذه اللبّة، بوضع تاريخ لهذه الدولة الحسينية أبقاها الله تعالى ما دامت السموات والأرض، ولا حلّ عقد لوائها إلى يوم العرض، يشتمل على بيان ابتداء ملكهم، وانتظام البلاد في سلكهم، وأذكر فيه أخبار والده المقدس سقى الله ثراه شآبيب رضوانه، وتغمّده بمغفرته وإحسانه، وكيف تقلّد ملك الإيالة الإفريقيّة وسلطانها، وعمّر بالهداية أوطانها، وأنبّه على طرف من مناقبه التي لا تحصر ولا تحصى، وتمتنع عمّن يروم لها استقصا، وأخبار أخيه الملك الأفخم، والسلطان الأعظم، مولانا محمد باي أحلّه الله فراديس الجنان، وتابع على روحه الزكية سحائب الغفران، فهو الذي تزينت به الدنيا وتحلّت، وبحيث شاءت من العلياء حلّت، وأذكر ما تخلّل من بينهما من أخبار ابن عمّه. عليّ باشا ابن محمد باي ابن عليّ رحمه الله تعلى وتغلّبه على المملكة بقهره، وكيف آلت به الحال في آخر أمره، ثم أستقصي ما اطّلعت عليه من أخبار مولانا – أيده الله تعالى – التي بهرت، وارتفعت ارتفاع شمس الظهيرة وظهرت، وأنبّه على ما آتاه الله من كلّيات الفضائل وأصولها، ومحاسن آثاره الصادرة عنها من جزئيّات المكارم وفصولها، فنظرت فإذا هذا المطلب

(1) الزيادة بغير الاصل.

يستدعي من الفراغ، ما ليس له مساغ، ويقتضي اتّساع مجال، وتتبّع الأخبار من أفواه الرجال، إذ هي لم تدوّن بعد، ولا تعرّض / أحد [3 – أ]
لنظمها في عقد، إلا ما ألمّ به الأديب أبو عبد الله محمد الوزير السرّاج (1) في تاريخه المسمى «بالحلل السندسيّة في الأخبار التونسية» من التعرض لدولة والده رحمه الله، بلغ فيه إلى سنة أربع وأربعين ومائة وألف – غير أن الجزء الرابع أحرقه علي باشا لما اشتمل عليه من الغضّ عنه في قيامه على عمه بجبل وسلات فلا يوجد منه الآن عين ولا أثر، ومبدؤه من سنة سبع وثلاثين – وإلاّ ما ألمع به أبو عبد الله حسين خوجة في آخر تعريفه لدولة آل عثمان المسمى «ببشائر أهل الإيمان» من ذكر بعض فضائله – رحمه الله تعالى – ومزاياه، ووجدت شواغل الخدمة تمنعني من ذلك، وتصدني عن الدخول في ضيق تلك المسالك، ورأيت واجب شكر نعمائه التي طوّقتنيها تطويق الحمامة، وأرسلها عليّ من كل جانب إرسال الغمامة، يقتضي أن أقوم بما أخلّ به غيري من هذه الوظيفة، وأن لا يفوتني التحلّي بهذه الحلية الشريفة، فإنه – أيّده الله – قد جذب بضبعي، ورفع من موضعي، ونوّه باسمي بعد خموله، وبلّغني كل ما يبلغه خديم ملك من مأموله، وبوّأني بخدمته ركن رفعة لا يهتدم، وسوّغني بتقريبه جانب عز لا يضام ولا يهتضم، فإذا أنا قد وقعت بين أمرين عظيمين، وتوسطت بين طريقين خطيرين، فأعملت الحيلة في الخلاص، ولات حين مناص، بأن أعرضت عمّا كنت هممت به أوّلا، حيث لم أجد له قبلا.

[منهج المؤلف]

وصرفت القصد إلى الاقتصار على دولة مولاي بالتّصنيف، وجعلت ما أذكره من أخبار غيره كالتابع لها والرّديف، واقتصرت من أخباره على أشهرها، ومن فضائله وكمالاته على أظهرها، ومن مدائحه على ما سار سير

(1) مؤرخ تونسي مفيد في عصره 1149/1736، انظر مخلوف 326.

المثل ، وطلع نيِّرا كالشمس في الحَمَل ، فجاء بحمد الله كتابا حافلا يشتمل عليه القلب ويلتبس بالنّفس ، وسمّيته «بالكتاب الباشي» إضافة للقب مولانا الذي تميّز به ، ونِسْبَةً إلى وصفه الذي انفرد بمعالي رُتَبه ، ولمّا كان هذا الملك الجليل الذي منّ الله به على عباده ، وأقامه لإصلاح ما فسد من بلاده ، قد يسّر الله تعلى من أسباب سعادته ، وهيّأ له من مُوجبات كرامته ، أمورا ستُفصّلُ بعضها — إن شاء الله تعالى — من سَوْق الخيرات إليه ، وتسهيل طُرُقها عليه ، وتمكينه ممن ناواه ، وإصابة غرضه في عِداه ، كل ذلك بأسباب جرت على خلاف المعتاد ، وصنع من الله تعالى لا يَفي به تدبير العباد ، تأملت فإذا ذلك مِصْداق قوله — صلى الله عليه وسلم — لعبد الرحمن بن سَمُرة رضي الله عنه «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة ، فإنك إن / أعطيتها [3 — ب]
عن مسألة وُكِلْتَ إليها وإن أعطيتها عن غير مسألة أُعِنتَ عليها» (1) فإن إمارته — حرس الله ملكه ، ولا فصَم على مر الليالي سِلْكه — كانت بيْعة عقَدَها له أهل العقد والحلّ من العلماء المعتبرين ، والفقهاء المشاورين ، ورؤساء العساكر وكبراء الأجناد ، ووجوه الناس من كل حاضر وباد ، فابتدأت بالكلام على هذه البيْعة المباركة الطاهرة ، وذكرت عقِبها ما تسبب عنها من الأحوال السائرة ، والله تعالى يلهمنا الصواب فيما ننقله ونبتكره ، إنه ولي التوفيق فيما نأتيه ونذره .

ذكر ولايته

— أدام الله تعالى أيامه —

بُويِع — أعزه الله تعالى — يوم الاثنين لأربع عشرة خلت من جمادى الثانية سنة اثنتين وسبعين ومائة وألف 1172/1759 صبيحة الليلة التي توفي فيها أخوه مولانا أبو عبد الله محمد باي — قدس الله روحه — وكان رحمه الله تعالى قد سافر

(1) الحديث بالصحيحين وغيرهما.

بالمَحَلّة في تلك السنة ، ووصل إلى القيروان ، وأقام بها ، ثم ابتدأه المرض في سفره ذلك ، فرحل راجعا إلى تونس ، ومرضه يتزايد ، فدخلها يوم الأحد السادس من جُمادى الثانية ، فمكث ثمانية أيام ، ثم تُوُفّي في التاريخ المذكور على فراشه ، وفي أبّهة ملكه ، بقصره من باردو المعمور موتة تمناها الكثير من أمراء إفريقية فحرموها ، فاتّفقت آراء الجميع على تولية مولانا أبقاه الله تعالى . فأوّل من بايعه الحاضرون من وزراء أخيه ، وأهل دولته ، وفيهم مُفتي حضرته وخطيبه الشيخ الإمام أبو عبد الله حُسين بن إبراهيم البارودي (1) ، ولما نُمِيَ الخبر إلى تونس صباحا هرَعَتْ إليه أفواج الناس على اختلاف طبقاتهم يريدون بيْعته فحضرها أكابر العلماء ، وأهل الديوان ، ورؤساء العساكر ، ووجوه الناس ، فجلس لهم بصحن القصر من باردو المعمور ، وبايعوه بيعة عامة ، ثم وفد عليه أهل كلّ ناحية من المدن والقرى والضواحي(2) من جميع المملكة وقاصيتها بِبَيْعتهم طائعين ، غير مُكْرَهين ، بقلوب صادقة ، ونيّات صحيحة وعزائم ثابتة .

وكان من الاتّفاق الغريب ، وصنع الله العجيب ، الدالّ على صحة عقْد هذه البيعة وثَباتها ، ورسوخ قدمها ، واتّصال سعادتها ، أن اتّفق في أيام مرض مولانا محمد باي — رحمه الله تعالى — وصول قبجي باشا (3) من حضرة الخلافة الخاقانيّة ، ومقرّ السّلْطنة العثمانية ، بفرْمانات التّقليد والخِلَع بوِلايته — رحمه الله تعالى — باشا المملكة الافريقية ، وولاية مولانا — أيده الله تعالى — باي العساكر وأمير المَحالّ المنصورة ومُتَولّي جِباية الأموال من البلاد ، ونزل بجزيرة جربة ، واشتاق مولانا محمّد باي إلى وصوله إليه ، فلم يتهيّأ وصوله إلا / بعد الفراغ من دفنه ، فاستحضر الدّاي وأهل الديوان والأكابر [4 — أ]
وجلس لهم مجلِسا عامّا بصحن قصره ، وجلس الناس على مراتبهم ، وحضر

(1) مؤسس بيت البارودي 1186/1772، وربما حرّف في النطق بالابارودي، انظر ابن ابي الضياف 7 : 32.

(2) ز : والنواحي.

(3) مبعوث سياسي كالسفير.

المُفْتُون ، والقضاة ، والوزراء ، والحَشَم ، وجميع أهل الدولة ، ونُشرت الأعلام وأحْضِر قبجي باشا ، فدخل يشُقّ الصفوف وبيَده الفرمان والخِلْعة ، فسلّم ، وقبّل يد مولانا – أعزه الله تعالى – وجلس في الموضع المُعَدّ لجلوس أمثاله ، بعد أن أخذت من يده الفرمانات والخِلْعة ، وقام لها مولانا قائما على قدميه ، وقام جميع الناس بقيامه تعظيما للأمر ، فلبسها وقُرِىءَ الفرمان الشريف وهم قيّام ، وبعد الفراغ من قراءته ، جلس وجلسوا ، وضربت النوبة ، وأطلقت المدافع ، وحصلت البيعة العامة ثانيا من جميع من حضر . وكان يوما مشهودا – فقوي بذلك أمره ، واشتد عضده – واتّفق له ما لم يتفق لغيره من حصول البيعة من أهل العَقْد والحَلّ ، والتولية من قبل السلطان في وقت واحد ، ولم يُعْهد اتفاق مثل هذا لغيره من ملوك إفريقية ، بل قُصاراهم أن يَسْتَقِلّ أحدهم بالمُلك ببيعة أو غَلَبَة ، ثم يرسل إلى حضرة السلطان يطلب التولية ، فيأتيه التقليد والخِلْعة بعد أن يمكُث في المُلك مدة ، فكان هذا الاتفاق لمولانا من عنوان السعادة ودليل العناية ، وظهر منه – أيّده الله تعالى – من الحزم والثبات في يوم ولايته ، من ترتيب الأمور، وضبط الحصون ، وسد الذّرائع على من تَتَطَرّق إليه تُهْمة الفساد ، وبعث السَّرايا لتأمين السُّبُل وتسكين البلاد ، ما سكن خواطر الناس ، وقوّى قلوبهم ، وزاد في رغبتهم ، وأنساهم موت مَلِكهم الأول :

هَنَاءٌ مَحَا ذَاكَ العَزَاءَ المُقَدَّمَا
فَمَا عَبَسَ المَحْزُونُ حَتَّى تَبَسَّمَا

ومِن سعادته أنه لم يقع شيء في جميع عمله مما جرت العادة بوقوعه في إفريقية عند موت الملوك من الهرج ، ولم تُرَق بسبب ولايته محْجَمَةٌ من دم كما قال كاتبه صاحبنا أبو عبد الله محمد الدرناوي [من جملة قصيدة يمدحه بها] :

يَكْفِيه عِزّاً أنّ أهْلَ بِلادِهِ   قَدْ بايَعُوهُ ولَمْ يُسَلّ حُسَامُ

وأقر وزراء أخيه ، وقُوّاده ، وعُمّاله ، وجميع أرباب الوظائف على مراتبهم ووظائفهم لم يغيّر أحدا منهم عن مكانه ، ولا أخّره عن مرتبته ، فاستُحْسِن ذلك منه ، وعُدّ مِن تَمام عقله وحُسْن تدبيره .

ذكر ثورة اسماعيل بن يونس باى
ابن على باشا

اعلم أن الله تعالى قد عقَد هذه البَيْعة المباركة بكل خَيْر ، ورتّب عليها من الصُّنْع الجميل ما دَفَعَ به كلّ ضَيْر ، فَمِن ذلك ما اتفق بإثْرها من قيام إسماعيل المذكور ، وخُروجِه من طرابلس ، والتِفَاف كثير من الأعراب وغيرهم عليه ، واستقراره بجمّال وما وقع بها ، وانتقاله بعد ذلك إلى جبل وِسْلات ، وما وقع في ذلك / [4 – ب] من الصَّنيع الذي لم يخطر ببال أحد ولا وقع في حُسْبانه ، من خَلاء الجبل وجَلاء أهله منه ، وخَضْد شوكتهم ، واستئصال شَأفة غائِلتهم – وهم أمنع من عقاب لُوح الجوّ – وقد كان جبلهم شَجًى في صَدْر مُلْك افريقية لا يُنْتَزَع ، وغُصّة في قلبه لا تَرْتَفع ، طالما أقاموا سُوق الفِتْنة على ساقها ، وسَعَوْا في قَلْب الدُّوَل وفسادها .

وتفصيل ذلك : أن إسماعيل المذكور لمّا ثار أبوه يُونس باي في قَصَبة تونس على والده عليّ باشا ولم يتم له أمر ، وخرج هاربا منها إلى الغرب ، واستقر بقُسَنْطينة في قَضِيّة طويلة سيأتي الكلام عليها – إن شاء الله تعالى ، فمن ذلك التاريخ سُجِن هو وأخواه أحمد ومصطفى بدار سكناهم ، ومُنِعوا من الخروج والتصرف ، وبَقُوا على تلك الحال إلى أن استَقَرّ رِكاب موالينا العالي بتونس يوم الخميس لخمس خلون من ذي الحجة سنة تسع وستين (1169/1756) وقبض على علي باشا وقُتِل ابنه محمد ذلك اليوم وتفرّق إخوته وأولاده . وكان إسماعيل ممن فرّ – ولم يكن قبل يخرج للناس قبل

سجنه لصغره فلم يكن معروفا عندهم — ولم يدر أين يتوجه . فأتى مقام الشيخ الأستاذ الأكبر أبي سعيد الباجي — رضي الله عنه — بجبل المَنَارة بمرسى قرطاجنة ، فوجد جماعة من المنهزمين فرّوا بأنفسهم فلم يعرفوه ، فأقام معهم ليلتين أو ثلاثا ، ثم أسر إلى رجل منهم من زُواوة اسمه محمد بخبره وعرفه بنفسه — وكانت فيه نجدة — فأشار عليه بالهروب ، ووعده أن يبلغه إلى حيث يأمن على نفسه ، فأجابه إلى ذلك وانطلق به من مقام الشيخ المذكور ، فدخلا تونس من باب الخضراء ، وخرجا من باب عليوه ، وانتهيا إلى بلد سُلَيمان فباتا بها ليلتهما ، وأقاما بها من الغد — لما أصابه من التعب — ثم اكترى له حمارا إلى الحمامات ، ولم يزل يتنقل به من بلد إلى بلد ، إلى أن بلغا إلى صَفاقُس فدخلاها — ومولانا أيده الله تعالى بها — لأنه كان قد خرج إليها بعد ثلاث من دخوله تونس لسبب اقتضى ذلك ، وخرجا منها إلى بعض القرى ، وركبا البحر إلى جربة ، ومنها خرجا إلى جِرْجيس ، فلما حصلا بها ارْتاب آغة بُرْج جِرْجيس لمكانهما ومنعهما الخروج منها ، فنازعه بعض من زواوة الذين معه — انتصاراً لمحمد الزواوي المذكور — فأبى الآغة إلا منعهما وطال بينهما الخلاف في ذلك ، فوردت عليهم سَرِيَّة خيل من بني شِبْل فوجدوهم متنازعين فعاتبوا الآغة وقالوا له : تريد أن تُحَجِّر البَرّ الواسع ؟ ! فلان لهم . وأطلقوهما من يده .

[التجاء اسماعيل الى طرابلس]

وسارا فبلغا إلى بيوت أولاد ابن مريم وهم عرب أهل خيام من ذوي العفاف والخير ، يُطْعِمون الطعام ، وتقصدهم الضيوف ، ولهم بتلك البلاد اسم وشهرة فنزلا بهم . قال محمد الزواوي : فطلبت منهم حِنّاء (1) لأكبس بها رجليه لِما أصابه / من ألم المشي حتى تورّمت قدماه ، قال : فبنوا لنا بيتا [5 — أ]
من شَعَر ، وقالوا لي : قم بسيدك إلى ذلك البيت فعلمت أنهم عرفوه : قال فدخلنا البيت فوجدناهم قد وضعوا به ثيابا هيئوها للبس فلبسناها وبتنا عندهم .

(1) في ح، م، خفشا.

فلما كان الصباح أتونا بفرس وبعير ، وقالوا ارْكَبْ أنت البعير ، ولْيَرْكَبْ صاحبك الفرس ، واعذرانا فإن خيلنا غير حاضرة . وبعثوا معنا من يهدينا الطريق ويُجِيزنا إلى طَرَابُلس . فسرنا إلى أن انْتَهينا إلى الزاوية الغربية من عمل طرابلس ، فدخلناها وجلس إلينا جماعة من أهلها لا يعرفوننا . فقال أحدهم للآخر : هل بلغك أن ابن يونس باي فر من تونس ودخل هذه البلاد ؟ فقال له : من أين لك ذلك ؟ قال له : هذا خبر صحيح ، وقد دخل هذه البلاد أمس أو اليوم ! قال : فتعجبت من ذلك ، وخرجنا حتى وصلنا إلى طُرَّة بظاهر طرابلس . فنزلنا بها ، وسلمنا الفرس والبعير إلى أصحابهما ، وفارقونا من هناك راجعين ، وأمرني أن أدخل البلد وآتيه بدواة وقرطاس ، فذهبت وأتيته بهما وهو بمكانه ذلك . فكتب كتابا إلى صاحب طرابلس أبي الحسن علي باشا ابن محمد باشا ابن أحمد باشا قرمانلِّي يخبره فيه بنفسه ، وأعطاني الكتاب فذهبت به إلى الكيخية (1) فأوصله إلى الباشا . فلما علم به أرسل إليه أناسا ومعهم مركوب ، وأمرهم أن يتلقوه ولا يعلموا به أحدا ، وأن ينزلوه بدار محمد بن رجب ابن مامي ابن خالة أبيه . وقد كان محمد ابن مامي المذكور استقر بطرابلس قبله بقريب ، هرب إليها من تونس أيام الفتنة بِحيلة تمت له ، وهي : أنه أظهر مرضا وخرج بعياله للتنزه في بساتين مرسى قرطاجنه وقد تكلم مع بعض رؤساء المراكب من النصارى ، فأتوه ليلا إلى شط البحر الذي بإزاء العِبْدِلِيّة ، وحملوه هو وأهله وماله وما استخفه من أمتعته ، وبلّغوه إلى طرابلس ، فأعْطِي دارا بها ، وعُيِّنت له الانزالات . ولما بلَغ إسماعيل إلى طرابلس أنْزِل معه كما ذكرنا للقرابة التي بينهما ولِسالف خدمته وحرمته في أيامهم . فمكث معه مدة ثم حصلت بينهما وحشة ففارقه وعُيِّنت له دار سكنها وحده . ثم وقعت بينه وبين محمد الزواوي — الذي فعل معه ما فعل — وحشة أيضا ، فضربه ضربا مبرحا وطرده وأقصاه . ولم يزل مقيما بطرابلس إلى أن توفي مولانا مَحمد باي ابن حسين باي — رحمهما الله تعالى — واستقلّ مولانا — أعزه الله تعالى — بالأمر في التاريخ المتقدم ، فظن أن

(1) كلمة تركية : النائب او الوكيل ، ويرادفها بتونس : الكاهية .

قد خلا له الجو ، وأنه إن دخل عمل تونس ، أطاعه الناس وتبعوه وتملك البلاد . وزَيَّن له هذا الرأي جماعة من الغَوْغاء كانوا يلوذون به ، وانضم إلى ذلك أنْ كاتبه بعض أهل / الفساد من إفريقية كمحمد بن عبد الكريم [5 — ب] الذي كان شيخ قابس في أيام جده وغيره ، يحسنون له الخروج إلى إفريقية ويسهلون عليه تملكها . وانضم إلى ذلك أيضا أنّ صاحب طرابلس ضَيَّق عليه لأمر حدث منه ، فاتفق مع أصحابه على الخروج ودبّروا أمرهم ، وخرج محمد التركي إلى المَنْشيَّة ، وجعل يشتري الخيل خفيَة ويربطها إلى أن اجتمع عنده عشرة أفراس . ومحمد التركي هذا كان من حَوانب الترك بتونس ، فجنى جناية فرّ بسببها إلى طرابلس ، وخدم إسماعيل فقربه إليه وصيّره من خواصه . ولما تكاملت له الخيل خرج أصحابه متفرقين قبله ، وتواعدوا للاجتماع بمكان عيّنوه ليلا . وخرج هو عشية وحده مظهراً أنه خرج للتنزه في المنشية . فلما جنّ الليل التفّ عليه أصحابه وساروا سِراعا ليلتهم تلك ومن الغد إلى الظهر . وكانوا قد تركوا الطريق ، وارتفعوا ذات الشمال خوفا من الطلب . ولم يكن فيهم من له خبرة بتلك الأرض ، فتاهوا ولم يعرفوا مسلكا ، وأخذتهم الحيرة . فبينما هم كذلك إذ لقيهم رجل يقال له سالم بن عثمان المحمودي ، كان قد خرج من بعض القرى بأباعر ذاهبا إلى أهله ، فلما رآهم خافهم على نفسه وعلى إبله ، فقرب منهم ليستطلع خبرهم قال : فلما رأيتهم ورأيت هيأتهم وقد أثّر فيهم العطش وحرّ الشمس تأثيرا شديدا طمعت فيهم ، فتقدم إليّ أربعة منهم فعرفني أحدهم وسمّاني ، فقلت لهم : « من أنتم ؟ » فسمى لي بعضهم . فقلت : « إنما أسألك عن صاحب الفرس الخضراء » قال : « ذلك سيدك إسماعيل بن يونس باي » . قلت : « وما جاء به إلى هذا المكان ؟ » قال : « حدث أمر بإفريقية فجهز لنا صاحب طرابلس محلة في البر ، وأسطولا في البحر ، وخرجنا لأخذ المملكة إلا أنّا أضللنا الطريق ، ولم نعلم مكان المحلّة » . قال : فانطلقت إليه وسلمت عليه ، فقال لي : « سر معنا واهدنا الطريق » ، قلت : « إن لي إبلا مُوقَرَة لميرَة أهلي أوصلها اليهم وألْحَق بك » ، قال : « اتركها وأنا أوقِرُها لك ذهبا إن

شاء الله تعالى ! » قال : « فجرني الطمع على المضي معه فتبعته ! » فقال : « عاهدني على أن لا ترجع من ورائي » وأخذ يؤكد علي في ذلك . فعاهدته على أن لا أرجع من ورائه ، ولو كان هاربا . قال : « إني هارب » . وأخبرني بمقصوده ، فوعدته بأن أبلغه أيّ مكان أراده . وشكوا إليّ العطش فأخبرتهم أن الماء على ثمانية فراسخ منهم . وقلت : « دعوني أركض إلى الماء وأملأ منه قِربة وأعرضها لكم » . فقالوا : « نخاف أن لا ترجع » . فقلت : « ومن يمنعني من الذهاب لو أردته ؟ » فركضت إلى الماء . وعنّ لي في الطريق سرب ظِباء ، فرميت ظَبْيا منها فصرعته وذبحته وتركته ، وانطلقت إلى الماء فملأتُ / منه قِربةً ، ورجعت إليهم أعْدو على أثري . فانتهيت إليهم ، [6 — أ] وقد كادوا يهلكون عطشا ، فشربوا وانطلقنا فاحتملنا الظبي ، ولما كان الليل أكلناه ، وسرنا بقية ليلتنا ، ومن الغد إلى صبح اليوم الذي بعده ، وقد كدنا نهلك جوعا وكادت خيلنا أن تهلك أيضا . فقلت لهم : « عهدي بمكان بهذه الناحية يخزن به أولاد ابن مريم طعامهم ، فهلمّ نَذهب اليه لعلنا نجد به تِبْنًا لخيلنا . قال : فأتيناه ظهرا ، فوجدنا به التبن فنزلنا ، وتركنا الخيل تأكل منه . فَنَبَشَتْ فَرَسٌ الأرْض فساخت يدها ، فقمنا اليها ، فوجدناها قد ساخت في مطمور شعير . فكشفنا عنه ، وجعلنا نملأ منها مَخَالِيَ خيلنا . فلما ملأنا آخر مِخْلاة انكشف الشعير عن جِرابين مملوءَين ، فكشفناهما فوجدنا بهما دقيق شعير ، فعلفنا الخيل وأكلنا ما في الجرابين من غير طبخ فتماسكنا ، ونشطت خيلنا ، وانطلقنا . فأتينا من الغد بيوت أولاد ابن مريم دون المخاضة ، فصنعوا لنا طعاما ، وقالوا لنا : «اركبوا فان القائد أحمد يسير في جماعة من الخيل قد رجع أمس من ها هنا في طلبكم ، وجهه صاحب طرابلس في أثَركم » . وقد كان خرج من طرابلس في أثَرهم صبيحة ليلة خروجهم ، فسبقهم إلى ذلك المكان لأنهم ارتفعوا بارتفاعهم ذات الشمال وتباعدهم عن الطريق ، وطالت مسافتهم ، فلمّا لم يدركهم — وقد انتهى عمل طرابلس وبلغ إلى عمل تونس — رجع .

[دخول الثائر الى الجنوب]

قال : فلما سمعنا هذه المقالة ركبنا من وقتنا فأتينا حي الحَمارنة من الغد ، وهم على فراسخ من جرجيس ، فنزلنا قريبا منهم . وأرسلنا أحدنا إلى شيخهم الشيخ سعيد بن عبد الله ، فأرْسَلَ الينا : أنِ امكثُوا بمكانكم ولا تدخلوا الينا ، ونحن نوجه اليكم بطعامكم وعَلَف دوابكم وارتحلوا عنا ، ولا حاجة لنا بكم .

ثم أقبل الينا سَعيد بن عبد الله بنفسه وكرر تلك المقالة ، وعاتب إسماعيل في خروجه من طرابلس ، وأعلمه أنه لم يصنع شيئا ورجع . وقد كان رحومه ابن سوف الجين النويري في خيل له عند الحمارنة ذلك اليوم ، فلما بلغه الخبر خرج إلى إسماعيل وتكلم معه فأعلمه بمقصده ، فساعده عليه ، ووعده النُّصرة ، وأن جميع العرب طَوْعَ أمره ونهيه ، وأنه سيجمع عليه الرجال ويفعل ويفعل . وقال : « قم بنا حتى ندخل حي الحمارنة ، ونبيت هذه الليلة » . قال : فقمنا ودخلنا عليهم فلم يمنعونا لمكان رحومه بن سوف الجين منهم ، وطلب منهم إسماعيل أن يُبْدِلوا خيله بخيل من عندهم لأنها كلّت ولم يبق بها حراك ، ففعلوا ، وأبدل له سعيد بن عبد الله فرسه بحصان له .

وارتحلنا من عندهم صباحا ، فأتينا مَارث إحدى قرى قابس فنزلناها .
[6 — ب] وتسامع بأمره أهل قابس ومن حولهم من الأعراب ، فبينما نحن / كذلك والطعام يصنع لنا بمارث إذ ورد عليه [كتاب] (1) محمد بن عبد الكريم من قابس يخبره : أن المخازنية الذين بقابس وزواوة ومن انضم اليهم عازمون على التعرض له . فانزعج ، وارتحل ، وترك الطعام . وأشير عليه بالتوجّه إلى بني يزيد ، فجاءهم ونزل بهم ، وتكلم معهم في القيام بدعوته فأجابوه ، وأشاروا عليه يقصد بلد الحامّة لأن أهلها صديق لهم ، فقصدها ، فتلقاه أهلها بالقبول ، وتسارعوا إلى إجابته وأطاعه آغة البرج الذي بها ومن معه

(1) الزيادة في جميع النسخ عدا الاصل، وبها يتضح السياق.

من زواوة . وقدم عليهم محمد بن عبد الكريم وناس قليلون من أهل قابس ، فأقام بالحامة . واضطرب أمر أهل قابس وانقسموا فريقين فركب اليهم بمن معه من العرب ، فنزل عليهم أربع ليال يدعوهم إلى إجابته ، ووجد (1) جماعةً من وجوه أهلها بمقام أبي لُبابَةَ الأنصاري ــ رضي الله عنه ــ فأعلموه أن طاعتهم لا تنفعه ، لأنهم لا يمكنهم أن يدخلوه إلى بلدهم لأنها ليست ذات منعة . فلَمّا لم يُحَصِّلْ منهم على طائل رجع إلى الحامَّة ، وكتب إلى مطماطة : أن يطيعوه ليتخذ جبَلَهُم مَعْقِلاً يأوي إليه ، وحصنا يمنعه ويتحصن به ، فرَدُّوا رسوله ، وامتنعوا منه غاية الامتناع . فأقام بالحامَّة ثلاثة وثلاثين يوما ، وقد اجتمع عليه كثير من العرب من قبائل شَتّى . وقدم عليه جَعْفَرُ بن خَضِر ومعه جماعة من أهل بيته ، وغيرهم من أهل جمّال ، وطائفَة من المثاليث ، وغيرهم ، فزَيّنوا له الرّحلة والتقدم ، والتزم له أهل جمّال بالقيام معه ، والمناضلة دونه ، وسهّلوا له الأمر ووعدوه الأباطيل ــ وأهل جمّال شيعَة علي باشا من القديم ــ وانضمّ إلى ذلك أنّ قائدهم منصور المشرّق أساء السيرة فيهم ، وعسفهم ظلما ، فأوغر قلوبهم ، فاغتنموا الفرصة بزعمهم الفاسد للعصبية السابقة ولِما أجهضهم من ظلم القائد المذكور . وكَمْ من عَائلة جرّها ظلم العمال والقُوّاد ، وانتهاكهم حرمة الله تعالى وحرمة السلطان في الرعية ، فإن الخلق عِيالُ الله تعالى ، ومتى استُعمِل على الرعيّة الأراذلُ والسفهاء وأهلُ البِطالة والإعلان بالشهوات كان ذلك داعيةً إلى فساد نيّاتِهم ، وضعف دياناتهم ، وانهماكهم في شهواتهم . قال أبو بكر الطُّرْطوشي في كتابه « سِراج الملوك » : « وأقوى الأسباب في صلاحهم أن يُستَعْمَل عليهم الخاصّةُ منهم ، وذوو الأحلام الراجحة ، والمروءات القائمة ، والأذيال الطاهرة ، فمتى رأس العامةَ سَراتُهم فهو الطريق إلى حفظ أديانهم ومروءاتهم ، وتماسكهم على الانهماك في المحظورات ، وملابسة المحرّمات ، قال الشاعر :

لا يَصْلُحُ القَوْمُ فوضى لاَ سَرَاةَ لهم
ولا سَرَاةَ إذَا جُهّالُهُمْ سَادُوا

(1) في ز و م : واجتمع بجماعة.

[7 – أ] / ورُوِي أن الرشيد أحضر رجلا لِيُوَلِّيَه القضاء ، فقال له : « إني لا أحسن القضاء ، ولا أنا فقيه ! » . فقال له الرشيد : « فيك ثلاثُ خصال : لك شرفٌ ، والشرف يمنع صاحبه من الدناءة . ولك حِلْمٌ يمنعك من العَجَلة ، ومن لم يعجل قَلّ خَطَؤُه ، وأنت رجل تشاور في أمرك ، ومن شاور كَثُر صوابه . وأما الفقه فَيُضم اليك من تَتَفَقَّهُ به » . فَوَلِّي ، فما وُجِد فيه مَطعَنٌ .

ولذلك لما تحقق عند مولانا ـ أيّده الله ـ ظلم منصور المشرق ، واعتسافه للرعية ، عزله وأخذه أخْذاً ، وولى مكانه على سوسة الحاج شعبان السبعي ، وهو رجل ذو عَقْلٍ ومروءة ، فاستقامت به الأحوال . وجعفر بن خضر المذكور أحد قواد علي باشا والمتصرفين في الولايات في دولته ، عفا عنه موالينا لـمّا تملكوا في جملة من عَفَوْا عنه ـ وهو من بيت كبير بجمّال ـ فلم يَقْنَع بالعافية ، فخرج إلى الحامّة كما تقدم ، وتولّى كِبْر هذه الواقعة .

وخرج معهم إسماعيل من الحامة حتى انتهى إلى صفاقس ، فطمع في فتحها ـ ومتوليها إذ ذاك أبو عبد الله محمد الأصرم أخو الوزير الفقيه الكاتب أبي العباس أحمد الأصرم ـ فاجتمع اليه وجوه البلد ، وتشاوروا معه ، فاتفق رأيهم على غلق أبواب المدينة فأغلقوها . ودخل الأصرم قصبتها وضبطها أحسن ضبط . فأقام إسماعيل عليهم ثلاثا يدعوهم إلى إجابته وفتح المدينة ، وامتنعوا عليه . ووقع بعض تشغيب من بعضهم فلم يتم له . وفي اليوم الثالث ركب إسماعيل ، وقَرُبَ من سور المدينة فرموه بمدفع من القصبة ، فسقطت الكُرَة قريبا منه ، فرجع وعاث في بعض الأجِنَّة فأفسدها وارتحل عنها .

[ثـورة جمـال]

وتوجه إلى جمّال ، فلما وصل إليها خرج أهلها للقائه يضربون طبولهم ، ودخلوا به بلدهم مسرورين ، ولم يعلموا ما أدخلوا على أنفسهم . فنزل بدار منصور المشرق ـ وكان دخوله لها لثلاث عشرة خلت من ذي القعدة من السنة 1172/1759 ـ فأقام بها ، وقد اجتمع اليه أهل جمّال قاطبة ، وأتاه

كثير من أهل القرى القريبة منها فيمن انحشد اليه من الأعراب ، كبني يزيد والحزم ، وأكثر المثاليث ، والسواسي ، وأولاد سعيد ، والقواسم ، وغيرهم تبلغ عدتهم أكثر من ثلاثة آلاف فارس . وقد كان مولانا ـ أيده الله ـ لمّا بلغه خروجه من طرابلس ووصوله إلى الأعراض تخوف أن يسبق إلى جبل وِسْلات ، لعلمه أنّه ليس بافريقية معقل يَأويه غيره ـ لصعوبة مسالكه ، وتوعر شِعابه ، وما في قلوب أهله من الضغائن والاحقاد القديمة ـ فبعث وزيره المختص به أبا الحسن الحاج علي بن عبد العزيز كبير دولته وزعيمها ، في أربعين فارسا وأمره بالمسير إلى وسلات ليتكلم معهم ويذكّرهم العهد الذي عاهدوا عليه مولانا ـ نصره الله تعالى ـ لـمّا ارتقى إلى / جبلهم في أيام أخيه [7 – ب] وأن يستنفر جِلاصا ، ويرسل إلى صَبايحية القيروان فيأتوه ، ويترصد الطرقات المفضية إلى وِسلات ، فلعل إسماعيل أن يقصده فيحولوا بينه وبين الوصول إليه . فسار من يومه ، وفعل جميع ما أمره به . وأتى وسلات من ناحية الفجّ ، وأرسل إليهم فنزل إليه القايد أحمد السهيلي ووجوه من أهل الجبل ، فأعلمهم بخروج إسماعيل ، وحذرهم من الفِتنة ، وخوّفهم سُوءَ عاقبتها ، ورغّبهم ، ورهبهم ، فأجابوه : « بأنا على ما عاهدنا عليه الأمير من الانقياد له ، والدخول تحت طاعته ، وليس لنا علمٌ من أمر إسماعيل ، ولئن جاءنا رددناه ، ولم نقبل من أمره شيئا ، ويكفينا ما وقع لنا في القيام مع جده الباشا ، وما طرأ علينا من قتل الرجال ، وذهاب الأموال ، فنحن أبعد شيء من الدخول في هذا الأمر » . فأعْجِب الحاج علي بمقالتهم ، وشكرهم على ذلك . وعرضوا عليه الصعود إلى جبلهم ، وأن يبيت عندهم ، فصعد معهم ، ونزل ببورحال ـ بلد القائد أحمد السهيلي ـ فأكرم نُزُله ، واجتمع إليه المشايخ ووجوه الناس ، ففرق فيهم أموالا وانصرف إلى القيروان ، فأقام بها ـ وخيله مترددة بينها وبين وسلات ، آخذة بكل مرصد ـ .

وبعد ذلك جهّز مولانا مَحَلّة ـ زواوة وصبايحية ـ وأرسلها إلى الحاج علي مع أحمد شَلَبي آغة الصبايحية ، وكتب إليه : « أن يتلقاها ، ويتعرض لإسماعيل ، ويصده عن الإيغال في البلاد » . فخرجت لتسع خلون من ذي

القعدة ، فتلقاها الحاج علي فيمن عنده من الخيل ، وقد تحقّق عنده قصد إسماعيل لجمّال ، فتوجه إليها . وأرسل إلى السواسي وأولاد سعيد يستنفرهم ، فانتدب إليه من بقي منهم ، حتى نزل بظاهر مساكن – وهي على أربعة فراسخ من جمّال (1) – ولما بلّغه كثرة العدو كتب إلى مولانا – أعزه الله تعالى – يستمده ، فأمر بانتقاء مائتي رجل من العسكر [وأركبهم الإبل ، وبعث معهم حسين التمتام آغة صبايحية الترك في خيله ، وطائفة كبيرة من صبايحية العرب ، وأمّر الحاج علي على جميعهم . وقد كان أيضا لمّا بلغه محاصرة إسماعيل لصفاقس اختار مائتي نفر من العسكر] (2) وأركبهم مركبا من حلق الوادي ، وأرسلهم مع علي [رايس] قبودان البحر ، ومحمد بن السوقي أحد رؤساء البحر في طائفة من البحرية لنجدة أهل صفاقس وضبط البلد ، فلم يبلغوا إلى سوسة حتى وجدوا إسماعيل بجمّال ، والحاج علي بمحلته على مساكن ، فنزلوا بسوسة وخرجوا إليه ، فاتفق أن وردوا عليه هم والمدد الذي جاءه في البر [في يوم واحد] .

فلما كان ثاني يوم من قدوم هذه الأمداد على المحلة خرج إليهم إسماعيل بجنوده من جمّال . فركب الحاج علي ومن معه ، ولما تقابل الفريقان بادر جماعة من أولاد سعيد والسواسي وبعض المخازنية الذين مع الحاج علي بالهروب إلى إسماعيل ، واللحوق باخوتهم الذين معه غدرا منهم ومكرا ، فانكسرت لذالك قلوب أهل المحلة [وبادرتهم خيل إسماعيل بالغارة . فلم يلبثوا أن انهزموا أمامهم وتبعهم الآخرون حتى أوصلوهم إلى المحلة] (3)
وأخرجوهم منها . فأما بعض جلاص فلم تنته هزيمتهم إلاّ / إلى نزلتهم [8 – أ]
بنواحي القيروان ، وبعض صبايحية باجة بلغت بهم الهزيمة إلى باجة . ولم يبق مع الحاج علي إلاّ شِرْذِمة قليلة من الخيل ، فتحير لما دهمه ، وبقي

(1) كثيرا ما يستعمل المؤرخ كيل الفرسخ وهو عند الفقهاء ثلاثة اميال والامر في ذلك تقديري وتطبيقه متقارب.

(2) الجمل المحصورة بحاصرتين ساقطة من الاصل وهي في جميع النسخ وبها يظهر كون المدد بعثين وردا في يوم واحد.

(3) الكلمات المحصورة كلها ساقطة من الاصل دون بقية النسخ وزيادتها ضرورية لنظم السياق.

العسكر وبعض زواوة بالمحلة باهتين لا يدرون ما يصنعون . فلمّا رأى إسماعيل فرار من قد فرّ وأنه لم يبق بالمحلة إلا الترك ومن معهم ، قصد ناحيتهم يشير إليهم أن هلموا إليّ وهم باهتون حتى قرب من الأخبية ، فأوجس في نفسه الحاج علي خيفة أن يطيعوه – لما رأى من عدم معارضتهم له ، ودفعهم إياه – فأتاهم وقال لهم : « ما هذه الحَيْرة ؟ إنْ كان مقصودكم اللحاق بإسماعيل فتعالوا نذهب إليه جميعا ، وإن كان مقصودكم القتال فقاتلوا ! » فتحركت حميتهم ، وكان أول من بادر حسين التمتام الآغه فوجه مُكْحُلَتَه نحو إسماعيل ورماه . وتبعه العسكر . فتأخر إسماعيل وتراجعت الناس ، واقتتلوا برهة ثم انفصلوا . ورجع إسماعيل بجنده إلى جمّال – وقد أخذوا نحو سبعين فرسا – ومات منهم ثلاثون نفسا ، وبعض من لحق المنهزمين من خيل إسماعيل رجعوا إلى المحلة ، ودخلوها ظنا منهم أن المحلة أخِذَت ، وأن صاحبهم استقر بها ، وجعلوا يسألون عن مضربه فقتلوا ، وبات إسماعيل وجنوده فرحين بما ظهر لهم من أمارات الغَلَبة ولم يعلموا أن العاقبة للمتقين .

واقتضى نظر الحاج علي ومن معه أن يوجهوا إلى سوسة ويأتوا بمدافع ليُرْهبوا بها الأعراب ، فكان نظرا سديدا ، فأتوا بها وهيَّئوها . ولما كان من الغد ركب إسماعيل في جنده وسار قاصدا القتال . وركب الحاج علي في خيله . ولما التقى الصفان ، رماهم محمد بن السوقي بكرة من مدفع ، فصادفت فارسا منهم فأهلكته هو وفرسه . فانشمرت الأعراب ، ورجعوا منهزمين ، ولا سيما أهل الأعراض فإنهم استهولوا أمر المدفع لعدم اعتيادهم له ، وكان يوما عليهم لا لهم .

وقد كان مولانا – أعزّ الله أنصاره – جهّز محلة بها مائة خِباء ما بين عسكر وخيل ، وأمّر عليها كاهيته حسين ابو طاغان ، وأرسل معهم الحاج شعبان السبعي واليا على سوسة – بعد عزل منصور المشرّق عنها وأخذه كما تقدم – فلما نزلوا بإزاء سليمان على مرحلة من تونس ، ورد الخبر على

مولانا من بعض من أسرع بالهزيمة أن محلة الحاج علي أخذت . فكتب إلى حسين كاهية يأمره بالمقام بمكانه إلى أن يثبت الأمر . فوردت عليه الأحمال برؤوس القتلى من أهل جمّال ، أرسل بها الحاج علي إلى الحضرة . فشاور أصحابه في الرّحيل أو المقام حتى يؤذن له . فأشار الحاج شعبان السبعي بالرحيل ، وقال : « إن مولانا لم يأمرنا بالمقام إلاّ لما بلغه من أخذ المحلة ، وحيث تبين بطلان ذلك فما مقامنا ها هنا ؟ » . فارتحلوا .

[8 — ب] فلما قربوا من الحاج علي كتبوا إليه أن يرتحل وينزل / المعتمر ، وتلتقي المحلتان هناك ، ففعل . ومن الغد ارتحلوا جميعا ونزلوا بقرية على فرسخ من جمّال يقال لها : « دار غالب» ، فوقع الفال الصحيح الموافق لهذا الاسم . فأقاموا بها أياما ثلاثة أو أربعة لم يقع فيها قتال ، وبعد ذلك أنشبوا القتال صباحا فحميت الحرب ، واشتد القتال ، فانهزم أهل جمّال ودخلوا بلدهم منهزمين ، وقد كانوا خندقوا عليها خندقا ، وجعلوا عليه مترسا من الحُصُر المملوءة بالتراب وقاية من الرصاص . فتقدم العسكر وقربوا من جمّال ، وصنعوا مترسا مقابلا لها ، وحاصروها بقية يومهم . ولمّا انتصف النهار اقتضى نظر أكابر المحلة أن يقلعوا محلتهم من مكانها ، وينصبوها حول مَتْرَسهم قريبا من جمّال ، ففعلوا ذلك ، فأنزل الله تعالى الرعب في قلوب أهل جمّال ومن معهم ، وأيقنوا بالهَلَكة . ورتّب الحاج علي خيله ، وقسمهم على النواحي ، فأحاطوا بجمّال من جميع جِهاتها إلاّ الجِهة القِبْلِيّة منها ، فلم تُمْكن الإحاطة بها . ورُكّبت عليها المدافع من جهاتها الثلاث أيضا . وضاق عليهم الأمر ، وتقدم الرايس محمد بن السوقي بمدفع يُجَرُّ على عَجَل ، وصدم مترس أهل جمّال يرميهم به فَرُمِي برصاصة على نحره فخرّ قتيلا — رحمة الله عليه — بعد أن أبلى بلاء عظيما . ولما جَنّ الليل أمر إسماعيل فأُسْرِج له فنار ، وخرج بنفسه فطاف بخندق جمّال من أوله إلى آخره ، وحرّض الناس ، ورجع إلى داره فاستلقى مستريحا ونعس .

وقد أخَذَتْ جنوده من أهل جمّال والعرب وغيرهم في الهرب والفرار ، فخرجوا من ناحية القبلة أفواجا أفواجا ، وتفرقوا شَذَرَ مَذَر . فلما أحس

بذلك بعض أصحابه أتاه فأيقظه من نومه ، وأعلمه بما جرى ، فقام فَزِعا ، وأمَرَ فَقُرِّب له حِصانه فركب ، وخرج بمن بقي معه من خيله وهم خمسة عشر فارسا لم يبق معه من ذلك الجم الغفير غيرهم . وكان خروجه من ناحية القبلة أيضا ، فعارضته خيل من المحلّة فرجع على عقبه وقصد ناحية المحلة ، وستره ظلام الليل ، « فنجا بِرَأس طِمِرَّةٍ ولِجام » (1) . ولما علم بخروجه من بقي من أهلها ، ولم يبق إلا الأقَلّ ، أنزلوا رجلا وبعثوه إلى المحلة ليخبرهم الخبر . فوافى خِباء الحاج علي ، فأخبره الخبر كله ، وأعلمه أن البلد خالية ليس بها إلا أناس قليلون ، وقد تفرقت تلك الجموع ، وهرب إسماعيل فارّا بنفسه . فتوقف أولا خوفا من أن تكون مكيدة ، ولمّا ثبت عنده ذالك ركب في أثَرِه ودخل العسكر وزواوة والمخازنية وغيرهم جَمّالاً صباحا ، ونهبوا دورها ومخازنها ، وجميع ما اشتملت عليه . ولم يأت عليها الليل إلاّ وهي بَلاقِع . واتبعوا أهلها في الطرقات ينهبونهم ويسلبونهم أمتعتهم ، وامتدت الأيدي إلى بعض حرمهم ، وتفرقوا في كل مذهب ،
« فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ / الظَّالِمِينَ » . وكان ذلك يوم الخميس [9 — أ]
غرة ذي الحجة من السنة 1172 ، فكانت مدة إقامته بجمّال سبعة عشر يوما .

ومن قول الفقيه القاضي المشاور الأديب أبي محمد عبد اللطيف الطُّوَيِّر القيرواني يذكر ما أصاب أهلَ جمّال في شقاقهم وشَقِّهم العصا ، وعفو مولانا عنهم بعد ذلك ، من جملة قصيدة طويلة مدح بها مولانا — أعزه الله تعالى — ستأتي بتمامها — إن شاء الله تعالى — في موضع أليق بها من هذا الموضع :

لاَ جَمَّلَ اللهُ جَمَّالاً لَقَدْ نَزَلَتْ
بِهِمْ مِنَ الخُلْفِ آجَالٌ وَأَوْجَالُ
شَقُّوا العَصَا وَتَمَادَوْا فِي ضَلاَلَتِهِمْ
فَحَلَّ سَاحَتَهُمْ خَطْبٌ وَأَهْوَالُ

(1) الطمر بكسرتين وراء مشددة : الفرس الوثاب، والمعنى : انجاه فرسه وحده، وهو عجز بيت لحسان.

بِالإِرْبِعَاءِ لَقَدْ حَاطَ الخَمِيسُ بِهِمْ
كَمَا أَحَاطَ بِسَاقِ الرِّجْلِ خَلْخَالُ
فَبَعْضُهُمْ مِنْ شَعُوبٍ ذَاقَ كَأْسَ رَدًى
وَبَعْضُهُمْ فِي شِعَابِ الأَرْضِ قَدْ سَالُوا
« فَأَصْبَحُوا لاَ تُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ »
وَنِسْوَةٌ وَمَسَاكِينٌ وَأَطْفَالُ
سَاقَ الشِّقَاقُ إِلَيْهِمْ كُلَّ دَاهِيَةٍ
فَمَا الذِي صَنَعَ البَاغُونَ ؟ مَا نَالُوا ؟
أَوْلَيْتَهُمْ مِنْكَ عَفْواً عَنْ جَرَائِمِهِمْ
إِذْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ القَوْمَ جُهَّالُ
لاَ زِلْتَ بِالْعَفْوِ بَعْدَ الظَّفْرِ مُتَّسِماً
فَالْعَفْوُ لَيْسَ لَهُ مَذْمُومَةٌ حَالُ (1)

وقال الفقيه الأديب الكاتب أبو عبد الله محمد بن أحمد الورغي يذكر يومهم من جملة قصيدة طويلة ستأتي بتمامها أيضا – إن شاء الله تعالى – : (2)

أُكْذِبَ الحُسْنُ بِجَمَّالٍ وَقَدْ
كَانَ مَشْهُوداً كَيَوْمِ الْجَمَلِ
فُتِحَ الحَيْنُ لَهَا إِذْ فَتَحَتْ
بِارْتِكَابِ الخُلْفِ بَابَ الزَّلَلِ
فَغَدَتْ مِنْ جَهْلِهَا الفَاحِشِ مِنْ
بَابِ الاِعْرَابِ لِبَابِ البَدَلِ
كَيْفَ تُخْطِي مَنْ تَعَدَّى طَوْرَهُ
صَرْعَةٌ يَهْوِي لَهَا فِي التَّلَلِ

(1) (2) هاتان قطعتان من قصيدتين تاتيان في تهاني الفصل الذي بعده كما قال المؤلف وانما ساق منهما هنا ما يتعلق بجمال ، واما القصيدة الموالية لهما فهي خاصة بالموضوع ولذلك استوفاها ولم يعدها.

فَمَضَى السَّيْفُ بِهِمْ فِي غُلَّةٍ
وَاشْتَفَى مِنْ دَمِهِمْ بِالْعَلَلِ
فَاذْكُرِ الأَيَّامَ فِي النَّاسِ تَجِدْ
يَوْمَهُمْ هَذَا كَيَوْمِ الظُّلَلِ

وقال الأديب البارع علي الغراب الصفاقسي (1) :

نَجْمُ السَّعَادَةِ فِي عُلاَكَ تَصَعَّدَا
وَالنَّصْرُ فِي مَاضِي حُسَامِكَ خُلِّدَا
وَالدَّهْرُ لاَ يَنْفَكُّ خَادِمَ بَابِكُمْ
وَعَلَى سِوَاكُمْ لَمْ يَزَلْ مُتَمَرِّدَا
أَنِسَ الزَّمَانُ بِعَدْلِكُمْ وَلَطَالَمَا
قَدْ كَانَ مِنْ جَوْرِ العِدَاةِ مُشَرَّدَا
[9 – ب] / وَرِيَاضُ مَجْدِكَ بِالثَّنَاءِ هَزَارُهَا
لاَ زَالَ فِي أَدْوَاحِهِنَّ مُغَرِّدَا
لَوْ أَنَّ فِي الْعَلْيَاءِ ضَارَعَكَ امْرُؤٌ
لَغَدَا المُضَارِعُ مِن عُلاَكَ مُجَرَّدَا
إِنْ تُكْسَ مَجْداً يَعْرُ مِنْهُ سِوَاكُمْ
وَتَرَاهُ مِنْ عَدَمِ الكِسَاءِ مُبَرَّدَا
يَا أَهْلَ وِدِّ ابْنِ الحُسَيْنِ أَرَى لَكُمْ
تَاجاً عَلَى هَامِ السِّمَاكِ مُنَضَّدَا
فَأَعَدْتُمُ الأَيَّامَ وَهْيَ مَوَاسِمٌ
وَهَدَيْتُمُ الدَّهْرَ المُضَلَّلَ فَاهْتَدَى

(1) شاعر توفي بصفاقس سنة 1183/1769 مولع بالمحسنات اللفظية ولا سيما التورية – وقد ورّى في هذه القطعة بالفعل المضارع المجرد، وبالكسائي والمبرد، وليست من جيد شعره، راجع لترجمة النيفر 2 : 32.

أبْدَيْتُمُ فِي النَّاسِ دُرَّ مَآثِرٍ
أضْحَى بِهَا جِيدُ الزَّمَانِ مُقَلَّدَا

ثِقْ أنَّ رَبَّ العَرْشِ قَلَّدَ سَيْفَكُمْ
نَصْرًا ، فَلاَ قَطَعَ الَّذِي لَكَ عَوَّدَا

حَاشَا لِمِثْلِكَ أنْ يَهُزَّكَ حَادِثٌ
أيَهُزُّ رَضْوَى مَرُّ رِيحٍ غَرَّدَا ؟

وَابْشِرْ بِهُلْكِ المُفْسِدِينَ جَمِيعِهِمْ
عَمَّا قَرِيبٍ ، إنَّهُ لَنْ يُبْعُدَا

إذْ فَتْحُ جَمَّالٍ غَدَا لَكَ مُنْبِئًا
عَنْ فَتْحِ وِسْلاَتٍ عَلَى أدْنَى المَدَى

قَدْ جَرَّأ الأعْدَاءَ حِلْمُكَ فَارْتَدَوْا
بُرْدَ الْجِنَايَةِ وَاقْتَفَوْا سُبُلَ الرَّدَى

خَسِرَتْ تِجَارَةُ أهْلِ جَمَّالٍ وَمَا
رَبِحَتْ ، إذِ «اشْتَرَوا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى»

عَاصَتْكَ قَوْمٌ بِالأسُودِ تَشَبَّهَتْ
أرَأيْتَ قِطاً فِي القُطُوطِ اسْتَأسَدَا ؟

هَبْ أنْ حِلْمَكَ غَرَّهُمْ . أوَ مَا قَضَتْ
شُهُبُ السُّعُودِ لَكُمْ بِإهْلاَكِ الْعِدَا ؟

يَهْنِيكَ يَا مَوْلاَيَ ذَا الفَتْحُ الذي
مَا زَالَ مُصْطَحِباً لِسَيْفِكَ سَرْمَدَا

لاَ زِلْتَ مُمْتَطِياً عَلَى هَامِ العُلاَ
عِزّاً عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ مُؤَيَّدَا

ذكر انتقال اسماعيل الى جبل وسلات وقيامهم معه

ولمّا خرج بمن معه من جمّال رأوا أولا أن يرجَعوا وراءَهم إلى بلد
الحامة ، ثم بدا لهم قصد وسلات ، فسلكوا طريق القيروان ، وقد التف
عليهم بعض من المنهزمة من خيلهم فصاروا نحو الخمسين فارسا . فساروا
ليلتهم تلك ومن الغد والليل كله إلى الصبح ، فأصبحوا تحت جبل وسلات ،
وصعدوا إليه فلم يلقهم أحد من أهله ، فأتوا القصيبة إحدى قراه ، فنزلوا
تحتها وانتظروا من يأتيهم ، فلم يأتهم أحد ، فبينما هم كذلك إذا برجل
أطل عليهم من فوقهم فقال : «يا فرسان هل فيكم إسماعيل بن يونس
باي ؟» قالوا : «هو ذا يسمع كلامك» ، فقال له : «بيننا وبينك الله
ورسوله ارتحل عنا فلا حاجة لنا بك فانا لا يأتينا من ناحيتكم إلاّ الشر !»
وأغلظ له في القول وانصرف ، ولم يجبه أحد . فبقوا على تلك الحال حائرين
إلى المساء فدخلوا القرية فلم يجدوا بها إلاّ الصبيان والنساء ينادون : «النفاق !
النفاق !» ، وقد هرب الرجال / منه ، فبات بها عازما على الرجوع إلى [10 – أ]
الأعراض . فلما كان الصباح أتاه رجل يسعى وأخبره أن مائتي مقاتل من
شباب أهل وسلات من أهل «الجبيل» أحد أخماس وسلات قد أتوا داعين
بنصرته . فركب وتلقّاهم وفرح بقدومهم وشكرهم على صنيعهم ، فأطلقوا
مكاحلهم فرحا ، وأعلموه أنهم سامعون له مطيعون قائمون بنصرته ، وانطلقوا
به إلى بلدهم ، فبات عندهم وأشاروا عليه : أن ائتِ خُمْس أولاد إسماعيل
فان أجابوك أجابك أهل الجبل كلهم ودخلوا تحت طاعتك لأنهم أكثر
الأخماس رجالا ، وأشدهم بأسا . فأتاهم من ناحية الجَوْف ، فخرجوا إليه
يشتدّون مدافعين له ولمن معه بالرصاص والحجارة ، وجرحوا رجلا
منهم برصاصة وامتنعوا من قبوله غاية الامتناع . فركض إليهم إسماعيل
يستعطفهم ويَرْفق بهم ، فرموه بحجارة على جبهته فشجّته ، فعدل إلى
زاوية الجلُوله الكاينة بخُمْسهم من الناحية القبلية فبات بها . ومن الغد
انتقل إلى خُمْس «تيفاف» فلم ينفصل معهم على طائل . وجملة الأمر أن

الشباب والأحداث والسفهاء أحبوا القيام معه ، والدخول تحت دعوته ، والمشايخَ وذوي الأحكام ممتنعون من ذلك . فبات بمكان يقال له : «الدمان» . ومن الغد انتقل إلى بلد القَصْر من خُمس تيفاف أيضا ، فنزلها . ودعاهم إلى مراده فأجابوه ، وكثر عليه الناس وشاع في جميع قرى الجبل أمر القيام والنفاق . فركب في جمع كثير ، وأتى إلى بورحال بلد القايد أحمد السهيلي ونزل بداره ، ففرح به أولاده وأهله وأرسلوا إلى القايد يستدعونه . وقد كان تشاور مع بعض أكابر الجبل في أمر إسماعيل لمّا صعد . فاتفقوا على عدم نصرته — على ما زعموا — ، ووجهوا اثني عشر رجلا من كبارهم إلى تونس ليتكلموا مع مولانا — أيده الله تعالى — في أمره ، ويعلموه براءتهم من الدخول في شأنه ، ونزل أحمد السهيلي بسفاية أسفل الجبل ينتظر عود أصحابه . فلما استقر إسماعيل بداره ، وأطاعه أهل الجبل ، أرسلوا اليه ، فصعد ولم يسعه إلاّ الدخول معهم بحسب ظاهر أمره ، فإنه كان يقال : إن امتناعه أولا من القيام معه ، وتحذيره لأهل وسلات من غائلة ذلك إنما هو بحسب الظاهر فقط .

ولما قدمت تلك الجماعة إلى مولانا — نصره الله تعالى — تكلم معهم ، فأعلموه أن جميع من وراءَهم غير ناكثين لعهده ، ولا داخلين في شيء من الفتنة ، فشكر صنيعهم وبرهم وكساهم وردهم إلى بلادهم ، وأرسل معهم الوزير الفقيه الكاتب أبا العباس أحمد الأصرم القيرواني رئيس الكتبة بالحضرة — رحمه الله تعالى — وعمر السهيلي أخا القائد أحمد المذكور ، وأمرهم أن يأتوا وسلات ليؤكّدوا الأمر ، وليتوثقوا منهم بالترغيب / والترهيب . فلما انتهوا إلى [10 — ب] جلولا بلغهم الخبر بطاعتهم لإسماعيل ، واتفاقهم على القيام معه ، ونكثهم للعهد . فبعث أبو العباس أحمد الأصرم بعض من معه من أعيان وسلات إلى القايد أحمد السهيلي ، ورجا أن يكون قد بَقِي مِن تلافي أمرهم بَقِيّة ، وأنّ خَرْقَهَم يقبل الرَّقْع ، فترددت الرسل بينهما مرارا ، وآخر الأمر أعلمه : أنه قد اتسع الخَرْقُ على الراقع ، وأنه إن لم يرجع فربما صدر من بعض غَوْغائهم مكروه يناله . فحينئذ خيّر من معه من أهل وسلات في

الرجوع معه أو الصعود إلى جبلهم فاختاروا الصعود ، وتعللوا بأنه عسى أن يكون منهم تلافٍ وجَبْر لما وقع . ورجع هو وعمر السهيلي إلى القيروان ثم رجعا [منها] إلى الحَضْرة .

ولما تحقق مولانا — أعزه الله تعالى — من أمرهم ما تحقق ، وظهر عنده ما كان يتخيله منهم من نَغَل (1) القلوب ، وكُمون الضغاين والأحقاد القديمة فيها ، اقتضى نظَرُه السديد ، ورأيه الأرشد السعيد ، أن لا يخرج اليهم بنفسه أصْلا ، ولا يقاتلهم ما داموا بجبلهم ولو مكثوا فيه على حالهم تلك ما مكثوا ، بل يُوجِّه إليهم بمحلّة بعد محلة تنزل بقرب جبلهم ، شَجًى في نُحورهم ، وغُصّة في حلوقهم ، وتمنع من يصعد إليهم أو ينزل منهم ، فإن نزلوا قاتَلَتْهم ، وإن بَقُوا بجبلهم تركتهم ، ورأى أن السَّداد والصواب والرَّأي كُلَّه والمكيدة مُطاوَلَتُهم بهذا الصنيع ، وترك مقاتلتهم في عَقْر جبلهم ، لِوُعورة مسالكه ، وعَدَمِ بَصارة الجُند بها مع شدة خِبْرة أهله بذلك وسهولته عليهم ، حتى أن السَّعي والعَدْو في شِعابه أيْسَر عليهم منه بالسَّهْل ، عملا بقوله — صلى الله عليه وسلم : «لاَ يُلْدَغُ المُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ» . فإن والده المُقَدَّس — بَرَّدَ الله ضريحه — كان — لمَّا قام عليه ابن أخيه عَلِيّ باشا بوسلات وأطاعه أهله — خرج إليهم بنفسه في مَحلاّته ، وحاصرهم بجبلهم ، وقاتلهم وأقام عليهم مدة ولم يَحْصُل على كبير طائل من أمره ، وتعِب غاية التَّعب هو وجنوده ولم يمكنه الرجوع إلى تونس قبل الفتح ، بعد أن كان قد خرج بسببه . فلم يعد إليها إلا بعد ثمانية عشر شهرا من يوم خروجه ، وكان ما كان في يوم بورحال من صعود العسكر إلى الجبل ، وهجومهم عليه ، وانتهائهم إلى بورحال ، وأخذهم إياها ، ثم رجوع الكرة لأهل وسلات عليهم ، وقتل من قُتِل منهم ، وأمور صعاب بعد ذلك ، ثم لم يتيسّر له مراده حتى ارتحل عنهم . ونزل عليّ باشا وعاث في البلاد ، ومضى إلى الساحل ، ووقع عليه به ما وقع وفرّ إلى الغرب .

(1) النغل : الفساد، كذا في ح وما بغيرها لا يصح.

— وسيأتي خبر هذه الواقعة مُفَصَّلا إن شاء الله — فكان هذا السبب هو الباعث لمولانا — أعزّه الله — على ذلك الرأي السّديد، الذي لم تظهر نتيجته لمن لم يفهم / سرّه إلاّ بعد زمان . [11 أ]

وقد كان الوزير الأجَلّ الحاج علي بن عبد العزيز تَبِـع إسماعيل عند فراره من جمّال ، ولم يزل مُتْبِعا له حتى تحقّق عنده صعود الجبل ، فقصد ناحيته فوجد ثلاثة رجال من أهله فأمْسَكهم ، وسَرَّح واحدا منهم إلى القايد أحمد السهيلي يستطلعه الخبر عنه وعن قومه ، ما فعلوا ؟ فأجابه بأنهم على ما عاهدوا عليه ، ولم تزل الرسل تتَرَدّد بينهما إلى أن اجتمع به بالشَّرْشارة فاستوثق منه وانصرف إلى القيروان . ولمّا نَجَم نِفاق أهل وسلات واستيأس منهم ، رجع إلى محلّته بجمّال . فكتب إليه مولانا يأمره بأخذ المثاليث الذين قاتلوا بجمّال . فنظر فإذا أخْذُهم غير ممكن لأنهم متفرّقون بغابتهم سير ثلاثة أيام ، فمهما أخذ حِلَّة (1) منهم وسَمِع الباقون فَرّوا . وأيضا فقد اختلط العاصي منهم بالمُطيع ، فراجعه في ذلك ، فأمره أن يأخذ من كبارهم ستين رجلا رهنا تحت يده ، لئلا يعودوا مرة أخرى ، وأمره أيضا أن ينتزع من أهل القرى بالساحل مكاحِلهم خوفا من عصيانهم مع أهل وسلات ، ففعل ذلك، وارتحل بمحلّته ، وارتحل حسين كاهية أيضا بمَحَلَّته ، فدخلا تونس معا يوم السبت لثمان خلون من المحرم سنة ثلاث وسبعين [1173/1760] . ثم جهّز مولانا محلّة أخرى من العسكر ، وأمَّر عليها حسينا كاهية ، فخرج بها يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من المحرم ، ثم أردفها بمحلّة أخرى — زواوة وخيالة — وأمّر عليها الحاج علي بن عبد العزيز ، فخرج بها لخمس بقين من المحرم . وأمرهما معا بأن يَأتيا العَلَم ويقيما به شَجًى في نحور أهل وسلات ، ولا يقاتلوهم إلاّ إذا نزلوا إليهم . فانتهوا إلى العَلَم ، وأقاموا به مضيّقين على الجبل من تلك الناحية . وفي مدة إقامتهم بالعلَم شَنّ إسماعيل الغارات بمن معه من الخيل على جلاص ، وأخذ بعضا من مواشيهم ، ثم ركب إلى مَاجِر وهم قبيلة كبيرة من

(1) الحلة بالكسر جمع حلل وحلال : القوم النزول فيهم كثرة .

بوادي إفريقية تشتمل على أربعة بطون : الفراشيش ، والفواد (1) ، وأولاد مهنا ، وشقطمة ، كل بطن من هذه البطون الأربعة تشتمل على عدد كثير يبلغ عددهم جميعا زهاء ثلاثين ألفاً . فلمّا أتاهم — وهم من شيعة جدّه علي باشا — أجابوا دعوته ، وأطاعوه ، فأمرهم بالرحيل معه ، والنزول على وسلات ففعلوا [الاّ ما كان من الفراشيش فانهم ما دخلوا في شيء من أمره] (2) والاّ ما كان من الشيخ أبي الضياف بن يحي شيخ شقطمة فإنه امتنع من ذلك، وركب فرسه ، وسار ناحية بِمَن اتَّبَعه ، فلَحِقه إسماعيل في خيله ، فَضُربَتْ فَرَسُ الشيخ أبي الضياف فسقط للأرض راجلا ، فأدركه إسماعيل بنفسه ، فرماه أبو الضياف فكَذَبَت (3) مكحلته / ، فرماه إسماعيل فأخطأه ، فاخترط سيفه وضربه به حتى بَرَدَ ، فاحتزّ [11 — ب] رأسه ، وناوله بعض من معه ، ورجع بماجر حتى أنزلهم على وسلات . ثم انطلق إلى أولاد عيار ، فدعاهم إلى الدخول معه فأجابوه وارتحلوا ونزلوا على وسلات أيضا .

ولما رَأى إسماعيل كثرة من معه حين أطاعهُ ماجر وأولاد عيار ، خرج من بورحال وعسكر بأسفل الجبل ، وأقام هناك والمحلّتان على العَلَم .

وفي أوائل شهر ربيع الأول من السنة خرجت قافلة عظيمة للتجار من قسنطينة تريد محروسة تونس بالتجارة ، وبها أموال كثيرة . فلما كانوا حول تستور على مرحلتين من تونس ، أغار عليهم أولاد منّاع ، فأخذوا القافلة بما فيها ، وخَفَرُوا ذمة السلطان فيها ، وارتحلوا من وقتهم . وأرسلوا إلى إسماعيل ، فركب اليهم ، وأتاهم بمكان يسمى بوادي الحطب ، فنزل بهم وتكلم معهم أن ينزلوا على وسلات ، كما فعلت ماجر وأولاد عيار . فقالوا له : « هذا غير ممكن ، فإن وسلات وسفحه يضيق على أنعامنا ومواشينا ، ولا طاقة لنا بالحصر ، فإن شئت أقمت عندنا وقمنا بدعوتك ، فلَم يُجِبْهم إلى ذلك ، ولم

(1) في ز ، م : والفودان وهو جمع وما بالاصل مفرد ، ولهذا التفريع اهمية كبرى في معرفة انساب القبائل، ومن طريفه ان الفراشيش بطن من ماجر وقل من يعرف ذلك.

(2) الزيادة من ح ، م . والسياق على الاخيرة لان غيرها فيه تكرار ونقص وخلل.

(3) لم تنطلق .

يجيبوه إلى ما أراد ، فعاد إلى وسلات ، وارْتَحَلوا هُمْ مُجْفِلين إلى ناحية الجريد ، وأولاد منّاع أحد قبائل دريد الأربع وهم بنو رزق ، وأولاد جوين ، وأولاد مناع ، وأولاد عرفه (1) ، ودريد هم عمود السلطنة بإفريقية ، وعليهم مدار حِلِّها وارتحالها ، ولهم ديوان وأرزاق عظيمة تخرج إليهم كلّ سنة ، يتوارثها الأبناء عن الآباء ، وللملوك بهم اعتناء عظيم ليس لغيرهم من العرب ، بحيث يجالسون المَلِك ، ويأكلون معه ، ولمشايخهم حرمة وافرة ومكانة .

وقد كان مولانا — أيّده الله تعالى — لَمَّا بلغه أمْرُ مَاجر وأولاد عيّار عزم على الخروج إليهم بنفسه ، ورأى أن المبادرة إلى قتالهم وإبعادهم عن ساحلة الجبل واجبة ، إذ لو أمهلهم — والبوادي مجبولون (2) على الفساد — فربما تبع بعضهم بعضا ، وتكاثروا ، وتفاقم الشر . فلمَّا بلغه أن أولاد منّاع أخذوا قافلة قسنطينة ، وأطاعوا إسماعيل ، أمَرَ في وقته بِنَصْب المحلّة ليخرج بنفسه لمنع هذه القبايل الثلاث ودفع ضررهم ، من غير تعرّض لقتال أهل وسلات ، لأن الذي يقتضيه النظر الصحيح ، والرأي المُصيب ، أن لا تُدْفَع غائلة أهل الجبل الصعب المُرْتقى ، الوَعْر المسالك ، إلاّ بالمُطاوَلة والمُحاصرة والتضييق وقَطْع المادّة من غير أن يُقاتَلوا في تلك الأوعار ، وأن يُبادَر إلى دِفاع من نَزَل بساحتهم لِنُصْرتهم ، وتَقْوِية شَوْكَتهم بالقتل والأسر والأخذ . فخرج — أيّده الله تعالى — يوم الخميس لسبع عشرة خلت من شهر
ربيع الأول ، وأرسل / إلى مَحَلَّتَيْه اللّتين بالعلَم : أن تَرْحَلا وتُلاقياه [12 — أ]
بالفحص . واستخلف على تونس صهره ووزيره رجب [خزندار] ، لِما يعلم من ضبطه وحِياطته وصِحّة نظره . وأمره أن يَغْدُوَ كل يوم إلى تونس ، ويجلس بدار الباشا لفصل الأحكام بين الناس ، ويروح إلى باردو . وجعل معه بباردو رجالا ممن يَثِق بهم . وكذلك جعل في قِلاع الجبل الأخضر رجالا من ثقاته ، وشَحَنَها بأهل النجدة ، وسار محفوفا بالنصر والتأييد إلى

(1) هذا تفريع آخر لقبيلة عربية من اعظم قبائل الزحفة الهلالية . وفيه بيان لامتيازاتها لدى الدولة في ذلك التاريخ.

(2) بالاصل وغيره ، مجبورون .

أن بلغ الفحص ، فاجتمعت المحلات الثلاث ، وكتب — أيده الله تعالى — إلى جميع المَزارِقيّة من العرب أن يَأتُوه ، فأتوه أفواجا أفواجا . وارتحل من الفحص بعد أن ترك به محلّة أمَّر عليها أبا الضياف ابن أبي الحسن الدوفاني كاهية الباجية ، وأمره أن يقيم بمكانه ولا يبرح منه عينا على إسماعيل ، خِشْيَةَ أن يُخالفه إلى تونس . وأوصاه أنه مهما أتاه إسماعيل ، أو سمِع به قاصدا تونس ، يرسل إليه الخيل ركضا ليخبره ، ويرسل إلى خزندار بتونس كذلك ، ثم إن كانت له طاقة بقتاله قاتله ، وإلاّ تركه .

وأخذ — نصره الله — من الفحص ذات اليمين إلى حمادة أولاد عيار ، فلما نزل بهم استسلموا ، وأقبل مشايخهم بالطّاعة والتوبة . ولم يلبث الجند أن أغاروا عليهم ينهبونهم ، فأرسل اليهم يأمرهم بالكفّ عنهم ، فلم يمكن تدارك ذلك ، وأخذوهم أخذة رابية ، وتفرّقوا شَذَرَ مَذَرَ . ثم أقبل اليه مشايخ ماجر وكبارهم منقادين ، مقبلين بطاعتهم معتذرين مما فَرَط منهم . وجعلوا على أنفسهم ألف ناقة ، وأربعمائة فرس ، يعطونها له ويكفّ عنهم . فقال : « إني قابل منكم وكافٌّ عنكم ، مع علمي بأني إذا رجعت عنكم إلى تونس رجعتم إلى إسماعيل . ولكن إن عدتم عدنا ، وفعلنا بكم مثل ما فعلنا بأولاد عيار » . فحلفوا أيمانا غِلاظا وعاهدوه على أن لا يعودوا إلى مثلها . فبعث معهم من يقبض منهم الإبل والخيل وتركهم . وبلغه توجّه أولاد منّاع إلى نواحي الجريد فأرسل إليهم شيخهم صميدة بن سليمان بن أحمد — ولم يكن دخل في شيء من أمرهم ، ولم يكن معهم حين فعلوا فَعْلَتَهم التي فعلوها — فأدركهم وقد تجاوزوا قَفْصَة ومعه كتاب من مولانا إليهم بالأمان إن رَجَعوا ورَدُّوا ما أخَذوا لأهل قسنطينة . فلم يزل الشيخ صميدة يُرَغِّبهم ويُرَهِّبهم إلى أن أجابوه ، ورجعوا معه . فوجدوا مولانا — أيده الله تعالى — على القيروان ، فردّوا ما وُجِدَ عندهم بعينه من الأموال ، وبقي ممّا لم يوجد ما قيمته ستون ألف ريال ، فأدّاها عنهم مولانا — أعزه الله تعالى — من ماله جبرا للأمر ، وتلافيا لما فرط .

[12 — ب] وقد كان ـ أيّده الله تعالى ـ طاف بوسلات من جميع / جهاته فانخذلوا ، ولم ينزل أحد منهم إلا لما كان بالشريشرة نزلت طايفة منهم إلى مُنْخَفَض من الجبل فبادر إليهم بعض من خَفَّ من الجند من غير إذن لهم في ذلك فاقتتلوا معهم برهة ، ومات أحد شواش الصبايحية ، فأرسل اليهم مولانا وردّهم عن القتال . وفي أثناء طوافه بالجبل وقعت مُشاغَبَة بين الترك وزواوة أدت إلى مُصَافَّتهم للقتال ، فأرسل إليهم أكابرهم ورجالا من خواصّه ، ولم يزالوا بالفريقين حتى أطفأوا نائرتهم بعد جهد ومشقة . فأمر الحاج علي أن يرتحل بمحلة زواوة ، فارتحل بها ، ونزل بناحية تستور ، فأقام أياما . ثم أرسل إليه أن يسرّح المحلة إلى تونس ويقدم هو عليه . فلما جاءه وجّهه مع أبي العباس أحمد الأصرم رئيس الكَتَبَة في محلّة خيّالة إلى الجريد ، لاستخلاص مجابيه . ونزل مولانا على القيروان كما ذكرنا ، وأقام بها حتى رجعت محلة الجريد بالمال ، ودفعت له ماجر ما عليها من الإبل والخيل ، وأقبلت إليه أولاد مناع بالطاعة . وأعطى عطايا جسيمة ، وفرّق أموالا عظيمة في العسكر والعرب وأهل القيروان وغيرهم ، وعمّ الناس بالاحسان .

ثم ارتحل إلى تونس ، فدخلها مُؤَيَّدا منصورا يوم الخميس لأربع بَقين من جمادى الثانية ، فكانت مدة مغيبه عنها تسعة وتسعين يوما .

وفي هذه المَحلّة وردت عليه البشائر بولادة النجل الطاهر ، والقمر الباهر ، الأمير الأسعد الأمجد مولانا أبي محمد حَمُّودة باشا ـ حرس الله تعالى مجده ، ونصر أحزابه وجُنْده . وكانت ولادته ـ صانه الله تعالى ـ ليلة السبت الثامن عشر من شهر ربيع الثاني سنة ثلاث وسبعين [1173/1760].

وفي يوم الأحد لاثنتي عشرة من شعبان من هذه السنة خرج حسين كاهية في محلّة لأكل زرع أولاد عيار بالحمادة ، فإنهم كان لهم بها زرع خصيب زرعوه قبل أخذهم ، وذلك خشية من أن يُدْرك فينتفع به أهل وسلات ، قطعا للمادة عنهم . ثم خرج في أثره الحاج علي بن عبد العزيز في محلّة أخرى يوم السبت لثماني عَشْرَة خلت من الشهر ، ومعه إسماعيل آغة الصبايحية ،

ومحمد مغربلي ، وحسين التمتام آغة صبايحية الترك ، وجماعة من الأعيان ، وإسماعيل آغة المذكور أحد مماليك سليمان باي ابن علي باشا استخدمه مولانا مَحمد باي ، وظهرت له نجابته ، فولاّه آغة الصبايحية وزوّجه بابنة أخته . فنزلت المحلّتان معا على الحمادة ومعهما من العرب المَزَارِقيه وغيرهم عدد كثير ، وشرعوا في أكل الزرع واستئصاله . وفي مدة إقامتهم تلك غزا إسماعيل كسرى ، وهي أربع قُرًى على عشرة فراسخ من وسلات ، في ستة آلاف مقاتل من أهل وسلات والعرب ، فأتاهم عصرا ، فتحصنوا منه
[13 — أ] بقلعتهم / ودخلوها جميعا بجميع مواشيهم ، وقاتلوه ليلتهم ومن الغد إلى الليل ، فلم يَظْفَر منهم بشيء ، ومات ممّن معه نحو مائة وأربعين مقاتلا ورجع عنهم . فتخوّفوا عودته إليهم فكتبوا إلى الحاج علي ومن معه يستنجدونهم . فجمع الحاج علي رؤوس العرب واستشارهم ، فأشاروا عليه أن يركب في جميع خيله ، وينتهي بهم إلى كَافِ القرية فيراهم إسماعيل وجنده ، ويروا كثرتهم وقوتهم ، فيقع الرعب في قلوبهم ، فان كان عازما على قصد كسرى مرة أخرى رجع عن ذلك . فلما أصبح الصباح رَكِب في خيوله وانتهى إلى كاف القرية ، فوقف به ساعة ، وظفر بعض خيله برجلين من وسلات نزلا يقطعان الحشيش بواد ، فقتلوهما . وتقدمت طائفة من الخيل إلى السميدة ـ قرب ضريح الشيخ الديماني ـ وبه سمي اليومُ يومَ الدّيماني ، وخرج أهل كِسْرى وأخذوا ناحيةً وحدهم ، فركب إسماعيل في سَرِيَّة خيل وتلقّاهم ، فلما رأوه أطلقوا مكاحلهم دفعة ، ثم انهزموا ، فأتبعَهم قَتْلا ، فقتل منهم نحو ستة وعشرين رجلا . فلما رأت العرب هزيمة أهل كسرى رجعوا منهزمين من غير قتال ، وثبت الحاج عليّ مكانه ، ولم يبق معه إلاّ بعض من المخازنية . ولقد أخبرني من شهد الواقعة أنه لم يكن مع إسماعيل الاّ نَيِّف وعشرون فارسا ، فلمّا أبصر أهل وسلات وبقية خيل إسماعيل الهزيمة نزلوا كلّهم من الجبل وقصدوا الحاج علي . فلما رأى أصحابه كثرة مَنْ دَهَمَهُم انهزموا أيضا وتَبِعَهم إسماعيل وجنوده يقتلون ويأسرون . وتأخّر الحاج عليّ في أخريات القوم حَامِيَةً لهم فكبا بإسماعيل آغة فَرَسُه فتسارع إليه

العدوّ فدافع عنه [الحاج علي] إلى أن خلّصه وركب وانطلق معه . ثم إن فارسا من العدوّ يقال له يوسف بن الحاج الحنّاشي أدرك الحاج عليّ وأخذ بثيابه يريد أن يقتلعه من سَرْجه أسيرا فرماه الحاج علي فسقط قتيلا مكانه . ثم أدركه فارس آخر ماجريّ يقال له أبو دينار فطعنه بالرمح فوقع السنان في مِنْطَقَتِه، فتناوله الحاج علي وصَرَفَه عن نفسه ، ورمى أبا دينار أيضا فأذهب نِصْفَ حَنَكِه بأضراسه فرجع عنه ، ومات بعد ذلك بتلك الضَّرْبة بوسلات ، ورجع الحاج علي إلى محلّته سالما بعد جَهْد جهيد . وقتل في ذلك اليوم محمد مَغْرِبلي آغة صبايحية الترك ، ومبروك القفصي كاهية صبايحية الكاف ، وأخذ إسماعيل آغة أسيرا . وذلك أنه سلك طريقا صعبا فَرَزَحَ فرسه ، ووقف لا يستطيع حَرَاكا ، فنزل عنه وأدركه ثلاثة فرسان من العدوّ أحدهم يقال له أحمد العيّاري ، والآخر يقال له ابن جدّه الماجري ، وابنه ، فأول من أدركه ابن جده المذكور فرماه إسماعيل آغة / [13 — ب] فأصاب رأسه فخرّ قتيلا ، فتناول ابنه فرسه ، وتقدم أحمد العياري فرماه إسماعيل آغة فأصاب فرسه فوقعت ، ووقع هو إلى الأرض ، فقام واخترط إسماعيل آغة سيفه وتقاتلا بسيفيهما راجلين فجرحه إسماعيل آغة ثلاث جراحات وقد أثقلته ثيابه وسلاحه . فطرح أحمد العيّاري سيفه وصارعه [فصرعه] ، وكان قويّا فأوْثَقَه كِتافا وأتى به إلى إسماعيل . وأسَر أيضا حسين التمتام آغة صبايحية الترك ، والقايد منصور السايس ، وعبد الستار المانسي كاتب الحاج علي ، وغيرهم ، وقُتِل جماعة ، وأخِذ نحو الستين فرسا قلايع (1) .

ولمّا انحجز الناس رجع إسماعيل إلى محلته ، ولمّا جَنّ الليل دعا بإسماعيل آغة فوبّخه ، وأمَرَه أن يَذْكُر سلاحه وثيابه التي سُلِبَها ، وقيّدها كاتبه لِيَنْتَزِعَها مِمَّنْ أخذها ، ثم أمر به فَقُتِل . ومن الغد ذَبَح إسماعيلُ التمتامَ بيده ، وسجن منصور السائس فمات في سجنه ، وبعد هذه الواقعة قَتَل محمّد التركي صاحبه المختص به الذي خرج معه من طرابلس لغير ذنب

(1) العبارة عامية بمعنى مجردة عن السروج.

عرف منه ، وهمّ بقتل سالم بن عثمان المحمودي الذي هداه الطريق لمّا خرج من طرابلس ، وقد تقدم خبره ، فهرب منه إلى مولانا — أعزه الله تعالى — فأحسن إليه واستخدمه (1) . وبقيت محلّة حسين كاهية ومحلّة الحاج علي بمكانهما إلى أن خرجت سنة ثلاث وسبعين فرجعتا إلى تونس ، وكان دخولهما اليها يوم الخميس منتصف المحرم [1174/1761] .

وفي هذه السنة غزا إسماعيل (برقو) وهي قرى على ستة فراسخ من وسلات ، فقاتلهم قتالا شديدا فلم يقدر منهم على شيء ، ومات مِمَّن معه عدد كثير .

وفيها أيضا بلغه أن قافلة خرجت من القيروان إلى سوسة بأموال للتُجّار ، وأنها خارجة مع قافلة سوسة إلى تونس ، فأرسل إليهم رحومة بن سوف الجين النويري ، فصادفهم بالجريبة ، فأخذهم ورجع إلى وسلات وكانت غنيمة عظيمة .

وقبل ذلك غزا القيروان في جنود كثيرة فخرج إليه حسين بن عمار كاهية القرويين فاقتتلا برهة فانهزم حسين بن عمار ، وتبعه إسماعيل إلى قرب المدينة ، وبلغ إلى مقام أبي زَمْعَةَ البَلَوِيّ صاحب رسول الله — صلّى الله عليه وسلم — ثم رجع إلى وسلات .

وقال الكاتب أبو العبّاس أحمد سميّة القيرواني (2) يذكر أهل وسلات ، ويتفاءل لأخذهم ، مؤرّخا بهذه السنة أعني سنة ثلاث وسبعين :

(1) وهو مصدر اخبار هذه الثورة.

(2) شاعر بارع في نظم التاريخ بالحساب الابجدي متصنع فيما سواه انظر التيفر 2 : 52 ، وكان كاتبا بديوان الانشاء وبينه وبين الغراب مهاجاة ، منها ان الغراب كان يجلس بحوانيت عدول في باب الجديد فاتفق عزلهم فقال سمية :

حوانيت الشهود خلت واضحت … عيون معمريها جري عين
فقال المسلمون بما اصيبوا ؟ … فقلت مؤرخا : « بغراب بين »

(اي سنة 1166) فحقد عليه الغراب وواصل هجاءه حتى تداخل من أصلح بينهما على ان يتنازل سمية ويطلب الاجازة من الغراب في الشعر فاجازه بهذين البيتين — **بديوانه** — ودس في آخرهما هجاء خفيا :

يا من غدا طالبا مني الاجازة في … فن القريض وتعظيما لصاحبها
فبالقريض وبالآداب اجمعها … اصبحت في تونس انت الاجل — بها —

ثغر الهَنَا لَكَ يَا عَلِيُّ قَدِ إبْتَسَمْ
فَاطْرَبْ ، وَدَعْ قَالِيكَ فِي هَمٍّ وَغَمْ
عَيْنُ العِنَايَةِ لاَحَظَتْكَ ، وَقَدْ شَدَا
إنْسَانُهَا : عَيْنِي أَمَامَكَ لَمْ تَنَمْ
والسَّعْد فِيمَا تَبْتَغِيه مُسَاعِدٌ
فاطْلُبْ مُنَاكَ ، يَقُول : إسعادًا : نَعَمْ
[14 — أ] /ما جِئْتَ يَوْمًا لِلْبُغَاة مُحَارِبًا
إلاَّ نُصِرْتَ ، ومَنْ يُحَارِبْكَ إنْهَزَمْ
تَتَنَاثَرُ الأعْدَاء مِنْكَ مَخَافَةً
يَوْمَ الْكِفَاحِ ، وَعِقْدُ جَيْشِكَ مُنْتَظِمْ
إنَّ الذي زَرَعَ النِّفَاقَ بِجَهْلِهِ
لَم يَلْقَ يَوم حَصَادِهِ إلا النَّدَمْ
قَابَلْتَ بِالْحِلْمِ العِدَا فَتَعَجَّبُوا
مِن ذِكْرِ أحْنَفَ (1) ، وَهْوَ مِثْلَكَ ما حَلُمْ
سفهَاءُ قَوْم نَافَقُوا فَتَمَزَّقُوا
فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ كَتَمْزِيقِ الْحُزَمْ
ظَلَمُوا وَأفْرَطَ كُلُّ فَرْدٍ مِنْهُمُ
فِي ظُلْمِهِ ، واللهُ يُهْلِكُ مَنْ ظَلَمْ
جَبَلُ الفَسَادِ كَأنَّهُ بَعْدَ القَوا (2)
شَيْخٌ عَلَى أعْضَائِهِ إسْتَوْلَى الهَرَمْ
فَابْسُطْ لِبَسْطِ النَّفْسِ قَوْلَ مُؤَرِّخٍ :
«وسَلاَتُ أضْحَى الآنَ في طَيِّ العَدَمْ»

وفي يوم السبت لثمان بَقِين من شهر ربيع الأول من سنة أربع وسبعين ، خرج حسين كاهية بمحلّة للتضييق على أهل وسلات وحصارهم .

(1) سيد تميم الاحنف بن قيس ابو بحر تابعي عظيم الشهرة معروف بالحلم والفصاحة والدهاء ، توفي سنة (72/691).

(2) بالفتح والقصر : الخلاء.

وفي يوم السَّبت لستّ من ربيع الثاني خرج الحاج علي بمحلّة أخرى وبَقِيتَا إلى أوائل شعبان فرجعتا . واتصل حصار العرب من جلاص ، والكعوب ، والقوازين ، ودوفان ، وأولاد عون ، والخمامسة ، وغيرهم ، للجبل مُحْدِقين به من جهاته ، وربما تقع بينهم وبين أهله الغارات على السَّرح من الجانبين ، وربما أغار اسماعيل بنفسه إلى أن خرجت هذه السنة .

وقال أبو العباس أحمد سمية الكاتب يهني مولانا بدخول هذه السنة ، ويصف أعداءه ويذكر حالهم :

أوْقَاتُ دَهْرِك في سُرُورٍ صَافِيَهْ ،
والعَامُ أقْبَلَ بِالْهَنَا والعَافِيَهْ
نَتَجَتْ مَقَاصِدُكَ الَّتِي أمَّلْتَهَا
وَمَقَاصِدُ الأعداءِ أضْحَتْ بَالِيَهْ
الآنَ جاء السَّعْدُ وَالنَّحْسُ انْتَفَى :
لَوْ تَطْلُبُ الدُّنْيَا لَجَاءَتْ حَافِيَهْ
فَالنَّصْرُ مُمْتَثِلٌ لِجَيْشِكَ طَائِعٌ
يَعْصِي البُغَاة ذَوِي النُّفُوسِ الغَالِيَهْ
مَهْمَا اتَّجَهْتَ لِمَا أرَدْتَ تلألأتْ
شَمْسُ السَّلاَمَةِ فِي سَمَاءٍ سَامِيَهْ
لَكَ كُلَّ يَوْم يَا عَلِيُّ مَسَرَّةٌ
وَلِكُلِّ بَاغٍ مِنْ جُيُوشِكَ غَازِيَهْ
قَرَّتْ بِعَيْنِ الأمن عَيْنُكَ فَرْحَةً
وَغَدَتْ عُيُونُ ذَوِي الخِيَانَةِ بَاكِيَهْ
عَمَرَتْ مَنَازِلُكَ العَلِيَّةُ بِالْهَنَا
ومَنَازِلُ السُّفَهَاءِ عَادَتْ خَالِيَهْ
لَمَّا أتى عام الهنا أرَّخْتُهُ :
«عَامٌ تَجَلَّى في سَمَاءِ العَافِيَهْ »

وهاهنا نكتة وهي أنه : هل العبرة في حساب التاريخ بالحروف المنطوقة أو المكتوبة ؟ / فإن كانت العبرة بالمكتوبة فينبغي أن تحسب ألف (تجلّى) [14 – ب] بعشرة لانها تكتب ياء فلا يتم له التاريخ (١) ، ولنا في هذه المسالة كلام لعلنا نذكره فيما يأتي -إن شاء الله تعالى .

وقال أيضا يمدح مولانا ويذُمّ وسلات ويتفاعل مُؤرّخًا :

يَا أيُّهَا الْمَلِكُ الذي ... فِي النَّاسِ بِالْحِلْمِ اشْتَهَرْ
مِنْ كُلِّ سُوءٍ أنْتَ فِي ... أمْنٍ ، وَجَيْشُكَ مُنْتَصِرْ
مَعَكَ الاله ، فَكُلُّ مَا ... تَبْغِي يُيَسِّرُهُ الْقَدَرْ
حَرَسَتْكَ عَيْنُ الحِفْظِ في ... حَالِ الإقامَةِ والسَّفَرْ
وحَمَتْكَ أجْنِحَةُ التُّقَى ... وَيَدُ العَفَافِ مِنَ الضَّرَرْ
والعفوُ زَادَكَ هِمَّةً ... وَعَلَى الْمُلُوكِ بِكَ افْتَخَرْ
مَا يُفْلِحِ البَاغِي وَلاَ ... يَحْظَى بِخَيْرٍ مَن عَقَرْ
وِسْلاَتُ خَابَ رَجَاؤُه ، ... وَحَوى المَذَلَّةَ فَاحْتَقَرْ
ما رَامَ يَرْمِي سَهْمَهُ ... إلاّ وَيَنْقَطِعُ الْوَتَرْ
مَا جَاءَ يَجْنِي قَصْدَهُ ... إلاّ وَسَاعِدُهُ انْكَسَرْ
غَابَ النُّهى عَنْ أهْلِهِ ... إلاّ هَلاَكُهُمُ ظَهَرْ
بِالخَوْفِ جُلُّ كَلاَمِهِمْ : ... أين الْمَفَرْ ؟ أين الْمَفَرْ ؟
مزجَ الْفَسَادُ صَنِيعَهُمْ ... ونظامُ شملهمُ انْتَثَرْ
وَنِفَاقُهُمْ سَاقَ البَلاَ ... لهمُ لِيُبْلَى مَن غَدَرْ
يَا مَنْ تَفَرَّدَ بالحِجَى ... وَبِفَضْلِه شَهِدَ البَشَرْ
اجْعَلْ عِداتَكَ عِبْرَةً ... بَيْنَ الوَرَى لِمَنْ اعْتَبَرْ
وَضَعِ الْمُحِبَّ ذَخِيرَةً ... لَكَ ، ذُو الْمَحَبَّةِ يُدَّخَرْ

(١) وفي القطعة التي قبلها اعتبر « اضحى » بالالف ليتم له التاريخ. وكان القدامى لا يحفلون بقواعد الرسم في الالف اللينة بالاخص . وقد ساق المؤلف نقده بشكل تساؤل في اسلوب لطيف ، ومراده الانكار لان القاعدة في الاعتماد على الصورة لا على اللفظ معروفة ، ولذلك لم يعد الى هذه المسالة فيما بعد.

كُنْ مِنْ مُحِبِّكَ آمِناً ... وَمِنَ الْعَدُوِّ عَلَى حَذَرْ
لَكَ يَا عَلِيُّ مُؤرِّخاً ... (نَصْرٌ تَجَلَّى (١) في صَفَرْ)
- 1174 -

وقال يتفاءل بالتاريخ :

بُشْرى أبا الحَسَنِ الرِّضَا ... بِهَنَاءِ جَانِبِكَ الرَّفِيعِ
وَلَكَ الهَنَا إذْ أرَّخوا : ... (وِسْلاتُ يَهْلِكُ في رَبِيعِ)
- 1174 -

[15 – أ] / وقال أيضا وفيه تَوْرِيَةٌ حَسَنَة :

أميرَ الوَرَى إنْ شَاءَ رَبُّكَ مَا تَشَا ... يَجِيئُكَ سَهْلاً ، عَنْ قَرِيبٍ بِلا تَعَبْ
فنعتُكَ نَادَى يا عَلِيُّ مُؤرِّخاً : ... (يُلاَقِيكَ نَصْرٌ فِي مُحَرَّمَ مَعْ رَجَبْ)
- 1174 -

وقال الأديب البارع عليّ الغُراب يمدحه ويذُمّ أهل وسلات ويصف حالهم ويشكو إليه عامل صفاقس وقد كان أمر له بِصِلَةٍ فماطله بها :

زَارِعُ الْبَغْيِ حَاصِدٌ لِلنَّدَامَه ... فَاطْلُبِ السِّلْمَ إن أرَدْتَ السَّلاَمَه
لاَ تَثِقْ بِالْمُنَى فَمَا كُلُّ بَاغٍ ... نَالَ ما يَرتَجِي وَوَفَّى مَرَامَه
رُبَّما كَانَتِ الأماني مَطَايَا ... لِلْمَنَايا ، وَمَوْرِداً لِلنَّدَامَه
رُبَّمَا خَيَّلَتْ لِراجٍ مَنَالاً ... مِثْلَمَا خَيَّلَتْ لِرَاءٍ مَنَامَه
رُبَّ سَاعٍ لِيَجْتَنِي طِيبَ عَيْشٍ ... وَهوَ يَجْنِي -وَلَيْسَ يدري- حِمَامَه

(١) في هذا التاريخ ما في سوابقه من حساب الف تجلى بواحد خلاف القاعدة.

مَنْ سَمَا طَالِباً لِمَا لَيْسَ يُرْجَى
طَلَبَ العَيْشَ مِنْ لَهَاةِ أُسَامَه
دَعْ هَوَى مَا إِلَيْهِ نَفْسُكَ تَدْعُو
فَالْهَوَى لِلْهَوَانِ يُعْطِي زِمَامَه
وَاصْحَبِ الرَّأْيَ مَا اسْتَطَعْتَ بِعَزْمٍ
مِنْكَ يَفْرِي مَضَاؤُه الصَّمْصَامَه
وَإِذَا الرأْيُ مَا اهْتَدَى لَكَ فَاجْعَلْ
فِي يَدِ الصَّبْر لاَ سِوَاهُ خِطَامَه
وَارْكَبِ الْحَزْمَ في الأمور إذا مَا
بَانَ وَجْهُ الصَّوَابِ ، وَاشْدُدْ حِزَامَه
وَاغْتَنِمْ فُرْصَةً بَدَتْ مِنْ عَدُوٍّ
إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ السُّرُورِ اغْتِنَامَه
وَابْلُ مَنْ تَصْطَفِي لِنَفْسِك سِرًّا
كَيْ تَرَى مِنْهُ صَحْوَهُ وَغَمَامَه
وَدَعِ الرأيَ وَالنَّصِيحَةَ مِمَّنْ
بِسِوَى الجَمْعِ لاَ يَسُومُ اهْتِمَامَه
إِنَّمَا رَأْيُه يَعُود لِنَفْعٍ
عَنْهُ لَمْ يَرْعَ فِي سِوَاهُ انْتِظَامَه
وَإِذَا مَا وَشَى بِذِي الْفَضْلِ وَاشٍ
فَاعْتَقِدْ عَكْسَه ، وَوَالِ انْصِرَامَه
وَإِذَا ما اعْتَقَدْتَ في الْعَهْدِ شَخْصًا
كُنْ عَلَى يَقْظَةٍ وَرَاعِ ذِمَامَه
لاَ تُذِعْ مَا كَتَمْتَهُ عَنْ عَدُوٍّ
لِصَدِيقٍ فَلاَ يطيق اكْتِتَامَه

وإذا ما صَحِبْتَ رَبَّ اتِّهَام
لاَ تلُمْ من يُسيءُ فِيكَ اتِّهَامَه
لاَ تُطِل في تَرَدُّدٍ لِحَبِيب
لَكَ ، فَالطُّول مؤْذِنٌ بِالسَّآمَه
وإِذَا مَسَّكَ الزَّمَانُ بِعُسْرٍ
وأَبَادَ اللِّئَامُ مِنْه كَرَامَه
/ فَأَجِدْ في عَلِيِّ بْنِ حُسَيْنٍ [15 — ب]
أَحْسَنَ الْمَدْحِ ، تُلْفِ أوْفَى كَرَامَه
مَلِكٌ لَوْ دَرَتْ عُلاَهُ الدَّرَارِي
قَبَّلَتْ كُلَّمَا بَدَتْ أَقْدَامَه
مَلِكٌ لَوْ دَرَى الغَمَامُ نَدَاهُ
مَا بَدَتْ مِنْهُ لِلْحَيَاءِ غَمَامَه
كَلَّ مِنْ فَرْطِ رِفْدِه كلُّ عَافٍ
وَهْوَ مَا كَلَّ واشْتَكَى إِيلاَمَه
جَاءَ وَالدَّهْرُ نَظْمُهُ فِي اخْتِلاَلٍ
فَأَعَادَ الخِلاَلُ مِنْهُ نِظَامَه
قُلْ لِقَوْمٍ بِجَهْلِهِمْ خَالَفُوهُ :
فِيمَ سُوءُ الخِلاَفِ ذَا ؟ وعَلاَمَه ؟
حَكَمَ اللَّهُ أَنَّ مُلْكَ عَلِيٍّ
وَبَنِيهِ إِلَى الْمَعَادِ أَدَامَه
بِطَرِيقِ الْقَضَاءِ والكَشْفِ عَمَّنْ
بِالصَّلاحِ ارْتَدوْا ، وأَهْلِ الكَرَامَه
لاَ تَزَالُ السُّعود تَقْضِي بِمَا قَدْ
يَتَمَنَّاهُ ، وَالزَّمَانُ غُلاَمَه

فاقْطَعُوا بِالإيَاسِ حَبْلَ الأمَانِـي
إنَّ فِـي السُّحْبِ مَا يُسَمَّى جهَامَه

وَصِلُوا مِنْه بالإطَاعَةِ حَبْلاً
قَبْلَ أنْ يُنْفِذَ القَضَاءُ سِهَامَه

أتَرَوْا صَادَتِ الثَّعَالِبُ لَيْثًا ؟
أوْ تَرَوْا صَادَتِ الصُّقُورَ حَمَامَه ؟

أهْلُ وِسْلاَتِ الْجُفَاةُ قُلُوبًا
مَنْ وَفَى عَهْدَهم يَخُونُوا ذِمَامَه

خَالَفُوا الْمُسْلِمِين حَيْثُ اسْتَحلُّوا
مِنْهُمُ الْمَالَ وَالدَّمَا وَالْغَرَامَه

كُلُّ لَعْنٍ وَكُلُّ خِزْيٍ عَلَيْهِمْ
فِـي الدُّنَا ، وَالْعَذَابُ يَوْم القِيَامَه

فَقَدِ اسْتَمْسَكُوا بِوَاهِنِ حَبْلٍ
عَنْ قَرِيبٍ يَرَوْن مِنْهُ انْفِصَامَه

وَتَعُودُ الفِعَالُ مِنْهُمْ عَلَيْهِمْ
حَسَرَاتٍ ـ يَرَوْنَهَا ـ وَنَدَامَه

أرَضِيتُمْ شَقَّ الْعَصَا عَنْ مَلِيكٍ
جُمِعَ العَدْلُ فِيهِ وَالاسْتِقَامَه ؟

فَضْلُهُ شَامِلٌ لِكُلِّ الْبَرَايَا
حِلْمُهُ عَمَّ مَنْ جَفَاهُ وضَامَه

قَلْبُهُ بِالْوَرَى رَءُوفٌ رَحِيمٌ
وَيَرَى بِالإلَه مِنْهُ اعْتِصَامَه

أيُّهَا الْمُوقِدُون لِلْحَرْبِ نَارًا
سَتَكُونُونَ لِلْوُقُودِ حُطَامَه

لَيْسَ مِثْلَ الأمِيرِ نَجْلِ حُسَيْنٍ
مَلِكٌ فِـي شَجَاعَةٍ وَشهامَه

فَكَأنِّـي بِطَوْدِكُمْ صَارَ دَكًّا
وَأجَالَتْ يَدَاهُ فِيهِ حُسَامَه

وكأني أرَاهُ وَالنَّصْرُ مِنْهُ
ضَارِبًا فِـي ذُرَاهُ يَوْمًا خِيَامَه

مَا أرَى قَطُّ فِـي الْبَرِيَّة أشْقَى
مِنْكُمُ يا ذَوِي الرَّدَى واللَّآمَه

/مَنْ كَمِثْلِ الأمِيرِ في العَفْوِ عَنْكُمْ [16 – أ]
أو بِإدْرَارِهِ لَكُم إنْعَامَه ؟

أوَ مِنْ غَيْرِهِ تَرُومُونَ عِزًّا
مِثْلَ ذَا أوْ قَرِيبَهُ في الفَخَامَه ؟

سَاءَ وَاللّهِ وَهْمُكُم أيُّ سُوءٍ ،
وَاتَّخَذْتُمْ مَوَاطِىءَ الرِّجْلِ هَامَه

فَلَئِنْ تَدَّعِي الرَّعِيَّةُ ظُلْمًا
لَسْتُمُ تَدَّعُونَ يَوْمًا ظُلاَمَه

وَلَئِنْ تَطْلُبُوا عُلاً فَوْقَ هَذَا
فَاطْلُبُوا الْمُلْكَ فِيكُمُ والإمَامَه

كَم بِتِرْشِيشَ (1) من مَقَامٍ كَرِيمٍ
فَاتَ عَنْكُمْ ، ونِعْمَةٍ وَكَرَامَه

وَلَكَمْ فَاتَكُم مِنَ الرِّبحِ مِمَّا
تَتَعَاطَوْنَ حِلَّهَ وَحَرَامَه

(1) اسم قديم لتونس.

سَيُطِيلُ الإلَهُ مِنْكُمْ بُكَاءً
وَيُطِيلُ الإلَهُ مِنْهُ ابْتِسَامَه

دُمْ عَلِيًّ بِحِصْنِ أمْنِ عَلِيّ
لَسْتَ تَخْشَى مِنَ الزَّمَانِ انْهِدَامَه

يَا مَلِيكًا مَتَى به لاَذَ شَاكٍ
مِنْ سَقَامِ الزَّمَانِ يَشْفِي سَقَامَه

أنا أشْكُوكَ مِنْ زَمَانٍ غَدا فِي (I)
مُضْمَرِ الْقَلْب خَازِنًا آلامَه

غُرْبَتِي فِي الْبِلاَدِ مَدَّتْ نَوَاهَا
لاضْطِرَارٍ ، وَالْقَصْدُ قَصْرُ الإقَامَه

وَظَنَنْتُ المُقَام لِي فيه يُسْرٌ
فَتجلّى بالعسر أقْوَى علامه

فيه وطَّنْتُ لِلشَّدَائِد نَفْسِي
فَأرَى مِنْ لَذائذي إيلاَمَه

بِعْتُ مَا لَمْ يُبَعْ لِقُوتِي اضْطِرَارًا
مِنْ جَمِيعِ الْكُسَا وكَوْرِ العِمَامَه

وَالذِي قَدْ أمَرْتَ لِلْعَبْدِ فِيهِ
مَنعَتْ عَنِّيَ الْوُلاَةُ اغْتِنَامَه

أفَظَنُّوا بِأنَّ أمْرَك نَهْيٌ
أم إلَى النَّدْبِ أوّلُوا أحْكَامَه ؟

أمْ خِطَابٌ لَهُمْ أتَى فيه نَسْخٌ
رَفَعَ الْحُكْمَ لِي ، وأبقى ارْتسامَه ؟

(I) كاد يقلب المعنى في صدر البيت لان متعَدّي أشكو ينصرف للمشكو منه وكاف الخطاب للمدوح فيصير هو المتظلم منه ولو قال : انا اشكو اليك دهرا غدا في .... لسلم من هذا الخطا.

فكأنَّ الذي بِهِ لِي أمَرْتُم
قِطْعَةٌ مِنْ قُلُوبِهِم ، أوْ غَرَامَه

أوْ رَأوْا قَدْرَ ذَاكَ يَعْظُمُ عَنْكُمْ ،
أو رَأوْني صَغُرت عَن ذِي الْمَقَامَه

أم عَصَوْا أمْرَ وَاجِبٍ لامْتِثَال
أمِنُوا مِنْهُ بَطْشَه وانْتِقَامَه

إنْ يَكُنْ لِي اسْمُهُ وهُم أكَلُوهُ
أنْتَ أولى بِأنْ تَوَلّى احْتِكَامَه

فَاحْمِنِي يَا مَلِيكُ وَارْفَعْ مَقَامِي
مِنْ أعَادٍ وَحُسَّدٍ نَمَّامَه

أنْتَ أعْلَى مِنْ أنْ يَغُرَّكَ وَاش
فَتَظُنَّ السَّرَابَ مَاءَ غَمَامَه

جُدْ عَلَى الْعَبْدِ يا أميرُ عَلَى قَدْ
رِكَ فِي الْفَضْلِ وَالْعُلاَ وَالفَخَامَه

[16 — ب] / جُدْ بما لِلْفَنَا يَصِيرُ ، لِمَنْ جَا
دَ بِمَا الدَّهْرُ لَيْسَ يُفْنِي دَوَامَه

وعجيبٌ فِي مِثْلِ مُلْكِكَ مِثْلِي
أن يُرى حِلْفَ فَاقَةٍ وَذَمَامَه

أنا من ذُمَّ دَهْرُهُ فيه ، لاَمَنْ
بِهِمْ الدَّهْرُ يَسْتَحِقُّ الذَّمَامَهْ

لَيْسَ فِي النَّظْمِ وَالبَلاَغَةِ مثْلي
فِي مَدَى الدَّهْرِ ، خَلْفَه وَأمَامَهْ

لَوْ عَلَى قَدْرِنَا الْمُلُوكُ تُجازي (I)
لَمْ يَفُزْ مَادِحٌ مَعِي بِقُلاَمَهْ

(I) في الاصل ستاوي ، وفي ز ، ح : تساوي بتقديم التاء وكلاهما خطا.

كَمْ حَوَى فَضْلُكُمْ سِوَى مُسْتَحِقٍّ
وَيَرَى الْمُسْتَحِقُّ مِنْهُ الْغَرَامَهْ

فَضْلُكُمْ عَمَّ كَافِرًا وَعَدُوًّا
وَأَخُو مَدْحِكُم يُنَاجِي اغْتِمَامَهْ

لَمْ يَسُؤْنِي الْخُمُولُ لَوْ لَمْ يُوَجِّهْ
كُلُّ دَهْرٍ عَلَيَّ فِيكَ مَلاَمَهْ

سَوِّ في النَّفْعِ بَيْنَ خَادِمِ مَدْحٍ
فِي عُلاَكُمْ ، وَمَنْ تَرَى اسْتِخْدَامَه

أوْ طَرِيقًا بِهِ تُشَرَّفُ قَدْرِي
فَيُجَلِّي مِن افْتِقَارِي ظَلاَمَهْ

لَمْ أرِدْ بِالْيَسَارِ إلاَّ لأضْفِي
فِيكَ مِنْ أطْيَبِ الْمَدِيحِ تَمَامَهْ

دُمْتَ فِي العِزِّ وَالْكَمَالِ مُهَنًّا
مَالِكَ الْمُلْكِ بَدْأَهُ وختامَهْ (1)

ذكر الاسباب المفضية الى خلاء جبل وسلات
وفرار اسماعيل منه الى الغرب
وما كان فى ذلك من الصنع الجميل

كان لأهل وسلات في هذه السنة زَرْع خصيب بِسَفح الجبل ، فأرسل مولانا — أيده الله تعالى — المحلاّت [لأكله] قَطْعًا لِلْمَادَّة [عنهم] ، وتضييقا عليهم ، فأول من خرج بِمحلَّته حسين كاهية أبو طاغان ، وكان خروجه لثمان

(1) هذه القصيدة من غرر شعر الغراب خصوصا في حكمها التي احلها محل الغزل المتعارف ، وفي عتابها الاخير تعبير عن غضبه وآماله ومطامحه التي تدور حول خطة الكتابة ، كما افصح عنها في كثير من شعره **بديوانه.**

بقين من شعبان (1762/1175) . ثم خرج بعده الوزير الأجَلّ رجب خزندار ، وأبو عبد الله محمد بن عمّار باش حانبه ، كل واحد منهما بمحلّة . وكان خروجهما لليلتين خلتا من شهر رمضان ، ونزلت كل محلة بناحية من نواحي الجبل وطَفِقُوا يأكلون الزرع ، فاستهلكوا منه ما كان بالسَّفْح ولم يَسْلَم منه إلاّ ما كان بالأوْعَار ، وهو أقلّه . ولمَّا فرغوا منه رجعت المحلات الثلاث في أول شوال .

وفي ذلك يقول الكاتب أبو العباس أحمد سميّة مؤرخا :

أيها الحاكم الذي جاء في العدل ما يجب
بَشَّر الدهر كل من لك بين الورى محب
قد تَفَاءَلْتُ أرّخوا (زَرْع وِسْلاتَ قد نُهِب)
— 1175 —

ثم لما رجعت المحلات عنهم نزل جيش منهم وأغاروا على حِلَّةٍ لرياح وكانت الكعوب / والقوازين نُزُولاً بالقرب منها ، فأتاهم الصَّرِيخ فركبوا [17 — أ] وأدركوهم ، وأحاطوا بهم ، وأخذوهم أسارى ولم يَنْجُ منهم إلاّ ما شَذَّ ، وأرسلوهم إلى مولانا — أيَّدَه الله تعالى — فاستخدمهم في قناة الماء الذي جلبه من عين الجبل الأحمر إلى تونس — وسيأتي ذكرها — إن شاء الله تعالى — ثم نزل جيش آخر منهم ، وأوْعَبَ فيه صناديدهم وذَوُو النَّجْدة والشجاعة منهم ، وأغاروا على دوفان فقاتلوهم ، فنصرهم الله تعالى عليهم ، وقتلوا منهم طائفة عظيمةً ، وأسَرُوا الباقين وأرسلوا بهم إلى الحضرة أيضا فاستُخْدِموا في قناة الماء . وكان جملة من أسّر منهم نحو الأربعمائة نفس ، فَفَتَّ ذلك من أعْضَادهم ، وكَسَرَ من شَوْكَتهم ، وهضم من جانبهم .

وانضم إلى ذلك أنَّه ورد على الحضرة في شهر رمضان من هذه السنة 1175 قبْجي باشا رسولا من الحضرة الخاقانية مُبَشِّرًا بولادة ابن لمولانا السلطان مصطفى خان ، ابن السلطان أحمد خان — رحمه الله تعالى ، وأمر بزينة البلاد ، وإطلاق المدافع بشائر ، وذلك لأنه مضت مدة طويلة ولم يولد لآل عثمان ولد ذكر حتى وقع الإرْجاف بأن نَسْلَهم قد انقطع . فإن السلطان محمود ابن

السلطان مصطفى تولّى السلطنة حين خُلِـعَ عمه السلطان أحمد سنة ثلاث وأربعين ومات سنة ثمان وستين ولم يُعقِب ، ولم يُولَدْ له أصلا ، فتولّى بعده أخوه السلطان عثمان ومات في سنة اثنتين وسبعين ولم يولد له أيضا ، فتولى بعده ابن عمه السلطان مُصْطَفى هذا — رحمه الله تعالى — فلم يولد له إلى هذه السنة . فلمَّا وُلِدَ له هذا الولد حصل له ولجميع أهل مملكته سرور عظيم ببقاء هذا النسل المُبارَك ، وأرسل إلى أقطار ممالكه بالبشائر والأمر بالزينة في البلدان ، وعَمَل المُفرَّحَات ، فمكث قبْجي باشا بالحضرة بقية شهر رمضان .

وصف مهرجان

ولما دخل شوّال أمْهَلَ مولانا ريثما انقضت زينة العيد ، ثم أمر بزينة البلد ، وإطلاق المدافع أياما متوالية ، وكتب بذلك إلى جميع القِلاع والحصون بعمله ، فزُيِّنَتِ الأسواق المُعْتَبرَة أفخر زينة ، كسوق البَشَامقيّين ، وسوق الترك ، وسوق السلسلة ، وسوق العَطّارين ، وسوق الشوّاشين ، وهذه الأسواق كلها متجاورة ، فاتصلت الزينة بها مسافة طويلة من غير فصل ، وزُيِّن غير هذه من الأسواق بنواحي البلاد ، واحتفل الناس في ذلك احتفالا عظيما ووقع بين أهل الأسواق التنافس والتفاخر ، فبالغوا في الاحتفال : وأتوا بضروب الأمتعة الرفيعة من الستاير المُذْهَبَة ، وصُنوف الدّيباج ، وكَسَوْا بذلك الدكاكين والحيطان ، وعلّقوا المرايا المُزَوّقة ، وقناديل الذهب والفضة ، والمنجانات (1) الضَّارِبَة بأنواع النَّغَم ، ولم يتركوا شيئا من الآلات الفاخرة ، وكُسَى البيوتِ المنسوجة / بالذّهب والفِضّة ، وأنواع اللُّعَبِ والفُرَجِ والأمور الغريبة إلاّ أتوْا به ، واحتفلوا أيضا في نفايس الأطعمة [17 — ب] والأشربة والاستكثار منها في كل ليلة ، وتعظيم من يأتي اليهم من النَّظّارَةِ بِرَسْمِ الفُرْجَةِ وخدمته أحسن خدمة ، ورتّبوا في كل ليلة من أنواع الملاهي وآلات الطرب على اختلاف أنواعها ما يَجلّ عن الوصف ، واستجلبوا

(1) بالاصل الانجابات والاقرب ما ذكرنا لان المنجانات جمع منجانة ، وهو اصطلاح مغربي للمنقالة اي الساعة الدقاقة المعلقة.

حُذّاق المُغَنِّين والضرّابين ، وبذلوا لهم كل نفيس . ويستدعون أعيان الناس في كل ليلة وينصبون لهم الكراسي المُبَطّنَة بصنوف الحرير المُزَوّقة بالذهب ، ويستدعون قبجي باشا ليشاهد صنيعهم واحتفالهم فكان ما يراه من ذلك يسره ويعجبه غاية الإعجاب ، وجعلوا لُعَبًا تَسْتَفِزُّ الخواطر ، وتَحْبِس الأبصار من التصاوير الغريبة كوقوع الحرب بين صورة الأسد وصورة النَّمِر وغير ذلك . ورتّبوا جميع ذلك على أحْسَن ترتيب وأبْدَع نظام ، وصَرَفُوا فيه أموالا جليلة ، واستمر ذلك نصف شهر ، وهَرَعَتْ الناس من المدن والقرى بقصد الفُرْجة ، فكانت هذه الزينة المباركة أحَدَ الأسباب التي وَهَّنَتْ أمْرَ وسلات ، وهَوَّنَتْ أمرهم ، فانّ جميع من كان في قلبه شيء من أمرهم لمّا رأى احتفال مولانا — أدام الله بَهْجَتَه ومَسَرّته — بما احتفل به علموا أنه متهاون بهم ، غيرُ مُكْتَرِث بشأنهم ، ولا مُهْتَمّ بِخِلافهم ، فأسْقَطَ ذلك هَيْبَتَهم مِنَ الصُّدور ، وبسطت الأعْرَابُ أيديهم بالغارات على أطراف الجبل ، وتكالبوا عليه ، واستمر ذلك إلى آخر ذي الحجة من السنة 1175 .

وكان أبو الضياف ابن أبي الحسن كاهية الباجية نازلا بِمَحَلّته على سليانه ، فبلغه أن أهل وسلات ينزلون بِمَوَاشيهم إلى بِئر بسفح الجبل يسمى بئر الأضراس يسقون منه ، فركِب في خيله ومعه العرب حتى بلغ البئر فكَمِن بمكان قريب منه يتربص لُحُوق بقيّة خيله . فانفلت فرسان من عنده فأغاروا على البئر ولم يشعر بهم فوجدوا عليه غنما فساقوها . وهرب من كان على البئر من أهل وسلات ، وتَحَصّنوا بمكان ودَخّنُوا إلى إخوانهم (1) . فنزلت إليهم طائفة فأدركوا أولئك الفُرْسَان وقاتلوهم ، فقتلوا منهم فارسا وأخذوا فرسه وافتكوا غنمهم . فلَمّا رأت خَيْلُ أبي الضياف الكامنون معه الدُّخَان فزِعوا وظنوا أن إسماعيل غزاهم فهربوا ، ولم يبق مع أبي الضياف إلاّ اثنا عشر فارسا فقَصَدَ ناحية الدخان ، واستحيى من الفرار ، فتلقاه فارس يركض من الخيل المنهزمة فأخبره بما وقع لهم ، فسار أبو الضياف قُدُماً ، فقيل له : « ما تصنع ؟ تُغَرِّر

(1) علامة الخطر التدخين.

بنفسك ، ونحن قليلون لا غَنَاءَ عندنا ؟ » فقال : « لا أقلَّ من [أنْ] أرى الْعَدُوَّ
[18 — أ] بعيني وأرجع » / . فلما قرب من الخيل إذا بالأصوات مرتفعة بالغِناء من ورائه ،
وإذا هم أهل وسلات الذين نزلوا راجعين بغنمهم التي انتزعوها ، فنظر فإذا هو حائل بينهم وبين الجبل، فقصدهم فلما رأوه ظنوه إسماعيل نزل إليهم فتَلَقَّوه فَرِحين . فلمَّا قَرِبُوا منه شنَّ عليهم الغارة بتلك الخيل القليلة فسُقِط في أيديهم ، وألقى الله في قلوبهم الرعب ، وهزمَهم هَزيمةً شَنْعاء فقتل منهم ثلاثين رجلا ، وأسر أكثر من مائة ، وساق الغنم والاسارى بعد أن نزع أسْلِحتهم ورجع بهم . وكان ذلك عند غروب الشمس فلم يزل سائرا بهم ليلته إلى الصباح ، وتراجع إليه كثير من خيله فأعانوا على سَوْق الأسَارى إلى أن بَلَغ إلى محلّته ، فأرسل بهم إلى الحَضْرة .

ثم بعد أيام عاد إلى غزوهم ومعه محمد بن سلطان شيخ الحنانشة — كان قد أتى في قومه مُنْجِدا وخادما لمولانا بقتال أهل وسلات — فصعدوا الجبل إلى أن بلغوا الجبيل إحدى القرى به فَكَمَنوا ، وأرسلوا فرسانا قليلين فأغاروا عليهم ، فتسامعوا وركب إسماعيل فانهزم أولئك الفرسان أمامه إلى أن بلغوا حيث الكمين فثاروا عليهم ، فكانت الكَرَّةُ على أهل وسلات ، وانهزم إسماعيل وقُتِل من جنده جماعة ، وأسِرَ منهم تسعة عشر رجلا ، ورجع أبو الضياف بالأسارى ، وأرسل بهم إلى الحضرة .

انتهاء ثورة وسلات

ولمَّا بلغ إسماعيلَ أنَّ مولانا — زاده الله توفيقا — استبقى الأسْرى ولم يقتل منهم أحدا استراب لذلك ، ورأى لأهل وسلات تَغَيُّرا وانكِسارا ، وَوَجْداً عظيما على أسَاراهم ، ولا يزال الرجل منهم يأتيه ويجلس اليه وولده وأخوه وأبوه وابن عمه أسير . فَخَشِيَ أن تَحْمِلَهم الشَّفَقَة على أقاربهم على الطاعة والإنابة لمولانا أعزه الله تعالى ، ووَدَّ أنْ لَوْ كان قَتَلَهُم . فَحَمِيَتْ بذلك نفوسهم ، وقَوِيَ غَضَبُهم وحَرَدُهم .

وانضم إلى هذه الوقائع أن مولانا — سدد الله آراءه — رأى رأيًا كان فيه كلُّ صلاح وسداد : وهو أنه كتب أوامره السعيدة إلى جميع العرب بأقطار المملكة حيثما كانوا بالتَّهَيُّؤ والاستعداد ، وأن يكونوا على أهْبَة الحَرْب إلى أن يُرْسِل إليهم من يستنفرهم إلى حيث يأمُرُهم ، فلما بلغ ذلك إسماعيل استراب له ، وخشي أن يكون عن مُوَاطَاة من أهل وسلات لِمَا أجهضهم من قتل رجالهم وأسرهم ، وارتابهم وأنكرهم وأنكروه ، فعزم على الفرار .

فلما كان يوم الخميس مُنْسَلَخ ذي الحجة رَكِب وأظهر أنه يريد أن يُطْلِق للعرب الذين معه من أولاد سعيد وغيرهم رَوَاتِبَهُم ، وأخفى أمره
إلى أن نزل من الجبل من غَرْبِيِّه ، وركب الطريق إلى قسنطينة / حيث أبوه [18 — ب]
مُسْتَقِرٌّ . فشاع الخبر بذلك في الجبل فركب القائد أحمد السهيلي في أولاده وأهل بيته ومن تعلق به واتبعه هارباً فاراًّ بنفسه . ولمَّا رأى ذلك أهل وسلات تحيّروا وألقى الله الرعب في قلوبهم ، وسَلَبَهُم الرَّأيَ وأعماهم عن طريق التدبير ، وبَقُوا فَوْضَى غير مجتمعين على كلمة . فلما جَنَّ عليهم اللّيل أقبلوا نازلين من الجبل بحرمهم وذراريهم أفواجا متفرقين من كل ناحية ، ولا علم لأحد ممن حولهم من الأعراب بأمرهم . فلم يشعروا بهم إلا وهم نازلون على ما وصفنا ، فاستقبلوهم ينهبون ويأخذون ، وصعدوا الجبل ونهسوا جميع قراه ، واستولوا على ما فيها ، وامتلأتْ أيديهم من الغنائم والأموال . وبلغ الخبر أبا الضياف كاهية فأقبل حتى صعد الجبل يوم الجمعة غرة المحرم سنة ست وسبعين (1176/1763) فوجده خلاء بلقعا والعرب تَنْهَب وتأخذ ما قدرت عليه . وطار الخبر بذلك إلى مولانا — أدام الله نصره وتأييده ، فوصل إليه البشير يوم الجمعة المذكور فأرسل الوزير الاجل الحاج علي بن عبد العزيز لتسكين الأعراب ، وتسديد الأمور ، والنظر في شأن أهل وسلات ، فوصل في أسرع مدة وقرّر الأمور ومهّدها .

جلاء اهل وسلات

وأمر مولانا – أعزه الله تعالى – بأهل وسلات أن يتفرقوا في البلاد ، ويسكنوا حيث شاءوا منها ، ولا يعودوا إلى جبلهم البتة ، وأمّنهم وعفا عنهم أجمعين ، وأطلق أسارَاهم ، ولم يُرق دم رجل واحد منهم . وعفا أيضا عن العرب الذين ظاهروهم على الفتنة أجمعين ، وأمر أن يعود كل فريق منهم إلى أهله وأمن الناس وسكّن البلاد ، ورتّبَ الأمور ، واستقرت الأحوال على أحسن نظام . وبقي جبل وسلات خلاء خاويا على عُروشه إلى وقتنا هذا .

وأما إسماعيل فإنه بلغ إلى قسنطينة واجتمع بأبيه وأقام مدّة ، ثم انتقل إلى الجزائر فهو فيها إلى الآن ، وحسم الله تعالى مادة هذه الفتنة ، ووقَى شرَّها ، وكفَى أمرَها .

ومن الاتفاقات الغريبة أنْ فتَح الله تعالى لمولانا ثلاثةَ فُتوح عِظام كل واحد منها في يوم الخميس من ذي الحجة . وذلك أنّ فتْح تونس والظّفرَ بعليّ باشا وقتل وَلَده محمد باي كان في يوم الخميس لِستّ خلَوْن من ذي الحِجة سنة تسع وستين كما سيأتي – إن شاء الله تعالى ، وفتْح جمّال وفرار إسماعيل منها واستباحة الجند لها كان في يوم الخميس غرة ذي الحِجّة سنة اثنتين وسبعين كما تقدم ، وفتْح وسلات وفرار إسماعيل منه ونزول أهله كان في يوم الخميس مُنْسلَخ ذي الحجة من سَنَة خمس وسبعين .

ذكر ما قيل من الشعر فى فتح وسلات

تهنئة لمولانا أدام الله تعالى هناه

قال الفقيه الأجل عبد اللطيف الطويّر القيرواني (1) :

[19 – أ] / فتْحٌ ونَصْرٌ وإسعادٌ وإقبالُ
لِمَنْ لَهُ خَضَعَتْ صِيدٌ وأقيالُ

(1) قاضيها وكبير مفاتيها ، شاعر مطيل مجيد ذو تصرف في المعاني وعاطفة نبيلة في شعره ، انظر ابن ابي الضياف 7 : 17 ، محمد النيفر 2 : 41.

ومنْ لَهُ هِمّةٌ شمّاءُ قدْ سُحِبتْ
لَهَا عَلَى الفَلَكِ الدَّوّارِ أذْيالُ

ومَنْ سَرِيرَتُهُ طابَتْ وسِيرَتُه الـ
ـغرّاءُ سَارَتْ بِهَا فِي المُلْكِ أمْثالُ

عَلِيٌّ ابْنُ حُسَيْنٍ مَنْ لهُ فَخرٌ
عَلَى المُلوكِ وإعْظَامٌ وإجلالُ

سَهْلُ السَّجَايا نَظِيفُ العِرْضِ صَيِّنُهُ
عَذبُ المَوارِدِ فَيّاض ومِنْهَالُ

جَمُّ الفَضَائِلِ مَأمُونُ الغَوائِلِ مَحْـ
ـمُودُ الفعَائِلِ مِعْطَاءٌ ومِفْضَالُ

صُبْحُ السِّيادة وضَّاحٌ (1) بِغُرَّتِهِ
إذا ضَفَا لِدَيَاجِي الخَطْبِ سِرْبَالُ

نُورُ البَشَاشَةِ لَمّاعٌ بِجَبْهَتِهِ
كَأنّه مِنْ تَوالِي البِشْرِ سَيّالُ

لاَ تَحْسَبِ البَدْرَ يَحْكِي نُورَ بَهْجَتِه
البَدْرُ يُدْرِكُهُ نَقْصٌ وَإكْمَالُ

لاَ تَحْسَبِ الغَيْثَ يَحْكِي فَيْضَ نَائِلِه
الغَيْثُ يَغْشَاهُ إقْلاَعٌ وَإمْحَالُ

يُولِي النّدى ويُوالِيه بِلاَ مَهَلٍ ،
وَيَعْتَرِي السُّحْبَ إبْطَاءٌ وإمْهَالُ

حَاذَى مَكَارِمَ أخْلاَقِ لِوَالِدِهِ ،
وَاللَّيْثُ يَحْذُوه فِي الأخْلاَقِ أشْبَالُ

(1) في ز : وضــاء .

مَلْكُ النَّزَاهَةِ ، لاَ لَهْوٌ وَلاَ طَرَبٌ
وَلاَ أغَنٌّ وَلاَ جَامٌ وَجِرْيَالُ

خَلْقٌ وَسِيمٌ وخُلْقٌ كَالنَّسِيمِ سَرَى
وَهْنًا عَلَى الزَّهْرِ قَدْ غَذَّاهُ هَطَّالُ

أقَامَ لِلْحَقِّ أرْكَانًا مُشَيَّدَةً
إذْ لَمْ تَلُحْ لِرُسُومِ الحَقِّ أطْلاَلُ

فَحُكْمُهُ لَيْسَ فِي تَصْرِيفِهِ عِلَلٌ
وَفِعْلُهُ فِيهِ تَصْحِيحٌ وَإعْلاَلُ

لَهُ لِسَانٌ بِذِكْرِ اللَّهِ عَوَّدَهُ
وَخَاطِرٌ فِي جَلاَلِ اللَّهِ جَوَّالُ

أسُّ العُلاَ وَإيَاسٌ فِي نَبَاهَتِهِ
إنْ عَنَّ لِلأمْرِ إبهامٌ وإشْكَالُ

كَشَّافُ مُبْهَمِهِ ، فَتَّاحُ مُغْلَقِهِ
وَدُونَ إدْرَاكِهِ بَابٌ وأقْفَالُ

إذا تأملَ فِي مِرْآةِ فِكْرَتِهِ
بَدَا لَهُ مِنْ خَفِيِّ الحَالِ تِمْثَالُ

لَيْثُ الحُرُوبِ وَبَدَّادُ (1) الْخُطُوبِ إذا
يَرْتَاعُ لِلْحَرْبِ فُرْسَانٌ وَأبْطَالُ

لَهُ الجَوَانِحُ وَالأهْوَاءُ جَانِحَةٌ ،
سوى رَعَاعٍ رَعَايَا عَنْهُ قَدْ مَالُوا (2)

عَاثَتْ بِأنْحَاءِ إفْرِيقِيَّةٍ فِرَقٌ
طَالَ الزَّمَانُ وَمَا عَنْ طَبْعِهِمْ مَالُوا

(1) في ز ، ح : بـدار.
(2) من هذا البيت بدء تاريخ الثورة بهذه القصيدة التي هي كالملحمة وبدا بحوادث جمال.

لا جَمَّلَ اللَّهُ جَمَّالاً ، لَقَدْ نَزَلَتْ
بِهِمْ مِنَ الخُلْفِ آجَالٌ وأوْجَالُ

شَقُّوا الْعَصَا ، وَتَمَادَوْا فِي ضَلاَلَتِهِمْ
فَحَلَّ سَاحَتَهُمْ خَطْبٌ وأهْوَالُ

/ بالإرْبِعَاءِ لَقَدْ حَاطَ الْخَمِيسُ بِهِمْ [19 – ب]
كما أحَاطَ بِسَاقِ الرِّجْلِ خَلْخَالُ

فَبَعْضُهُمْ مِنْ شَعُوبٍ ذَاقَ كَأسَ رَدًى ،
وَبَعْضُهُمْ فِي شِعَابِ الأرض قَدْ سَالُوا

«فَأصْبَحُوا لاَ تُرَى إلاّ مَسَاكِنُهُمْ» (1)
وَنِسْوَةٌ ومَسَاكِينٌ وأطْفَالُ

سَاقَ الشِّقَاقُ إليهم كُلَّ دَاهِيَةٍ
فَمَا الذي صَنَعَ البَاغُونَ ؟ مَا نَالوا ؟

أوْلَيْتَهُمْ مِنْكَ عَفْوًا عَنْ جَرَائِمِهِمْ
إذْ كُنْتَ تَعْلَمُ أنَّ الْقَوْمَ جُهَّالُ

لاَ زِلْتَ بِالْعَفْوِ بعْدَ الظَّفْرِ مُتَّسِماً
فَالعَفْوُ لَيْسَ لَهُ مَذْمُومَةً حَالُ

وغَرَّ وسلاتَ من أطْمَاعِهِم خِدَعٌ
فَسَاقَهُمْ لِمَهَاوِي الْهُلْكِ آمَالُ

لاَحَتْ أكاذِيبُ أطْمَاعٍ لَهُمْ فَغَدَوْا
كَمَا يَلُوحُ لآلِ الْخَيْبَةِ الآلُ (2)

وَبَايَعُوا الْمُرْتَضَى البَاشا أبا حَسَنٍ
عَلِيًّا ابْنَ حُسَيْنٍ ثُمَّ قَدْ حَالُوا

(1) اقتباس رائع زاد حسنه ما عطف عليه.
(2) الآل : السراب.

وَاحْتَلَّ مَنْزِلَهُمْ مِثْلَ النَّزِيلِ بِهِمْ
كَيْمَا يَزُولُوا عن الشَّحْنَا ، فما زَالوا

لاَ طِبَّ يَنْجَعُ فِي حِقْدِ النُّفوس وَقَدْ
يَشْفِي الضَّغَائِنَ هِنْدِيٌّ وَعَسَّالُ

خَانُوه عَهْدًا ، فَخَابُوا صَفْقَةً خَسِرَتْ
خُسْرًا لِمنْ بِصُواعِ الغَدْرِ يَكْتَالُ

مَا أنْكَرُوا مِنهُ إلاَّ أنَّ شِيمَتَهُ
حِلْمٌ وَعَفْوٌ وَإنْصَافٌ وَإفْضَالُ

مَا أنْكَرُوا مِنْه إلاَّ أنَّ دَوْلَتَهُ
غَرَّاء ، لَيْسَ لَهَا فِي المُلْكِ أمْثَالُ

بَرَايِرٌ في وَخِيمِ البَغْي قَدْ رتعُوا
وَمَرْتَعُ البَغْيِ لِلْبَاغِينَ قَتَّالُ

طِبَاعُهُمْ لِضُرُوب الشَّرِّ مَائِلَةٌ
وَالشِّبْهُ لِلشِّبْهِ جَذَّابٌ وَمَيَّالُ

كأنّهم في نِطَاقِ الخُلْفِ قَدْ خُلِقوا
إنْ يَسْمَعُوا دَاعِيًا لِلْخُلْفِ يَنْثَالُوا

إنّ الإبَاءَ مِنْ الآبَاء شِنْشِنَةٌ
تَوَارَثُوها وَأعْمَامٌ وأخْوَالُ

يَمْشِي الهُوَيْنَا سِوَاهم إنْ أتى خَطَلاً
وَهُمْ لَهُمْ في طَرِيق الغَيِّ إرْقَالُ

أمَا نَهتَهُم عَظِيمَاتٌ بهم نَزَلَتْ
قَبْلاً ؟ ومَاذَا لَقِي بِالقُرْبِ جمَّال ؟

وحَارَبوا الأصْلَ (1) فَاجْتُثَّتْ أصولُهُمْ
وَنَالَهُم مِنْهُ أنْكَالُ وأكْبَالُ

(1) اصل الممدوح وهو ابوه حسين بن علي.

رَاحُوا أيادِي سَبَا (1) في كُلِّ نَاحِيَةٍ
وَفِي الفَيَافِي لَهُمْ حلٌّ وَتَرْحَالُ

فَلِلصِّغَار صَغَارٌ ، والرِّجالِ ردًى ،
وَلِلْحَلاَئِلِ إحْصَانٌ وَإحْلاَلُ

وخَالَفُوا مِنْ فُرُوعِ الأصْلِ أوْسَطَهُمْ
فَنَالَهُم مِنْه خُسْرانٌ وأنْكَالُ

[إنَّ الأميرَ لَظِلٌّ الله مُنْبَسِطٌ
فِي الأرض يَأوِي لَهُ مَنْ سَاءَهُ الْحَالُ] (2)

ومن خطَا خُطوة يبغي إهانته
يناله في عمره بؤس وإذلال

/ وَلَوْ بَغَى جَبَلٌ يَوْمًا عَلَى جَبَلٍ [20 — أ]
لَدُكَّ مَنْ بِذَمِيمِ الغَيِّ (3) يَخْتَالُ

أفْعَالُهُمْ أصْبَحَتْ أفْعَى لَهُم وكما
دَانُوا يُدَانُون والعُمَّالُ أعْمَالُ

قَالُوا : (وَحِيدٌ) ! فَقُلْنَا : «الله نَاصِرُهُ
وَسَوْفَ يَعْضُدُهُ بِاللَّهِ أنْجَالُ»

شَاءُوا القِرَاعَ ، فَقُلْنا : دونَكُم جَبَلاً
فَنَاطِحُوه ، فَأنْتُمْ فِيهِ أوْعَالُ

يَكْفِيكُم البَغْيُ تَدْمِيرًا وَتَهْلُكَةً
فإنَّ عُقْبَاهُ أكْبَالٌ وأغْلاَلُ

فَالرّشد يَنْجَحُ آتُوه ، وَإنْ ضَعُفُوا ،
وَالْغَيَّ يَقْصُرُ أهْلُوهُ ، وإنْ طَالُوا

(1) مثل من تشتت اهل سبا اثر سيل العرم انظر الميداني I : 287 وانظر الزبيدي I : 77.
(2) هذا البيت ساقط بالاصل ومثبت في غيره ، والبيت بعده مرتب عليه.
(3) في ز : الختر ، والبيت تضمين لحديث نبوي.

رَاعَى ذِمَامَ دِمَاءٍ أنْ تُرَاقَ إذَا
مَا هَيَّجَ الْحَرْبَ إقْدَامٌ وإجْفَالُ

يَخشَى الإله ، ويَخْشَى أن تُبَاحَ لَهُمْ
يَوْمَ الْكَرِيهَةِ نِسْوانٌ وأطْفَالُ

فَسَلَّم الأمْرَ لِلْمَوْلَى وأهْمَلَهُمْ :
إذْ لِلأمُورِ مَوَاقِيتٌ وَآجَالُ

بالحَصْرِ قَابَلَهُمْ ، بِالْجُوعِ قَاتَلَهُمْ :
والجُوعُ لِلْجَمْعِ مُجْتَاحٌ ومقْتَالُ

دَعَا أبَا مَالِكٍ (١) فَاحْتَلَّ سَاحَتَهُم
لأنَّهُ لِقُوى الأقْوَامِ حَلاَّلُ

وَمَنْ أبو مَالِكٍ دَبَّتْ سُلافَتُهُ
فيه تَقَطَّعُ أمْعَاءٌ وأوْصَالُ

إذا تَخَلَّلَ جُثْمَانًا وَهِيَ خَلَلاً
ولَيس يَنْفَعُهُ قَبْضٌ وَإسْهَالُ

يُطْفِي الْحَرَارَةَ إذْ تَشْتَدُّ شُعْلَتُهُ
فَاعْجَبْ لِمَا فيهِ إطْفَاءٌ وَإشْعَالُ

فَنَالَ بِالصَّبْرِ مِمَّا كَانَ آمِلَهُ
مَا لَيْسَ يَبْلُغُ بِالحِيلاَتِ مُحْتَالُ

يَا أيُّهَا الْمَلِكُ الْمَأمُونُ ، نِيَّتُكُمْ
تَغْتَالُ مَنْ بِشِبَاكِ الْمَكْرِ يَحْتَالُ

تَخَيَّلُوا الشُّمَّ مِنْ وسَلاَتَ تَعْصِمُهُمْ
وَكَيْفَ يَعْصِمُ مِمَّا حُمَّ أجْبَالُ ؟

وأصْعَدُوا في ذُرَاهَا ثُمَّ أرْهَقَهُمْ
إلى النَّوَازِلِ وَالأخْطَارِ إنْزَالُ

(١) أبو مالك : كنية الجوع.

زُهَاءُ سِتَّمِئِين لِلرَّدَى نَزَلُوا
والْحَيْفُ لِلْحَتْفِ دَعَّاء ونَزَّالُ

فَعُصْبَةٌ هَامُهَا بِالقُضْبِ قد قُضِبَتْ
وَسِيقَ مِنْهَا إلى عَلْيَاكَ أحْمَالُ

جُسُومُهَا لِسِبَاعِ الوَحْشِ قَدْ تُرِكَتْ
وَلاَئِمًا ، فَعَلَيْهَا الطَّيْرُ تَنْثَالُ

وَزُمْرَةٌ في شِبَاكِ الْبَغْيِ قد عَلِقَتْ
فَسَاقَهَا ، وَلَها في السُّوقِ أكْبَالُ

بِيُمْنِ نِيَّتِكَ الْغَرَّاءِ حُشْتَهُمُ (١)
وأنْتَ فِي قَصْرِكَ الْمَعْمُورِ مِحْلاَلُ

جَاءُوا عُرَاةً عَلَيْهِم مِنْ قَبَائِحِهِم
ومِنْ ذَمِيمِ لِبَاسِ البغي أسمالُ

أمَّنْتَ رَوْعَتَهُمْ ، سَتَرْتَ عَوْرَتَهُمْ ،
كَسَوْتَهُمْ ، وَلَكُمْ بِالْعَفْوِ إفْضَالُ

/ تَضَعْضَعَ الْجَبَلُ الْبَاغِي بَرَابِرُهُ [20 — ب]
وهَزَّهُ مِنْ هَلاَكِ الْقَوْمِ زِلْزَالُ

حَتْفٌ لَهُمْ جَاءَ بِالنَّصْرِ القَرِيبِ لَكُمْ
والحَتْفُ لِلْفَتْحِ في مَقْلُوبِهِ فَالُ

كَالْفَجْرِ إنْ ظَهَرَتْ حِينًا بَشَائِرُهُ
يَلُحْ مِنَ الْفَجْرِ لألاءٌ وَإقْبَالُ

أتَاكَ نَصْرٌ بِلاَ خَيْلٍ وَلاَ خَوَلٍ
مَا إنْ تَخَيَّلَهُ وَهْمٌ وَلاَ بَالُ

كَانَتْ عُرَى الْبُؤْسِ وَالْبَلْوَاءِ مُبْرَمَةً
فَحَلَّهَا مِنْ خَفِيِّ الألْطَافِ حَلاَّلُ

(١) حشتهم : من حوش الصيد الى الحبالة .

حَلَّ الْمُحَرَّمُ بِالْبُشْرَى لَكُمْ ، وَلَهُ
عَلَيْهِمُ بِطُلُوعِ النَّحْسِ إهْلاَلُ

فَفِي المُحَرَّمِ بَاتَ الْقَوْمُ فِي رَجَبٍ (1)
لَهُمْ بِوِسْلاَتَ وَيْلاَتٌ وإعْوَالُ

وأنْزَلَتْهُمْ لَكَ الأقْدَارُ مِنْ قُنَنٍ
وليس لِلْبِيضِ وَالْخَطِّيِّ إعْمَالُ

صَاحَ الْغُرَابُ بِشَمْلِ الْقَوْمِ فَاعْتَسَفُوا
مَهَامِهَ الفِيحِ ، رُكَّابٌ وَرُجَّالُ

تَقَسَّمُوا بَيْنَ مَكْلُومٍ وَمُسْتَلَبٍ ،
وَهَالِكٍ بِالصَّدَى لَمْ يُرْوِهِ آلُ

جلَوْا حفاةً عُراةً مِنْ مَسَاكِنِهِمْ
لِمَا جَنَوْا ، ولَهُمْ فِي البِيدِ وَلْوَالُ

الهَمُّ مُنْتَظِمٌ ، والشَّمْلُ مُنْتَثِرٌ ،
وَالْقَلْبُ مُسْتَعِرٌ ، وَالدَّمْعُ هَطَّالُ

أسْتَارُهُمْ هُتِكَتْ ، عَوْرَاتُهُمْ كُشِفَتْ
وإنَّمَا هِيَ إدْبَارٌ وإقْبَالُ

عَلَى البِغَالِ رِذَالٌ ، فِي المَفَاوِزِ قَدْ
تَاهُوا ، فَلَمْ تَنْجُ أرْذَالٌ وأبغَالُ

كَمْ قَرْيَةٍ قَبْلَهُمْ بِالخُلْفِ قَدْ بَطِرَتْ
فَغَالَهَا مِنْ خُطُوبِ الدَّهْرِ أغْوَالُ

وَالْقَيْرَوَانُ دَهَتْها أيُّ دَاهِيَةٍ
وَهُمْ مَعَ الأصْلِ ، لاَ خَانُوا وَلاَ زَالُوا (2)

(1) في رجب : في فزع ، وفيه تورية ومشاكلة لمحرم.

(2) من هنا مبدا وصف اجلاء اهل القيروان بعد موت حسين بن علي فيهم ، وهو وصف معجب من شاهد عيان.

سِنِينَ خَمْساً أقَامُوا فِي حِيَاطَتِهِ ،
وَمَالَهُمْ عَنْهُ تَحْوِيلٌ وإبْدَالُ

طَوَى الطَّوَى زُمَرًا مِنْهُم وَأزْعَجَ أقْـ
ـوَامًا إلَى البَيْنِ أخْطَارٌ وَأهْوَالُ

حتَّى قَضَى نَحْبَهُ فِيهِم فدبَّ لَهُمْ
مِنَ الْمَكَارِهِ حَيَّاتٌ وأصْلال (1)

وَبَدَّدَتْ شَمْلَهُم فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ
أيْدِي الْخُطُوبِ فَلاَ أهْلٌ وَلاَ مَالُ

خَلَتْ مَسَاكِنُهَا ، جَلَت سَوَاكِنُهَا ،
فَأهْلُهَا فِي فَلاَةِ الأرض أرْسَالُ

حرُّ الهَجِيرَةِ يَكْوِي فِي جُلُودِهِمُ ،
كَأنَّهُمْ فِي ظِلاَلِ الأمْنِ مَا قَالُوا

تَجَرَّعوا مرَرَ الْبَلْوَى ، وَكَانَ لَهُمْ
مِنَ الأمَانِ وَخَفْضِ العَيْشِ سَلْسَالُ

فَكَم مِنَ الْخِدرِ والأسْتَار قَدْ بَرَزَتْ
خَرِيدَةٌ ، كَاعِبٌ ، هَيْفَاءُ ، مِكْسَالُ

تَحْكِي الْغَزَالَةَ لألاءً ، وَقَامَتُهَا
لَهَا عَلَى الغُصْنِ تعْجَابٌ وَتِمْيَالُ

/ كَالظَّبْيِ جِيدًا وَألْحَاظًا ، فَمُقْلَتُهَا [21 – أ]
مَكْحُولَةٌ ما لَهَا مِيلٌ وَكَحَّالُ

مَقْصُورَةُ الطَّرْفِ ، كَانَتْ فِي مَقَاصِرِهَا
وَطَرْفُها بَعْدُ فِي البَيْدَاءِ جَوَّالُ

عَنْ أعْيُنِ الإنْسِ قَدْ كَانَتْ مُحَجَّبَةً
فَصَارَ يَلْحَظُهَا وَحْشٌ وأوْرَالُ

(1) أصلال : جمع صل وهو اخبث الحيات.

لِلشَّمْسِ ضَاحِيَةً أضْحَتْ وَكَانَ لَهَا
فِي الْخِدْرِ مِن كِلَلِ الأسْتَار أظْلاَلُ

تَسَتَّرَتْ بِلَيَالِي الشَّعْرِ إذْ سُلِبَتْ
أثْوَابَهَا فَعَلَيْهَا الشَّعْرُ أسْدَالُ

تَبْكِي على الصَّخْرِ كالْخَنْسَاءِ حينَ بكَتْ
صَخْرًا أخاها ، ولاَ عَمٌّ ولاَ خَالُ

إنْ بَانَ حُرَّاسُهَا عَنْها فَحَارِسُهَا
فِي الْبِيدِ طَرْفٌ سَرِيعُ الفَتْكِ نَبَّالُ

وِسَادُهَا الصَّخْرُ مِنْ بَعْدِ الحَرِيرِ غَدَا ،
وَفَرْشُها بَعْدَهُ تُرْبٌ وأرْمَالُ

فَالْعَيْنُ هَامِيَةٌ ، وَالرِّجْلُ دَامِيَةٌ
وَالْقَلْبُ فيه حَزَازَاتٌ وأشْعَالُ

والْخِصْرُ يُنْهِضُهَا طَوْرًا فَيُقْعِدُهَا
عَنْ خَطْوِهَا مِنْ كَثِيبِ الرِّدْفِ أثْقَالُ

عَجِبْتُ لِلشَّمْسِ لَمْ تُكْسَفْ وَقَدْ طَلَعَتْ
مِنَ الْخُدُورِ شُمُوسُ الأرْضِ تَخْتَالُ

لاَ تَسْألَنْ عَنْ حَدِيثِ الْقَوْمِ كيفَ جَرَى
فَشَرْحُ مَنْ حَاوَلَ التَّفْصِيلَ إجْمَالُ

عُقْبَاهُمُ هَذِهِ كَانَتْ ! فَكَيْفَ بِوِسْلاَتٍ ،
وَهُمْ عَنْ طَرِيقِ الرُّشْدِ ضُلاَّلُ (1)

جَازُوا الْحُدُودَ ، ومَكْرَ اللَّه قَدْ أمِنُوا
وَلَيْسَ عَمَّا أتَوْا لِلَّهِ إغْفَالُ

(1) عود وانعطاف الى حوادث وسلات ، وهنا تتجلى عواطف النفس الكريمة في الاعتذار عن الثوار وطلب العفو عنهم.

سَلِ السَّبَاسِبَ مَاذَا قَدْ أحَاطَ بِهِمْ
يُنْبِيكَ عَنْ شَرْحِ حَالِ القَوْمِ تَسْآل

صَالَ البُغَاةُ وَنَارَ الْحَرْبِ قَدْ وَقَدُوا
وغَيْرَهُم بِلَظَى الهَيْجَاءِ هُمْ صَالُوا (1)

جَلَّ الْمُهَيْمِنُ مَنْ أحْكَامُه خَفِيَتْ
عَنْ أنْ يُحِيطَ بِهَا الأذْهَانُ وَالْبَالُ

وَأنْتَ أعْطَاكَ ما لَمْ يُعْطِه أحَدًا
مِنَ المُلُوك الأولى فِي مَجْدِهِمْ غَالَوا

حِلْمٌ وعَدْلٌ وَعَفْوٌ بَعْدَ مَقْدُرَة
وَعِفَّةٌ وَسَعَادَاتٌ وإقْبَالُ

هُمْ بِالْجَحَافِلِ قَدْ صَالُوا وَقَد غُلبوا ،
وأنْتَ بِاللَّه غَلاَّبٌ وصَوَّالُ

وَيَمْنَعُونَ أودَّاهُمْ رَغَائِبَهُمْ
وَأنْتَ فِي اللَّه لِلأعْدَاء بَذَّالُ

والنَّاسُ يَبْغُونَ منْكَ الْبَطْشَ مُنْتَقِمًا
وَأنْتَ فِي الْعَفْوِ رَغَّابٌ ومَيَّالُ

الْجَوْرَ رَامُوا ! وقَالوا : «عِنْدَكُم خَوَرٌ !»
وَأنْتَ تَتْرُك مَا رَامُوا ومَا قَالوا

اللَّه أثْنَى عَلَى الْعَافِي (2) وَأنْتَ لِمَا
أثْنَى الْمُهَيْمِنُ قَفَّاءٌ وفَعَّالُ

والرَّاحِمُون لِمَنْ فِي الأرْضِ يَرْحَمُهُمْ
مَنْ فِي السَّمَاء (3) ، بذا قَدْ صَحَّ أنْقَالُ

(1) في جميع النسخ : (رحال البغاة .... قد صالوا) ، ولا يستقيم لذلك معنى اللهم الا ان يكون قوله : قد صالوا ، اقتباس فيه اكتفاء يريد قوله تعالى « ثم انهم لصالوا الجحيم » اداه الى ذلك المجانسة مع اول البيت فاصلح على هذا التقدير.

(2) اقتباس من قوله تعالى « والعافين عن الناس الآية ».

(3) تضمين الحديث المشهور المسلسل بالاولية : « الراحمون يرحمهم الرحمان تعالى ، ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء ».

[21 – ب] / حَاشَاك ، حاشاك ، أنْ تُثْنِي عُقُوبَتَهُمْ
فَحَسْبُهُمْ مِنْ عِقَابِ اللّهِ مَا نَالُوا
العَفْوُ شِيَمَتُكُمْ ، والحِلْمُ حِلْيَتُكُمْ ،
وَالْخَيْرُ بُغْيَتُكُمْ ! وَالْقَوْمُ جُهَّالُ
وَأنْتَ فِي الأرْضِ ظِلُّ اللّهِ مُنْبَسِطٌ
عَلَى الأنَامِ لَكُمْ بِالْعَدْلِ إظْلاَلُ
وَالْحَمْدُ لِلّهِ لاَ فَضْلٌ عَلَيْكَ سِوَى
لِلّهِ ، فَهْوَ لَهُ مَنٌّ وَإفْضَالُ
وَالْحَمْدُ لِلّهِ مَا نَالَتْكَ مَأثَمَةٌ
مِنْهُمْ ، فَهُمْ حَاوَلُوا بَغْيًا ، وَهُمْ صَالُوا
هُمُ الّذين جَنَوْا ، هُمُ الذين جَلَوْا ،
وَلِلشِّقَاقِ بِهِمْ بَدْءٌ وَإكْمَالُ
وَاللّه يُولِيكَ تَأيِيدًا فأنت إلَى
عِبَادِهِ بِعَظِيمِ النُّصْحِ لَمْ تَألُو
أسْنَى الصَّلاَةِ مَقَامًا وَالسَّلاَمِ عَلَى
خَيْرِ الأنَامِ يَلِيهِ الصَّحْبُ وَالآلُ

وقال صاحبنا الاجلّ الوزير الكاتب أبو عبد الله محمد بن عبد الكافي المعروف بأبي عتّور (١) الصفاقسي القُرَشيّ :

لِلّهِ مَا أحْلَى سُرُورًا جَاءَنَا
بِبِشَارَةٍ تَمَّتْ بِهَا الأفْرَاحُ
قَدِمَ البَشِيرُ بِهَا إلَيْنَا لَيْلَةً
غَرَّاءَ مُشْرِقَةً ، فَطَابَ الرَّاحُ

(١) هو اصل البيت العتوري العثماني نسبا ، انظر النيفر وغيره.

طَابَ الزَّمان بِطِيبِ حُسْنِ حَدِيثِهَا
فِي مَجْلِس زَالَتْ بِهِ الأتْرَاحُ
نَاهِيكَ مِنْ مَلِك به كالكوكب الـ
ـدُّرِّي بَدَا ، وَجَبِينُهُ وَضَّاحُ
بَدْرٌ منير في سَمَاءِ سَعَادَةٍ :
الْوَجْهُ مِنْهُ كَأنَّهُ المِصْبَاحُ
مُتَجَلِّلٌ بِبَهَائِهِ مُتَهَلِّلٌ
مُتَوَكِّلٌ ، وَالنَّاصِرُ الفَتَّاحُ
فَتَحَ الأله لَهُ بِخَيْرِ غَنِيمَةٍ
وَانحلَّ مُغْلَقُهَا وَجَا الْمِفْتَاحُ
جَادَ الزَّمَانُ بِهَا عَلَى طُولٍ ، وَمَا
أدْرَاكَ مَا هِيَ ، مِنَّةٌ وَصَلاحُ
فأنَا الذي اسْتَبْطَأتُهَا ، فكأنَّنِي
أسْتَمْرِضُ الأيَّامَ وَهْيَ صِحَاحُ
حَتَّى تَفَضَّلَ ربُّنَا بِمَغَانِمٍ
وَأتَتْ لَيَالِي الْوَصْلِ وَهْيَ مِلاَحُ
وَتَبَسَّمَ الزَّهْرُ الأرِيجُ بِحَضْرَةٍ
وَتَبَاشَرَتْ بِوِصَالِهَا الأرْوَاحُ
وَتَمَايَلَتْ أغْصَانُ رَوْضَةِ مَالِكٍ
لِكَمالها وجَمَالِهَا نَرْتَاحُ
وترَنَّمت أطْيَارُهَا ، وتعَانَقَتْ
أشْجَارُها ، وَعَبِيرُهَا فَوَّاحُ
أقْمَارُها طَلَعَت ، وطَالِعُ سَعْدِهَا
ـ إن شَاءَ رَبِّي ـ دَائِمًا مُلْتَاحُ

وتزيّنتْ تلكَ الربوعُ ، وأوقدتْ
فيها الشّموع ، وصُفّت الأقداحُ

[22 ـ أ] / وجلوتُ فيها للوصال عرائسًا :
الخدّ وردٌ ، والثّغورُ أقاحُ

وخلعتُ فيها للجمال ملابسًا
وكذا العذارُ ، وما عليّ جُناحُ

ونظمتُ منْ حُرّ النّثار نفائسًا
ونثرتُ منظومًا ، وذاكَ مُباحُ

وأبيحتِ الأنفاسُ في طلبِ العُلا :
وكذا دماءُ البائحين تُباحُ

وتكاملتْ لذّاتُنا حتّى لقدْ
غابَ الرّقيب ، وهمُّنا مُنزاحُ

فالحمدُ للّه على نصرٍ سما
ويّ أتاناهُ العليّ الفتّاحُ

قصمَ العدا ، ومحا الرّدى ، فصفا المدى ،
وجلا الصّدى ، فاللّيلُ منهُ صباحُ

يا أيُّها الملكُ الذي هشّتْ إلى
تأميله الشُّعرا ، وفيهِ فلاحُ

يا منْ هوَ الغيثُ الغياثُ المُرتجى
في المحْلِ إذْ كلتا يديْه سماحُ

أندى منَ البحريْن حقّا كفُّهُ ،
بلْ جودُه للبرمكي فضّاحُ

منْ لمْ يفزْ بشمائلٍ أعطيتها
للغايةِ القُصوى عليه جُناحُ

منْ رامَ جانبكَ العليَّ إذايةً
سفّتْ عليه بالنُّواحِ رياحُ

فالجسمُ موقوفٌ عليكَ لخدمةٍ
والقلبُ ليسَ لهُ عليكَ براحُ

خذْها أبا حسنٍ عليًّا كاعبًا
عذراءَ بلْ حوراءَ وهيَ رداحُ

أمّتْ مديحكَ تبتغي نيلَ الرّضا ،
في ثغرها المشروبُ والتفّاحُ

دامتْ لكَ العليا فقلتُ مؤرّخًا :
«إنّا لنا ببقائكَ استرواحُ»

وقال أبُو العبّاس أحمد سميّة القيرواني الكاتب :

هناءٌ سنا الإقبال فيه يُباشِرُ
ومن نخوة للنّصرِ فيهِ البشائرُ

تبسّمَ وجهُ الدّهرِ بعدَ عبُوسه
ووجهُ عليّ بالبشاشةِ زاهرُ

مليكٌ لهُ في نخوةِ الملْكِ بهجةٌ
وذِكرٌ لهُ في سائرِ الأرضِ سائرُ

تُساعدُهُ الأقدارُ في كلّ ما يشا
فيقمعُ منْ عاداهُ ، والرّبُّ قادرُ

أيخشى ونصرُ اللّهِ يرعى جيُوشهُ ؟
ويحظى بما شا منْ لهُ اللّهُ ناصرُ

أتاهُ بشيرُ الخيرِ يومًا ، فأصبحتْ
عليْه لآلي البِشرِ ، وهي نواضرُ

وأحْشَاؤُهُ فِيها رِيَاضُ مَسَرَّةٍ
وأحْشَاءُ أهْلِ الْبَغْيِ فيهَا خَنَاجِرُ
طَغَوْا وَبَغَوْا وَالآنَ قَدْ آنَ حَتْفُهُمْ
وَمَا اللّهُ عَنْهُمْ غَافِلٌ ، فَهوَ حاضر
[22 ـ ب] / رَمَتْهُمْ عَلَى الأرْضِ المَنِيَّةُ بَغْتَةً
فَعَافَتْهُمُ لِلْخُبْثِ حَتّى الْمَقَابِرُ
وألْبَسَتِ الأحْيَا يَدُ السَّبْيِ ذِلَّةً ،
فَأبْغَضَهُمْ بادٍ رَآهُمْ وَحَاضِرُ
فَقُلْ لِذوي العصْيانِ : «هذا جَزَاؤُكمْ
جنَيتمْ ، وَمَن يَجْنِي له الدهرُ زاجرُ»
فَلِلْخَيْرِ فعلُ ابن الحُسَيْن مُحَرِّكٌ ،
وَمَنْطِقُهُ الدُّرِّيُّ (1) لِلْكَسْرِ جَابِرُ
فَيَا وَيحَ من عَادَاهُ ! لم يلْقَ نَهضَةً
يَعيشُ مُهَانًا وَهْوَ لِلْخَفْضِ عائرُ
إذا حَلَّ بَطْنَ الارض قَالَ مُؤرِّخا :
(فَدَارَتْ على أحْيَا الأعَادِي الدَّوَائرُ) (2)

وقال :

وسِلاتُ أضْحى (3) لِلْبَلاءِ مُصَاحِبا
وَعَلَيْهِ قَدْ صَبَّ الإلهُ مَصَائبَا
وَالْبَغْيِ مَزَّقَ سَاكِنِيه كَأنّهُ
جَوٌّ يُمَزِّقُ بِالرِّيَاحِ سَحَائبَا

(1) في ز : السروي.
(2) التاريخ صحيح بحساب الف بواحد على طريقة هذا الشاعر.
(3) في ز ، م : امسى .

أمْهَلْتَهُمْ ، وَبَعَثْتَ سَيْفَ سِيَاسَةٍ
فِيهِم ، فَأظْهَرَ في النُّحورِ عَجَائبَا
فَخَلِيلُهُمُ بَعْدَ الصَّفَا عَادَاهُمُ
وَوَدُودُهُمْ لِلْعَيْبِ أصْبَحَ هَارِبَا
دُمْ يَا أبَا الْحَسَنِ الرِّضَا فِي زِينَةٍ
وَاحْلُمْ عَلَى مَنْ جَاءَ نحوكَ تَائبَا
زَانَتْ بِكَ الدُّنْيَا فَقُلْتُ مؤرِّخًا :
«أمْسَى عَدُوُّك يَا مُزَيِّنُ خَائبًا»

وهذه المقطوعة صالحة في شعره ، سهلة الألفاظ منسجمة ، إلاّ أنّ قَوْلَه في التاريـخ : يا مُزَيِّن من الألفاظ العامية السافلة التي لا ينبغي أن تقع في خطاب الملوك ولا في مدائحهم ــ ولا سيما إن كانت الرّواية عنه بكسر الياء ــ هذا مع اقتداره على التاريخ وتفردُّه فيه بالانسجام والسهولة وعدم الحشو والتكلف والمناسبة للمقصود واختصاصه فيه بِالبَدِيهَة .

وله أيضا ، وقالها قبل الفتح :

جَاءَتْ سُعُودُكَ بِالْهَنَاءِ مُبَشِّرَهْ
وَبِطُولِ دَوْلَتِكَ السَّعِيدَةِ مُخْبِرَهْ
أوْقَاتُكَ ابْتَهَجَتْ ، وَأوْقَاتُ الْعِدَا
رَاحَتْ مُقَبَّحَةَ الْوُجُوهِ مُغَيَّرَهْ
وَغَدَتْ مُيَسَّرَةً أمُورُكَ كُلُّهَا
وأمُورُ أرْبَابِ النِّفَاقِ مُعَسَّرَهْ
مَا شِئْتَهُ الأقْدَارُ تَفْتَحُ بَابَهُ
فَيَجِيءُ سَهْلاً مِنْ إلَهٍ قَدَّرَهْ
مَنْ كَانَ عَوْنُ إلَهِهِ مَعَهُ فَلاَ
يَشْقَى وَيَظْفَرُ بِالّذِي قَدْ خَيَّرَهْ

احْذَرْ أبا الْحَسَنِ العِدَا ! لُقْمَانُ قَدْ
أوْصَى ابْنَه ، وَمِنَ الأعَادِي حَذَّرَهْ
لاَ تَطْمَئِنَّ لَهُم فَإنَّ قُلُوبَهُمْ
بِدُخَانِ نِيرَانِ النَّكَال مُعَكَّرَهْ
لَمَّا اسْتَنَارَ سَمَاؤُنَا بِكَ أصْبَحَتْ
كَالشَّمْسِ ذَاتُكَ في الْعُيُونِ مُنَوَّرَهْ (1)
وإذَا تَبَدَّى مِنْ مُحَيَّاكَ الْحَيَا
قَالَ الْوَرَى : «سُبْحَانَ مَنْ قَدْ صَوَّرَهْ»
/ بِالْحِلْم قَرَّبْتَ الْبَعِيدَ ، وَبِالذَّكَا [23 – أ]
أضْحَتْ لَدَيْكَ الْمُشْكِلاَتُ مُحَرَّرَهْ
بِكَ مَنْ لأحْنَفَ قَدْ أشَاعَ مَزِيَّةً ؟
وَإيَاسُ مَنْ فِي الْعَالَمِينَ تَذَكَّرَهْ ؟
لَوْ طَالَ غَيْظُكَ في الْوَرَى يَوْمًا عَلَى
عَمْرٍو لأجْبَنَه وَفَوْرًا أقْبَرَهْ (2)
لك راحةٌ بِحيَا النَّوَالِ طَوِيلَةٌ
وَيَدٌ لِحَاتِمَ بِالسَّمَاح مُقَصَّرَهْ
يَسْقِي الْقَرِيضُ ابْنَ الْحُسَيْنِ رَحِيقَهُ
فَيُهَزُّ تِيهًا بِالْمَعَانِي الْمُسْكِرَهْ
وَلَهُ الْعُلُومُ تَرُوقُ في أوْرَاقِهَا
وبِهَا يَعِزُّ إذَا أتَتْهُ مُقَرَّرَهْ
مَا فِي مُلُوكِ الارض طرًّا مِثْلُهُ
أعْضَاؤُه بِشَذَى الْعَفَافِ مُعَطَّرَهْ

(1) في ز ، م : مقـدره .

(2) في ز : اجبره ، وكانه يريد ابن معد يكرب .

كَالْبَحْرِ لِلنَّائِي يَزُفُّ سَحَابَه
كَرَمًا ، ولِلدَّانِي يُمَكِّنُ جَوْهَرَهْ
يَا سَيِّدَ الأمَرَاء والْمَلِكَ الّذِي
أحْيَا النَّدَى بَعْدَ الدُّثُور وأظْهَرَهْ
إن رُمْتَ أنْ تُرْضِي الألَهَ وَخَلْقَه
فَأخْلِ دِيَاراً بِالْفَسَادِ مُعَمَّرَهْ
جَبَلُ الْبَرَابِرَةِ الْبُغَاة كَأنَّهُ
كَلْبٌ عَقُورٌ لاَ يُبَالِي مَعْشَرَهْ
صَحَّفْتُه (1) فَوَجَدْتُه بِرِقَابِهِمْ
وَعُقُولِهِمْ ، تَبًّا لَهُ مَا أغْدَرَهْ
مَنْ جَاءَهُ وَبِهِ أرَادَ حِمَايَةً
يلقى الإهَانَة ، والعنَا ، والْمَحْقَرَهْ
يَا وَيْحَه إذ جَاءَ فِي تَارِيخِهِ :
«وِسْلاَتُ قَبَّحه الإلَهُ وَدَمَّرَهْ»

وقال أيضا قبل الفتح :

تَهَيَّأْ لِمَا شِئْتَ فَالْوَقْتُ رَاقْ
وَسَعْدُكَ قَامَ عَلَى مَتْنِ سَاقْ
وَنَصْرُ الإلَهِ إلَيْكَ أتَى
مُعِينًا على هَزْم (2) أهْلِ النِّفَاقْ
وصَبَّ عَلَى مَنْ جَفَاكَ الْبَلاَ
وَحَمَّلَهُ الدَّهْرَ مَا لاَ يُطَاقْ

(1) لا يظهر التصحيف الا في لفظ جبل وهو مذكور في البيت قبله ، ومصحفه حبل.

(2) بالاصل : عزم ، واصلاحه من ص .

فَبَدْرُ مَعَالِيكَ إشْرَاقُهُ
بَدا ، (1) وهِلاَلُ العِدَا في الْمَحاقْ
بَعَثْتَ لِقَطْعِ يَدَيْ زَرْعِهِمْ
جُيُوشا بِهَا وَاسِعُ الأرْضِ ضَاقْ
إذَا نَزَلَ الْجَيْشُ فِي حَيِّهِمْ
يُحَيِّي جُمُوعَهُمْ بِالْفِرَاقْ
كَأنَّ الْحِمَامَ لَهُمْ عَاشِقٌ
فَبَادَرَ أعْنَاقَهُمْ بِالْعِنَاقْ
فَيَعْذُبُ لِلنَّاسِ تَعْذِيبُهُمْ
وَلَكِنْ لَهُمْ هُوَ مُرُّ الْمَذَاقْ
وكُلٌّ مِنَ الْمُفْسِدِينَ غَدَا
حَزِينًا وَطَعْمَ الْمَنِيَّةِ ذَاقْ
أبا الْحَسَنِ ابْنَ الْحُسَيْنِ انْتَقِمْ
مِنَ الْخَائِنِين بِشَدِّ الْوَثَاقْ
[23 — ب] / لَقَدْ ضَعُفَ الْبَغْيُ بَعْدَ الْقُوَى
وأصْبَحَ مِنْ ضَعْفِهِ فِي السِّيَاقْ
لَكَ الْفَرَجُ الْمَحْضُ إذ أرَّخُوا :
«أذَلَّ الْمُعِزُّ بَلاَءَ النِّفَاقْ»

وقال الفقيه الأديب الكاتب أبو عبد الله محمد بن أحمد الورْغي : (2)

حَاجَةُ الْمَدْح لِحِلْوِ الْغَزَلِ
حَاجَةُ الصَّبِّ لأولَى الْقُبَلِ

(1) في ز ، ص : نمـــا .
(2) هو عين هذه الطبقة وامامها ، واليه منتهى الصناعة واحكامها ، وشعره يجمع بين قوة المعنى وجزالة اللفظ بحسن تصرفه وتمكنه من اللغة ، **وديوانه** جدير بالدراسة والنظر الا ان الموجود من نسخه متواطا عما فيه من التحريف والبياضات ، ويظهر ان له اصلا واحدا سقيما ولذلك تركنا كثيرا من مشكل ابياتــه الى حريــة فهم الادبــاء . وفاتــه سنة 1190/1776 انظر النيفر 2 : 36 وغيره .

مَا عَلَى مَانِعِهَا لَوْ سَمَحَتْ
نَفْسُهُ يَوْماً بِهَا مِنْ ثِقَلِ
مُنْيَةٌ مَاطَلَنِي الْوَقْتُ بِهَا
مَطْلَ غيلاَنَ (1) بِرَجْعِ الطَّلَلِ
أكْتَفِي فيهَا (2) بِوَعْدٍ كَاذِبٍ
أشْغَلُ الْبَالَ بِهِ عَنْ عَذَلِي
يَقْنَعُ الْمَحْرُومُ بِالدُّونِ كَمَا
يَقْنَعُ الأعْمَى بِأدْنَى الْحَوَلِ
ثم إني ليتني — إن لَمْ أنَلْ
مَا أرَجِّي — سَالِمٌ مِنْ عَذَلِ
يَا عَذُولِي ، لاَ يَضِعْ وَقْتُكَ فِي
مَا تعَانِي ، إنَّنِي في شَغَلِ
إن أبَتْ نَفْسُكَ مِنْ نُصْحِي لَهَا
فَأنَا ذَا عَاذِلٌ فِي العُذَّلِ
وَإذَا لَمْ تذُقِ الْمَعْنَى فَلاَ
تَنْفَرِدْ بِالرَّأيِ فيه ، وَسَلِ
إنَّ عَقْلاً وَاحِداً لاَ يَنْثَنِي
لِعُقُولِ الْكُلِّ بَادِي الخَبَلِ (3)
لا تقل لِي مُلْغِزًا : قَدْ جُمِعَتْ
كُلُّ أوْصَافِ النُّهَى في رَجُلِ

(1) غيلان هو ذو الرمة الشاعر المكثر من مناجاة الاطلال كقوله :
لميــة مـــوحشـــا طلـــل يلـــوح كانـــه خلـــل
(2) في ز ، ح **والـديـوان** : منهــا.
(3) حكمة سامية ، ويلاحظ ان الشاعر فصل قصيده بالحكم ، وكلما اراد الانتقال من غرض الى آخر اتى بحكمة كالقفلة للسابق والتاسيس للاحق وذلك من محكم صناعته.

هَلْ تَرى بَيْنَ البَرَايَا ثَانِيًا
لِعَلِيِّ بْنِ حُسَيْنِ بْنِ عَلِي ؟

نَادِرٌ ، قَدْ غَلِطَ الدَّهْرُ بِهِ
يُمْنَعُ النَّقْصُ بِهِ فِي الْجَدَلِ

بل به النَّقْص عَلَى مَنْ يَدَّعِي
نَقْصَ أَيَّامٍ أَتَتْ عَنْ أَوَّلِ

مَلِكٌ لَمَّا يَصِفْ وَاصِفُهُ
فَتَحَ الْعَيْنَ لِلَهْوِ الْمُقَلِ (1)

لَوْ سَعَى الْوَهْمُ إِلَى تَصْوِيرِه
قَبْلَ أن يُجْلَى له ، لَمْ يَصِلِ

أَعْجَزَ الْمُسْرِع أَنْ يُدْرِكَ مَا
جَازَهُ هُوَ بِسَيْرِ الْمُمْهَلِ

أَبْصَرَ الدُّنْيَا بِعَيْنَيْ مَنْ رَأى
كُلَّ مَا فِيهَا كَرِيهَ النَّقَلِ

فَتَحامى فَضْلَهَا إِذْ لَمْ يَقُلْ
فِي نَفِيس حَازَ مِنْهَا : هوَ لِي

وَاسْتَوَى وَالنَّاسَ فِيمَا عِنْدَه
ما عَدَا الْعِرْضَ وبِيضَ الْكِلَلِ

قَارَع (2) النَّاسَ عَنِ الْحِلْمَ فَلَمْ
يُبْقِ مِنْ حَافٍ وَلاَ مُنْتَعِلِ

(1) البيت مشكل ، ولمّـا فيه جازمة كما اتت في ز ، اي لا يقدر واصفه على وصفه لكثرة محاسنه، وفي البيت بعده توضيح لهذا المعنى ، وفي الاصل « ما يصف » وياباه الوزن ، وفي **الديوان** بدل لمّـا « امـا » مركبة من ان الشرطية وما الزائدة فتكون جملة العجز واقعة في جواب الشرط، ومعناها على الوجهين ان الممدوح بتوافر محاسنه لفت الانظار والهى المقل عن النظر الى غيره .

(2) في ز ، ح : نـازع ، وهما بمعنى ....؟

خِصْلَةُ الْحِلْمِ ثَقِيلٌ حِمْلُهَا
كَبُرَتْ قَدْرًا عَلَى ذِي فَشَلِ

/ تَنْسِفُ الطَّوْدَ ، وَهَلْ يُسْطَى عَلَى [24 – أ]
جَبَلٍ عَاتٍ بِغَيْرِ الْحِيَلِ ؟

حالَ مَمْطُورٍ (1) إِذَا مَا ذَاقَهَا
ذُو حِجًى جاءَتْ بِأَمْرٍ جَلَلِ

هُوَ مَا هُوَ ! مَارِدٌ قَدْ عَظَّمَتْ
شَأنَه أَمْلاَكُ مَاضِي المِلَلِ (2)

جَرَّ ذَيْلَ البَغْيِ تِيهًا رَافِعًا
رَأيَةَ الْخُلْفِ بِأَعْلَى الْقُلَلِ

وَانْتَضَى مِنْ عَزْمِهِ مَا يُنْتَضَى
وَرَمَتْ أَنْحَاؤُهُ بِالشُّعَلِ

بَيْنَمَا التَّدْبِيرُ سَوَّى سَيْفَهَ
نَاهِضًا فِي حَوْلِهِ وَالْحِيَلِ

إذ أَتَى اللَّهُ بِنَصْر قَاطِعٍ
مُنَّةَ (3) البِيض وسُمْرِ الأَسَلِ

يا لَهَا مِنْ نِعْمَةٍ قَدْ ضُمِّنَتْ
جُمَلاً كَمْ تَحْتَهَا مِنْ جُمَلِ

أَصْبَحَ العَانِي بِهَا يَنْقُضُ مَا
أُحْكِم الشَّدُّ بِهِ مِنْ وَثَلِ (4)

(1) علم قديم على جبل وسلات .

(2) في ز : الـــدول .

(3) المنـــة القـوة .

(4) العاني : الاسير ، والوثل : الحبـل.

وَغَدَا يَقْذِفُ مَا فِي بَطْنِه
قَذْفَ من أغْرَقَ عَلَّ الثَّمِل (1)

كُلُّ رِجْلٍ فَارَقَتْ مَرْكَزَه
خُطِفَتْ مِنْ حِينِهَا فِي كَبَل

سَئِمَ الآسرُ مِنْ تَعْدَادِهِمْ
وَاشْتَكَى القَيْدُ بِهِمْ مِنْ مَلَلِ

سَلْ فَسِيحَ الأرْضِ عَنْ أفلاذِهِ
أيْنَ مَرَّتْ مِنْ فِجَاجِ السُّبُل

يُخْبِرُ الصَّادِقُ عَنْ أحْوَالِهِ
أنَّهَا سَاخَتْ وَلَمْ تَنْتَقِل

دُفْعَةً قَدْ طُمِسَتْ أعْلامُهُ
عَجَبًا من عَجْلَةٍ فِي العَجَل

سُنَّةٌ مَاضِيَةٌ فِيمَنَ بَغَى
أنْ يَرَى فِي البَغْيِ عكْسَ الأمَلِ

أكْذَبَ الحُسنُ بِجَمَّالٍ ، وقَدْ
كَانَ مَشْهُوراً كَيَوْمِ الْجَمَلِ

فَتَحَ الحِيْنَ لها ـ إذْ فَتَحَتْ
بارْتِكَابِ الْخُلْفِ ـ بابَ الزَّلَلِ (2)

فَغَدَتْ مِنْ جَهْلِهَا الْفَاحِش مِنْ
بَابِ الاِعْرَابِ لِبَابِ الْبَدَلِ

(1) فهم العجز مشكل ، والعل كالعلل : الشرب بعد الشرب ، وذلك من الثمل مدعاة لقذف ما في بطنه هذا على الاصل . وفي ز ، ح : من اعرف بيت النمل واعرف محرف اغرق فيكون على معنى التمثيل بمن صب المـاء على بيت النمل فهاجها للخروج.

(2) باب الزلل ، معمول فتح ، وفيه اشتغال .

كيف تُخْطِي من تَعدَّى طَوْرَهُ
صَرْعَةٌ يَهْوِي لَهَا فِي التَّلَلِ

فَمَضَى السَّيْفُ بِهِم فِي غُلَّة
وَاشْتَفَى مِن دَمِهِم بِالْعَلَلِ

فَاذْكُرِ الأيامَ فِي النَّاسِ تَجِد
يَوْمَهُمْ هذا كَيَوْمِ الظُّلَلِ

ما لعَمْدُونَ عَمُوا عَنْ شَأنه
وَهْوَ كَالشَّمْسِ دَنَتْ لِلطَّفَلِ

أو نَسُوا مِنْ أمْرِه الْهَائِلِ مَا
كَانَ ، وَالْعَهْدُ بِهِ لَمْ يَطُل

نَصَبُوا الْحَرْبَ لِمَنْ ألْوَى به
وَاحْتَسَاهُ أُكْلَةً في الأُكَلِ

/ وتَنَادَوْا كُلُّ رَهْطٍ يَدَّعِي [24 ـ ب]
أنَّهُ يَفْعَلُ مَا لَمْ يَقُلِ

ما اسْتَتَمُوا الرَّأيَ حَتَّى عَايَنوا
نَقْمَةَ اللَّهِ التِي لَمْ تَزَلِ

عاينوا الأرض التي كانت لهم
شِرْكَةً مَا بَيْنَهُمْ وَالْوَعَلِ

كُلُّ شِبْرٍ كَاشِفٌ عَنْ أجْرَدٍ ،
كُلُّ فِتْرٍ كَاشِفٌ عَنْ بَطَلِ

فَإذَا أبْصَارُهُم زَائِغَةٌ
مِنْ بَلايَا مَا بِهَا مِنْ قِبَلِ

ثُمَّ نَاطَتْ غَايَةُ الْحَرْبِ بِهِمْ
حَلَقَ الاذْقَانِ وَصَفْعَ الْقُذُلِ

غُمَّةٌ مَا انْكَشَفَتْ حَتَّى انْجَلَتْ
عَنْ سُدَى (1) الرَّأْيِ وَمَحْضِ الخَلَلِ
يُتْعِبُ النُّصْحُ ، وَلاَ يَنْفَعُ فِي
فَاسِدِ الأذْهَانِ ضَرْبُ الْمَثَلِ
يَا أميرًا طَلَعَتْ دَوْلَتُهُ
تَتَسَامَى غُرَّةً فِي الدُّوَلِ
تَبْسُطُ النَّفْسَ بِسِنٍّ بَاسِمٍ
وَمُحَيًّا مَا بِهِ مِنْ بَسَلِ (2)
ينشد المُنْصِفُ في تَوْصِيفِهَا
شِعْرَ تَمَّامٍ ، وَبَيْتَ الْهُذَلِي
نِلْتَهَا لاَ مُعملاً فِي ذَابِلٍ
لاَ وَلاَ فِي الْيَعْمَلاَتِ الذُّبَّلِ
بَلْ وَلاَ اسْتَعْمَلْتَ في تَحْصِيلِهَا
- عَمَلَ الْغَادِرِ - بَعْضَ الْغِيَلِ
طَهُرَتْ مِنْ نَجَسِ السَّفْكِ وَمِنْ
صَرْخَةِ النَّاعِي بِصَوْتِ الثَّكَلِ
صَدَقَتْ أنْ ذَكَرَتْ فِي فَخْرِهَا
عَنْ سِوَاهَا مِثْلَ قَوْلِ الْجِيلِي
وَهْيَ أعْلَى أنْ تُرَى مُخْطِئَةً
رُشْدُهَا فِي قَوْلِهَا وَالْعَمَلِ
حَيْثُ رَدَّتْ كُلَّ من يَخْطُبُهَا ،
وَاسْتَجَابَتْكَ ، وَقَالَتْ : بَجَلِ (3)

(1) بالضم وبالفتح : المهمل الساقط (ايحسب الانسان ان يترك سدى).
(2) كـريـه المنظـر.
(3) بجل - بفتحتين فسكون - كنعم وزنا ومعنى .

فَاسْتَوَى الأشْهَادُ وَالْحَاكِمُ فِي
أنَّكَ الأكْفَى وَبِالْمَهْرِ مَلِي
أيُّ عَقْلٍ ، بَعْدَ هَذَا ، يَمْتَرِي
فِي وُضُوحِ الْحَقِّ ، وَالْحَقُّ جَلِي ؟
أيُّهَا الْمَوْلَى الذي أمْدَاحُهُ
قَصَّرَتْ عَنْهُ فَهِيَ فِي خَجَلِ
إنَّ فَتْحًا جَاءَكَ الْمَأْمُونُ فِي
وسْطِهِ ، فَتْحٌ بِرِبْحٍ عَجِلِ
سَعْدُ إقْبَالٍ وبَخْتٍ مُؤْذِنٌ
بِالأمَانِي وَالْهَنَا الْمُتَّصِلِ
مَلِكٌ مِنْ مَلِكٍ مِنْ مَلِكٍ
أنْشَطَ الْمُلْكُ بِهِ مِنْ عَقَلِ
إهْنَ بِالْفَتْحِ ، وَبِالرِّبْحِ مَعًا ،
فِي هَنَا مَوْلِدِ خَيْرِ الرُّسُلِ
عَائِدًا مِنْهَا إلَى أمْثَالِهَا
صَالِحَ الْحَالِ ، بَعِيدَ الأجَلِ
يُصْبِحُ الْمُلْكُ بِكُمْ مُبْتَسِمًا
ثُمَّ يُمْسِي مَائِسًا في جَذَلِ
/ لاَ يَرَى في رُمْحِكُمْ مِنْ قِصَرٍ [25 – أ]
لاَ وَلاَ فِي سَيْفِكُمْ من كَلَلِ
إي ، وَلاَ أعْرَضْتُمْ عَنْ شَاعِرٍ
جَاءَ بِالأجْمَلِ غِبَّ الأجْمَلِ
عَادَةُ السُّوقِ إذَا مَا جَاءَهَا
عَارِفُ التَّجْرِ بَدَا بِالدَّقَلِ (1)

(1) الدقل اسوا التمر ، عكس اصطلاحنا الآن ، ومراده الاعتذار عن تاخير الهناء بانه ترك اول المضمار للشعراء الصغار.

ذُهِلَ الذِّهْنُ وَلَكِنْ مَدْحُكُمْ
يُلْبِسُ الْخَامِلَ أَبْهَى الْحُلَلِ
رُمْتُهَا دُرًّا بِبَحْرٍ زَاخِرٍ
أَوْ دَرَارٍ أَطْلَعَتْ فِي الْحَمَلِ
نَازِلاً لِلْغَوْرِ فِيهَا تَارَةً
ثُمَّ أُخْرَى صَاعِدًا عَنْ زُحَلِ
كَيْ أُحَلِّيهَا بِأَحْلَى ذِكْرِكُمْ
وَأُحَاشِي زَيْنَهَا عَنْ عَطَلِ
فَإِذَا أَنْشَدَ مِنْهَا جَانِبٌ
سَارَ فِي الآفَاقِ سَيْرَ الْمَثَلِ
شُكْرُ نُعْمَاكَ الَّتِي قَلْبِي لَهَا
خَاضِعٌ عَنْ ذِكْرِهَا لَمْ يَحُلِ
كَيْفَ أَنْسَى لَيْلَةً نَادَيْتَنِي :
ثِقْ بِكَفِّي يَا غَرِيقَ الْوَجَلِ !
وأنا أَحْجِلُ في حِجْلِ (1) الرَّدَى
يا لَه ! بُعْدًا له مِنْ حِجِلِ
بَيْنَ أَنْيَابٍ وَظُفْرٍ نَاشِبٍ
تُنْشِرُ الأَعْظُمَ بَعْدَ الْعَضَلِ
أَسْأَلُ اللَّيْلَ عَنِ النَّجْمِ وَلَوْ
طَلَعَ النَّجْمُ شَفَى مِنْ عِلَلِي
أَمْسَحُ الْجَفْنَ وَلاَ دَمْعَ بِهِ :
يَقْلَقُ الدَّمْعُ إِذَا لَمْ يَسِلِ
فَاغْتَنَمْتَ الأَجْرَ مُمْتَازًا بِهِ
جَاذِبًا لِي مِنْ عَظِيمِ الْوَحَلِ

(1) الحجل : القيد.

قَالِبًا قَلْبِي إِلَى مُعْتَادِهِ
جَابِرًا كَسْرِي بِحَمْلِ الْحَمَلِ
رَحْمَةً لِي وَلِأَفْرَاخٍ دَبَوْا
مَا لَهُمْ تَحْتَ السَّمَا مِنْ وَأَلٍ (1)
لَوْ تَمَادَتْ بِهِمُ الْحَالُ مَضَوْا
بَعْدُ شَتَّى ، فِي عِدَادِ الْهَمَلِ
إِنَّمَا يَبْنِي كَذَا مَنْ خُلِقَتْ
نَفْسُهُ سَالِمَةً مِنْ دَغَلِ
يَعْلَمُ اللَّهَ تَعَالَى ، حَالِفًا :
إِنَّمَا أَنْتَ أَمِيرٌ وَوَلِي
فَابْقَ فِي الْخَيْرِ الْمُهَنَّا غَادِيًا
رَائِحًا فِي خَيْلِهِ وَالْخَوَلِ
وَاصْحَبِ الدَّهْرَ كَمَا تَخْتَارُهُ
ظَافِرًا فِيهِ بِأَقْصَى أَمَلِ

وقوله في هذه القصيدة : «ما لعمْدونَ عمُوا عنْ شأنه الخ» إشارة إلى مُخالفة «عمدون» بجبلهم وعصيانهم إثرَ فتْح وسلات ، فخرج إليهم الوزير الأجلّ رجب خزنه دار بالمَحلّة / واستنفر لهم العرب وقاتلوهم [25 — ب] فأذعنوا بالطّاعة وأدّوا له ما عليهم من المجابي والأعشار ، ورجع عنهم ، وذلك في أوايل سنة ست وسبعين [1763/1176] .

وقال الأديب البارع علي الغُراب الصفاقسي ، وهي رسالة تشتمل على تواريخ بديعة نثرا ونظما :

«الحمد لله الّذي أذهَبَ عنّا الحزَن ، ورفع الفتَنَ والمحَن ، والصلاة والسلام على من اتّخذه الله على وحْيه أمينا ، وأنزل عليه «إنّا فتحْنا لكَ

(1) الوال : الموئل والملجأ.

فَتْحًا مُبِينًا» ، وأرسله إلى كافّة الخلق بَشيرا ونَذيرا . صلّى الله عليه وعلى آله الذين أَذْهَبَ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهَّرَهُمْ تَطْهِيرا . إلى مَنْ نازل حصونَ المعالي حتى استفتح أغْلاقَهَا . وبارزَ كُماةَ المعاني حتى مدّت بالطاعة إليه أعناقَها ، وضربت السّعادةُ عليه رِواقَها . واتّخذت من نَعْلَيْهِ نِطاقها ، وعالج عُقْمَ الآراء حتى أنْتَجَ أرْحامَها . وزاوَل أبْكار المَعاقل حتى فكّ ختامَها . وأصبحَت الأيّامُ لأبوابه خادمة ، والسُّعودُ على لَثْم أعتابه مُتَزاحِمة . ألاَ وهو رئيس الأمَراء . وسيّدُ العظماء والكبراء ، صاحبُ اللّواء السّلطانيّ ، والمَوْكب الخاقانيّ ، المُصيب بِسَهْم القول والرأي ، مَوْلانا السلطان الباشا أبي الحسن علي ابن المُقَدّس المرحوم حسين باي أمدّ الله بالعز في وِلاَيَتِه ، وحرس رياض ملكه وكلأه بحسن لطفه وعين رعايته .

أما بعد فقد ورد علينا من المَسَرّة ما أغار على بُغاة الهُموم فأجلاها من أوطانها ، وجار على عداة الأسقام فاستأصلها مِنْ أبدانها . حينَ اتّصل بنا أن البُغاة أصبح أكثرهم بمدينة القيروان يلتجئون . «وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ» ، وأخْبَروا أنّ رؤوسهم فرّوا هاربين ، «وَوَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ» ، وأخَذَ كُلٌّ منهم في مَفَرّه مَحَجّة ، وجاء مُخْبِرهم بذلك يقول مُؤرِّخًا : (فرّ ابنُ يونس بانتهاء حجّة) ،
[1175] وذلك حين رأوْا أنهم ما وردت طوائفُهم إلى مكان غازين ، إلاّ «وَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ» ، «وأُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً» وأصبحوا : «لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً» . وصارَتْ جلاص كُفُؤاً لهم دون الأجناد ، فمزّقت شَمْلهم في كل ناحية وواد ، وأقبلت بأكثر رُؤسائهمُ رؤوسا بلا أجساد ، «وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ» ، فاشتد بهم الإشفاق ، وضاق عليهم الخناق ، وبَلَغَتْ الرُّوحُ التَّرَاقِيَ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ» ، وعلموا أنهم «ما لهم من الله من عاصم» ولا واق ، فأيقنوا بالهلاك عتيدا . وفي ذلك التاريخ «زُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً» ،
[1176] وحين تحققوا أنهم إلى البوار صائرون ، «وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ

مَا يَشْتَهُونَ» وأنهم «إِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ» . وما أمنوا «أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ» ، تفرّق أصحاب الباغي عَلَيْه . «وَظَنُّوا أَنْ لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ» .
بعد أن سُلِب كل منهم بهذه / الفتنة نِعْمَتَه التي كان يَحْويها . «وَأَصْبَحَ [26 – أ]
يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا» ، وفسد ما كانوا يعتقدون في الجبل من التحصن بِذُرَاه ، «وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِنَ اللَّهِ» ، حَيْثُ عَكَس اللّه آمالَهم ، وَصَرَم حبالهم . فما تَلَبَّثُوا بِهِ إِلاَّ يَسِيرًا «وأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا» فَخَذَل الله أنْصارَهم ، وجعل غَنيمتَهم فِرارَهُم ، ومحق الله آثارهم ، «وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ» ، وانقرضت عُصْبة البُغاة المُفْسِدين ، «وَقَطَعَ اللَّهُ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» .

فطالما أنْذِروا بالقول الفصل ، وأمِروا بالاستقامة على طريق الحق والعدل ، وقيل لهم : «لاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ» ، فلم تُغْنِ عنهم النُّذُرُ بما ارتكبوا من الغَيّ والجهل ، وألْقَوْا بِأَيْدِيهِم إلى التَّهْلُكة بذلك الفعل ، وزعموا أن الفرار يحميهم من قضاء الله في الوَعْر والسَّهْل ، «قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ» . فالحمد لله على هناء سيدنا حيث قاد الله له أعداءه بالطاعة والامتثال ، وأقْبَلَتْ خاضعةً إليه بالمَسْكنة والإذلال . «وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ» . فأخَذْتَهم بسعدك . لا بجندك . وحاربتهم بجيش الصبر ، لا بجيش الحصر ، إذ كان في ترك محاربتهم ، وعدم الاهتمام بهم ، أشدّ الإهانة لهم والاحتقار ، وسببٌ في استهوان البادية لهم والنظر إليهم بعين الاستصغار ، فيَالَها بَشائر خلعنا على البشير بها من الطرب عقولَنا ، ومسرات رَدَدْنا بها إلى الشّباب مشايخنا وكهولنا ، وتكفلت لنا بدفع الخطوب الدّوّاج ، وشفاء الداء العُضَال وتعديل المِزاج ، فنسأل الله تعالى لسيدنا دوام التاييد ، والعُمُرَ المديد ، وإذْعَانَ الخَلْق بالطّاعة ، وتأييد المُلْك إلى قيام الساعة ، وهذه تواريخ في المعنى :

وسلات كَمْ غَرّ بِمَنْ أمّهُ
قُبِّحَ بالمغرور والغادر
مَا مَعَهُ مِنْ قُوَّةٍ مِنْهُمُ
تُلْفَى وَلاَ مِنْ دِرْهَمٍ حَاضِرِ
أمَا تَرَى تَارِيخَهُمْ : (مَالَهُمْ
مِنْ قُوَّةٍ مَعَهُ وَلاَ نَاصِرِ)
1175

غيره

سِرْ إلِى الأعْرَاب أمِّمْ أرْضَهُمْ
إذْ أتَى الْفَتْحُ وَذُو الْبَغْيِ تَنَحّى
وَأتَاكَ النَّصْر فِي تَارِيخه :
(أُمّهُ إنّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا)
1176

غيره

مَوْلاَيَ هَذَا العَامُ جَاءَ بِفَتْحِه
يَسْعَى بِتَعْظِيم لَكُم وَتَكَرُّمِ
وَبِحَلّ وِسْلاَتٍ أتَاك مُؤَرّخا :
(قَدْ حَلّ وِسْلاَتٌ بِبَدْءِ مُحرّم)
1174

[26 — ب] / وقال مهنئا :

مَوْلاَي يَهْنِيكَ هَذَا الْفَتْحُ مبتَكَرًا
مِنْ غَيْرِ جَيْشٍ وَلاَ سَيْفٍ بِهِ شُهِرا
لا بل بِجَيْشَيْنِ جَيْش الصَّبرِ يَصْحَبُه
جَيْشٌ مِنْ السَّعْدِ لاَ يَنْفَكُّ مُنْتَصِرًا
قَادَ العِدَا لَكَ مِنْ سَهْلٍ ومن جبل
بِأسْرِهِمْ مِنْ أقَاصِي أرْضِهِم أُسَرَا

هُمْ أذْعَنُوا طَاعَةً مِنْ خَوْفِهِم ، وَأتَى
كُلٌّ إلَيْكَ بِثَوْبِ الذُّلّ مُتَّزِرَا
عَفَوْتَ عَنْهُم جَمِيعًا إذْ أتَوْكَ ، وَلاَ
عَفْوٌ عَلَى مِثْلِ ذَنْبٍ مِنْهُمُ صَدَرا
لَكِنْ سَجِيَّةُ نَفْسٍ مِنْكَ قَدْ كَرُمَتْ
لِتَغْنَمَ الشُّكْرَ ، وَالْمَحظُوظُ مَنْ شَكَرَا
وَفَرَّ ثَائِرُهُمْ يَطْوِي الْفَلاَةَ وَلَوْ
أتَاكَ مُؤْتَمِنًا لَمْ يَرْتَقِبْ ضَرَرَا
فَاللّهُ أعْطَاكَ أخْلاَقًا مُقَدَّسَةً
وَحُسْنَ صَبْرٍ عَلَى الأحْدَاثِ مُنْتَصِرَا
جَاءُوا ولَمْ يَقْنَعُوا بِالْمُلْكِ ، ثم رَضُوا
بِغُنْمِهِم مِنْ فِرَارٍ مِنْكَ مُسْتَتِرا
تَحَصَّنُوا مِنْكَ فِي الأجْبَال مِنْ حَذَرٍ
وَلاَ يُلاَمُ امْرُؤٌ مِنْ ضَيْغَمٍ حَذِرَا
فَلَمْ تُجَهِّزْ لَهُمْ جَيْشًا يُحَارِبُهُمْ
إذْ جَمْعُهُمْ جَمْعُ تَكْسِيرٍ وَإنْ كَثُرا
لَيْسُوا بِكُفْءٍ لِتَجْهِيزِ الجُيُوشِ لِهُم ،
لَكِنْ جِلاَص لَهُمْ كُفْءٌ وَإنْ قَصُرَا
مَا اللَّيْثُ يَرْضَى قِتَالَ الثَّعْلَبَانِ وَلاَ
بَازٍ يُبَارِزُ عُصْفُورًا لِيَفْتَخِرَا
خانوا العهود وبِالنَّعْمَاء قَدْ بَطِرُوا
أخْسِرْ بِمَنْ خَانَ عَهْدَ اللّهِ أوْ بَطِرا
هُمْ آثَرُوا المكْرَ مِنْ خُبْثٍ فَحَاقَ بِهِمْ ،
وَالْمَكْرُ مَا حَائِقٌ إلاَّ بِمَنْ مَكَرَا

قُلْ لِلشَّقِيينَ : «مَا الدَّاعِي الذي خَرَجوا
بِهِ عَنِ ابْنِ حُسَيْنِ سَيِّدِ الأمَرَا ؟
المَالِكِ الكَامِلِ البَاشا الأغرّ عَلِي
بَايٍ حَمِيدِ المَزَايَا فَاقِدِ النُّظَرَا
مَلِيكُ حِلْمٍ وَعَفْوٍ فِي الجِنَايَةِ لاَ
يَثْنِيهِ عَذْلُ عَذُولٍ طَالَ أوْ قَصُرَا
فَالعَفْوُ مِنْه عَلَى ذَنْبٍ ألَذُّ لَهُ
طَعْمًا مِنَ الأخْذِ لِلْجَانِي ، وَإن كَبُرَا
مَا رَدَّ عَافِيهِ مَحْرُومًا ، وَرَاحَتُهُ
كَنَهْرِ سيحُون ، بَلْ مِنْ رَاحَتَيْهِ جَرَى
لَمْ يَخْلُ عَنْ دَرْسِ فِقْهِ الدّينِ مَجْلِسُه
يومًا ، ولا مِنْ حَدِيثِ المُصْطَفَى هُجِرا
يَكَادُ لَوْ شَاء — من تَقْوَى الإلَه — لَهُ
تَأتي الحِجَارَةُ سَعْيًا لَوْ دَعَا الحَجَرَا
تَرَاهُ بَدْراً مُنيراً فِي مَوَاكِبِه
وَفِي النِّزَالِ عَلَى جَمْعِ العِدَى شَرَرًا
إذَا رَأتْه العِدَى وَلَّتْ مُقَهْقِرَةً :
هَلْ يَثْبُتُ الوَحش إنْ لَيْثُ الشَّرَى كشرَا ؟
مَوْلاَيَ ، شُكْراً عَلَى فضْلِ الإلَه ، فَلَمْ
يُحْرَمْ زِيَادَةَ فَضْلِ اللَّهِ مَنْ شَكَرَا
إنَّا نُهَنّيكَ بَلْ كُل الانَامِ بِكُمْ
غَدَتْ تُهَنّأ ، وَالمُدَّاحُ وَالشُّعَرَا
[27 — أ] / هَذَا وإنّيَ مُذْ فَارَقْتُ حَضْرَتَكُمْ
حِلْفُ الضَّنَى ، فِي إسَارِ الحَصْرِ مُنْحصِرَا

حَتَّى إذَا وَرَدَتْ عَنِّي بَشَائِرُكُمْ
جَاءَتْ بِإطْلاَقِ ذَاكَ الأسْرِ مُبْتَدِرَا
لاَ زَالَ مُلْكُكَ ، يَا مَوْلاَيَ ، مُقْتَرِنًا
بِالعِزّ وَالسَّعْدِ وَالإقْبَالِ مُعْتَمِرًا
وَالدَّهْرُ عَبْدُكَ لاَ يَنْفَكُّ مُنْتَهِيًا
إذا نَهَيْتَ ، وَمَأمُورًا إذَا أُمِرَا

وقلت أنا :

مِهَادٌ لِجَنْبِ العِزّ ظَهْرُ السَّلاَهِبِ
وَبَرْدٌ لِصَدْرِ المَجْدِ حَرُّ المَضَارِبِ
وَسُمْرُ العَوَالِي لِلْمَعَالِي دَعَائِمٌ
وَبِيضُ المَوَاضِي سُلَّمٌ لِلْمَرَاتِبِ
فلا وَأبي ، لاَ يَبْلُغُ المَجْدَ عَاجِزٌ
يُعَلِّلُ نَفْسًا بِالأمَانِي الكَوَاذِبِ
وَلَكِنْ فَتًى قَدْ جَرَّدَ السَّيْفَ طَالِبًا
بِهِ مِنْ حُقُوقِ المَجْدِ أسْنَى المَطَالِبِ
يَهَابُ الدَّنَايَا أنْ تُدَنِّسَ عِرْضَهُ
وَلَيْسَ لأسْبَابِ المَنَايَا بِهَائِبِ
يَعَافُ وُرُودَ المَاءِ لَيْسَ بِه دَمٌ
وَيَتْرُكُ طَعْمًا نَالَهُ غير غَاصِبِ
فَذَلِكَ إنْ يَظْفَرْ فَأكْرَمُ ظَافِرٍ ،
وإلاّ فَعُذْرُ السَّيْفِ فِي كَفّ هَارِبِ
هِيَ الحَرْبُ من يَعْلَقْ بها يَبْلُغِ المُنَى ،
وَهَلْ نَالَ أقْصَى المَجْدِ غَيْرُ المُحَارِبِ ؟

وَمَنْ لاَ يَهَبْ يَغْلِبْ ، وَمَنْ كَانَ ضَارِبًا
بِسَيْفِ عَلِيٍّ كَانَ أَغْلَبَ غَالِبِ

أَمِيرُ الْعُلاَ وَالْحِلْمِ وَالْبَأْسِ وَالنَّدَى
وَأَشْجَعُ مِقْدَامٍ وَأَكْرَمُ وَاهِبِ

مَلِيكٌ تَسَامَى فِي الْمَكَارِمِ وَالْعُلاَ
بِحَيْثُ غَدَا مَثْوَاهُ بَيْنَ الْكَوَاكِبِ

تَبَوَّأَ مِنْهَا حَيْثُ إِنْ يَبْغِ رُتْبَةً
يَمُدُّ إِلَيْهَا مِنْ عَلٍ كَفَّ جَاذِبِ

بَصِيرٌ بِأَعْقَابِ الأُمُورِ كَأَنَّمَا
يُرِيهِ حِجَاهُ شَاهِدًا كُلَّ غَائِبِ

وَكُلٌّ يَرَى صَدْرَ الأُمُورِ وَإِنَّمَا
تَبِينُ مَزِيَّاتُ النُّهَى فِي الْعَوَاقِبِ

رَجَاحَةُ عَقْلٍ حَنَّكَتْهَا تَجَارِبٌ
وَهَلْ رَجَّحَ الأَلْبَابَ مِثْلُ التَّجَارِبِ ؟

وَإِقْدَامُ مَنْ لاَ يَرْهَبُ الْمَوْتَ ، وَالْفَتَى
يَنَالُ الْمُنَى مَا كَانَ لَيْسَ بِرَاهِبِ

يَخِفُّ إِلَى دَاعِي الْوَغَى مُتَهَلِّلاً
يُجَرِّرُ أَذْيَالَ الْقَنَا ، وَالْقَوَاضِبِ

يُبَارِي جِيَادَ الْخَيْلِ فِي خُيَلاَئِهَا
كَأَنَّ مَجَالَ الْحَرْبِ بَيْضُ الْمَلاَعِبِ

يُظَنُّ دَمُ الأَبْطَالِ فِي مَتْنِ سَيْفِهِ
تَوَرُّدَ خَدٍّ ، فَوْقَ خُضْرَةِ شَارِبِ

[27 — ب] / وَطَعْنَةُ رُمْحٍ ، تَحْتَ ضَرْبَةِ سَيْفِهِ
هِيَ الْمُقْلَةُ النَّجْلاَءُ مِنْ تَحْتِ حَاجِبِ

هُوَ الْقَائِدُ الْجُرْدِ السَّلاَهِبِ لِلْوَغَى ،
تَفُوتُ غَدَاةَ السَّبْقِ طَرْفَ الْمُرَاقِبِ

تَطِيرُ وَقَدْ خَاضَتْ إِلَى الرُّسْغِ فِي الدِّمَا
كَعِقْبَانِ جَوٍّ دَامِيَاتِ الْمَخَالِبِ

رِيَاحٌ أَثَارَتْ مِنْ غُبَارٍ سَحَائِبًا
ترى الشُّقْرَ مِنْهَا بَرْقَ تِلْكَ السَّحَائِبِ

عَمَدْنَ إلى عَمْدُونَ مِنْ بَعْدِ وَقْعَةٍ
بِوِسْلاَتَ سَالَتْ بِالدِّمَاءِ السَّوَاكِبِ

كِلاَ الْجَبَلَيْنِ أَبْطَرَتْهُ فَوَاضِلٌ
بِنُعْمَاكَ لاَ تُحْصَى بِحِسْبَانِ حَاسِبِ

أَفَضْتَ النَّدَى فِيهِم ، وَمَنْ كَانَ مِثْلَهُمْ
بِضَرْبِ الطُّلَى يَنْقَادُ ، لاَ بِالْمَوَاهِبِ

فَبَدَّلْتَهُمْ إذ بَدَّلُوا الطَّوْعَ جَفْوَةً
حِرَابًا بِمَا أَوْلَيْتَهُمْ مِنْ حَرَائِبِ

وَسُقْتَ لَهُمْ لَيْلاً مِنَ الْجَيْشِ بِيضُهُ
نُجُومٌ هَوَتْ مِنْ هَامِهِمْ فِي مَغَارِبِ

فَجَاءَتْكَ وَفْداً بَعْدَ وَفْدٍ رُؤُوسُهُمْ ،
وَلَيْسَ لَهَا غَيْرُ الْقَنَا مِنْ رَكَائِبِ

لَئِنْ صَدِئَت أَفْكَارُهُمْ مِنْ غَوَايَةٍ
فَفِي كَفِّكَ السَّيْفُ الصَّقِيلُ التَّرَائِبِ

وإِنْ أَظْلَمَتْ أَبْصَارُهُمْ مِنْ عَمَايَةٍ
فَمِنْ رَأْيِكَ النُّورُ الْمُزِيلُ الْغَيَاهِبِ

وَمَا زِلْتَ تُولِي كُلَّ يَوْمٍ عَلَيْهِمْ
كَتَائِبَ نَصْرٍ ، أُرْدِفَتْ بِكَتَائِبِ

إلَى أنْ أتَوْا مَا بَيْنَ عَانٍ مُشَدَّدٍ
وَبَيْنَ شَرِيدٍ لائِذٍ بِكَ تَائِبِ

وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ سُبَّةٌ إنْ أخَذْتَهُمْ ،
فَلَيْسَ سَطَا الْمَوْلَى لِعَبْدٍ بِعَائِبِ

قَسَوْتَ لَهُمْ حَتَّى مَلَكْتَ قِيَادَهُمْ
فَعُدْتَ إلَى مَا اعْتَدْتَ مِنْ لِينِ جَانِبِ

عَفَوْتَ فَلَمْ تَسْتَبْقِ لِلْعَفْوِ غَايَةً
وَفَرَّجْتَ عَنْهُمْ عِنْدَ ضِيقِ الْمَذَاهِبِ

ولِلْحُرِّ ـ إن كَانُوا كَذَلِكَ ـ خَجْلَةٌ
مِنَ الْعَفْوِ أنْكَى مِنْ عِقَابِ الْمُعَاقِبِ

أبَا الْحَسَنِ افْخَرْ ، فَالْمُلُوك بِأسْرِهَا
مُقَصِّرَةٌ عَنْ بَعْضِ هَذِي الْمَنَاقِبِ

أتَيْتَ بِفَرْضِ الْمَكْرُمَاتِ ونَفْلِهَا ،
وَأكْرَمُهُمْ مَنْ لاَ يُخِلُّ بِوَاجِبِ

خَطَبْتَ الْعُلاَ بِالسَّيْفِ حَتَّى مَلَكْتَهَا
وَلَيْسَ بِكُفْءٍ لِلْعُلاَ كُلُّ خَاطِبِ

عَجِبْتُ لِرُمْحٍ وَارِدٍ أبْحُرَ النَّدَى
بِكَفِّكَ يَثْنِي عِطْفَ ظَمْآنَ شَاحِبِ

وأصْفَقَ مِنْ وَجْهِ الْمَنِيَّةِ صَارِمٌ
نَظَرْتَ إلَيْهِ فَانْثَنَى غَيْرَ ذَائِبِ

عَدَلْتَ وَلَمْ تَعْدِلْ عَنِ الْحَقِّ وَالهُدَى ،
وَأوْرَدْتَ مِنْهُ كُلَّ صَافِي الْمَشَارِبِ

وَعَمَّ الْوَرَى ذَا الْعَدْلُ إلاَّ رَوَاحِلاً
لِوَفْرِكَ هَاضَتْهَا ثِقَالُ الْحَقَائِبِ

[28 ـ أ]

/ مَدَحْتُكَ حُبًّا فِي عُلاَكَ وَرَغْبَةً ،
وَمَا أنَا فِي غَيْرِ الْمَعَالِي بِرَاغِبِ

إذَا كُنْتَ تَرْضَى بِاجْتِلاَءِ غَرَائِبِي
عَلَيْكَ ، فَمَا لِي وَاجْتِدَاءُ الرَّغَائِبِ ؟

فَدُونَكَ مِنْ حُرِّ الْكَلاَمِ مَدَائِحًا
كَعِقْدٍ مِنَ الْيَاقُوتِ فِي جِيدِ كَاعِبِ

مَعَانٍ لإفْرَاطِ السَّنَا لَوْ تَجَسَّمَتْ
لَزَادَتْ فَرِيقًا فِي النُّجُومِ الثَّوَاقِبِ

لَقَدْ سَلَّ مِنْكَ اللَّه سَيْفًا مُهَنَّدًا
فَلاَ فَلَّ مِنْهُ الدَّهْرُ عَضْبَ الْمَضَارِبِ

وعَزَّزَ مِنْكَ النَّيِّرَيْنِ بِثَالِثٍ
فَدُمْتَ عَلَى طُولِ الْمَدَى غَيْرَ غَارِبِ

وهذه القصيدة عارضت بها قصيدة لأبي عبد الله محمّد الورغي مدح بها مخدومه علي باشا وهي من غرر شعره مطلعها :

هُوَ الْعِزُّ فِي سُمْرِ الْقَنَا وَالْقَوَاضِبِ ،
وَإلاَّ فَمَا تُغْنِي صُدُورُ الْمَرَاتِبِ (1)

وَبَقِيَتْ هاهنا أشعار كثيرة أضربنا عنها لعدم بلاغتها وعدم نباهة قائلها .

وفي ليلة الإربعاء لتسع عشرة من صفر من سنة ست وسبعين وُلِدَ لمولانا ـ أعزّه الله تعالى ـ ولده الأسعد الأمجد المحفوظ بعين العناية ، المصون بحفظ الرعاية ، الطاهر المبارك الميمون مولانا أبو عبد الله محمد المأمون ،

(1) نقلها ابن ابي الضياف 2 : 134 وعقبها بتنكيت على المؤلف حيث لم ينقلها ونقل ما دونها ، والعذر له كونها ليست من موضوعه.

وقاه الله تعالى شرّ ما كان وما يكون . وهو شقيق مولانا أبي محمد حمودة باشا — حفظه الله تعالى ، وقال في تاريخه أبو العباس أحمد سمية :

نَجْمٌ بَدَا مِنْ طَالِعٍ مَيْمُونِ
بِسَمَاءِ مُلْكٍ مُحْرَزٍ مأمُونِ
دَارُ الإمَارَة أشْرَقَتْ فَرَحًا بِهِ ،
وتَلالأتْ كَاللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ
سَعِدَتْ مَنَازِلُهُ وَقَدْ زَادَتْ بِهِ
حِصْنًا يَفُوقُ عَلَى أجلّ حُصُونِ
يَحْمِي الْمُهَيْمِنُ ذَاتَهُ وَيَصُونُهَا
مِنْ عَيْنِ مِعْيَانٍ وَسُوءِ عُيُونِ
لِعَلِيّ بَاشَابْنِ الْحُسَيْنِ مُؤرِّخًا :
(فخْرٌ جَلاَ بِمُحَمَّدِ الْمَأمُونِ)

وقال أيضا :

نَجْلٌ سَعِيدٌ بِالْفَلاَحِ مُؤَيَّدُ
فِي كُلّ يَوْمٍ عِزُّهُ يَتَجَدَّدُ
وَضَعَتْهُ فِي حِجْرِ الْمَعَالِي أمُّهُ ،
وَلَهُ السَّلاَمَةُ قَدْ سَعَتْ تَتَوَدَّدُ
فَالأمْنُ بِالْمَأمُونِ مُتَّصِلٌ إذا
مَا كَانَ مُنْتَبِهًا وَإذْ مَا يَرْقُدُ
وَالسَّعْدُ فِي الْعَلْيَاءِ قَالَ : مُبَشِّرًا
أرّخْ : (بَدَا قَمَرُ السُّرُورِ مُحَمَّدُ)

وفي يوم السبت غرة جمادى الثانية من هذه السنة [1176] خرج مولانا — أيده
[28 — ب] الله تعالى — بمحلته / المنصورة لتمهيد البلاد وتسكينها ، وتقرير الأمور وترتيبها ،
وخرج الوزير الأجلّ رجب خزنه دار بمحلّة العسكر ، فوصل مولانا — أيّده

الله تعالى — إلى القيروان وأقام بها وانفصل عنه خزنه دار بمحلّة إلى الجريد فاستخلص مجابيه ونهض إلى [جبل] بني عياش ، وكانوا قد خالفوا ومَنَعوا مجباهم ، فنازلهم حتى أذعنوا بالطاعة واستسلموا وانقادوا ، وأدوا له ما عليهم من المال ، فرحل عنهم راجعا . وخرج الوزير الفاضل الحاج علي بن عبد العزيز بمحلة أخرى وتوجه إلى المثاليث واستخلص منهم أموالا كثيرة ورجع . وفي أيام إقامة مولانا بالقيروان أعطى عطايا جِساما . وفرق أموالا عِظاما ، في أهل القيروان والعرب الذين كانوا محاصرين لوِسلات وغيرهم ، وقَرَّر الأحوال ومهدها ، ورتّب الأشياء في مواضعها ، وعاد إلى حضرته تصحبه السلامة والتأييد . وكان دخوله إليها يوم الخميس لاثْنَتَيْ عشرة بقين من رجب ، فكانت مدة مغيبه عنها ثمانية وأربعين يوما . وفي ذلك يقول أبو الحسن علي الغراب يُهَنّيه بعودته إلى الحضرة :

زَارَ بعد الجفَا وخُلْفِ العُهُودِ (1) :
يَا لَيَالِي الْوِصَالِ ، بِالْفَوْزِ عودي
زَارَني وَالْعُيُونُ قَدْ كَحَلَتْهَا
رَاحُ أيدِي الدُّجَى بِمِيلِ الْهُجُودِ
حَامِلَ الصُّبْحِ وَالدُّجَى مِنْ مُحَيًّا
وَفُرُوعٍ عَلَيْهِ مِثْلِ الْبُنُودِ
حِينَ جَلَّى الشُّعُورَ عَنْهَا شَهِدْنَا
طَلْعَةَ الشَّمْسِ فِي اللَّيَالِي السُّودِ
سَاحِرُ الطَّرْفِ لَيْسَ يُنْكَرُ مِنْهُ
فِعْلُ سِحْرٍ ، وَقَدْ أتَى بِشُهُودِ :
حُبُّهُ بِالْفُؤَادِ وَاللَّحْظُ دَاعٍ ،
وَبِنَجْمٍ مِنْ خَدِّهِ مَرْصُودِ

(1) في ز ، ح : الوعود.

ذُو قَوَامٍ مِنَ الأَرَاكَةِ أَحْنَى
وَفُؤَادٍ أَقْسَى مِنَ الْجُلْمُودِ

تَتَهَاوى الْبُدُورُ فِي الأُفْقِ شَوْقًا
لِسَنَا وَجْهِهِ هُوِيَّ السُّجُودِ

فَإِلَى كَمْ أُسِرُّ وَجْدِيَ فِيهِ
وَهَوَاهُ يَسُرُّنِي فِي الْوُجُودِ ؟

جَحَدَتْنِي لامٌ جَحَدْتُ هَوَاهَا (1)
مِنْ عِذَارَيْهِ ! فَهِي لاَمُ الْجُحُودِ

بَاتَ يَجْلُو لَنَا حُمَيًّا عَلَى رَوْ
ضِ مُحَيًّا زَهَا بِوَرْدِ الْخُدُودِ

أَرِدُ الْعَذْبَ من لَمَاهُ وأَسْتَقْـ
ـطِرُ لِي بِالْحَيَا مِيَاهَ الْوُرُودِ

فِي رِيَاضٍ زَهت بِمُزْهِرِ عُودٍ
وَهَزَارٍ شَدَا بِمُزْهِرِ عُود

وَسَوَاقٍ بِهَا جَوَارٍ عَلَيْنَا
وَجَوَارٍ من السَّوَاقِي الْغِيدِ

وَعَلِيلُ النَّسِيمِ مَرَّ بِآسٍ
يَشْتَفِي من زُلاَلِهَا بِوُرُودِ (2)

[29 – أ] / لِي قَضَى السَّعْدُ بِالْمُنَى وَشُهُودِي
كُلُّ غَضٍّ مِنْ غُصْنِهَا أُمْلُودِ

مَا سِوَاهَا عَلَى الْقَضَاءِ شُهُودٌ ،
أَتَرَى قَاضِيًا بِغَيْرِ شُهُودِ ؟

(1) جملة دعائية معلقة ، اي ان جحدت هواها ، وهذا من ولوع الغراب بالتورية ولا سيما بالمصطلحات العلمية.

(2) في ز : ببـــرود.

أَيَّ يَوْمٍ نَظَمْتُه بِحَبِيبٍ
وَزُهَيْرٍ (1) بِطِيبِ نَظْمِ الْعُقُودِ

وغُصُونُ الرِّيَاضِ تَرْقُصُ وَجْدًا
فِي حُلَى زَهْرِهَا بِخُضْرِ الْبُرُودِ

لاَ بِمَرِّ النَّسِيمِ تَرْقُصُ بَلْ مِنْ
طَرَبٍ هَزَّهَا ، وَوَجْدٍ شَدِيدِ

لِقُدُومِ الرِّضَا الْمَلِيكِ عَلِيٍّ
بَابِنَا ابْنِ الْحُسَيْنِ سَعْدِ الْوُجُودِ

مَلِكٌ مَا انْتَشَتْ غَمَائِمُ حَرْبٍ
عَنْهُ إِلاَّ انْجَلَتْ بِصَرْعِ الأُسُود

مَلِكٌ مَا انْثَنَى عَنِ الطَّرْدِ إِلاَّ
بِعَدُوٍّ فِي إِثْرِهِ مَصْفُودِ

إِنْ يَسُلَّ الْحُسَامَ تَخْمَدْ عِدَاهُ
وَتَسِيلُ الدِّمَاءُ بَعْدَ الْجُمُودِ

فَوْقَ سَبَّاقَةٍ إِذَا صَالَ عَنْهَا
فِي الْعِدَى فَالْبُرُوقُ تَحْتَ الرُّعُودِ

إِنْ يَشُبَّ الْعَدُوُّ نِيرَانَ حَرْبٍ
مِنْهُ كَانَتْ عَلَيْهِ ذَاتَ وُقُودِ

وَغَدَا حَرُّهنَّ بَرْدًا عَلَيْهِ
وَسَلاَمًا ، كَأَنَّهَا مِنْ خُمُودِ

مَلِكٌ مَاجِدٌ حَلِيمٌ كَرِيمٌ ،
جُودُهُ نَاسِخٌ لِكُلِّ وجُودِ

(1) تـوريـة باسم شـاعرين.

نَاشِرُ الْعَدْلِ ، وَهْو لِلْجَوْرِ طَاوٍ ،
وَاقِفٌ فِي الأَحْكَامِ عِنْدَ الْحُدُودِ

مُقْتَفٍ لِلْهُدَى ، به الشَّرْعُ أَضْحَى
وَهْوَ رَحْبُ الْفِنَا (١) رَفِيعُ الْعَمُودِ

صَالِحُ الْفِعْلِ ، صَادِقُ الْقَوْلِ ، وافٍ
بِوَفَا الْعَهْدِ ، مُنْجِزٌ لِلْوُعُودِ

يَقْطَعُ الدَّهْرَ بَيْنَ تَدْرِيسِ عِلْمٍ ،
وَرُكُوعٍ لِرَبِّهِ وَسُجُودِ

بِصَحِيحِ الْحَدِيثِ وَالْعِلْمِ لاَهٍ ،
وَعُلُومِ التَّفْسِيرِ وَالتَّوْحِيدِ

قَدْ تَحَلَّى بِعِفَّةٍ وَوَقَارٍ
وَتُقًى وَافِرٍ ، وَفَضْلٍ مَزِيدِ

وَبِعَزْمٍ مَضَى ، وَقُوَّةِ صَبْرٍ ،
وَعُلاَ هِمَّةٍ ، ورَأْيٍ سَدِيدِ

سَارَ مِنْ تُونِسٍ بِجَيْشٍ كَثِيفٍ
مُسْتَمِدًّا بِالنَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ

هَمُّهُ الْقَطْعُ لِلْفَسَادِ ، وإصلاَحُ
جَمِيعِ الْبِلاَدِ بِالتَّمْهِيدِ

وَأَتَى وَالأَنَامُ تُثْنِي عَلَيْهِ
بِمَدِيحِ الْفِعَالِ وَالتَّحْمِيدِ

أَمِنَتْ سُبْلُهُمْ مِنَ الْخَوْفِ فَلْيَأْ
مَنْ بِهَا وَالِدٌ عَلَى مَوْلُودِ

(١) الفناء بالكسر : الساحة امام البيت ، وهو ممدود ، وقصره ضرورة.

نَحْنُ مِنْ رَوْضِ أَمْنِ دَوْلَتِهِ فِي
خَفْضِ عَيْشٍ به ، وَظِلٍّ مَدِيدِ

/ عَجَبًا نَحْنُ مِنْهُ فِي خَفْضِ عيشٍ [29 – ب]
وَتَرَانَا مِنْ خَفْضِهِ فِي صُعُودِ

أَيُّهَا المَالِكُ الَّذِي يَحْتَمِي عَنْ
حَدِّ أَوْصَافِهِ الْعُلاَ بِحُدُودِ

أَنْتَ بِالأَمْنِ وَالسَّعَادَةِ مَقْرُونٌ ،
وَبِالْفَضْلِ وَالْمَقَامِ الْحَمِيدِ

أَنْتَ مِنْ حِصْنِ رَبِّنَا فِي أَمَانٍ
مِنْ عُيُونِ العِدَا وَكَيْدِ الْحَسُودِ

تَسْتَمِدُّ الْكَوَاكِبُ السَّعْدَ مِنْكُمْ
حِينَ تَقْضِي عَلَى الْوَرَى بِسُعُودِ

لَوْ دَعَوْتَ النُّجُومَ حَالَ صُعُودٍ
لَتَهَاوَتْ إِلَيْكَ حَالَ الصُّعُودِ

لَوْ دَعَوْتَ الْجِبَالَ وَهْيَ رَوَاسٍ
لَسَعَتْ نحوكم بِغَيْرِ سُجُودِ

قَدْ كَفَتْكَ السُّعُودُ كُلَّ كَرِيهٍ
وَكَفَتْكُمْ حَرْبَ العَدُوِّ الْعَنِيدِ

مَا سَعَى بِالْخِلاَفِ عَنْكَ — وإنعامُكَ
عَمَّ البِلاَدَ — غَيْرُ كَنُودِ

سَتَقُودُ الْعُصَاةَ مِنْ سَهْلِ أَرْضٍ
وَجِبَالٍ بِالسَّعْدِ قَبْلَ الْجُنُودِ

وَأَرَى كُلَّ بَلْدَةٍ خَالَفَتْكُمْ
قُورِنَتْ بِالْخَلاَءِ وَالتَّهْدِيدِ

كل عاصٍ مُخَالِفٍ لَكَ لَمْ يَنْـ
ـجَحْ وَلَوْ كَانَ يَحْتَمِي بِثَمُودِ

جَرَّأَ الْمُفْسِدِينَ حِلْمُكَ حَتَّى
طَمِعُوا فِي الْوُجُودِ بِالْمَفْقُودِ

أَفَإِن غَرَّ حِلْمُكَ الْغُمْرَ هَلاَّ
أَرْغَمَ السَّعْدُ مِنْكَ أَنْفَ الحَقُودِ

بِكَ رِيضَ الزَّمَانُ قبلُ ، وَأَضْحَى
آنِساً بَعْدَ نُفْرَةٍ وَشُرُودِ

فَابْشِرِنْ بِالْفُتُوحِ إِثْرَ فُتُوحٍ
لَكَ ، واظْفَرْ بِغَايَةِ الْمَقْصُودِ

فَهِلاَلُ السَّمَاءِ يَكْمُلُ بَدْرًا
إِنْ بَدَا ، وَهْوَ آخِذٌ فِي الْمَزِيدِ

وتَكَفَّأَ بِمَقْدَمٍ لَكَ فِيهِ
مَوْسِمٌ لِلْوَرَى وَأَعْظَمُ عِيدِ

بَعْدَ أَنْ شَفَّنَا لَكَ الشَّوْقُ حَتَّى
كَادَ يَشْتَاقُكُمْ حَشَا الْجُلْمُودِ

شَاقَ كُلَّ الْوَرَى ، وَشَاقَتْ إِلَيْكُمْ
كُلُّ عَجْمَا ، وَنَاطِقٍ وَوَلِيدِ

سِرْتَ نَحْوَ الْخَضْرَاءِ فَاخْضَرَّ مِنْهَا
كُلُّ ذَاوٍ بِكُمْ وَيَابِسِ عُودِ

أَنْتَ لَوْ لَمْ تَسِرِ إِلَيْهَا لَسَارَتْ
لَكَ بِالدُّورِ وَالبِنَاءِ الْمَشِيدِ

فَلَكَ الأرْضُ بِالزُّهُورِ تَحَلَّتْ
وَهْيِ مِنْ خُضْرِ نَبْتِهَا فِي بُرُودِ

هَاكَ مِني حِسَانَ خُودٍ تَهَانَ
فِي عُلاَكُمْ تُزْرِي بِحُسْنِ الْخُدُودِ

صُغْتُهَا مِنْ عَلِيلِ فِكْرٍ قَرِيحٍ
وجَوارِي قَرِيحَتِي فِي جُمُودِ (1)

/ مِنْ زَمَانٍ لَهُ اجْتِهَادٌ بِقَذْفِي [30 – أ]
بَيْنَ وَاشٍ وَجَاهِلٍ وَحَسُودِ

فَمُرِ الدَّهْرَ يَا أَمِيرَ الْبَرَايَا
يَنْكَفِىءْ (2) عَنْ إِسَاءَتِي وَوَعِيدِي

عَهِدَ الدَّهْرُ لاَ يُخَالِفُ يَوْمًا
عَنْكَ أَمْرًا ، وَقَدْ وَفَى بِالْعُهُودِ

فَلَوِ الدَّهْرُ عَنْكَ خَالَفَ يَوْمًا
لَرَأَى الْخُلْفَ مِنْهُ غَيْرَ سَدِيدِ

ثِقْ بِأَمْنٍ وَعِزِّ مُلْكٍ مُهَنًّا ،
بِدَوَامِ الْبَقَا وَطُولِ الخُلُودِ

وفي يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من ذي القَعدة من هذه السنة أعني سنة ست وسبعين وُلِد لمولانا – شدّ الله عَضُده – النَّجل الأطْهر ، والكوكب الأزْهر ، الأسمى الأسنى المُبارك الأرشد الأمجد مولانا أبو عمرو عثمان ، وقاه الله طَوارِق الحَدَثان .

وفي يوم الخميس لسَبْع خلت من شهر ربيع الثاني سنة ثمان وسبعين (1764/1178) كان خِتان ولَدَيْ مولانا – أيده الله تعالى – الأكبرين القمرين

(1) في بعض النسخ تعليق على هذا البيت نصه : لعمري قد صدق في هذا البيت.
(2) في ز : ينكشف ، ح : ينكفف.

النَّيِّرَيْن مولانا أبي الربيع سليمان ـ وكانت ولادته ليلة الأحد الثامن عشر من ذي الحجة سنة اثنتين وسبعين ـ ومولانا أبي محمد حمّوده باشا ـ أبقاه الله تعالى ووقاه ، وولدي أخيه مولانا أبي الثناء محمود ومولانا أبي الفدا إسماعيل ، ولم يحتفل مولانا ـ أعزه الله تعالى ـ في ختانهم بأكثر من إفاضة الصَّدَقات وتعميم الإحسان ، فَخَتَن من أولاد الفقراء ، [المستورين زهاء] (1) خمسمائة صبِيّ ، ورَسَم لكل واحد منهم أنْ يُعْطى كسوة تليق بحاله من الجُوخ وغيره ، ودراهم للنفقة ، ورسم أن يُجَهِّز طائفة من الأبكار المستورات اليتامى وغيرهن بجهازهن اللاَّئق بهن إلى أزواجهن ، ونظر في أهل السجون فأطلق منهم خَلْقا كثيرا وقضى عن المدينين منهم ديونهم ، ولم يَسْتَبْقِ إلاّ من لَمْ يُسَوِّغ الشرع إطلاقه كمسجون في قتل نفس ، أو حِرابة ، أو غير ذلك .

[القصائد الختانية]

وهنأه الشعراء بقصائد كثيرة ، فممن أحسن في ذلك وبلغ الغاية أبو عبد الله محمد بن أحمد الورغي في قوله وهي من غرر شعره :

هَذَا الخِتَانُ ، وَقَدْ دَعَوْهُ طُهُورَا ،
خَلَعَ الزَّمَانُ بِهِ عَلَيْكَ سُرُورَا

فَرَحٌ يَخُصُّكَ بِالْكَرَامَةِ أوَّلاً
وهنًا يَعُمُّ الْخَيِّرِينَ أخيرَا

وَعلَى الْمَنَازِلِ من بَهَاهُ بَشَاشَةٌ
كَالنَّازِلِين ، فَهَلْ وَجَدْتَ شعُورَا ؟

أخْفَيْتَهُ تَبَعًا لِقَوْلَةِ صَادِق :
«أَخْفُوا الخِتَانَ» وَمَا اتَّخَذتَ مشيرَا

(1) الزيادة من ح ، م.

فزَكَتْ مَحَاسِنُهُ عَلَى إخْفَائِه
كَالْمِسْكِ زَادَ مَعَ الْخَفَاءِ ظهُورَا

وَلِمِثْلِهِ مِنْ كُلّ مَا تُعْنَى بِه
خَطَرٌ ، كَمَا كُنْتَ أنْتَ خَطِيرَا

عَجَبًا لَهُ مِنْ مَعْرَكٍ خَضَعَتْ بِه
نَفْسُ الشَّجِيعِ وَقَدْ رَأتْهُ يَسيرَا

/ ذَكَرَتْ به الأرْحَامُ (1) يَوْمَ وِلاَدِهَا [30 ـ ب]
فَغَدَتْ تَجَاذَبُ حِدَّةً وفُتُورَا

وَزَمَانُهُ إنْ طَالَ كَانَ دَقِيقَةً ،
وَيَكَادُ يَبْلُغُ فِي الْخيَالِ شُهُورَا

ما لِلْمُزَيِّنِ (2) فيهِ ؟ كَيْفَ تَنَاوَلَتْ
كَفَّاهُ فِي فَلَكِ الْبَهَاءِ بُدُورَا

أخَذَتْ بِجُزْءٍ لَوْ يُقَاسُ بِمِثْله
مُلْكُ الْقَيَاصِرِ ، كَانَ بَعْدُ قَصيرَا

وَيَعُدُّ هَيْكَلَهُ لِكُلّ عُيونِهِمْ
أهْلُ الْمَشَارِقِ والمَغَارِبِ نُورَا

أفَلاَ اتَّقَى مِنْ دُونِ ذَاكَ ثَوَاقِبًا
تُذْكِي عَلَيْهِ مِنَ الْجِهَاتِ سعيرَا

لَوْلاَ الْخَلِيل (3) لَعَاقَهُ عَنْ أخْذِه
حَرْبٌ يَشِيبُ لَهُ الْوَلِيدُ صَغيرَا

(1) يعني ان الممدوح لمّا ضم ابني اخيه الى بنيه في الختان اذكر ذلك ما بينهما من رحم منذ نشاتهما ، واكد هذا المعنى بقوله بعد : فوصلت رحمك الخ ....

(2) الحلاق وهو الذي كان يختن الاطفال لعهد غير بعيد.

(3) اي سنته في الختان .

لَـكِـنْ سُلَيْمَانُ الْمُعَوَّذُ بِاسْمِهِ
سَبَقَ النِّدَاءَ إلى النِّزَالِ سَرِيرَا

فَتَخَلَّلَ الأَوْجَالَ ثُمَّ أَزَاحَهَا
وَألانَ مَا قَدْ كَانَ قَبْلُ عَسِيرَا

وَكَفَاهُ فِـي ذَاكَ الْمَجَالِ مُحَمَّدٌ
فَأَمَاطَ عَنْ وَجْهِ الْخَلاَصِ سُتُورَ

وَدَعَوْا بِمَحْمُودٍ فَجَدَّ (١) إجَابَةً
وَتَلاَهُ إِسْمَاعِيلُ بَعْدُ نَصِيرَا

فَتَظَاهَرُوا بِبَنِـي شَقِيقِ أَبِيهِمُ
حَتَّى يَكُونُوا فِـي الْمَآلِ ظَهِيرَا

وَقَضَوْا عَلَى وَفْقِ الْمُرَادِ مَآرِبًا
كَانَتْ تَتُوقُ لَهَا النُّفُوسُ دُهُورَا

وَقَضَيْتَ مَا لِلَّهِ عِنْدَكَ حَقَّهُ :
إنْ لَمْ تَكُنْهُ ، فمنْ يكون شكورًا ؟

فَوَصَلْتَ رَحْمَكَ رَأفَةً وَأقَمْتَهَا
أعْلَى مَقَامٍ فِـي الْجِنَانِ كَبِيرًا

وَأَضَفْتَ فِـي ذَاتِ الإلَهِ لِهَذِهِ
أمَمًا أفَضْتَ لَهَا النَّوَالَ نَمِيرَا

فَبَذَلْتَ فِـي تَحْسِينِ بِزَّةِ جَمْعِهِمْ
مَالاً يَعِزُّ عَلَى الْمُلُوكِ غَزِيرًا

وَبَلَغْتَ فِـي إبْلاَغِ خَيْرِكَ لِلْوَرَى
حَتَّى مَلأتَ مِنَ السُّرُورِ قُبُورَا

(١) بالاصل : فاسرع ، ولا يتزن ، والاصلاح من بعض نسخ **الديوان**.

فَلأَنْتَ أشْجَعُ مِنْ رَأتْهُ كَرِيهَةٌ :
وَإذَا حَلَفْتُ فَلاَ أقُولُ فُجُورَا

مَنْ ذَا يُجَادِلُ نَفْسَهُ فَيَرُدُّهَا
نَحْوَ الْمَلِيحِ عَنِ القَبِيحِ غَيُورَا ؟

قَدْ كَانَ ذَلِكَ وَالْحِجَارَةُ رَطْبَةٌ ،
وَالآنَ يُوجَدُ فِـي الْكِتَابِ سُطُورَا

حَتَّى بُعِثْتَ مُجَدِّدًا لِمَآثِرٍ
لَبِثَتْ عَلَى طُولِ الزَّمَانِ دُثُورَا

أحْيَيْتَهَا ، وَفَعَلْتَ ما تُنْسِي (١) بِهِ
أجَلاً ، ويُكْثِرُ فِـي الْمَعَادِ أجُورَا

تِلْكَ الشَّجَاعَةُ : لاَ جَرَاءَةُ فَاتِكٍ
يَدْعُو لَهَا عِنْدَ الْقِصَاصِ ثُبُورَا

فَارْبَحْ إذنْ يا ابْنَ الْحُسَيْنِ ، وكلُّنا
يَلْقَى بِرِبْحِكَ رَوْضَةً وَغَدِيرَا

[31 – أ] / فَهُوَ الْمُنَى ، أخَذَ الوَدُودُ بِحَظِّهِ
مِنْهُ ، وَبَاتَ بِهِ الْحَسُودُ ضَرِيرَا

بَعَثَتْ يَدُ الإقْبَالِ – لَمَّا أنْ بَدَا
وَجْهُ الْفُتُوحِ – بِهِ إلَيْكَ بَشِيرَا

كَمْ بَعْدَ يَوْمِكَ ذا المبَارَكِ من جَنًى
تَجْنِيهِ مِنْ هَذَا الْغِرَاسِ نَضِيرَا

فَالآنَ حِينَ تَوَصَّلُوا لِمَنَازِلٍ
قَطَعُوا لَهَا مُنْذُ الْوِلاَدِ وُعُورَا

(١) تخفيف من تنسىء بالهمز ، من انسأ الله في أجله أي اخره

وتَطَاوَلَتْ خِطَطُ الإمَارَةِ نَحْوَهُمْ ،
وَلَهُمْ أعَدَّتْ رُتْبَةً وَسَرِيرَا
فَالْخَيْلُ مُصْغِيَةٌ لَهُمْ آذَانُهَا
تَبْغِي بِهِمْ جِهَةَ النَّجَاحِ عُبُورَا
فَرِحَتْ (1) لِهَذَا النَّوْبِ فِي أشْطَانِهَا
فَرَحًا وَسَوَّتْ لِلظُّهُورِ ظُهُورَا
وَمَعَاقِدُ التِّيجَانِ قَدْ عُقِدَتْ لَهُمْ
وَبِهِمْ تُفَاخِرُ غَيْبَةً وَحُضُورَا
وَمِنَ الطُّبُولِ تَحَفُّزٌ لِبُرُوزِهِمْ
إذْ يَقْرَعُ الدَّاعِي لِذَاكَ نَفِيرَا
وَمِنَ الْبُنُودِ تَطَلُّعٌ لِمَسِيرِهِمْ
حَتَّى تَسِيرَ مَعَ الْقَتَامِ نُسُورَا
فَالْيَوْمَ قَدْ صَدَرَتْ بَشَائِرُ سَعْدِهِمْ
وَغَدًا تَرَاهُمْ فِي الصُّفُوفِ صُدُورَا
أعْبَاءُ مَجْدٍ أنْتَ وَحْدَكَ حُزْتَهَا
كَذَبَ المُنَازِعُ ! هَلْ يُعَدُّ نَظِيرَا ؟
فَبِهِمْ أقَمْتَ المُلْكَ قَومَةَ مُعْرِسٍ ،
وَبِهِمْ أدَرْتَ عَلَى الإيَالَةِ سُورَا
وَبِهِمْ لأمْرِكَ نَهْضَةٌ ولصونهم
مَنْعُ النَّوَاهِي أن تُفيد نقيرَا
ما فَرْدُهُمْ مَهْمَا اخْتَبَرْتَ بِوَاحِدٍ ،
بَلْ هُوَ ألْفٌ أوْ يَزِيدُ كَثِيرَا

(1) في ح ، الديوان : مرحت وهي انسب للسياق ، والنوب مصدر ناب وهو ما ينوب الانسان من الحوادث . انظر اللسان ن و ب ومراده هنا مناسبة الختان.

كُلٌّ يَفِيضُ عَلَى أخِيهِ تَحَنُّنًا ،
وَلِوَالِدَيْهِ مَهَابَةً وَبُرُورَا
طُبِعُوا كَمَا طُبِعَ الْكَرِيمُ أبُوهُمُ
كَرَمًا يُعَدُّ لَهُ الْغَمَامُ حَقِيرَا
وَسِيَاسَةً جَذَبَتْ حَبَائِلُ لُطْفِهَا
قَلْبَ الكَفُورِ عن أنْ يَكون كَفُورَا
يَا سَيِّدًا ظَهَرَتْ طَلاَئِعُ وِدِّهِ
فَسَعَى لَهَا سَاعِي المَدِيحِ سَفِيرَا
هَذِي بُنَيَّةُ خَاطِرٍ أهْدَيْتُهَا
شَرَحَتْ إلَيْكَ مِنَ الوِدَادِ ضَمِيرَا
تَحْظَى ، فَيَقْصُرُ يَوْمُهَا ، بحديثِهَا ،
وَتَكُونُ فِي غَلَسِ الظَّلاَمِ سَمِيرَا
قَصَرَتْ عَلَيْكَ مَلاَبِسًا من غَزْلِهَا ،
لَكِنْ تَخَافُ – إذَا نَظَرْتَ – قُصُورَا
ولَرُبَّ بَعْضِ شُوَيْعِرٍ يَرْنُو لَهَا
شَزْرًا ، وَيُكْثِرُ فِي الْخَلاَءِ زَئِيرَا
حَسَدًا يُشَكِّكُ في تَحَقُّقِ حَمْلِهَا
مِنْ حُبِّ ذَاتِكَ مَا يُحَمِّلُ عِيرَا
وَيَظَلُّ يَخْبِطُ في مَدَى أغْرَاضِهَا
لاَ عَنْ هُدًى ! وَمَتى يكونُ بصيرًا ؟
/ ولَوِ اسْتَبَانَ مِنَ الضَّلاَلَةِ مَرَّةً [31 – ب]
لَمَنَحْتُهُ عِوَضَ الزَّئِيرِ زَفِيرَا
لَكِنْ تَرَكْتُ حَدِيثَه ، وَأرَاحَنِي
عِلْمِي بِكَوْنِكَ بِالصَّحِيحِ خَبِيرَا

فَمِحَكُّ نَقْدِكَ لَيْسَ يبقي دُونَهُ ... بَيْنَ الهِدَايَةِ والضَّلالَةِ زُورَا
فَلَكَ المُنَى ، ولِكلِّهِمْ ، ولنا بِكُمْ ... مَا صَافَحَتْ شَمْسُ السَّمَاءِ ثَبِيرَا

وقال الفقيه الاجل أبو محمد عبد اللطيف الطّويّر :

سُعُودُكَ بالمَسَرَّةِ والتَّهَانِي ... مُجَدَّدَةٌ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ
وَإقْبَالٌ وإسْعَادٌ وبُشْرَى ... [بِعَيْشٍ قد صفا بالأمن هَانِي]
[تَبَسَّمُ للزمان ثغورُ بِشْرٍ] ... كما بسمت ثُغورُ الأقحوان (١)
وهزَّ المُلْكُ عِطْفَيْهِ سُرُورًا ... كما هزَّتْ مَعَاطِفَهَا الغَوَانِي
لكَ الأيامُ قد خضعت رقابًا ... وبين يديك قامت كالقيان
وفي أوج السعادة والمعالي ... ترقّى نيّران ونيّران
قضى سعْدُ السعود حقوق فرض ... مؤكّدة بمسنون الختان
ختان ابني علي باشا مع ابني ... أخيه المرتقي غُرَفَ الجِنان
ختانٌ شعشعَ الآفاقَ نورًا ، ... وأشرق من سناه الخافقان
ختانٌ ألبسَ الدُّنيا جمالاً ... وحُسْنًا من طرائفه الحِسان
ختانٌ بهرجَ العلياءَ ما إنْ ... يُقاسُ به بهاءُ المهرجان
جنينا الطيبات فما فقدنا ... سوى المحظور من بنت الدنان
وطاردنا اللذائذ في حماهُ ... طِرادَ الخيل في يوم الرهان
فصيّرت الخريفَ لنا ربيعًا ... بختنٍ في ربيعٍ جاء ثاني
لو أنّ البدرَ أمكنه نزولٌ ... إليه لجاء يسعى للتهاني
تودُّ الشُّهبُ لو رُقِمَتْ فكانت ... بسائطَ للموائد والخوان
ولو نجمُ الثريا كان عقدًا ... لجيد بني الأمير أو اللبان
أيا ختّانُ ما أقساك قلبًا ، ... وما أقصاك عن سمة الحنان
رويدا ، واتّئد ، وارفق ، تمهّلْ ... فشحذك للحديد لقد شجاني

(١) الزيادة المحصورة بجميع النسخ ، وهي ساقطة من الاصل.

وأثبتَّ الحنانَ لكلّ قلبٍ ... ثباتَ الخوف في قلب الجبان
وقد غادرتَ أوجهنا ارتياعًا ... كأنْ صُبِغَتْ بلون الزعفران
/ عهدناكَ أنّك الأدنى محلاً ... فكيف ظهرتَ في أعلى مكانِ ؟ [32 — أ]
وكيف رقيتَ أفلاكَ المعالي ... وصرتَ مع الكواكب في قِرانِ ؟
وكيف وصلتَ للأقمار حتّى ... مَسَسْتَ الجسمَ منها بالبنانِ ؟
وكيف تناولتْ يمناكَ حقًّا ... شموسًا أشرقتْ وسْطَ المغاني ؟
عهدنا الرُّشدَ منكَ وما عهدنا ... بني الآساد توسَمُ باختتان
فكيف بسطتَ للأشبال كفًّا ... وليثُ المُلكِ منكَ على عِيانِ ؟
دخلتَ لأجمة الأسد السَّبنتى (١) ... جِهارًا غيرَ مُرتاع الجَنانِ
جرحتَ فراهدًا فيها بقطٍّ ... وبتَّ من الغضنفر في أمانِ
جزاكَ على صنيعك كلَّ خيرٍ ... وإحسانٍ يجلُّ عن البيان
فقال : «لبستُ سابغةً حمتني ... وظلتُ بها يقينًا في صِوانِ
وثقتُ بسُنّة المختار حقًّا ... فبتُّ من المخارفِ في ضمانِ
فقد سنَّ الختانَ لنا ووصّى ... به من جُملة الفِطَر الحسانِ
على أنّي أنطتُ بهم كمالاً ... وما أنا في الختان لهم بجاني
قططتُ ذُبالَ مجدٍ فاستنارتْ ... فعقدُ جُمانها بالقطّ قانِي
أسلتُ دمًا به يُلفى شفاءٌ ... من الكلَب المُبير بلا توانِي
وزهرًا للعُلا أخرجتُهُ من ... كمائمه ، ولستُ له بجاني
وحلْيَ سيادةٍ أبرزتُ منه ... عقائقَهُ المصونةَ في الصِّوانِ
فنقصي عينُ تكميلي لأنّي ... شِعارُ الدِّين أصبح في ختاني
وفي سلك الرجال لهم نظامٌ ... بإعذاري ، فعذري في بيانِ
وسوف يرون أقيالاً ملوكًا ... لهم شأنٌ عظيمٌ أيُّ شانِ
يُقصّرُ «قيصرٌ» عنهم «وكسرى» ... كذا «خاقانُ» مع «عبدِ المدانِ»
لقد ظهرت شهامتهم صغارًا ... وما خبرُ المُخبّرِ كالعيانِ
فمُذْ رأوا المقصَّ تبادروهُ ، ... وزاحمَ أوّلَ الشبلين ثاني

(١) الجريء ، والاجمة : مأواه.

وَقَدْ عَرَفُوا بأنَّ لَهُ كَلاَمًا … كَمَا عَرَفَ الْكَمِيُّ الهندوَانِي

كَذَاكَ أبُوهمُ في الحَرْبِ يَمضِي … لهَا لم يَثْنِهِ الذَّكَرُ الْيَمَانِي

/ وَجَدُّهُمُ الْهِزَبْرُ حُسَيْنٌ بَاي … لَهُ الْوَثَبَاتُ في الْحَرْبِ العوَانِ [32 – ب]

وأشْبَالُ الْغَضَنْفَرِ ليس تَحْذُو … سِوَى أخْلاَقِه لاَ الثُّعْلبَانِ

أميرَ المؤْمنين ، سَمَوْتَ فَخْرًا … وَدَامَ لَكَ الْهَنَاءُ معَ الأمَانِي

لِيَهْنِكَ سُنَّةٌ للدِّينَ قَامَتْ … دَعَائِمُهَا ، لَهَا الإسعَاد بَانِي

لِيَهْنِ الدَّوْلَةَ الْغَرَّاءَ خَتْنٌ … بِهِ الْقَمَرَانِ في سَعْدِ القِرَانِ

لَكَ الْفَخْرُ الذي يَعْلُو الثُّرَيَّا … وَيَقْصُرُ عَنْ مَدَاهُ الْفَرْقَدَانِ

وَذَاتٌ تَبْهَرُ الأبْصَارَ حُسْنًا … مُكَمَّلَةٌ بِأخْلاَقٍ حِسَانِ

وَلُوعٌ بِالشِّفَاءِ وبِالْبُخَارِي … وَذِكْرِ اللهِ جَلَّ وَبِالْقُرَانِ

وَبِالْفِقْهِ الذي اسْتَخْرَجتَ مِنْهُ … مَعَانِي لَيْسَ يُدْرِكُها مُعَانِي

نَظِيفَ الْعِرْضِ أروعَ عَبْقَرِيًّا … هَصُوراً ذَا تَأنٍّ لاَ تَوَانِي

فَلَمْ يَسْتَصْبِ قَلْبَكَ ذو دلاَلٍ … يُحَاكِي طَلعَةَ القَمَرِ الزّيَانِ

وَلَمْ يَسْتَهْوِهِ نَغَمُ الْغَوَانِي … ولاَ صَوْتُ الْمَثَالِثِ وَالمَثَانِي

وَرَاحَكَ لَمْ تَمُدَّ لِحَمْلِ رَاحٍ … تُدَارُ بِكَفِّ مَخْضُوبِ البَنَانِ

جَلِيلُ الْقَدْرِ لِلْجُلَّى تُنَادَى … وَكَفٍّ ضَرُورَةٍ أوْ فَكِّ عَانِي

إذا قارَعتَ فِي الْهَيْجَاءِ جَمْعا … تَوَلَّى الْجَمْعُ مُضْطَرِبَ العِنَانِ

تَحُلُّ عِقَالَ بَأسَاهَا إذَا مَا … أنَاخَتْ بِالْكَلاَكِلِ وَالْجِرَانِ

وأذْكَى فِي الفِرَاسَةِ من إيَاسٍ … وَأعْرَفُ بِالْحَقَائِقِ وَالْمَعَانِي

فَلاَ يَخْفَى احْتِيَالُ أخِي دَهَاء … عَلَيكَ ، ولا يُقعقَعُ بالشِّنَانِ (1)

مُحَاوِلُ شَأوِكمْ في الفضْلِ يبغي … سِبَاقَ الصَّافِنَاتِ عَلَى أتَانِ

وَوَافِرُ بَحْرِ فَضْلِكُمُ مَدِيدٌ … وَإنْ قَصُرَتْ عِبَارَاتُ اللِّسَانِ

إذَا مَايَمَّمَ الْعَافِي ذرَاكُمْ … يُبَادِرُ بِالصَّلاَتِ بِلاَ أذَانِ

أقَمْتَ الخَلْقَ في رَوْضَاتِ أمْنٍ … جَنَاهَا من يد الجَانِينَ دَانِي

(1) مثل اصله ما يقعقع له بالشنان جمع شن للقربة اليابسة تحرك لحث الابل على السير : يضرب لمن لا ينخدع بالباطل انظر الميداني 2 : 215.

عَفَوْتَ عن الْجُنَاةِ من الرَّعَايَا ، … فأنت عَلَى الرَّعِيَّةِ أيُّ حَانِي

وَصُنْتَ عن الحَدِيدِ دَمَ الأعادي … وَمَا ألْبَسْتَهُمْ ثَوْبَ امْتِهَانِ

جَعَلْتَ مَحَلَّهُ خَتْنَ الْيَتَامَى … وَأهْلِ العَجْزِ عن درك الأماني

/ فَكَمْ مِئِينَ قد طَهَّرْتَ منهُمْ … طَهُورا مِنْ رِيَاء وَامْتِنَانِ [33 – أ]

كَسَوْتَ جَمِيعَهُمْ وَأنَلْتَ مالاً … جُزِيتَ بِهِ الْمَنَازِلَ في الجِنَانِ

وأطْلَقتَ الألى في السِّجْنِ حَتَّى … تَحَمَّلْتَ القَضَاءَ عَنِ الْمُدَانِ

وَلِلصَّدَقَاتِ قَدْ أجْرَيْتَ بَحْرًا … مِنَ الْبَيْضَاءِ وَالذهبِ الْمُصَانِ

فَعَمَّمْتَ السُّرُورَ بِها ، وَكَانَتْ … إلَيْكَ من المكَارِهِ كَالجُنَانِ (1)

بِذَاتِكَ مَعْ صفاتِكَ يا إلَهِي : … صِفَاتِ المَعْنَوِيَّةِ وَالْمَعَانِي

وَأوْصَافِ الجَلاَلِ وَكُلِّ وَصْفٍ … يُنَزَّهُ أن يُقَاسَ بكلِّ فَانِي

وَكُلِّ اسْمٍ عَلِمْنَاهُ وَمَا لَمْ … قَدِيمٍ لَيسَ يُحْصَرُ بِالزَّمَانِ

وَحَقِّ مُحَمَّدٍ خَيْرِ الْبَرَايَا … شَفِيعِ الخَلْقِ من إنسٍ وَجَانِ

مَنِ ابْتهجَتْ به الأكوَانُ نُورًا ، … وَأشْرق من سناه النّيرانِ

لَهُ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ انْشَقَّ قَطْعًا … عَلَى نِصْفَيْنِ شُوهِدَ بالعِيانِ

ومَنْ رِيحُ الصَّبَا نَصَرَتْهُ حَتى … كَفَتْهُ عَنِ الْمُهَنَّدِ وَالسِّنَانِ

وَمَنْ صَارَ الْيَسِيرُ بِهِ كَثِيرًا ، … وَفَاقُ المُدُّ مَمْلُوءَ الجِفَانِ

بِضَرْعِ الشَّاةِ مَرَّ الْكَفُّ مِنْهُ … عَلَى يَبَسٍ فجَادت باللِّبَانِ

وسَبَّحَتِ الحَصَى في الرَّاحِ مِنْهُ … وَكَلَّمَهُ الْجَمَادُ بلاَ لِسَانِ

وَخَاطَبَهُ الذِّرَاعُ بِأنَّهُ قَدْ … حَوَى سُمًّا بِقَصْدِ الامْتِحَانِ

وَعَيْنَ قَتَادَةٍ قَدْ رَدَّ لَمَّا … بِخَدٍّ مِنْهُ سَالَتْ كَالْجُمَانِ

إلَيْهِ شَكَا الْبَعِيرُ بلاَ امْتِرَاءٍ … وَفِي شَكْوَاهُ أفْصَحَ بِالبَيَانِ

وَحَنَّ الْجِذْعُ لَمَّا ناء عَنْهُ ، … كَمَا بَاحَ الْمُتَيَّمُ بِافْتِتَانِ

وجَاءَتْ نَحْوَهُ الأشْجَارُ تَسْعَى … وَظَلَّلَ في الْهَجِيرَةِ بِالعَنَانِ

وَبِالرُّسُلِ الْكِرَامِ وَكُلِّ مَلَكٍ … لَهُ عِنْدَ الإلَهِ عَظِيمُ شَأنِ

وَحَقِّ الآلِ وَالأصْحَابِ طُرًّا ، … لُيُوثَ الحَرْبِ في يوْمِ الطِّعَانِ

(1) الجنان بالضم : الترس.

وَحَقِّ الصَّالِحِين بِكُلِّ قُطْرٍ ، ... وَجُمْلَةِ أَوْلِيَاءِ الْقَيْرَوَان
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ احْفَظْهُ مِمَّا ... يَسُوءُ ، وَكُنْ لَه فِي كُلِّ آن
وَسَدِّدْه لِمَا قَدْ كَانَ فِيهِ ... صَلاَحُ الخَلْقِ مِنْ قَاصٍ وَدَانِي
[33 — ب] / أَطِلْ عُمْرًا له في الخَيْرِ وَاخْتِمْ ... لَهُ بِمَنَالِ خَيْرَاتٍ حِسَانِ
وَصُنْ أَنْجَالَهُ النُّجَبَاءَ مِمَّا ... يُنَغِّصُ مِنْ حَوَادِثَ أَوْ هَوَانِ
سُلَيْمَانَ الرِّضَا سَلِّمْ وَسَخِّرْ ... إِلَيْهِ الخَلْقَ مِنْ إِنْسٍ وَجَانِ
أَنِلْ حَمُّودَه بَاشَا الْمُرْتَضَى مَا ... يَوَدُّ لَهُ أَبُوهُ مِنَ الأَمَانِي
وَكُنْ لِمُحَمَّدِ الْمَأْمُونِ مِمَّا ... يُحَاذِرُ مِنْ صُرُوفٍ وَامْتِهَانِ
وَعُثْمَانَ السَّرِيِّ أَدِمْ عُلاَهُ ... بِحَقِّ الذِّكْرِ وَالسَّبْعِ الْمَثَانِي
وَمَحْمُودٍ وَإِسْمَاعِيلَ حَصِّنْ ... مَقَامَهُمَا الْمُرَفَّعَ بِالْقُرْآنِ
أَعِيذُ كَمَالَهُمْ مِنْ كُلِّ نَقْصٍ ... وَمِنْ عَيْنِ الوَدُودِ أو المعانِ (1)
أَيَا مَلِكٌ رَقِي فَلَكَ الْمَعَالِي ... وَحَلَّ بِفِكْرِه عُقَدَ المَعَانِي
زَفَفْتُ إِليكَ لِلإِعْذَارِ عَذْرًا ... لَهَا العُذْرُ المُبِين بِمَا عَرَانِي
وَمَا أَلْبَسْتُهَا حُلَلَ المَعَانِي ... وَلاَ حُلَلَ البَدِيعِ وَلاَ البَيَانِ
مُحلاَّةٌ بِمَدحِكَ فَهي تَحكِي ... لِغَانِيَةٍ تَبَخْتَرُ في الزِّيَانِ
تُغَطِّي وَجْهَهَا مِنْكُمْ حَيَاءً ... بِأَرْدَافِ المُهَفْهَفَةِ الحِصَانِ
مَخَافَةَ أَنْ تُعَامِلَهَا بِنَقْدٍ ... صَحِيحٍ لَيْسَ تَحمِلُه اليَدَانِ
بِعَيْنِ رِضَاكَ فَانْظُرْهَا وَسَامِحْ ... وإِنْ كَانَتْ مُهَلْهَلَةَ المَبَانِي
وَدُمْتَ مَعَ البَنِينَ قَرِيرَ عَيْنٍ ... تُزَفُّ إِلَيْكَ أَبْكَارُ التَّهَانِي

وقال الكاتب أبو العباس أحمد سميّة :

يومُ الخَمِيسِ السابعِ المَيمونِ من ... ثَانِي الرَّبِيعِينِ البَهَا فيه جُلِي
بِحلُولِ ثالثِ ساعَةٍ مِنْهُ بَدَا ... خَتْنُ المُلُوكِ بَنِي المليكِ الأكمل
هَنِّ الأَمِيرَ بِخَمْسِ أبياتٍ لَهَا ... عَشْرٌ بكلِّ فريدةٍ لم تُجهَل

(1) كذا بالاصول ، ولا يفيد المقابلة بالودود ويمكن تصويبه بالعيان مخففا للضرورة من العيان وهو المعيان . انظر الزبيدي في المستدرك ع ي ن.

وَاجْعَلْهُمُ فِي عَيْنِ مِعيانٍ أتى ، ... وَالقَلبُ منهُ بِنَارِ حقْدٍ يصْطَلِي
قلْ ، وَالقَبولُ على الإلهِ مُؤرِّخًا : ... (احمِي بحِفظٍ يا وَلِيُّ بني عَلِي)

فأثبَت الياء من فعل الأمر المعتلّ في قوله : احمِي ، ليتِمّ له عدد التاريخ ، وهذا معيب جداً .

وقال أيضا :

هَنِيئًا وَبُشْرَى ، أَمِيرَ الوَرَى ، ... بِحِصْنٍ مَنِيعٍ حوتْهُ بَنُوكْ
[34 — أ] / جَلَسْتَ وَأَنْتَ وَحِيدٌ عَلَى ... سَرِيرِ المَعَالِي وَهُمْ آنَسُوكْ
كَسَاكَ الإلهُ وَأَلْبَسَهُمْ ... مَلاَبِسَ حفظٍ تُزِيلُ الشُّكُوكْ
فَإِعْذَارُ أَنْجَالِ تَاجِ العُلاَ ... عَلِيٍّ تَنَظَّمَ نَظْمَ السُّلُوكْ
مُلُوكٌ يدُ الأمنِ تَخْتِنُهُمْ ... بِيُمْنٍ ، فَأرِّخْ : (خِتانُ المُلُوكْ)

وكان بعض العُدول ممّن لا يُحسن النَّظم أتاني بهذا التّاريخ وهو (ختان الملوك) وادّعاه لنفسه ولا أدري هل سمعه وانتحله أو توافَق فيه مع سميّة ، وسألني أن أضمنّه بأبيات ليتوصّل بها إلى بعض مآربه ، فقلت :

لِخَتْنِ أَوْلادِك مولى المُلُوكْ ، ... مَحَاسِنُ كالشَّمْسِ عند الدُّلُوكْ
للدّينِ والدُّنْيا سُرُورًا بِهِ ... ثَغْرُ ابْتِسَامٍ مثلِ دُرِّ السُّلُوكْ
نُقْصَانُ مَبْنًى زَادَ مِنْ طِيبِهِ ... مَعْنَاهُمُ كالمسكِ فتًّا يَصُوكْ
رَأَيْتَ فِيهِمْ كُلَّ مَا تَرْتَجِي ... كَمَا رأى فيكَ رَجَاهُ أَبُوكْ
فَفِي غَدٍ أَعْرَاسُهُمْ تُجْتَلَى ... وَاليَوْمَ تاريخُ : (خِتَانُ المُلُوكْ)

وقال صاحبنا الأديب الكاتب الأجل عبد الله محمد الدرناوي (1) :

هَنَاءٌ وَافِرُ الأجزَا جَلِيلُ ... مَدِيدٌ وَالسُّرُورُ بِهِ طَوِيلُ
وَبُشْرَى عَمَّتِ الآفَاقَ طُرًّا ... وَسَعْدٌ بِالسِّمَاكِ لَهُ وُصُولُ
بِخَتْنٍ لَوْ مَحَاسِنُهُ تَرَاءَتْ ... لِبَدْرِ الأُفْقِ أَدْرَكَهُ الأُفُولُ

(1) شاعر مقل ولي رئاسة الكتاب بعد أحمد الاصرم وتوفي سنة 1211/1787 ، النيفر 2 : 62.

لأبناء الرضا وابني أخيه   علي من له مجد أثيل
هو الملك الزكي الباشا المرجى   إذا ما نابنا أمر مهول
إمام، بل همام، بل غمام،   له خلق كباطنه جميل
وشغل دائم بعلوم دين   ولاسيما، بما قال الرسول
وأبحاث بها رقت ودقت،   فكم في فهمها حارت عقول
وبالآداب معرفة ونقد   به خجلت له الشعرا الفحول
سري، ألمعي، أوحدي،   نبيه، فاضل، حبر، نبيل
تأزر بالعفاف فلم تمله   شمائل ذي جمال أو شمول
ففي حلم وفي عزم وحزم   ومحض الفضل ليس له مثيل
[34 — ب] / له، إن أمن الجاني، عهود   تزول الراسيات ولا تحول
لقد عانى الزمان، لذا لديه   تساوى الصعب منه والذلول
ولا يخفاه من حال البرايا   لفطنته، كثير أو قليل
ولا عضد له في الملك إلا   قوي السعد، والرأي الأصيل
وأنجال له نجبا ولكن   لدى الهيجاء أشبال تصول
مآثره الجليلة أنبأتنا   بعاقبة إلى الحسنى تؤول
وناهيك البرية بايعته،   ولا نهب يلوح ولا قتيل
أيا ملك الورى يهنيك ختن   به العلياء تاهت والخيول
وتخت الملك، والتاج المحلى   ورمح الطعن، والسيف الصقيل
كذا الرايات والجند المفدى   لعمرك والإقامة والرحيل
لأبناء دروا — وهم بمهد —   أمورا ليس تدركها الكهول
فدم بهم — فديتك — في سرور   قرير العين، ما هبت قبول
فياله من ختان قد أريعت   به الأعداء والنسر الخليل
ومذ قد كان في زمن سعيد   أتى التاريخ : (ختنهم جميل)

وقال الكاتب أبو عبد الله محمد بن قاسم بن غانم (1) :

حان الختان وقد أبرزت أقمارا   وجدد السعد بالخضراء أنوارا
يوم أضاء الدراري نور بهجته   وألبس الدهر بالإشراق أسرارا
قد صيغ حلي الغواني من عشيته   ومن صباه (2) تبدى الزهر معطارا
ترى الحدائق مالت من مسرته   والطير تبدي من الترديد أطوارا
يا أيها الملك المبدي فضائله   غيثا يسح على العافين مدرارا
هذا الختان الذي عمت (3) محاسنه   وعم باليمن غلمانا وأبكارا
أبشر بغرسك إن الروض إن قطعت   منه الزوائد نار (4) الغصن أزهارا
واسعد فإن بدور السعد قد طلعت   وقد تراهم بعز الملك أنصارا
يا خير من حل بالخضراء مبتهجا   وقد تجلى بنور العدل أمارا
تهدي إليك الليالي يمن غرتها،   والدهر يسفر عن علياك إسفارا
/ ما كل ثغر متى يفتر منتظما   وكل طرف متى يرتد سحارا [35 — أ]
خذها تهنيك بالأفراح ناطقة   عذراء شطت على الأقمار مقدارا
جاءت تقبل في الأقدام راغبة   ولم ترد منك غير البشر إيثارا
فاعطف أبا الحسن الباشا الرضا كرما   عطفا يبلغ بالآمال أوطارا
دامت إليك وللأبناء مملكة   وقد وقاهم رسول الله أكدارا
عليه أزكى صلاة الله ما طلعت   شمس النهار وعم النور أقطارا
وآله الغر والأصحاب ما عبثت   ريح الشمال وراق الزهر أشجارا

وقال الفقيه الأديب أبو العباس أحمد العصفوري (5) :

هناء يعم الخلق طرا مع البشرى   بختن بني الباشا الذي قد علا قدرا

(1) كذا بالاصل، وفي غيره (ابن ابي القاسم) وبه ذكره النيفر 2 : 53 ووسمه بالكاتب ايضا وهو مغمور لم ترو له الا هذه القصيدة، وستاتي اخبار حسين بن علي الآتية قطعة من قصيدة في تهنئته بولاية ابنه محمد باي محال للفقيه ابي القاسم ابن غانم ذكر انها طويلة جدا، وربما كان هذا أبا للاول وكلاهما لم يحظ بترجمة.

(2) في ز : شـــداه .

(3) في ح ، م : زانـــت.

(4) كذا بالاصل وله معنى في الجملة والاولى : زاد .

(5) أديب عريق ينسب الى ابن عصفور النحوي كما في النيفر 2 : 50 توفي 1199/1785.

أميرِ الهُدى المولى الأجلّ مليكِنا ... علي باي المُستنعِلِ الشمس والبدرَا
هوَ ابن حسين الباي من صال ملكه ... يُفاخرُ أملاكَ البرايا به فخرَا
أميرُ علاءٍ في الوُجود ضياؤُه ... بكلّ سماءٍ أخنسَ الشُّهُبَ الزُّهرَا
أميرُ الحِجا والمجد والحلم والتُّقى ... وكُلّ جميلٍ ، ما علمنا به نكرَا
له البأس في يوم الوغى يبترُ العدا ... بهيبتِهِ من دون أن يُعملَ البُترَا
إذا خفقتْ راياتُه في جيُوشِهِ ... وقابلها الأعداءُ خرّوا لها ذُعرَا
بعدل قضى ، يعفو عن الذنبِ قادرًا ... ويقبل من ذي الذنبِ عن ذنبه عذرَا
لهُ هِمّةٌ علياءُ تعلُو إلى السّما ... يُزيِّنها باللِّينِ مُجتنباً كبرَا
إذا ما ملوكُ الأرضِ تاهتْ بملكها ... فمالكُ علي باشا يتيهُ به جبرَا
مليكٌ يحبُّ العدلَ طبعًا وشأنُهُ ... لمنْ حبّهُ لم يُولِهِ أبدًا هجرَا
إذا عدلَ السلطانُ لم يخشَ حادثًا ... فلم يدّخرْ ـ خوفَ العدوّ ـ قنا سُمرَا
يرَى منتهى الأمرِ الذي رام فعلَه ، ... فليسَ يُرَى من حزمه ناقصا أمرَا
ويسبرُ أحوالَ الرّجالِ برأيِهِ ، ... ويقضي على علم وقد أحكمَ السبرَا
يعي سمعُه قولَ الصّوابِ مُراعيًا ... ويُظهرُ في أذنيه عند الخنا وقرَا
يُنزّهُ ناديه من اللّغوِ والهذَى ... ويهجرُ فحش القوْل مجتنبًا هُجرَا
له خلُقُ المأمونِ في حالِ حكمِهِ ... ورأي رشيدٌ دون أن يُعمل الفكرَا
/ بديهتُه ذكرَى إياسٍ وحدسِه ، ... ولكنه في كلّ أحكامه أدرَى [35 — ب]
وفي الحِلم أقصَى أحنفًا فكأنّما ... مُعاويةٌ ألقَى بآذانِهِ سرّا
بمبْسَمِهِ يسبي نُفوسا تكدّرتْ ... ويُخجِل برقًا إن تألّقَ والفجرَا
تملّكني حبًّا ، وتيّم مُهجتي ، ... فأبدَى لساني في محاسنِهِ شُكرَا
ولكنّها جلّتْ على كلّ مصقع (1) ... تصدّى لحسبانٍ يرُومُ لها حصرَا
وأرضَى نُفوس الخلْق أحيى مواتها ... مُحيّاهُ ، مهما لاحَ في موكب سرّا
فصارَ لإفريقيّةَ البِشرُ والهنَا ... وما أحسن الوجه الذي يصْحب البِشرَا
أراه إلهُ العرْش ، جلّ جلالُهُ ، ... بنيه ملوكًا يقتفون لهُ الأمرَا
كهولاً وشُبّانًا يُطيعونَ أمرَهُ ... يشدّون من أكنافِ مُلْكٍ له الأزرَا

(1) في ز : مقصح.

ويرضَون ما يرضى امتثالاً وطاعةً ... وهم أمراءٌ تحت أحكامِهِ الكبرَى
يُقرّون منه العينَ بالمجدِ والحِجى ... وأفعالِ خيرٍ منهمُ لم تزلْ تترَى
يُضاهونَهُ في عفّةٍ وصيانَة ... وفصلِ قضاء ليس يتبعُه قهرًا (1)
ففضلٌ على الإنسان منْ كان نجلُهُ ... يُشابهه . يبقي له في الورَى الذّكرَا
كسلطاننا الباشا بوالدِهِ اقتدَى ، ... يُتابعُ في أفعالِ خيراته الأثرَا
يُدبّرُ أمرَ الملكِ يومًا بوقتِهِ ، ... ووقتا لفصْلِ الحكْمِ مُجتنبًا وزرَا
ووقتا لإيقاعِ الفُرُوضِ بوقتِها ... يحصلها بالنفل يكتسبُ الأجرَا
ووقتا لدرسِ العِلم حالاً مُقدّرًا ... ووقتا لخيرِ الذّكرِ ينشُرُهُ نشرًا
حديث رسول الله سيّدنا الّذي ... روايتُه طابتْ عن المقتدي نشرًا(2)
إذا ما روَى ما في الإمام روايةً ... ترى كل ذي سمع من السر في السرّا (3)
يُصاحبُهُ الأشياخُ فيهِ وأجرُهُ ... يُضاعفُ بالتّسبيبِ ـ لا عدم النصرَا ـ
فلمّا أرادَ الختْنَ وجّهَ رأيَهُ ... لختْنِ زُها مئينَ مُكتسبًا أجرَا
فأوسعهم فضلا ، وأوسعهم كُسًى ، ... لإعذارِهِم يستذخرُ الأجرَ للأخرَى
فيُمْناه يُمْنٌ لا يُفارقُه الجدَى ... ويُسراه بالتّيْسير لا تعرفُ العُسْرَا
وما فيه من عيبٍ سوَى أنّ فضْلَه ... كثيرٌ مداه لا يحيطُ بِهِ خُبْرًا
تجودُ القوافي عند قصْد مديحه : ... يخوضُ الفتى لُجًّا فيجري به مجرى
/ وتأتي المعاني بازْدحامٍ فرُبّما ... تُورّثُ ذا الآدابِ في شِعرِه حصْرًا [36 — أ]
تراءتْ لعين الدهرِ كالشمس ضحوةً ... وتنظرُ من لا يهتدي نظراً شزْرًا
تُعلّمُ كُتّابَ المديحِ لهُ النّثرَا ... ونُظّامَ نثرِ المدحِ في مدحه الشعرَا
فلمْ تُعنَ بالتّشبيبِ في مدْحه لِمَا ... يُنازعني (4) المعنى فلم تستطِعْ صبرَا
خبرْتُ بني الدّنيا وأملاكها الألَى ... رقوا في المعالي ثمّتَ اقتعدوا النّسرَا

(1) هذا البيت مشطور من بيتين فيما عدا الاصل ، وتمامه بعد الصدر :
.... بهم قد يغوص البحر يستخرج الدر ـ وحلم وعلم لا يشاب بشبهة ـ وفصل قضاء الخ .... لكن النسختين ز ، م قد خلتا من ابيات 21 بعده انفرد بالاصل ، ص . والكل من هلهل الشعر .

(2) في ص : روايته طالت على المنتدى نشرا.

(3) في ح : سرا . بالتنكير والقصر ، ضد ضراء . والامام هو البخاري.

(4) لعله ينازعها.

فلَمْ أرَ لِلباشَا مَثيلاً تَجمَّعَتْ ... خِصَالٌ له كالزُّهرِ لم أُلفِها الدَّهرَا
لَئنْ كان سيفُ الدولة المرْتضى مضى ... عليًّا يسمّى جرّد السيفَ والشِّعْرَا
حَمى باستلال السيفِ دولةَ هاشمٍ ... وَشُهرته في البأس جاوزت الشعرَى
فهذا عليٌّ نُصْرَةُ الله سيفُه ... فإغمادُ سيفِ الجورِ أكسبه الظفْرَا
غدا من بني التُّركي سيفًا مُهنّدًا ... لدولتهِمْ بالله مُنْتَصِرًا نَصْرَا
يُسمّيه سيفَ الدولة اليومَ أحمدٌ ... لنُصْرته بالله قد جانَبَ المكْرَا
وَذلكَ مَحْمُودٌ لأحمدَ قادْره ... فنالَ به فَخْرًا يذلّ له كِسْرَى
إلى أن أتى هذا المَليكُ بدَهْرنا ... فنازَعه في الفَخْر أخفى له ذكْرًا (1)
يرى المدحَ يجري في ازدياد محاسنٍ ... فيزدادُ فضلاً في المكارم منسرًا
فجاءتْه أبكارُ القصائد سُبَّقًا ... تُهنّيه بالمدحِ الذي يُشْبِه السِّحْرَا
مِنَ الأدباء الألمعيّينَ مَنْ هُمْ ... فُحولٌ جرى تبيانُ أمداحهم نَهرًا
لَهُمْ باقتدارٍ في البيانِ تقدُّمٌ ... وفصلُ خطابٍ بالمصاقعِ قد أزرَى
فخُذْ من بنات الفكرِ يا خيرَ آخذٍ ... مُخدَّرَةً غيداءَ حاليةً بِكْرَا
سما حسنها الوضاح كالشمس في الضحى ... تَراءتْ لعينٍ وهي لم تبرح الخدْرَا
فكيفَ وقد وافتكَ بالدُّرِّ ساطعاً ... تُنضَّدُ بالياقوت تستحقرَ الشّذْرَا
تَهادَى دَلالاً بالجَمالِ وأصلُها ... وقدْ وَجدتْ كُفْئًا فكانَ بها أحرَى
مُهذّبةُ الأخلاقِ وافرةُ الحلى ... كقطر الندى (2) وافت لبغداد من مصرا
تَتيهُ على الأبكار بالفخرِ والثّنا ، ... وتُبدي حياءً وهي في خِدْرِها عذرَا
مُطوّقةٌ بالمجدِ فالحَلْيُ زائدٌ ... على حُسنها زادتْ بإبداعه وفْرَا
ترَى بَعْلَها خيرَ المُلوكِ وحَلْيَها ... من الدُّرّ والياقوتِ في حقه نزرًا
[36 — ب] / فلازالَ في الملكِ السّعيدِ مُؤيّدًا ... بنصرٍ عزيزٍ يَصْحبُ اليمنَ واليسرَا

(1) هذه الابيات على غاية من التفكك والغثاثة ولا تخلو عن تصحيف تواطات عليه النسخ وكان الشاعر بعد ان نظر ممدوحه علي باي بسيف الدولة على الحمداني وفضله بان نصرة الله هي سيفه قارنه بابيه حسين وانه كان عضدا للسلطنة العثمانية لان دولته كانت على عهد السلطانين احمد الثالث ومحمود الأول ، ثم اتى ابنه علي هذا فاربى على ابيه حتى اخفى ذكره ، وهو اقصى ما يفهم.

(2) هي ابنة خمارويه ابن طولون التي زفت الى الخليفة العباسي ببغداد.

بِجاهِ رَسولِ الله سيّدنا الذي ... شذى ذكره الأذكى لنا يشرح الصّدرا
[عليه صلاةُ الله ما قالَ مُنشدٌ : ... هناءٌ يعمّ الخلقَ طرًّا مع البشرى](1)

وقال أيضا :

هَنَّا جَميعَ العالَمين إمامُ ، ... مَلِكٌ بكُلِّ فضيلةٍ همّامُ
هنّاهُ مُلْكٌ قدْ حَماهُ بِنصرِه ... حِفْظُ الإلهِ فما القنا وحُسامُ
ذو المَحْتِدِ العالي علي باشا الرِّضا ... مَوْلى النّجابةِ والذّكا . الفهّامُ
نَجلُ الأميرِ حُسين بايِ المرْتضى ... مَنْ عدلُه بَيْنَ الملوكِ عِصامُ
فهو الهِزَبْرُ ، الأسْدُ تخشى بطشَهَ ... دون الزّئير . سَمَيْدعٌ . ضِرغامُ
قطعَ الضّراغِمَ ، والمخارفُ ما لها ... في أرضه بِحمى الإلهِ مُقامُ
فالشّاةُ ترْعى لا تُراعُ ، وأهلُها ... بالأمنِ في ظلّ الخيامِ نيامُ
فلأجْلِ ذا ازدحم الأنامُ تؤمُّه ... من شاسعِ الأقطارِ . قادَ زمامُ
مُتَفيّئينَ ظلالَ حضرةِ مُلْكه ... فهُمُ نيامٌ في الأمانِ قيامُ
لا يَستوي من راعَ رُوعَ رعيّةٍ ... بالرّوْعِ . فهي مدى الزّمانِ ذِمامُ
وَمن استرَدَّ الخوفَ أمْنًا واحتمى ... بحِماهُ مَنْ قدْ قضّبتْهُ لِئامُ
وتواترتْ أنباءُ سَطْوَةِ بأسه ... في اللهِ حتّى هابَهُ الظُّلاّمُ
وَمن اغتدى في الدّين شهمًا فاضلا ... خضعتْ لهُ شُمُّ الأنوفِ وهامُ
حازَ المَحاسنَ يافعا ، وسمَا بها ... مُتكَهِّلا . فكأنّهُ بهرامُ
مُتأيِّدًا بذكاءِ عقلٍ ثاقبٍ ، ... تجري بِحُسْنِ حديثه الأقلامُ
طارتْ إلى الأقطارِ في جوِّ السّما ... أخبارُه الحُسْنى وهُنَّ ضخامُ
لِلمُلْكِ طورًا في تدَبُّرِ أمرِه ، ... والعِلْمِ آونةً وفيه غرامُ
لحَديثِ خيرِ الخلْقِ فيه عنايةٌ : ... فلذا يُرَى لِرُواتِه يعْتامُ
والدُّرُّ أوْضحَ بالحجى مُختارُهُ ... بِشهادة الأشياخ حينَ يُرامُ
أمّا الحَياءُ فشأنُه مُتواترٌ ... ومَشارُهُ (2) الإيمانُ والإسلامُ

(1) هذا البيت زائد على الاصل في ز ، ح ، م.

(2) في ز : ودثـاره.

بِعفافِ ذَيْلٍ مَا يُلِمُّ بِرِيبَةٍ … فَضْلاً فَمَا بِمُرَادِهِ إِلْمَامُ
نَالَ المَحَاسِنَ كُلَّهَا حتى غَدَا … مَلِكا تَخِرُّ لِعِزِّهِ الأَعْلامُ
[37 — أ] / بسياسةِ يعقوبُ (1) فيها سائسٌ … لِخُيولِهِ أَوْ خَلْفَهُنَّ غُلامُ
وَبَشاشةٍ يسبي بها مُهَجَ الوَرَى ، … وَسَبا البَرَايا ثَغْرُهُ البَسَّامُ
وَكَهِمَّةِ المنصورِ هِمَّتُهُ التي … صَعِدت فحطَّ بها الإمامُ هِشَامُ (2)
رَكِبَتْ مدائحُهُ البِحَارَ وأَصْحَرَتْ … وَتَحَدَّثَتْ يَمَنٌ بها وَالشَّامُ
أثنى عليهِ أولُو النُّهَى ولوَ انَّهُمْ … سَكَتُوا لأَثْنَى الدَّهْرُ وَالأيَّامُ
جَلَبَ النَّمِيرَ العذبَ صَائِبُ رَأْيِهِ … حتى ارْتَوَى فِي تُونِسَ الأَقْوَامُ
مِنْ كُلِّ ذِي كَبِدٍ عرَاها قَبْلَهُ … زَمَنَ المَصِيفِ في الظَّماء أُوَامُ
فِي كُلِّ دَرْبٍ مَنْبَعٌ مُتَدَفِّقٌ … مِنْ عُنْصُرٍ لِلْوَارِدِينَ مَرَامُ
مَاءً مَعِينًا مِنْ مَكَانٍ شَاسِعٍ … مَا رَامَهُ مِنْ قَبْلِهِ الحُكَّامُ
وَرَدَ الوَرَى سَلسالَهُ بِسُهُولَةٍ ، … مِنْ مِبزَلٍ (3) ملأَ الإناءَ غُلامُ
وُفِّقْتَ لِلخيرِ الذي وَرَدَتْ بهِ … أَخْبارُ سَيِّدِنَا عَلَيْهِ سَلامُ
أَعْطَاكَ يَا بايَ الزَّمَانِ مكارِمًا … رَبٌّ كَرِيمٌ وَاهِبٌ عَلاَّمُ
فَاشْكُرْ مَوَاهِبَهُ يزدكَ مَوَاهِبًا … فَبِشُكْرِ نُعْمَاهَا تَزِيدُ كِرَامُ
وَاهْنَأْ بِختنِ بنيكَ أَمْلاكِ الوَرَى … سَعِدَتْ بهم وَبِعدلِكَ الأعوامُ (4)
أَبْقَاهُمُ سُبْحَانَهُ لَكَ عُدَّةً … يَبْغُونَ ما تَبْغِي وَأَنْتَ إمَامُ
يَتَعَلَّمُونَ مَكَارِمًا خَوَّلْتَهَا … بِالطَّبْعِ ، وَهِيَ على سِوَاكَ حَرَامُ
يَقْفُونَهَا بعنايةٍ ، وَمَنِ اعْتَنَى … بِخِلاَلِ وَالِدِهِ . فذاكَ هُمَامُ
حَتَى تَرَى إقْرَارَ عَيْنِكَ مِنْهُمْ … وَيُسْرَ في يُمْنَاهُمُ الصَّمْصَامُ
ويراعُ توقيعٍ ، وحكمةُ عَالِمٍ ، … واليسرُ في كفِّ اليسارِ لجامُ
دُمْ في ابْتهاجِكَ في الذي خَوَّلْتَهُ … من قلبِ ذي مِقَةٍ دعاه ذِمَامُ

(1) كانه يريد يعقوب المنصور الموحدي ، والتشبيه سخيف.

(2) أراد المنصور ابن أبي عامر الحاجب الذي استبد على الخليفة الاموي هشام المؤيد بالاندلس فارتفع الاول وانحط الثاني.

(3) المبزل آلة فتح الدنان استعمله لما نسميه بالابزيم ، وفي بقية النسخ منزل.

(4) في ز ، م : الأيام.

تَقْضِي بما تَرْضِي - فأنتَ مُوَفَّقٌ - … كُبَرَاءَ هذا القُطرِ ، فهي زِمَامُ
مِنْ كُلِّ مَنْ جعل الفخارَ دِثارَهُ … والكِبْرُ فيه معَ الشِّعارِ لِهَامُ
في كلِّ شَيْءٍ رُمْتَهُ لكَ عَزْمَةٌ … لاَ تَنْثَنِي قدْ حَاطَهَا العَلاَّمُ
وَقِياسُ شَكْلِكَ دائمًا هوَ مُنتِجٌ … قدْ طَالمَا امْتُحِنَتْ بهِ الأفْهَامُ
لاَ زلتَ في التَّدبيرِ يَصْحَبُكَ الهُدَى … فَتَجِيءُ في حدسٍ لكَ الأعلامُ
/ في مُلْكِكَ السَّامِي تَدومُ مُخلَّدا … وَعَلَيْكَ مِنْ رَبِّ العِبادِ سَلاَمُ [37 — ب]

وقال الفقيه صالح الكواش (1) :

إن الغُصُونَ إذا شَذَّبْتَها ابتَهجَتْ … حُسْنًا فَتَنْمُو وَتُبدي جيِّدَ الثمرِ
وَالشَّمعُ أيضًا إذا ما قُطَّ فَضْلتُهُ … يَزْدادُ نوراً يسرُّ القلبَ كالبَصَرِ
كَذا اليَرَاعُ إذا هَذَّبْتَهُ انْتَظَمَتْ … نُقُوشُه كانْتِظامِ السِّلْكِ بالدُّرَرِ
فَفي الختانِ رُقِيٌّ للصَّبيِّ إلى … مَعارِجِ الرُّشدِ بعدَ الوَصْفِ بالصِّغَرِ
فيا أميراً لَهُ الآمالُ طائعةٌ … كمَا أُتيحَتْ له في سَابِقِ القَدَرِ
هذا ابْتِداءُ مَسَرَّاتٍ وَيَتْبَعُهَا … تَزْويجُهُمْ بذواتِ السَّعدِ وَالخَفَرِ
دُمْتُمْ سَمَاءً بلاَ غَيْمٍ وَلاَ كدرٍ … وَهُمْ لَكُمْ زِينَةٌ كالأنجمِ الزُّهُرِ
حتَّى تَرَى لِبَنِي أبْنائِهِمْ غُرَراً … مِنَ السُّرورِ وتقضي غايةَ الوَطَرِ
بِحُرْمَةِ الفاتحِ المَحمودِ مَنزِلَةً … السَّيِّدِ المصطفى المختارِ من مُضَرِ
خيرِ الأنامِ وخيرِ العالمين هدى … ومن هو الشمس والأكوان كالقمرِ
عليه منْ نفحاتِ القُدسِ ناسِمَةٌ … من الصَّلاة مدى الآصالِ والبُكَرِ

وقال أبو الحسن علي الغراب (2) :

مَاءَ الحَيَاةِ أرَى بِثَغْرِكَ ، أوْ لَمَى … بِذَبِيحِ صَبْرِي لِلصَّبَابَةِ أوْلَمَا

(1) اشهر علماء تونس في عصره وابعدهم صيتا واصرحهم في الحق واشدهم انكارا للمنكرات وله في ذلك مواقف ناله فيها الابعاد والنفي ولكنها اكسبته شهرة الدهر ، وشعره قليل في المناسبات ووفاته سنة 1218/1804 . انظر ابن أبي الضياف 7 : 44 ، التيفر 2 : 64.

(2) هذه القصيدة عليها كلفة الصنعة وقد ضاعت معانيها في الجناسات والتوريات وطالعها شاهد على ذلك.

وَبِدُرِّ عِقْدٍ دَرَّ فَيْضُ مَدَامِعِي
بِوَمِيضِ بَرْقٍ مِنْهُ حِينَ تَبَسَّمَا

بِبَرِيقِهِ غَصَّ الْمَشُوقُ بِرِيقِهِ ،
وَبِيُتْمِهِ تَرَكَ الْفُؤَادَ مُتَيَّمَا

لَوْ قُلْتُ : عُلَّ بِمَاءِ فِيكَ حَشًى عَسَى
يُشْفَى ، لَجَاوَبَ : دَعْ عَسَى وَلَعَلَّمَا

نَبْتُ الْعِذَارِ بَدَا بِفَيْضِ مَدَامِعِي
وَالنَّبْتُ يُبْدِيهِ الْغَمَامُ إِذَا هَمَى

لا يَذْبُلُ الْوَرْدُ النَّضِيرُ بِخَدِّهِ
يَوْمًا لِمَا يُسْقِيهِ مِنْ مَاءِ اللَّمَى

وَالْخَالُ عَبْدٌ حَارِسٌ مِنْ وَجْهِهِ
فِي رَوْضَةٍ مِنْ رَاتِعٍ حَوْلَ الْحِمَى

وَحَمَى الْمُبَرَّدَ مِنْ لَمَاهُ بِمَا انْتَضَى
مِنْ هِنْدِ مُقْلَتِهِ فَصِينَ بِمَا احْتَمَى

إِنْ مَرَّ – وَهْوَ يَمِيلُ فِي حُلَلِ الْبَهَا –
تَرَكَ التَّقِيَّ الْخِلْوَ صَبًّا مُغْرَمَا

صَلَّى عَلَى الْجَمْرِ الْفُؤَادُ مُسَلِّماً :
لِلَّهِ مَا صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَا

يَهْتَزُّ عَدْلُ قَوَامِهِ فَتَخَالُهُ
عَلَمَ الأَمِيرِ تَلاَهُ حِينَ تَقَدَّمَا

[38 – أ] / مَلِكِ الْوَرَى الْبَاشَا عَلِيِّ مَنْ غَدَا
يُرْوِي بِمَرْآهُ الصُّدَاةَ مِنَ الظَّمَا

نَجْلُ الأَمِيرِ حُسَيْنِ بَايِ مَنْ بِهِ
نِلْنَا رِضَى عَيْشٍ يَلَذُّ ، وَأَنْعُمَا

مَلِكٌ لَهُ ذِهْنٌ وَصِدْقُ فِرَاسَةٍ
تَسْتَخْرِجُ الأَمْرَ الْخَفِيَّ الْمُبْهَمَا

[قَرَنَ الصَّوَابُ بِرَأْيِهِ ، فَإِلَيْهِ لاَ
يُوحَى ، وَلَكِنْ لِلإِصَابَةِ أُلْهِمَا] (1)

لَمْ يُخْطِ فِي قَوْلٍ وَلاَ فِعْلٍ فَمَا
فِعْلٌ مَضَى يَوْماً عَلَيْهِ تَنَدَّمَا

فَرْعٌ عَرِيقٌ فِي الْفَخَامَةِ ثَابِتٌ
وَفَخَارُهُ فَوْقَ الثَّوَابِتِ خَيَّمَا

شَرَفٌ تَأَصَّلَ مِنْ حُسَيْنٍ هَلْ يُرَى
شَرَفٌ عَلَى شَرَفِ الْحُسَيْنِ تَقَدَّمَا ... ؟

مَا انْفَكَّ فِي رَوْعٍ وَجُودِ كَفِّهِ :
يُجْرِي النَّدَى يَوْماً وَيَوْماً بِالدِّمَا

غَمَرَ الْوَرَى ، وَيَرَى النَّوَافِلَ فِي الْعَطَا
يَوْمَ النَّدَى فَرْضاً عَلَيْهِ مُحَتَّمَا

فَاللَّيْثُ رَامَ تَشَبُّهاً بِكَ فَاجْتَرَا
لَمَّا رَآكَ لَدَى الْحُرُوبِ مُقَدَّمَا

وهَمَى السَّحَابُ الْغُرُّ يَحْكِي نَيْلَكُمْ
لَمْ يَحْكِ نَائِلَكَ السَّحَابُ ، وَإِنَّمَا ...

يَا مَنْ إِذَا أَمْرٌ تَعَذَّرَ كَشْفُهُ
أَمْسَى لَهُ فِكْرٌ عَلَيْهِ مُتَرْجِمَا

يَا مَنْ مَفَاتِيحُ الْكُنُوزِ مَدِيحُهُ
وَلَوَ أَنَّهُ بِالرَّصْدِ كَانَ مُطَلْسَمَا

(1) البيت ناقص بالاصل ومثبت في جميع النسخ .

يَا مَنْ إذَا دَبَّرْتُ إكْسِيرَ الثَّنَا
فِـي وَصْفِهِ كَانَ الْغِنَى لِـي مَغْنَمَا
لَوْلاَ اخْتِلاَلُ الْكَوْنِ بَعْدَ نِظَامِه
مَا كَانَ يَتْرُكُ فِـي الْبَرِيَّةِ مُعْدِمَا
أنْتَ الّذِي أنْبَاء ذِكْرِك قَدْ عَلَتْ
فَمَلأنَ مَا بَيْنَ الْبَسِيطَةِ وَالسَّمَا
أنْتَ الذِي أنْوَارُ بِشْرِكَ أشْرَقَتْ
كَادَتْ لِطَاعَتِكُمْ تَقُودُ الأنْجُمَا
أنْتَ الّذِي عَزَمَاتُ فِعْلِكَ جَاوَزَتْ
فِـي سَبْقِهَا فَلَكَ النُّجُومِ الأعْظَمَا
أنْتَ الّذِي دَفَعَاتُ جُودِكَ أفْصَحَتْ
بِثَنَائِكُمْ مَنْ كَانَ أخْرَسَ أبْكَمَا
أنْتَ الّذِي آيَاتُ حِلْمِكَ لَوْ دَعَتْ
[رَضْوَى لَجَاءَكَ بِالرِّضَاءِ مُسَلِّمَا]
[أنْتَ الّذِي رُحْمَاكَ لَوْ نُشِرَتْ عَلَى]
رِمَمِ الْقُبُورِ نَشَرْتَ مِنْهَا الأعْظُمَا
وَكَفَفْتَ كَفَّ الظَّالِمِينَ فَلاَ يُرَى
أحَدٌ أتَى مِنْ دَهْرِهِ مُتَظَلِّمَا
وَأقَمْتَ أرْكَانَ الشَّرِيعَةِ إثْرَ مَا
فِينَا تَدَاعَى رُكْنُهَا وَتَهَدَّمَا
مَوْلاَيَ يَهْنِيكَ الْخِتَانُ لأنْجُلٍ
شَرُفُوا الْمُلُوكَ نَبَاهَةً وَتَكَرُّمَا
وَهُمُ «سُلَيْمَانُ» الرِّضَى وَشَقِيقُهُ
«حَمُّودَةٌ» ، أعْظِمْ بِكُلٍّ مِنْهُمَا

وَابْنَا أخِيكَ [وَذَاكَ] «مَحْمُودٌ» وَمَنْ
يُدْعَى «بِإسْمَاعِيلَ» أنْتَ أبُوهُمَا
/ أوْتَادُ مَمْلَكَةٍ ، وأسْدُ فَرَائِسٍ ، [38 — ب]
شُهُبٌ إذَا لَيْلُ الشَّدَائِدِ أظْلَمَا
وُهُمُ إذَا جَرَحَ الزَّمَانُ بِنَابِهِ
كُلٌّ لِذَاكَ الْجُرْحِ أصْبَحَ مَرْهَمَا
خَتْنٌ بِهِ عَظُمَ السُّرُورُ فَثِقْ بِهِ
أنْ قَدْ أتَى لِدَوَامِ مُلْكِكَ سُلَّمَا
وَبِإثْرِهِ يَأتِي الْبِنَاءُ مُؤَسَّسَا
لِدَوَامِ مُلْكِكُمُ دَوَامًا مُحْكَمَا
أمْسَى لآلاَتِ الْخِتَانِ تَنَافُسٌ
فِـي الْخَتْنِ سَالَ دَمًا وُهُزَّ بِهِ . كَمَا
شَرُفَتْ عَلَى الآلاَتِ آلَةُ خَتْنِهِ ،
وَتَقُولُ فِـي عَرْضِ الْفَخَارِ لِمَنْ سَمَا :
(لاَ يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الأذَى
حَتَّى تُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمَا) (1)
وَالْخَتْنُ نَقْصٌ يَسْتَتِمُّ مَحَاسِناً ،
فَاعْجَبْ لِنَقْصٍ كَيْفَ جَاءَ مُتَمِّماً
يَقْوَى الذُّبَالُ بِقَطِّهِ ، وَالْمِسْكُ قَدْ
يَذْكُو بِمَا تُلْفِيهِ عَنْهُ مُخْتَمَا
كَالْقَطِّ لِلأقْلاَمِ يُسْرِعُ جَرْيَهَا
أبَداً ، وَيَنْمُو الْغُصْنُ مَهْمَا قُلِّمَا

---
(1) تضمين للمتنبي .

لَمْ يُدْرَ طِيبُ اللُّبِّ وَهْوَ بِقِشْرِهِ ،
وَالدُّرُّ فِي أَصْدَافِهِ مَا فُخِّمَا

وَغَدَوْتَ تُتْبِعُهُمْ بِخَتْنِ بَنِي الْوَرَى ،
وَأَقَمْتَ فِيهِمْ بِالْمَسَرَّةِ مَوْسِمَا

وَكَسَوْتَهُمْ حُلَلاً تَرُوقُ مَحَاسِناً
وَعَلَى جَمِيعِهِمُ أَفَضْتَ الأَنْعُمَا

وَعَمَمْتَ بِالصَّدَقَاتِ كُلَّ فَتًى ، فَلَمْ
تَسْتَثْنِ فِيهِمْ مُوسِراً أَوْ مُعْدِمَا

وَفَكَكْتَ أَسْرَ الْمُذْنِبِينَ بِأَسْرِهِمْ
فِي ذَا الْخِتَانِ ، فَلَسْتَ تَتْرُكُ مُجْرِمَا

أَسْقَطْتَ حَقَّكَ عَنْهُمُ ، وَغَدَوْتَ فِي
حَقِّ الْوَرَى لأَدَائِهِ مُسْتَلْزِمَا

وَأَرَدْتَ مِنْ هَذَا الصَّنِيعِ جَمِيلَهُ
نَيْلَ الْمَثُوبَةِ ، لاَ رِيَاءَ مُذَمَّمَا

فَاسْعَدْ بِهِ وَاهْنَأْ هَنَاءً لَمْ تَزَلْ
أَبَدًا بِهِ فَوْقَ الْمُلُوكِ مُعَظَّمَا

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الأَعَزُّ مَكَانُهُ ،
وَإِلَيْهِ تَقْتَادُ السُّعُودُ الضَّيْغَمَا

خُذْ مَدْحَ رَوْضٍ فِي عُلاَكَ مُدَبَّجٍ
مِنْ فَيْضِ كَفِّكَ لِلزُّهُورِ مُنَمْنَمَا (1)

وَاجْنِ الْفَوَاكِهَ مِنْهُ مَا تَخْتَارُهُ ،
وَاجْعَلْ إِثَابَتَهُ الرِّضَا ، فَلَرُبَّمَا ...

(1) كذا بالاصل ، ويناسبه (كالزهور) ، وفي ز : بالزهور مسهما.

أَنْهَى مَلاَذِي بِالْعُلاَ أَنْجَالُكُمْ
أَرْجُو بِهِمْ فِي بَابِ عِزِّكَ مَعْلَمَا

فَاسْعَدْ حَيَاتَكَ بِالْبَنِينَ وَكُنْ بِهِمْ
فِي طِيبِ عَيْشٍ لاَ تَزَالُ مُنَعَّمَا

وقال أيضا :

خِتَانٌ بِالْمَسَرَّةِ زَادَ (1) عِزُّهْ ... وَرَاحَ لِكُلِّ حِلْمٍ يَسْتَفِزُّهْ
/ بِأَنْجَالِ الْمَلِيكِ عَلِيٍّ بَايِ ... عَلَى ثَوْبِ الْمَمَالِكِ زَانَ طِرْزُهْ [39 – أ]
مَلِيكٌ لَمْ يَرُمْ مَلِكٌ يُحَاكِي ... أَقَلَّ عُلاَهُ ، إِلاَّ بَانَ عَجْزُهْ
فَكَنْزُ النَّاسِ مِنْ ذَهَبٍ لِذُخْرٍ ... وَمِنْ خَيْرِ الدُّعَا وَالمَدحِ كَنْزُهْ
فَفِي الأُخْرَى الدُّعَاءُ يَقِيهِ نَاراً ... وَفِي الدُّنْيَا مِنَ الآفَاتِ حِرْزُهْ
فَيَا لَلَّهِ مِنْ خَتْنٍ كَرِيمٍ ... أَزَالَ حَزَازَةَ الأَحْشَاءِ حَزُّهْ
تَتَبَّعَ سُنَّةَ الْمُخْتَارِ فِيهِ ... ولم يعدل إلى مَا شاع نَبْزُهْ
وَأَتْبَعَهُ بِخَتْنِ بَنِي الْبَرَايَا ... وَأَطْلَقَ من ببطْنِ السِّجن حجزُهْ
لَقَدْ عَظُمَ السُّرُورُ بِنَا فَكُلٌّ ... كَغُصْنٍ وَالسُّرُورُ هَوًا يَهُزُّهْ
وَدَامَ خِتَانُكُمْ بِالعِزِّ يَأْتِي ... بِتَارِيخِ : «خِتَانٌ دَامَ عِزُّهْ»

وقال أيضا :

سُرُوراً جَنَيْنَا وَسِرًّا عَجِيبَا ... أَعَادَ الشَّبَابَ وَزَانَ الْمَشِيبَا
وَقَدْ عَمَّ كُلَّ الْوَرَى أُنْسُهُ ... فَلَمْ تَرَ فِي النَّاسِ شَخصًا كَئِيبَا
فَلَمْ يَشْكُ دَهْراً أَخُو حَاجَةٍ ... وَلاَ أَوْحَشَ الْبَيْنُ يوْمًا غَرِيبَا
بِخَتْنِ بَنِي الْمَلْكِ من لم تَجِدْ ... لَهُمْ فِي بَنِي الدَّهْرِ يوْمًا ضَرِيبَا
أُسُودُ شَرًى ، وَنُجُومُ سُرًى ، ... شُمُوس ضُحى في العلا(2) لن تغيبَا
«سُلَيْمَانُ» يَتْلُوه «حَمُّودَةٌ» ... وَنَجْلاَ مَلِيكٍ تَسَامَى حَسِيبَا

(1) في ز : دام وهو أصوب ليوافق عبارة التاريخ ويحصل منه رد العجز على الصدر وهو مقصود.
(2) في ز : المــلا .

أيَا مَلِكَ الفَضْلِ فَاهْنَأْ وَطِبْ   بِذَا الخَتْنِ قَلْبًا وَصَدْرًا رَحِيبًا
وَأَصْغِ لِمَا قَالَ تَارِيخُهُ :   «خِتَانٌ به اللّهُ زَادَكَ طِيبًا»

وقال أيضا :

خَتْنٌ لأنْجَالِ عَلِي   بَايِ الْمَلِيكِ الْمُنْتَبِهْ
فِي ثَالِثٍ مِنْ سَابِعٍ   مِنْ رَابِعٍ لَمْ يَشْتَبِهْ
يُعْرَفُ مِنْ تَارِيخِهِ :   (خَتْنٌ هُنَاكَ دَامَ بِهِ)

وأشار بقوله في ثالث من سابع البيت إلى أنه وقع في السّاعة الثالثة من اليوم السابع من الشهر الرابع من السنة إلاّ أنّه ذكر الثّالث وهو وصف السّاعة على تأويلها بالجزء ونحوه .

[خرجة جبائية]

[39 — ب] وفي هذه السنة 1178 خرج مولانا — أيده الله تعالى — في محلّته / الشّتائية ، وخرج معه أبناؤه — حفظهم الله تعالى . وهي أوّل خَرْجة خرجوها معه ، وكان ذلك يوم الأحد لِستّ خلت من رجب ، وفي خروجهم يقول الأديب أحمد سميّة الكاتب مؤرخا :

حَلَّتْ مَحَلَّ فَلاَحَ أنْجُمٌ لِعَلِي
حُلُولَ شَمْسِ الضُّحَى فِي دَارَةِ الْحَمَلِ
إنَّ الْبُدُورَ إذَا أمَّتْ عَلَى شَرَفٍ
سَنَا ذُكَاء (1) اكْتَسَتْ ضَوْءًا بِلا مَهَلِ
بُدُورُ سَعْدٍ ، كَبِيرُ السَّعْدِ سَاعَدَهُمْ ،
وَالْمُلْكُ حَلاَّهُمُ بِالْحَلْيِ وَالْحُلَلِ
عَيْنُ السَّلاَمَةِ تَرْعَاهُم وتَحْرُسُهُمْ
مِنْ عَيْنِ حَاسِدِهِمْ بِالسُّوءِ لَمْ تَصِلِ

(1) بالضم من اسماء الشمس.

تَفْرِي نُحُورَ أعَادِيهِمْ جَلاَلَتُهُمْ
وَعَزْمُهُمْ يَقْمَعُ النَّمَّامَ ذَا الْحِيَلِ
بِالآيِ وَالسُّوَرِ الرَّحْمَنُ يَحْفَظُهُمْ ،
وَبِالنَّبِيِّينَ يَحْمِيهِمُ ، وَبِالرُّسُلِ
وَبِالْمَلاَئِكَةِ الأخْيَارِ يَمْنَعُهُمْ
مِنَ الإسَاءَةِ وَالأهْوَالِ وَالْكَسَلِ
لَهُمْ تَقُولُ العُلاَ : «طِبْتُمْ فطِبْت بكم»
لِغَيْرِهِمْ مِنْ بَنِي الْحُكَّامِ لم تَقُلِ
حَلَّ الْمَسَامِعِ وَاسْمَعْ مِنْ مُؤَرِّخِهِمْ :
«فَالسِّرُّ حَفَّ بِأنْجَالِ الأمِيرِ عَلِي»

وقال [يمدح مولانا ويؤرخ سفرته هذه] :

سَفَرٌ سَعِيدٌ مَدَّهُ الإقْبَالُ :
سِرْ حَيْثُ شِئْتَ تَؤُمُّكَ الآمَالُ
وَالسَّعْدُ مُمْتَثِلٌ لأمْرِكَ طَائِعٌ
وَلِكُلِّ شَيْءٍ شِئْتَهُ فَعَّالُ (1)
مَا سِرْتَ فِي سُبُلٍ وَقَائِدُكَ الْهَنَا
إلاَّ وَعَنْهَا تَذْهَبُ الأهْوَالُ
فَالأمْنُ لاَ يَنْفَكُّ عَنْكَ دَقِيقَةً
فَاهْنَأْ بِهِ ، لَكَ طَابَ مِنْهُ وِصَالُ
وَالْيُمْنُ طَوْعَ يَدَيْك فِيهِ مُلاَحِظٌ ،
مَا عِنْدَهُ مَلَلٌ وَلاَ إهْمَالُ
وَالْغَيْثُ يَنْزِلُ إنْ نَزَلْتَ بِمَنْزِلٍ
فَرَحاً ، لأنَّ كِلَيْكُمَا هَطَّالُ

(1) في ز : نَيَّال.

وَالْخِصْبُ يَظْهَرُ مِنْهُ وَجْهٌ مُطْرِبٌ
وَالْجَدْبُ يَخْفَى وَجْهُهُ الْهَوَّالُ

بِسَنَا حِجَاكَ تَزُولُ ظُلْمَةُ مُشْكِلٍ
وَبِحُسْنِ رَأْيِكَ تَحْسُنُ الأَحْوَالُ

فإذا ارْتحلتَ انْفَعْ ، وَضُرَّ ، وَصُلْ ، وَجُلْ
عَنْكَ السَّلاَمَةُ مَا لَهَا تَرْحَالُ

وَإذا أقَمْتَ انْهَ ، وَمُرْ ، وَأَفِدْ ، وَجُدْ
لِعَظِيمِ عِزِّكَ تَخْضَعُ الابْطَالُ

فَنَسِيمُ ذِكْرِكَ لِلأحِبَّةِ مُنْعِشٌ
وَحُسَامُ نَصْرِكَ لِلْعِدَا قَتَّالُ

اللّهُ أنْتَجَ مِنْكَ خَيْرًا لِلْوَرَى
وَبِفَضْلِهِ لَكَ تُنْتِجُ الأنْجَالُ

لاَ غَرْوَ أنْ أخَذُوا عَلَيْكَ مَكَارِمًا
فَاللَّيْثُ تَأْخُذُ طَبْعَهُ الأَشْبَالُ

[40 – أ] / يَا أيُّهَا الْبَاشَا أبَا الْحَسَنِ الَّذِي
عَدِمَتْ مِنْ الأمَرَا لَهُ الأمْثَالُ

بُشْرَاكَ بِالسَّفَرِ السَّعِيدِ تَرَى بِهِ
خَيْرًا ، وَيَصْحَبُ مُلْكَكَ الإجْلاَلُ

وَاهْنَأْ بِهِ إذْ جَاءَ فِي تَارِيخِهِ :
«سَفَرٌ سَعِيدٌ مَدُّهُ الإقْبَالُ»

وقال أيضا :

لَكَ طَوْدُ عِزٍّ فِي ذُرَى الْعَلْيَا عَلِي
وَسَعَادَةٌ تَكْوِي عِدَاكَ بِمِشْعَلِ

مُرْ، وَانْهَ، وَارْفِدْ، وَانْتَبِهْ، وَاقْعُدْ، وَقُمْ،
وَأَقِمْ ، وَسِرْ فِي حِفْظِ جَبَّارٍ عَلِي

عَيْنُ الْعِنَايَةِ لاَحَظَتْكَ ، وَكُلُّ مَنْ
لَحِظَتْهُ حَصَّلَ مَقْصِدًا لَمْ يَحْصُلِ

سَفَرَ السَّلاَمَةِ فيه تَحْظَى بِالْمُنَى
وَالسُّوءُ عَنْكَ وَعَنْ بَنِيكَ بِمَعْزِلِ

لَمَّا دَعَاكَ الأَمْنُ قُلْتُ مُؤَرِّخًا :
«سِرْ فِي أمَانِ الْمَالِكِ الرَّبِّ الْعَلِي»

وَانْتَهَى مَوْلاَنَا إلَى الْقَيْرَوَان وأقام بها وأحْسَنَ إلى أهلها بوافر عطائه ، وأرسل وزيره الأجَلّ رجب خزنه دار إلى الجريد بمحلّة العسكر ، ورحل راجعا إلى حضرته فدخلها يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة ، [بقين] من شعبان .

وقال أبو الحسن علي الغُراب يُهَنِّيه بعوده إلى حضرته :

تَبَسَّمَ وَجْهُ الأرْضِ وَافْتَرَّ عن ثَغْرِ
وَقَدْ لاَحَ نَجْمُ الزَّهر كَالأنْجُمِ الزُّهْرِ

وَقَدَ أرجَتْ أرْجَاءَ تُونِسَ وَانْجَلَتْ ،
وَأصْبَحَتِ الْخَضْرَاءُ فِي حُلَلٍ خُضْرِ

لِمَقْدَمِ مَوْلاَنَا أبِي الْحَسَنِ الرِّضَا
عَلِيِّ فَعَلَّى شَأْنَهَ مَالِكُ الأمْرِ

وَقَدْ طَرِبَتْ أعْلاَمُهَا وَتَبَاشَرَتْ
وَكَادَتْ لَهُ تُفْشِي التَّحِيَّةَ بِالجَهْرِ

وَلَوْلاَ أتَاهَا مُسْرِعاً عِنْدَمَا أتَى
لَسَارَتْ له منْ شَوْقِهَا ، أوْ لَهُ تَسْرِي

أتى بِسنَا بِشرٍ علَى العَطْفِ مُنْبِىءِ
وعَنْ نَيْلِ مَا يَرْجُو المُؤَمِّلُ مِنْ يُسْرِ

وأقسم مَنْ لاقَاهُ يَوْمَ قُدُومِهِ
وقابَلَهُ لَمْ يَشْكُ مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ

أيا رَاصِداً سَعْدَ الكَوَاكِبِ طَالِعاً ،
مَطَالِعُهُ تُغْنِيكَ عَنْ طَالِعِ البَدْرِ

سَنَا الوَجْهِ دُرّيٌّ لَهُ ، وَهْوَ دُرَّةٌ :
ألاَ فَانْظُرُوا الدُّرّيَّ فِي ذَالِكَ الدُّرِّ...

تَرَاهُ علَى شَهْبَاءَ صَافِنَةٍ إذَا
جرَتْ فاتَتِ الشُّهْبَ الجَوَارِيَ إذْ تَجْري

هُوَ البَحْرُ وَهْيِ الرِّيحُ حَامِلَةٌ لَهُ
ولاَ غَرْوَ أنَّ الرِّيحَ حَامِلَةُ البَحْرِ

ولاَذَتْ بِهِ أنْجَالُهُ الزُّهْرُ مِثْلَمَا
تَرَى بَدْرَ تَمٍّ حُفَّ بِالأنْجُمِ الزُّهْرِ

[40 — ب] / أوِ الدُّرَّ بِالْيَاقُوتِ حُفَّ مُرَصَّعًا
أوِ اللَّيْثَ مَحْفُوفًا بِأشْبَالِهِ الغُرِّ

تَرَى خَلْفَهُ الأعْلاَمَ ، والطَّبْلُ ضَارِبٌ
علَى خَفْقِهَا رَعْدٌ وبَرْقٌ علَى الإثْرِ

عسَاكِرُهُ أسْدُ الشَّرَى وسِلاَحُهَا
أظَافِرُهَا ، والأسْدُ تَفْرِسُ بِالظُّفْرِ

حَمَاهُ إلَهُ العَالَمِينَ وَصَانَهُ
مِنَ السُّوءِ بِالأسْرَارِ مِنْ سُوَرِ الذِّكْرِ

بِجَاهِ رَسُولِ اللهِ أفْضَلِ شَافِعٍ
إذا مَا اشْتَكَى العَاصُونَ مِنْ ثِقَلِ الوِزْرِ

[انشاء الأسطول الحربى]

وفي هَذِهِ السَّنَةِ أنْشَأَ ـ أيَّدَهُ اللَّه تعالى ـ مَرْكَبَيْنِ بِرَسْمِ الجهاد في البحر ، وكان إنشاؤهما بحلْق الوادي ورُمِيتَا إلى البحر في شهر ربيع الأول وذكرهما شعراؤه في أشعارهم ، فمن قول أبي عبد الله محمد بن أحمد الورغي :

أعلَى هُيَامِي فِيكَ لَوْمُ اللُّوَّمِ ؟
كَلاَّ ! فَهَذَا القَوْلُ غَيْرُ مُسَلَّمِ (1)

فَلِمَ اتَّفَقْنَا فِي الخُضُوعِ لِبَارِقٍ
بَعَثَ الهَوَى مِنْ ثَغْرِكَ المُتَبَسِّمِ ؟

قَصَدُوا سُلُوّي عَنْكَ كَيْ يَسْتَأْثِرُوا
نَظَرُوا ! وَلَكِنْ فِي فَضَاءٍ مُظْلِمِ

يَا غَايَةً حُبِسَ المُؤَمِّلُ دُونَهَا
حَبْسَ المُلِحِّ عَلَى وَفَاءِ المُعْدِمِ

بَلَغَ التَّشَوُّقُ نَحْوَ عَطْفِكَ حَدَّهُ :
فَمَتَى يَقُولُ لِيَ الزَّمَانُ : تَقَدَّمِ ؟

وأرَاكَ تَنْدُبُنِي لِصَبْرٍ ، فَأتِنِي
بِكَفِيلِ عَافِيَتِي لِوَقْتِ المَغْرَمِ

هَيْنٌ عَلَيْكَ ـ وَقَدْ مُلِئْتَ مِنَ الكَرَى ـ
سَهَرِي لأنْظُرَ قِصَّتِي فِي الأنْجُمِ

(1) هذه القصيدة من أعجب ما للورغي ، وأعجب ما فيها أنه سلخ زهاء عشرة ابيات برمتها من قصيدة لابن زمرك (انظر المقري 4 : 70 بولاق) دون اشارة او تضمين او استشهاد . وهو أمر مستغرب جدا من شاعر قدير مثل الورغي الذي يؤاخذ بما لا يؤاخذ به غيره من الشعارير ، والابيات المسروقة هي : 18 ـ 19 ـ 26 ـ 40 ـ 43 ـ 44 ـ 51 ـ 52 ـ 53 ـ وعجز 60 من هذه القصيدة ذكرناها في الجملة هنا لتنبيه اذهان الناقدين ، ولا يشفع له تغيير بعض المفردات كابدال الرجال بالمشاة مع استعمال بقية البيت لفظا ومعنى ، ولعله كان حين النظم غير مستريح البال فاستعمل بضاعة الرجال .

أغدو لِتَرْبِيعِ الْمَطَالِعِ مُنْجِدًا
وأرُوحُ لِلتَّسديس رَوْحَةَ مُتْهِمِ (1)
وأطَالِعُ البِرْجِيس كَيْفَ تَقَلَّبَتْ
حَرَكَاتُه ، وَهلِ اسْتَوَى فِي التَّوْأمِ
فَوَقَعْتُ فِي طُرُقِ النُّجُومِ ، ومَا أنا
بِمُقَلِّدٍ لِمُرَمِّلٍ وَمُنَجِّمِ
إنْ كُنْتَ لِي ياحَبَّذَا ! أوْلاَ فَمَا
بالي أفَتِّشُ عَنْ قَضَاءٍ مُبْهَمِ ؟
بَلْ حُسْنُ وَجْهِكَ قَدْ رأيْتُهُ حَاكِماً
بِنَجَاحِ أمْنِيَّتِي ، وَقُرْبِ الْمَغْنَمِ
فَجَعَلْتُهُ فِيمَا أحَاوِلُ نَصْبَتِي
وَزَجَرْتُهُ فِي فَتْحِ فَألٍ مُعْجَمِ
وَرَجَوْتُ بَخْتًا أسْتَكِنُّ بِكِنِّهِ
فِي لَيْلَةٍ لَيْلاَ ، وَيَوْمٍ أيْوَمِ (2)
فَقَضَى بِأنَّ الْبَخْتَ أصْبَحَ كُلُّهُ
لاِبْنِ الْحُسَيْنِ الأكْرَمِ ابْنِ الأكْرَمِ
فَقَضَى لأوْحَدَ فِي الْكَمَالِ مُوَفَّقٍ
مِلْءِ النَّوَاظِرِ ، وَالضَّمائِرِ ، وَالْفَمِ
سَهْلِ الْخَلاَئِقِ حَيْثُ كَانَ وَإنْ يَقُمْ
فِي الْحَقِّ قَامَ قِيَامَ صَعْبٍ مِغْشَمِ
[41 – أ] / مَلِكٌ أفَاضَ عَلَى البَسِيطَةِ عَدْلَهُ ،
فَالشَّاةُ لاَ تَخْشَى اعْتِدَاءَ الضَّيْغَمِ

(1) اشارة الى علم كانوا يدعون به كشف المستقبل وهو التنجيم ، وكان للملوك به ولع كبير ، وذكر بعض مصطلحاته مع اسماء بعض النجوم تبجحا بمعرفتها.

(2) أفعـل تفضيـل.

كَمْ لَيْلَةٍ قَدْ بَاتَ فِيهَا سَاهِرًا
يُهْدِي الأمَانَ إلَى الْعُيُونِ النُّوَّمِ
مِنْ غَيْرِ مَا ضَجَرٍ ، وَلاَ بَطَرٍ ، وَلا
جَوْرٍ ، وَلاَ كِبْرٍ ، إذَا لَمْ يُلْزَمِ
نَسِيَ الأنَامُ بِهِ سَمَاحَةَ «حَاتِمٍ» ،
وَشَجَاعَةَ «العَبْسِيِّ» «وابن مُكَدَّمٍ» (1)
وأنَالَهُم مِنْ حِلْمِهِ وحَنَانِه
مَا لاَ يَكُونُ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الأقْدَمِ
وَبِهِ الْعِنَايَةُ فِي إيَالَتِهِ الَّتِي
بُنِيَتْ عَلَى أسِّ الطَّرِيقِ الأقْوَمِ
غَرَبَتْ بِهِ الأقْدَارُ عَنْهَا بُرْهَةً
وَرَمَتْ بِهِ بَيْنَ السُّهَا وَالمِرْزَمِ (2)
وَاسْتَعْجَمَتْ (3) أخْبَارُ مَطْلَعِ نَجْمِهِ
عَنْ عائِفٍ دَرِبٍ ، وَعَنْ مُتَوَسِّمِ
وخَطَا مَوَاطِئَ قَلَّ مَنْ يَخْطُو بِهَا
لاَ تَهْتَدِي فِيهَا الْقَطَاةُ لِمَجْثَمِ
كَمْ غَمْرَةٍ قَلَعَت (4) عَلَى مُتَخَبِّطٍ
منه يُجَالِدُ بالأشد الأحْزَمِ

(1) ضرب مثـل بمشاهير العـرب . والعبسي هو عنتـرة . وابن مـكدم هو ربيعـة ، وقد ذكـره ابن زمـرك في قافيته أيضا.

(2) اشارة الى التجاء ممدوحه في فتنة ابن عمه الى الجزائر وتقلبه فيها ، والسها والمرزم نجمان متبـاعـــدان .

(3) استجمعت خفيت واستبهمت ، وهي في : م ، وبالاصل استعجبت ولا معنى لها .

(4) كذا بالاصل ، والمراد اقلعت وانكشفت عن مجالد شديد حازم ، وفي م : مغلت بالكسر ولها معنى يساوق ما بعده في الجملة ، والماغل التي ارضعت ولدهـا وهي حامل فاعتل ، كأنـه يشبه دولـة الباشا الطارئـة بولد معتل من المغل ، لما ساورها من الاضطراب ، فلمـا بلغ اوان الجنين جاءت به على قدر دون علة.

حَتَّى إذا بَلَغَ الأوَانَ جَنِينُهَا
وَوَفَتْ بِقَدْرٍ فِي الْحِسَابِ مُتَمَّمِ

خَلَصَتْ كَأَسْهَلِ مَا يَكُونُ ، وَإنَّهَا
ظَفِرَتْ بِهِ مِنْ بَعْدِ طُولِ تَلَوُّمِ

لاَ بِالتَّغَلُّبِ ، بَلْ بِحَقٍّ ، ثُمَّ مَا
فِيهَا ـ لِغَيْرِ اللَّهِ ـ مِنَّةُ مُنْعِمِ

وَأفَادَهُ التَّمْحِيص عِلْمَ فِرَاسَةٍ
لَوْلاَ مُلاَزَمَةُ النَّوَى لَمْ يُعْلَمِ

حِكَمٌ تَزِيدُ لِمَنْ تَأمَّلَ عِبْرَةً
وَتُقَيِّدُ النُّعْمَى بِشُكْرِ الْمُنْعِمِ

يَا أيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي لَوْ لَمْ يَكُنْ
مَا شَبَّتِ الآدَابُ بَعْدَ الْمَهْرَمِ

أدْرَكْتَهَا فَرَفَعْتَ مِنْهَا خَامِلاً
وأزَلْتَ عَنْهَا كُلَّ زَيْفٍ مُدْغَمِ

وَلَقَدْ سُبِقْتَ بِأنَّ أحْزَمَ مَنْ مَضَى
أعْطَى لِذَلِكَ مِنْهُ فَضْلَ تَهَمُّمِ

ولأنْتَ أجْدَرُ مَنْ تُرَى أيَّامُهُ
مَرْقُومَةً بَيْنَ السُّطُورِ بِمِرْقَمِ

أنْتَ الأخِيرُ زَمَانُهُ ، وَقَدِ اعْتَدَى
مَنْ قَالَ : «إنَّ الْفَضْلَ لِلْمُتَقَدِّمِ»

أوَ لَمْ تَكُنْ أحْيَيْتَ كُلَّ فَضِيلَةٍ
وَنَفَخْتَ مِنْهَا فِي رَمِيمِ الأعْظُمِ ؟

وَجَعَلْتَ حِفْظَ الدِّينِ أوَّلَ خَصْلَةٍ
تُعْنَى بِهَا ، وَبِمِثْلِ جَدِّكَ يَحْتَمِي

أجْرَيْتَ سُرْعَانَ الجِيَادِ كَأنَّهَا
أسْرَابُ طَيْرٍ فِي التَّنُوفَةِ حُوَّمِ

كَتَبَتْ حُرُوفُ النَّصْرِ مِنْ شِيَاتِها
مَا كَانَ أغْنَى عَنْ حُرُوفِ المِيسَمِ

وَكَنَزْتَ مِنْهَا كُلَّ أرْثَمَ أشْقَرٍ ،
وَرَبَطْتَ فِيهَا كُلَّ أقْرَحَ أدْهَمِ (1)

/ مِنْ كُلِّ مُنْحَفِزٍ لِخَطْفَةِ بَارِقٍ [41 ـ ب]
قَدْ كَانَ يَسْبِقُ لَمْحَةَ الْمُتَوَهِّمِ

طِرْفٌ يَشُكُّ الطَّرْفُ فِي اسْتِثْبَاتِهِ
فَكَأنَّهُ ظَنٌّ بِصَدْرِ مُرَجِّمِ

فَهْيَ النُّقَايَةُ يَوْمَ مَحْفِلِ زِينَةٍ ،
وَهْيَ الْوِقَايَةُ يَوْمَ شَرٍّ مُضْرَمِ

وَأطَرْتَ عِقْبَانَ السَّفِين بِرَسْمِ أنْ
تَبْتَزَّ غِرْبَانَ السَّفِيهِ الْمُجْرِمِ

شَكَرَتْ بِحَلْقِ الْوَادِ فَضْلَكَ عِنْدما
هَيَّأتَهَا زُمَرًا ، وَلَمْ تَتَكَلَّمِ

وَبَدَتْ عَلَيْهَا مِنْ سِمَاتِكَ نَخْوَةٌ
لَمَّا اسْتَقَلَّتْ فِي سَوَاءِ الْخِضْرِمِ

فَتَمَايَلَتْ طَرَبًا ، كَبَطَلٍ خَادِرٍ
نَظَرَ الْفَرِيسَةَ فِي خِلاَلِ عَرَمْرَمِ

عَجَبًا لَهَا مِنْ صُورَةٍ قَدْ رُكِّبَتْ ،
أعْجَازُهَا قَامَتْ مَقَامَ الْبَلْدَمِ (2)

---

(1) اوصاف للخليل ، وشياتها : ألوانهـا من الوشي ، والرثم محركة : بياض في أنف الفرس ، والشفرة : حمرة صافية في لونه ، والقرحة : بياض في وجهه دون الغرة ، والدهمة : السواد.

(2) البلدم : مقدّم الصدر ، والمعروف ان سكّان السفينة الذي يسيّرها بذنبها في عجزها.

يَمْشِي الْمُشَاةُ بِبَطْنِهَا ، وَجَمِيعُهُمْ
عَنْ مَوْطِىءِ الْقَدَمَيْنِ لَمْ يَتَقَدَّمِ
وَمُنَوَّعِ الْحَرَكَاتِ (1) قَدْ رَكِبَ الهَوَا
يَمْشِي عَلَى خَطٍّ بِهِ مُتَوَهَّمِ
فَإِذَا هَوَى فِي جَوِّهِ ثُمَّ اسْتَوَى
عَايَنْتَ طَيْرًا حَلَّ صُورَةَ آدَمِي
وَجَرَتْ بِعَيْنِ اللَّهِ حَيْثُ تَوَجَّهَتْ
تُرْخِي الرُّخَاءُ لَهَا عِنَانَ الْمُلْجَمِ
ضَمِنَ النَّجَاحَ لَهَا وِفَاقُ بُرُوزِهَا
يَوْمَ الْخَمِيسِ لِسَعْدِهَا الْمُتَقَدِّمِ (2)
فِي لَيْلَةٍ بَهَرَ النُّفُوسَ عَظِيمُهَا
بِظُهُورِ آيَاتِ الْجَنَابِ الأَعْظَمِ
شَقِيَتْ بِهِ أُمَمُ الضَّلاَلِ وَرُوِّعَتْ
مِنْ غَيْضِ مَا نَهْرٍ وَقَصْرٍ مُثْلَمِ
وَخُمُودِ نِيرَانٍ أَطَالُوا وَقْدَهَا
وَصَرِيعِ أَصْنَامٍ بِهَا مُتَحَطِّمِ
تِلْكَ الرَّئِيسَةُ لِلَّيَالِي مِثْلَمَا
أَنْتَ الرَّئِيسُ بِهَا لِكُلِّ مُعَمَّمِ
وَلَعَلَّكَ اسْتَغْنَمْتَ مِنْ بَرَكَاتِهَا
مَا يُكْسِبُ الأَسْطُولَ أَفْخَرَ مَغْنَمِ
فَاهْنَأْ بِهِ فَكَأَنَّمَا هُوَ كَائِنٌ
بِجَمِيلِ فَضْلِ اللَّهِ لَيْسَ بِأَجْذَمِ

(1) وصف لقلع السفينة الذي يزجيها في البحر فتمشي به على خط وهمي.
(2) اشارة الى تاريخ اطلاقها يوم الخميس السابق للمولد النبوي من سنة 1178 (6 سبتمبر 1764).

وَإِلَيْكَ مِنْ حُرِّ الْكَلاَمِ عَقِيلَةٌ
طَلَعَتْ بِثَوْبٍ من خطاك (1) مُسَهَّمِ
شَمَخَتْ عَلَى خُطَّابِهَا ، لَمْ يُبْدِهَا
— وَمُطِيلِ عُمْرِكَ — غَيْرُ شُكْرِ الْمُنْعِمِ
فَهِيَ الْمِثَالُ لِمَا طَوَيْتُ ، وَإِنَّهَا
وَقَفَتْ بِبَابِكَ وِقْفَةَ الْمُسْتَرْحِمِ
جَاءَتْ لِتَهْنِئَةِ الأَمِيرِ وَكُلِّ مَنْ
عُنِيَ الأَمِيرُ بِهِ بِهَذَا الْمَوْسِمِ
فَاسْلَمْ لَهُ وَلِمِثْلِهِ وَلِمِثْلِهِ
وَهَلُمَّ جَرًّا فِي الهَنَا ، ثُمَّ اسْلَمِ

وَقَالَ الأَدِيبُ الْبَارِعُ عَلِيُّ الْغُرَابِ :

/ بَشَائِرُ فِي الإِسْلاَمِ زَادَ بِهَا عِزًّا ، [42 — أ]
وَآيَاتُ نَصْرٍ نُورُهَا يُذْهِبُ الرِّجْزَا
بِهَا قَوِيَ الدِّينُ الْقَوِيمُ وَإِنَّمَا
بِهَا الْكُفْرُ وَلَّى مُدْبِرًا وَانْثَنَى عَجْزَا
سَوَابِحُ فُلْكٍ لِلْمَعَالِمِ (2) أُنْشِئَتْ
يُسَابِقُ أَفْلاَكَ السَّمَا جَرْيُهَا وَخَزَا
يَفُوزُ بِأَجْرٍ مَنْ عَلاَهَا وَمَغْنَمٍ
إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ رَكِبُوا غُزَّى (3)
عَلَيْهَا لِوَاءُ الْعِزِّ وَالنَّصْرِ خَافِقٌ
وَلَكِنْ جُمُوعُ الْكَافِرِينَ بِهَا تُخْزَى

(1) كذا بجميع النسخ ولا معنى له ، والاقرب من حلاك جمع حلية وهو اشبه به في الرسم .
(2) في بقية النسخ : للعوالم ، وهو انسب لمساوقة الافلاك التي هي عوالم اخرى .
(3) اقتباس من آية 156 بآل عمران.

إذَا لَقِيَ الإسْلاَمُ كُفْرًا بِهَا تَرَى
جميعَ العِدى أسْرَى ، وَأعناقُهُمْ حزَّى (1)

[عليها من الرحمانِ حِرزٌ من العِدى
على أنها للمسلمين غَدَتْ حِرْزًا] (2)

فَمَنْ لِجِهَادِ الْكَافِرين بهَا استوَى
بِأجْرٍ جَزِيلٍ رَاحَ أوْ مَغْنَمٍ يُجْزَى

لَقَدْ كَان جِيدُ البَحْرِ في الغَزْوِ عَاطِلاً
إلى أنْ أتَتْ هَاذي الشَّوَاني (3) لهُ طَرْزًا

كَأنَّ الْجَوَارِي الْمُنْشآت بَيادِقٌ ،
وَكُلٌّ غَدَا مِنْ هَذِهِ بَيْنَهَا فِرْزًا

تَرَدَّى بِها الْكُفَّارُ ثَوْبَ مَذَلَّة
وَقَهْرٍ ، وَثَوْبُ العِزّ مِنْهُمْ قدْ ابْتُزَّا

إذَا سَمِعَ الْمُسْتَأمِنُونَ بِغَزْوِهَا
نَعَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا لَهُ وَلَهُ عَزَّى

ألَسْتَ تَرَاهُمْ حِينَ جُرَّتْ وَأُدْهِشُوا
ثَلاَثَةَ أيَّامٍ تُكَلِّمُهُمْ رَمْزًا (4)

صُمُوتًا فَلَمْ تَحْتَسَّ مِنْ أحَدٍ لَهُمْ
— إذا لاَحَ — أوْ تَسْمَعْ له في الملا رِكْزًا (5)

(1) الظاهر أنه جمع لحزيز بمعنى محزوز ، يستوي فيه المذكر والمؤنث ، وهو جمع قياسي مطرد ، قال ابن مالك :
فعلى لوصف كقتيل وزمن وهالك وميت به قمن

(2) هذا البيت مزيد على الاصل وهو بجميع النسخ.

(3) جمع شونة بفتح فسكون : سفينة حربية قديمة.

(4) اقتباس من آية 41 بآل عمران.

(5) اقتباس من آية بآخر مريم .

إذَا نَشَرَتْ لِلطَّرْدِ أشْرِعَةً لَهَا
شَهِدْتَ بِهَا الْعِقْبَانَ تَخْتَطِفُ الْوَزَّا

كَأنْ صَارِخُ الْبَارُودِ مِنْهَا وَبِيضُهَا
رُجُومٌ هَوَتْ إثْرَ الصَّوَاعِقِ بِالأرْزَا

طَرَارِيدُ كُلٌّ كَالطَّوَاوِيس خَفَّقَتْ
وَأعْلاَمُهُ مِثْلُ الْبُرُوقِ إذا فَزَّا (1)

جَرَى (2) لِلأعَادِي بِالْجَنَا حِيْنَ طَائِرًا
وَلاَ عَجَبٌ ، فَهْوَ (الغُرَابُ) لهُ المَغْزَى

لَئِنْ سَوَّدُوا بِالْقَارِ مِنْهُ جَوَانِبًا
فَإنَ بَيَاضَ الْغُنْمِ فِي وَجْهِه أجْزَا

يَصُولُ بِأبْطَالِ الْجِهَادِ كَأنَّهُمْ
عَفَارِيتُ جِنٍّ في الْوَغَى حَرْبُهُمْ وَخْزَا

إذَا قَابَلَ الْكُفَّارَ فِي الحَرْبِ إنَّمَا
ثَعَالِبُ لاَقَتْهَا أسُودُ الشَّرَى وَكْزَا

تُشَاهِدُ بِيضَ الْهِنْدِ حَلَّتْ رِقَابَهُمْ
وَتُبْصِرُ لِلسَّمْرَا بِأعْيُنِهِم غَمْزَا

تَرَى ألِفًا لِلْقَطْعِ فِي وَصْلِها بِهِمْ
وَلَكِنْ تَرَى في كُلّ رَأسٍ بِهَا هَمْزَا

جَوَارٍ بِأسْدِ الغَابِ وَالْقُضْبُ دُونَها
تُنَاجِزُ شِرْكَ الرُّومِ في وَضْعِهَا نُجْزَا

جَمِيلَةُ صُنْعٍ مِنْ صَنِيعِ مُمَلَّكٍ
جَمِيل المَزَايَا قَدْرُهُ جَاوَزَ الْجَوْزَا

(1) البيت مشكل في معناه وفي عدم التطابق بين مذكره ومؤنثه ومفرده وجمعه ، وأقرب ما يستصلح به وضعه : طراريد كل كالظواويس خفقه * واعلامه مثل البريق اذا قَزَّا
ومعنى قَزّ : أفزع

(2) في ح : يسرى .

أبِي الْحَسَنِ الْبَاشا علِيّ ابْنِ مَالِكِ
حُسَيْنِ الَّذِي إحسانه يَمْلِكُ المُرْزَا
[42 – ب] / هَمَى مِنْ سَمَاءِ المكرُمَاتِ التِي مَتَى
يَرُمْهَا السِّوَى اسْتَزْرَى به الدَّهرَ وَاستهزَا
مَلِيكٌ إذَا مَا الْحَادِثَاتُ رَأَيْنَهُ
تَوَلَّتْ علَى الأعْقَابِ تَبْتَدِرُ الْقَفْزَا
بِه عَادَ نَهْجُ الْبَرّ وَالْبَحْرِ آمِنًا
وَدَانت جَمِيعُ المُفسِدِينَ له غَرْزًا (1)
مَلِيكٌ إذا أمَّمْتَ أرضًا مَخُوفَةً
وَسِرْتَ بِهَا فَاجْعَلْ عَلَيْكَ اسمهُ حِرزًا
وَلَوْ فِي الْجِبَالِ الشُّمّ أنْفَذَ عَزْمَهُ
لَعادَت جبالُ الأرْضِ من عَزْمِه جُرْزًا (2)
لقَدْ ساسَ دَهْرًا لوْ إلى «اسكَنْدر» انتهَى
لسَلَّمَ ! مَا نَالَتْ يَدَا عَزْمِه عَجْزًا
كَفَى عَقْلُهُ في الكَشْفِ عن كلّ غامِض
وَعَنْ حكْمِ تَخْمِينِ الطَّوَالعِ وَالْحَزَّا
لَهُ مُشْكِلاَتُ العِلْمِ تَرْفَعُ حُجْبَهَا
بِدَارًا ، وَمِنْ دون السِّوَى حُجِزَتْ حجزًا
يَكَادُ عَوِيصُ اللُّغزِ يَنْطِقُ مُفْصِحًا
لَهُ بِخَفِيّ السِّرّ إنْ حَاوَلَ اللُّغْزَا
وأجْزَا بِتَفْرِيقِ النُّضَارِ عُفَاتَه
فَأعْظِمْ بمَالٍ من تفرقه أجزَا (3)

(1) مصدر غرز كعلم ، اذا اطاع بعد العصيان.
(2) الارض الجُرُز بضمتين : التي لا تنبت ، واسكان الراء ضرورة .
(3) اجزا في أول البيت مخفف من اجزأ (فعل ماض) ، وفي آخره جمع جزء ، وفيه تورية باجزا وجناس تام بينهما.

فَرَاحتَه وَالْمَالُ لَنْ يَتَقَارَنَا ،
وَقُدْرَتُهُ وَالْعَفْوُ فِي قَرَنٍ لِزًّا (1)
أيَا طَالِبًا عِلْمَ الْكُنُوزِ أجِدْ لَهُ
مَدِيحًا تَجِدْ فِي طَيّ أمْدَاحِهِ كَنْزًا
وَقَدْ سَارَ لِلْمَرْسَى لِيَقْضِيَ نُزْهَةً
بِرَوْضَاتِها يطوِي لها الأرْضَ مُؤْتَزًّا (2)
فَمَا رَوْضَةٌ إلاّ تمنّت يَزُورُهَا
وَلاَ مَسْلِكٌ إلاّ اشْتَهَى فَوْقَه جَمْزًا
تَرَى صَهوَاتِ الْخَيْلِ تَحْسُدُ بَعْضَهَا
بِمَا قَدْ عَلاَ مِنْهَا ، وَصَارَ بِهَا رَمْزًا
ألاَ أيُّها الْمَوْلَى الذي عَزَّ رُتْبَةً
وَيَطْلُبُ مِنْ رِضْوَانِ رَبّ الْعُلاَ فَوْزًا
لِتَهْنِكَ سُفْنٌ لِلْجِهَادِ صَنَعْتَهَا
وَفِي مَوْلِدِ الْمُخْتَارِ أجرَيْتَهَا حَفْزًا
تَيَمَّنْ بِهَا وَاسْعَدْ فَإنّ لَهَا بِكُمْ
نَجَاةً لِبَرّ البرّ تَبْلُغُه وَفْزًا
فَبِاللّه مُجْرَاهَا – إذا رَكِبُوا بِهَا –
وبِاللّه مُرْسَاها (3) إذا وَقَفَتْ وَكْزًا
لكُم مُنشآتُ الغَزْوِ فِي البَحْرِ أجْرِيتْ
وَلِي مُجْرَيَاتُ (4) المدح في مَجدكمْ تُعزَى

(1) القرن : محركة الحبل ، واللز : الشد ، ومراده تلازم هذين الوصفين في ممدوحه عكس الأمرين الأولين ، وفيه طباق .
(2) مستعجلا .
(3) اقتباس من آية 41 بسورة هود .
(4) في ح ، م : منشآت المدح في بحركم .

حَكَى كلُّ فُلْكٍ مُنْشَإٍ في ابْتِهَاجِهِ
رُبًى ، وَصَوَارِيهِ بِهِ السَّرْوَ والأرْزَا

عَجِبْتُ ! وَقَدْ جَرُّوهُ لِلْبَحْرِ إنَّمَا
منَ البحرِ قدْ جَرُّوا إلى البَحرِ مُفْتَزَّا (1)

وَلَوْ أنَّ نُوحًا يَرْكَبُ الْفُلْكَ ثَانِيًا
لمَا اخْتَارَ فِي الدُّنْيَا سِوَاهُ وَلاَ اعْتَزَّا

لَكُمْ مَوْلِدُ الْمُخْتَارِ جَاءَ مُهَنِّئًا
بِفُلْكِ نَجَاةٍ مِثْلُهُ فِي الْوَرَى عِزَّا

وقَالَ : بِعِزِّ الدِّين وَالْغُنْمِ ثِقْ بِهِ
وَأَرِّخْ : (بِهِ يَحْوِي الْغَنَائِمَ وَالْعِزَّا)

[43 — أ] / وقال الفقيه أبو العباس أحمد العُصفوري :

سَفِينُ نَجَاةٍ أدْرَكَتْ مَا تَرُومُهُ
وَسَالَ (2) بِهَا بَحْرٌ بِهِ مَاتَ رُومُهُ

وسَلَّمَهَا اللَّهُ الْعَزِيزُ مِنَ الأذَى
وأيَّدَهَا نَصْرٌ لَهُ تَسْتَدِيمُهُ

تُبِيدُ جُيُوشَ الْكُفْرِ فِي كُلِّ وِجْهَةٍ
وَتَرْجِعُ بِالْغُنْمِ الْمُفَلِّ (3) خُصُومُهُ

وَتَحْمِلُ سَبْيَ الرُّومِ من أرضِ كُفْرِهِمْ
إلَى تُونِسٍ والسَّبْيُ شدَّتْ كُلُومُهُ

بِمَرْسَاةِ حلقِ الوَادِي قد أنشأتْ لَهَا
حمَاءً وَنَفْعًا لِلأميرِ عُمُومُهُ

(1) المقتـزّ : الغـالب كما في الفيروزابادي.

(2) في ح ، م : وسـالهـا

(3) أسم مفعول من قولهم « افـّـل فلان » اذا ذهب ماله ، وفي بقية النسخ بالقاف ، وكلاهما ناب.

هُوَ الْبَايُ مَوْلاَنَا عَلِي بَاشَةُ الرِّضَا
مَنِ ارْتَسَمَتْ فِي الْمَكْرُمَاتِ رُسُومُهُ

سَلِيلُ حُسَيْنِ الْبَايِ مَنْ نَالَ هِمَّةً
إلَى الْفَلَكِ الأعْلَى السَّنِيِّ نُجُومُهُ

مُقَلِّدُ أعْنَاقِ الرِّجَالِ أيَادِيًا
تَبِيدُ لَيَالِي الدَّهْرِ ، وَهِيَ تَدُومُهُ

رَأى خَلَلَ الْبَرِّ اسْتِقَامَ بِرَأيِهِ
وَصَارَ حَمِيدًا بِالسَّدَادِ ذَمِيمُهُ

فَعَادَ بِلَحْظِ الرَّأيِ يَنْظُرُ بَحْرَهُ ،
وَمِينَاهُ ، حَتَّى يَسْتَقِيمَ سَقِيمُهُ

وأنْشَأَ أسْطُولاً تَنَوَّعَ شَكْلُهُ
تُدَبِّرُهُ آرَاؤُهُ وَرُقُومُهُ

يَسِيرُ بِمَا يُبْدِيهِ صَاحِبُ رَأْيِهِ
فَيَرْضَى بِهِ مَنْ حَنَّكَتْهُ عُلُومُهُ

وَلاَ يَرْعَوِي عنه الْمُهَنْدِسُ ذُو الْحِجَا
وَإنْ كَثُرَتْ فِي الْفِكْرِ فِيهِ هُمُومُهُ

يَرَى مُنْتَهَى الأمرِ الذِي رَامَ فِعْلَهُ
فَيُوقِعُهُ تَنْزَاحُ عَنْهُ حُسُومُهُ

يُتَابِعُ بِرًّا بِرُّهُ أهْلَ وِدِّهِ
وَيُنْعِشُهُمْ مَشْمُولُهُ وَنَسِيمُهُ

وَيُغْضِي حَيَاءً عِنْدَ سَقْطَةِ زَاهِف
فَمَا قَالَ مُرْتَابٌ قَلَتْنِي سُمُومُهُ (1)

(1) زاهف : غليل ، وفي م : راهب، وقلتني : او نلتني : او قتلني سمومه على اختلاف النسخ كلها نابية ، ولعله اراد : فما نال مرتابا بقتل سمومه .

وَيَمَّمَهُ التُّجَّارُ مِنْ كُلِّ بَلْدَةٍ
وَأَمَّنَهُمْ عَدْلٌ لَهُ وَحُلُومُهُ

وأَعْلَنَ بِالأَمْوَالِ مَنْ كَانَ خَائِفًا
يُهَوِّلُهُ وِسْوَاسُهُ وَغُمُومُهُ

رَآهُ يُعِيذُ النَّاسَ مِنْ شِدَّةِ الأَذَى
وَقَدْ صَدَّ عَدْوَ الْعَادِيَاتِ رُحُومُهُ

سِيَاسَتُهُ تَقْضِي بِكُلِّ فَعَالِهِ
فَلَمْ يُلْفَ ذُو نَقْدٍ لَهُ مَا يَلُومُهُ

سَفَائِنُ مِينَاتُ الْبِلاَدِ لأَمْنِهَا
فَمَا سَامَهَا مِنْهُ الرَّدَى وَهُجُومُهُ

تَرَكْنَ لِمَرْسَى تُونِسٍ كُلَّ نُجْعَةٍ
وَلَوْ عَلِمَتْ أَضْعَافَ مَا قَدْ تَرُومُهُ

يَحُطُّ بِهَا أَحْمَالَهُ كُلُّ سَافِنٍ
وَلَمْ يَلْقَ بَخْسًا فِي الَّذِي قَدْ يَسُومُهُ

لِذَا كَثُرَتْ فيها التَّفَارِيقُ : مَنْ غَدَا
يُغَالِي بِأَمْدَاحٍ لَهَا لاَ أَلُومُهُ

[43 – ب] / وَمَنْ يَمْتَدِحْ أَمْلاَكَ دَهْرِهِ تَلْقَهُ
كَئِيبًا إِذَا لَمْ يَمْتَدِحْ مَنْ أَشِيمُهُ

فَسُوقُ امْتِدَاحِ الْبَايِ لِلنَّاسِ نَافِقٌ
وَعَطَّرَهُ الْمَدْحُ الَّذِي لاَ يَرِيمُهُ

رَأَى الْمَجْدَ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ ثَوَى بِهِ
فَلاَزَمَهُ ، لاَ زَالَ عَنْهُ لُزُومُهُ

وَأَصْبَحَ مَخْدُومًا بِأَمْدَاحِ أَلْسُنٍ
وَمَنْ نَالَ مَجْدًا فَالْمَدِيحُ خَدِيمُهُ

يُلاَزِمُهُ فِي صُحْبَةِ الْمَجْدِ ثَاوِيًا
لُزُومَ نَدِيمٍ يَصْطَفِيهِ نَدِيمُهُ

يَزِيدُ غَرَامًا حُبُّهُ فِي حَشَا الذِي
يُشَاهِدُ مِنْ إِفْضَالِهِ مَا يُدِيمُهُ

مَتَى رَامَ تَقْصِيرًا مُرِيدُ مَدِيحِهِ
تَلُوحُ صِفَاتٌ ، وَالْبَيَانُ خَصِيمُهُ

فَتَخْرُجُ مِنْ أَفْكَارِهِ دُرَرٌ حَكَتْ
قَلاَئِدَ دُرٍّ بِالشُّذُورِ نَظِيمُهُ

تَشُوقُ له الأسماعُ وَالذِّهْنُ ، والحَشَا ،
كَشَوْقِ الذِي يَصْبُو إِلَيْهِ حَمِيمُهُ

وتَرْتَاحُ لِلتَّكْرَارِ كَالْمُحْتَسِي طِلاً
وَمَنْ لَمْ يَرَ التَّكْرَارَ فَهْيَ غَرِيمُهُ

تُنَازِعُهُ حُبًّا لِذِكْرِ مَلِيكِهَا
أَمِيرًا رَسَا فِي الصَّالِحَاتِ صَمِيمُهُ

عَلَيْهِ مِنَ النَّصْرِ الْمُفَاضِ عُبَابُهُ
وَتَسْلِيمُ ذِي الْعَرْشِ الْمَجِيدِ غُيُومُهُ

وفي [يوم الاحد] من رجب من هذه السنة كان رجوع الدرّ إلى صَدَفه ، ونَصْلِ السيف إلى قرابه ، وهِلاَلِ المجْد إلى سِرَاره ، وَشَمْسِ الْحُسْنِ إلى مَغْرِبِها ، بِوَفَاةِ ابْنِ مَوْلاَنَا وَرَيْحَانَتِهِ النَّجْلِ الطَّاهِرِ الْمُقَدَّسِ أَبِي الرَّبِيعِ سليمان . وكانت وفاتُه عُوذَةً لسعادة مولانا من أعيُنِ حُسَّادِه ، ونادِرَةً في جرْيِ الأمور على خِلاف مُراده . ويا عَجَبًا لِلْمَنَايَا تَخْذُلُه في نَجْلِه وتنصره بين الخَيل والرَّجِل ، وطالما شَغَلها بالأعادي فلم تقنع بذلك الشُّغْل ، وللدنيا تُضَايِقه في سَلِيله وقد وسَّعها على أبْنَائها ، وتَسْتَرِدّ منه ما وَهَبَتْه وقد وهبها — من غير استرداد — حِلْيَةَ جمالها وبهائها . وإنّ

دَهْرًا قاسَمه فكان مَتْروكه حمودة باشا لَمَغْبُونٌ في مُقاسَمَتِه ، ومربوحٌ عليه في مُشاطَرته . فإذا قِسْتَ ما أخذ بما أبقى . علِمت أن حَظَّ مولانا دائما هو الأوْفى ، وجَدُّه أبدا هو الأعْلى ، جعل الله تعالى له في الباقي خَلَفًا من الغابر ، وخلّد هذا المُلْك فيه وفي بنيه كابرا عن كابر . ولم تُسْمَع في تأبينه كلمة شاعر ، تركا لذكره المُثير للشَّجَن ، والباعث للحزن ، والجالب لداعية الشوق ، والجاذب إلى الصبابة بالطَّوْق .

وفي يوم الأحد لستّ خلون من رجب من سنة إحدى وثمانين خرَج نصره الله بمحلّته الشّتائيّة فبَلَغَ القيروان وأفاض / وابِل إحسانه جريا على [44 — أ]
رسمه وعادته — أدامها الله تعالى — وأرسل وزيره رجب خزنه دار بمَحلّة العسكر إلى الجريد فاستوفى مَجَابيه ، ورجع — أيّده الله تعالى — إلى حضرته فدخلها يوم الثلاثاء لثلاث عشرة خلت من شعبان (ا) .

ذكر ما خص الله تعالى به مولانا — ايده الله تعالى — من محاسن الاخلاق وكرم الطباع وشرف الخلال، وحميد الخصال

[مقدمة نفسية نفيسة]

اعلم أن الله تعالى بقدرته القاهرة ، وحكمته الباهرة . قد ركّب في الإنسان ثلاث قوى جعلها مَنْشأً لأكثر الفضايل والرذائل التي توجد في الإنسان ، وهي : قوّة العقل ، وقوّة الشهوة ، وقوّة الغضب. إلاّ أنه — سبحانه وتعالى — جعل قوّة العقل من بين هذه القوى خاصة بالإنسان يمتاز بها عن سائر الحيوان . وأما القوّتان الأخرَيَان — أعني قوّة الشهوة وقوّة الغضب — فهي موجودة في جميع الحيوان يشارك فيهما الإنسانَ سائِرُه .

(I) هنا يفترق ترتيب الكتاب بين النسخ على طريقتين ، فالاصل قطع عن احداث مدة الباي علي ابن حسين ودخل في فصول سيرته واخلاقه ، وغيره من النسخ استمر على بقية الاحداث ووصلها بالتاريخ وجعل فصول السيرة بالآخر ، واختلاف الطريقتين انما هو في الكيف لا في الكم حيث لا تزيد احداهما على الاخرى بشيء ولا تنقص ، وقد سلكنا في الطبع طريقة الاصل كما هو المتبع مع كونها مسالدة على تقسيم الكتاب الى جزأين متعادلين في السيرة والتاريخ.

ثم إن كلّ واحدةٍ من هذه القوى الثلاث المذكورة لها ثلاث مراتب : إفراط ، واعتدال ، وتفريط . ولا يتمّ للإنسان حسن الخُلُق إلاّ بالرُّتبة المتوسّطة منها : أعني اعتدالها واستواءها . فاعتدال قوّة العقل هو أن تكون بحيث يسهُل بها درك الفرق بين الصِّدق والكذب في الأقوال ، وبين الحقّ والباطل في الاعتقادات ، وبين الحَسَن والقبيح في الأفعال ، وفي قُوّتَيْ الشهوة والغضب أن تكونا داخلتين تحت حكم العقل الجاري على قانون الشرع ، منقادَتين له غير مُسْتَوْلِيَتَيْن عليه ولا قاهرتين له . واعتدال هذه القُوى ، ووقوعها على الترتيب الواجب فيها ، ودخول قوّتيْ الشهوة والغضب تحت حكم العقل والشرع ، وضَبْطُها تحت إشارَتِهِمَا ، هو المُعَبَّر عنه بالعدل . فمن استوت فيه هذه الصفات واعتدلت فهو حَسَن الخُلُق مطلقا . ويَتفاوَت الناس في حُسْن الخُلُق بحسب تفاوُت الاعتدال في جميع هذه الصفات وفي بعضها .

ثم إن أمّهات الفضائل الجامعة لجميع شُعَبها ، والمُحيطة بجميع أنواعها أربعة أخلاق ناشئة عن اعتدال هذه القوى الثلاث ، وهي : الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدل . فالحكمة ثمرة اعتدال قوة العقل ، والشجاعة نتيجة اعتدال قوة الغضب ، والعِفّة فائدة اعتدال قوة الشهوة — وتقدّم أن العَدل عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب فيها — فبه تَتِمُّ جميع الأمور . ولذلك قيل : بالعدل قامت السّموات والأرض .

أما الحِكمة التي هي فضيلة القوّة العَقليّة فهي قِسمان : حكمة علميّة — وتسمى الحكمة النظَريّة — وحكمة خُلُقِيّة ، وتُسمّى العقل العِلميّ .

فالحِكمة النّظريّة هي العلم بالله تعالى وصفاته ، وملائكته ، وكُتُبه ، ورُسُله ، وأصناف خَلْقه ، وتدبير ملكه ، وأحوال البِداية والإعادة خَلْقا وأمرا ، / وأحوال المَعاد من السّعادة والشّقاوة إلى غير ذلك من معرفة حقائق [44 — ب]
الأشياء على ما هي عليه .

والحكمة الخُلُقية هي : العِلم بالخَيرات في الأعمال . ولهذا سُمِّيَت بالعقل العلمي ، وبها يسوس الإنسان نفسه وأهل منزله وأهل بَلَده وأهل مملكته — إن كان ممن بلغ رتبة ذلك — وهي العلم بصَواب الأفعال وتدبير أحوال هذا العالَم على ما يقتضيه العقل النظري ، وبها تسوس النفس القوّة الغضبية ، والقوّة الشَّهَوِيَّة ، وتُقَدِّر حركاتها على الحدّ (1) الواجب في الانقباض والانبساط . وقد تكفّلت الشريعة المُطهَّرة ببيان جميع جُزئيّات الحكمة العلمية ، وبيان الصَّواب في جميع الأفعال وتدبير أحوال العالَم على وجه تعجز عنه عقول البشر ، ولهذا أسقط حكماء الإسلام هذا القسم من بين سائر أقسام الحكمة .

وأمّا الشجاعة التي هي فضيلة القوّة الغضبيّة ، فهي أن تكون تلك القوة قويّة الحَمِيّة ، مُتَزايدة ، ومع ذلك تكون منقادة للعقل المُتأدِّب بالشرع في إقدامها وإحجامها .

وأمّا العِفّة التي هي فضيلة القوّة الشَّهَوِيّة فهي انقياد تلك القوّة — على يُسْر وسهولة — للقُوّة العقليّة الجارية على الآداب الشرعية حتى يكون انقباضها وانبساطها بِحَسَب إشارتها .

وحيث كانت هذه الفضائل الثلاث ناشئَة عن اعتدال القُوى الثلاث وتوسّطها على ما تقدّم فلا جرم يَكْتَنِف كُلّ واحدة منها رَذيلتان إحداهما في جانب الإفراط ناشئة عن إفراط القوة ، والأخرى في جانب التفريط ناشئة عن ضعفها ، فيحصل هناك رذائِلُ ستٌّ : هي أمّهات الرذائل الجامعة لجميع أنواعها المختلفة ، والمُحيطة بجُملة خبائثها المُتفرّقة ، فيكتنفُ فضيلةَ الحكمة الخُبْثُ والبَلَهُ ، فالخبث هو طَرَف إفراطها وزيادتها ، وهي حالة يكونُ الإنسانُ بها ذا مَكْر وحيلة باطلاق الغَضَبيّة والشَّهَوِيّة لِتَتَحرّكا إلى المطلوب حركة زائدة على القدر الواجب . والبَلَه هو طَرَف تفريطها ونُقْصانها عن الاعتدال ، وهي حالة للنّفس تَقْصُرُ بالغضبيّة والشّهويّة عن القَدْر الواجب ، ومَنْشَؤُه بُطْءُ الفَهْم وقلّةُ الإحاطة

(1) في ز : الجـــزء.

بصَواب الأفعال . ويَكْتَنِفُ فضيلةَ الشجاعة التَّهوّر والجُبْن ، فالتّهوّر طرف الزّيادة على الاعتدال ، وهي الحالة التي يُقْدِم بها الإنسان على الأمور المُخْطِرة التي يَجِب في العقل الإحجام عنها . والجُبْن طرف النُّقصان ، وهي الحالة التي بها تنقبض حركة القوّة الغضبيّة عن القَدر الواجب فتنصرف عن الإقدام حيث يجب الإقدام . ويكتنف فضيلةَ العِفّة الشَّرَهُ وخمود الشّهوة . فالشَّرَه إفراط الشّهوة إلى المُبَالغة في اللّذات التي تستقبحها القوّة العقليّة وتَنْهى / عنها . والخُمود هو قصور الشهوة عن الانبعاث إلى ما [45 – أ]
يقتضي العقل تحصيلَه . فالوَسَط هو المحمود في الجميع والطرفان مذمومان جدا . وعن هذا عبَّر صلّى الله عليه وسلم بقوله : خَيْرُ الأمور أوْسَاطُهَا(1) وأما العَدْل فيقابله رَذيلة الجَوْر المضادّ له .

ويندرج تحت فضيلة الحكمة : حُسْن التدبير ، وجَوْدة الذّهن ، وثَقابَة الرأي ، وصواب الظّنّ . كما يندرج تحت رذيلة الخبث الدّهاء ، والجَرْبَزَة (2) . وتحت رذيلة البَلَه : الغَمَارة (3) ، والحُمق ، والجنون .

ويندرج تحت فضيلة الشجاعة : الكَرَم ، والنَّجْدة ، والثّبات ، والشّهامة ، وكِبَر النّفس ، والحِلم ، والاحتمال ، وكَظْم الغَيْظ ، والتُّؤَدة (4) والوَقَار . كما يندرج تحت رذيلة التّهَوّر : الجسارة ، والصَّلَف (5) ، والبَذَخ (6) ، والاسْتِشَاطة (7) ، والتَّكَبُّر ، والعُجْبُ . وتحت رذيلة الجُبْنِ : النَّذَالة (8) ، والذّلّةُ ، والجَزَعُ ، والنُّكُول ، وصِغَر النَّفس ، والهَلَع ، والتَّجَسّس والمَهانة ، والانْقِبَاض عن تَنَاوُل الحق الواجب .

(1) بالاصل : خيار الأمور اوسطها وهو مخالف للرواية ، والحديث أخرجه الشعراني في الغريب عن ابن السمعاني ولا وجود له بالكتب المشهورة.
(2) مصدر جربز — فارسي معـرّب : وصف للخبيث المحتال من الرجال.
(3) الحمـــول.
(4) التؤدة : التأني والوقار ، وكأن عطفه عليها تفسيري.
(5) ادعـاء مـا فوق القـدر اعجابـا وتكبّـرا.
(6) التكبـر والتعـالي.
(7) استشاط عليه : احتـدم حنقـا.
(8) النّـذل : المحتقر في حالاتـه كلها.

ويندرج تحت فضيلة العفّة : الحَياء ، والمُسامحة ، والتّصبّر ، والسّخاء ، والانبساط ، والدّماثة ، والانتظام ، والقناعة ، والورَع ، والطّلاقة ، والمُساعدة ، والظّرْف ، وقلّة الطّمع ، وحُسْن الهيئة — أي الزّينة التي لا رُعونة فيها — .

كما يندرج تحت رذيلتي الشّرَه والخمود — أعني كلالَ الشّهوة — : الوَقاحة ، والخُبْث ، والحِرص ، والتّبذير ، والتّقتير ، والرّياء ، والهتكة (1) ، والكزازة (2) ، والمَجانة ، والعبَث ، والشّكاسة (3) ، والملَق ، والحسَد ، والشّماتة ، والتّذلّل للأغنياء ، واحتقار الفُقَراء ، إلى غير ذلك .

فأمّهات محاسن الأخلاق هذه الصفات والفضائل الأربع — أعني الحكمة والشّجاعة والعفّة والعدل — والباقي فُروعها . وكلّ من جمع كمال هذه الأخلاق استحقّ أن يكون بين الخَلق مَلِكا مُطاعا ، يرجع الخَلق كلّهم إليه ، ويقتدون به في جميع الأفعال ، ومن انفكّ عن جُملة هذه الأخلاق كلّها واتّصف بأضدادها استحقّ أن يُخرَج من بين العِباد والبِلاد ، فإنه قد قرُب من الشّيطان اللّعين المُبْعَد ، فينبغي أن يُبْعَد . ولم يُبْعَث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلا ليتمّم محاسن الأخلاق كما قال . وقد أشار القرآن العظيم إلى هذه الأخلاق في أوصاف المؤمنين فقال تعالى : « إنّما المؤمنون الذين ءامنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون » (4) . فالإيمان بالله ورسوله من غير ارتياب [هو قوّة اليقين ، وهو ثمرة العقل ومنتهى الحكمة . والمجاهدة بالمال هو السخاء الذي يرجع الى] (5) قوّة الشهوة ، والمجاهدة بالنفس هي الشّجاعة التي ترجع إلى استعمال
قوّة الغضب على شرط العقل وحد الاعتدال . وقد وصف الله تعالى / الصّحابة [45 — ب]
رضي الله تعالى عنهم فقال : « أشدّاءُ على الكفّار رُحماءُ بينهم » (6)

(1) عدم المبالاة بالفضيحة.
(2) هي في الاصل اليبوسة ، وفي اليد البخل.
(3) العسر في المعاملة .
(4) القرآن سورة الحجرات : 15.
(5) الزيادة من ز.
(6) القرآن سورة الفتح : 29.

إشارة إلى أنّ للشدّة موضعا ، وللرّحمة موضعا ، وليس الكمال في الشدة بكل حال ولا في الرحمة بكل حال .

وما بلغ أحد مُنتهى كمال الاعتدال في هذه الأخلاق الاربعة التي هي أمّهات الفضائل ، وأصول الكمالات إلاّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، والنّاس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه ، وكل من قرب منه في هذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربه من رسول الله صلّى الله عليه وسلم .

إذا تمهّدت هذه المُقدّمة وأحطت بها خبرا فاعلم أنّ الله تعالى قد أمدّ مولانا — أيّده الله تعالى — بالنصيب الأوفر من محاسن الأخلاق ، والحظّ الأوفى من هذه الأصول والفروع التي هي نفائس الأعلاق ، وأبعد عنه أضدادها التي هي رذائل الشّيَم ، المُنافية لما طُبِع عليه من المجد والكرم . ونحن نُقيم لك — على اتّصافه بكل خُلُق منها — شاهد عدل من آثار ذلك الخُلُق الصّادرة عنه . فإنّ دلالة الأفعال التي هي آثار الأخلاق على تلك الأخلاق قطعيّة لا يُتصوّر فيها التّخلّف ، فإنّ من تكرّر منه الإقدام في المخاوف والاقتحامُ في الشّدائد المرّة بعد المرّة دلّ ذلك على اتّصافه بالشجاعة قطعا ، وكذا من صدر منه الاعطاءات المُتتابعة من غير منع كان ذلك دليلا على اتّصافه بالسّخاوة ، وهكذا في كل خُلُق . وهذا معنى ما يُقال : « دلالة الفعل أقوى من دلالة القول » ، فإنه مخصوص بالأفعال الناشئة عن الأخلاق التي هي أسباب لها ، فإن دلالتها على تلك الأخلاق أقوى من دلالة القول . فإنّا نقطع بأنّ دلالة الاعطاءات على السّخاوة أقوى من قول المُعطي : أنا سخيّ ، أو قول غيره عنه : إنه سخيّ . فإذن صدور هذه الآثار عن مولانا — أعزّه الله تعالى — أقوى دليل على تحلّيه بها وتخلّيه عن أضدادها ، وإلاّ لزم اجتماع الضّدّين وإنه محال . فنقول :

اما الحكمة النظرية

فقد أخذ أصول عقائده ببراهينها عن شيخه إمام والده أبي المحاسن يوسف بُرْتقيز – رحمه الله تعالى ، وذلك على طريقة أهْل السُّنّة والجماعة ، من غير زيادةٍ على ذلك ما يُشَوّش الفكر ويشتّت النظر من مباحث الكلام والحكمة التي نهى كثير من الأئمة عن الخَوْض فيها . وإنما القَدْر الواجب على المكلّف أن يَعْرِف ما يجب في حقّ الله تعالى وما يستحيل وما يجوز ، ومثل ذلك في حقّ رُسُلِه – عليهم الصلاة والسلام – الداخل فيه أحكام المعاد بِبَراهينه القَطْعيّة العقلية ، المُستَمَدّة من الأدلّة النّقليّة . وما عدا ذلك فالأولى ترك الخوض فيه ؛ فقد قال الإمام فَخْر الدين الرّازي في وصيته التي كتبها عند موته : « إنّي قَدْ حَصَّلْتُ جميعَ العلوم المُدَوّنة بقَدْرِ الإمكان البشَريّ ، ثمّ رَفَضْتُ ذَلكَ ورجَعْتُ إلى ما في كتاب الله وسُنّة رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – بعد إحكام أصول العقائد » ، أو كلاما / هذا معناه طَالَ [46 – أ] عَهْدي به ، ونُقِل عن إمام الحَرَمَيْن – رحمه الله تعالى – ما يَقْرُب من هذا . وهذا المقْدار الّذي رَجَع إليْه الإمَامُ هو الحاصل أوّلاً لِمَن اقْتَصَر عَلَى تعَلّم أصولِ عَقَائِدِه بِبَراهينِها من غير خَوْض في فُضُولِ المباحث الحِكميّة ونحوها .

كما أخذ عن شيخه المذكور طَرَفًا صالحا من الفقه على مذْهَب الإمام أبي حَنيفَة – رضِيَ الله عنه . ولم تَطُل المدّة حتى كان من وقعة سمنجة ما كان ، وخرج مع والده – رحمه الله تعالى – وشغَلَتْه مُباشَرة الحروب ومقارَعة الأبطال عن طلب العلم وتحصيله . ولم يزَل الأمر على ذلك إلى أن استقَرّ رِكابُه العالي بالحَضْرة واستقلّ بالأمر ، وجلس على أريكة السّلطنة . فأظهر من محبة العلم وتعظيمه . وتعظيم أهله وإكرامهم أمرًا بَعُد العهد بِمثْله . فقرّب العلماء واصطنعهم ، وعظّم مراتبهم ، ورفع منازلهم ، واعتنى بالمذاكرة والتدريس بمجلسه العالي فلم يُغْفِل أوقاته من ذلك مع تحمّله بأعباء السلطنة ، وقيامه بجميع مَصالح الرعيّة ، ومُبَاشَرته لِلْجَليل والحقير من

أمورهم بنفسه . وأكثر اعتنائه بالحديث الشريف ، فقد عمر أوقاته بدِراسته ورِوايته ، وله فيه أسانيد وروايات وإجازات سيأتي ذكر بعضها . والتزم خَتْم صحيح البخاريّ في كلّ عام خَتْمَة ، يعقِد له مجلِسا بين الظُّهرين ، فَيَرْويه إمامُه الذي يصلّي به الخمس ، ويحضُر المجلس من العلماء من تكون نَوْبَتهم المبيت بحضرته العَلِيّة تلك الليلة ، ويُحْضِر شرح القَسْطَلاّني وشرح العَيْنِيّ ليرجع اليهما فيما أشْكَل فهمه أو ضَبْطُه ، وختمه يكون في كل عام ليلة سبع وعشرين من رمضان فيحضره أبناؤه السعداء ، وجميع الفقهاء ، وأكابر الدولة ، فَيَقْرَؤُون خَتْمَةً من القرآن العظيم ، ثم يروي الراوي فيختم . وإذا انتهى إلى قوله : « كَلِمَتَان خَفِيفَتَان عَلَى اللّسَانِ ، ثَقِيلَتَان فِي المِيزَانِ ، حَبِيبَتَان إِلَى الرَّحْمَانِ : سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ » أخذت الجماعة في التسبيح والتحميد والتهليل . ثم يدعو الإمام وتُؤَمِّن الجماعة على دُعائه . ثم يبتدىء الخَتْمَة الثانية في ذلك المجلس لِئَلاّ تنقطع الرواية كما يبتدىء من يختم القرآن بعد خَتْمه فيقرأ الفاتحة والآيات من سورة البقرة لئلا تنقطع القراءة ، وليكون كالحالّ المرتحل ، على ما ورد في الحديث . ثم ينفض الموكب ، وقد أفاض عليهم – أيّده الله – سِجال إحسانه . وهكذا في كل عام على الدوام . وأمّا غَيْرُ صحيح البُخاريّ من كُتُب التفسير ، والحديث ، والسِّيَر ، والفِقْه ، فإنّما يُقْرأ بحضرته العليّة ليلا ، فانّه قد انتخب جماعة من العلماء ورتّبَهُم للمبيت عنده للتحصيل ، والمباحثة ، والمذاكرة ، والمحاضرة . ووزّعهم على ليالي الأسبوع ، بحيث يبيت عنده في كل ليلة منهم طائفة يَدْرُسون كتابا لا يُقرأ إلا في / تلك اللّيلة ، وكلّما خُتِم [46 – ب] كتاب بُدِىء مكانه غيره . فقُرِىء بمجلسه العالي كُتُبٌ كثيرة منها صحيح مُسْلم ، وسُنَن أبي داود ، وسُنَن التّرمذيّ ، والمُوَطّأ لِلإمام مالك رضي الله عنه ، والجامع الصغير للحافظ السُّيوطي ، والشّفا للقاضي عِياض ، والمواهب اللّدُنّيّة لِلْقَسْطَلانِي ، والاكتفاء للحافظ أبي الربيع ابن سالم الكِلاعِيّ . ومنها تفسير القاضي ناصر الدين البَيْضاويّ ، وتفسير الخَازِن ،

ومنها شرح العَيْنِيّ على الكَنْز ، وشرح الشيخ يوسف بُرْتقيز على القُدُوري ، والدُّرّ المختار على تنوير الأبصار في فقه الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه . وتقع في ذلك مباحث ومناظرات بين الفُقهاء ، ثم لا تَخْلو ليلة من الليالي من بِرّ وإلْطاف وإحسان لأهلها من الفقهاء قَلّ ذلك أو جَلّ ، بحيث لا ينصرفون إلاّ بِصلة وتَكْرِمة . وربّما منّاهم وأطلق لهم في اقتراح ما شاءوا مع قضاء حوائجهم ، وإجابة مطالبهم وإجازة شفاعتهم . ولقد اتّفق في ليلة من اللّيالي أن قال لهم : «لِيَسْأَلْني كلّ واحد ما شاء فسألوه فأعطاهم ما سألوا فتمثّل بَعْضُهُم بقول نُصَيْب :

فَعَاجُوا فأثْنَوْا بِالذي أنْتَ أهْلُهُ
وَلَوْ سَكَتُوا أثْنَتْ عَلَيْكَ الحَقَائِبُ

فاسْتُحْسِن الاسْتِشْهاد والشّاهد وتفاوضوا في تضمين البيت مدحًا له — أعزّه الله تعالى — ولم يكن في تلك الجماعة من يُحسن النظم ، فلما انصرفوا أتى إليّ بعضهم وسألني [ب]تضمين البيت — ولم أكن إذ ذاك اتّصلت بخدمة حضرته العالية — فضمّنتها ودفعت له النسخة . فلمّا كان في مثل تلك اللّيلة من الجمعة القابلة وعادوا للمبيت عنده — أيّده الله تعالى — قُرِئت القصيدة عليه فاستحسنها وأخذ النسخة وعرضها على بقيّة الفقهاء الملازمين لمجلسه الرّفيع . ولمّا اشتهرت القصيدةَ انتدب جماعة من الشعراء لمعارضتها فأتى كل واحد منهم بقصيدة ضمّنها البيت المذكور ، وهم الفقيه الكاتب أبو عبد الله محمد بن أحمد الورْغِي ، والفقيه الأديب أبو العباس أحمد العُصْفوري ، والأديب البارع أبو الحسن علي الغراب الصفاقسي . وها أنا أعرض عليك القصائد الأربع ، وأكل الترجيح فيما بينها إلى الأنظار السديدة . قلت أنا :

إلَيْكَ وَإلاَّ مَا تُشَدُّ الرّكَائِبُ
وَمِنْكَ وَإلاَّ مَا تُنَالُ الرّغَائِبُ
تَوَجّهَتِ الآمَالُ نَحْوَكَ ، فَانْثَنَتْ
وَمَا آمِلٌ فِيمَا تَرَجّاك خَائِبُ

تَتَبَّعْ مُلُوكَ الأرْضِ ! مَنْ لِمَلِيكِنَا
أبِي الْحَسَنِ الْبَاشَا عَلِيّ يُقَارِبُ ؟
وَمَنْ كَأبِيهِ ، يَوْمَ فَخْرٍ بِوَالِدٍ .
حُسَيْنٍ الذي الْتَفَّتْ عليه الْمَوَاكِبُ ؟
/ وَمَنْ تُورِقُ الأغْصَانَ في الْمَحْلِ كفُّهُ ؟ [47 — أ]
وَمَنْ يَكْشِفُ الغَمَّاءَ ، إنْ نابَ نَائِبُ ؟
وَمَنْ في هُجُومِ الْخَطْبِ يُعْمِلُ رَأيَهُ
فَيَمْضِي نَفَاذا ، حِينَ تَنْبُو القَوَاضِبُ ؟
سِوَاكَ بِحَدّ السَّيْفِ أصْبَحَ غَالِبًا ،
وَأنْتَ لِمَنْ نَاوَاكَ بِالصَّفْحِ غَالِبُ
تُقَابِلُ بِالْعَفْوِ الْمُسِيءَ ، وإنَّمَا
أفَدْتَ بِهِ مَا لَمْ تُفِدْهُ الْكَتَائِبُ
فَكَانَتْ لَكَ الْعُقْبَى بِذَاك وإنّمَا
تُبِينُ فَضِيلاَتِ الْعُقُولِ الْعَوَاقِب
وأحرَزْتَ حَمْدًا وَاسِعًا وَمَثُوبَةً
وَنِلْتَ مُرَادًا لَمْ يَنَلْهُ الْمُعَاقِبُ
وَبَاتَ الْوَرَى فِي ظِلّ أمْنِكَ نُوَّمًا
وَأرْوَاحُهُمْ —فِيمَا تُنِيلُ— مَوَاهِبُ
وَقُمْتَ بِكُلّ المَكْرُمَاتِ مُحَافِظًا
عَلَيْهَا ، كَأنّ النَّفْلَ عِنْدَكَ وَاجِبُ
وَقَرَّبْتَ أهْلَ العِلْمِ حَتَّى غَدَتْ لَهُمْ
مَنَازِلُ مَجْدٍ ، دُونَهُنّ الكَوَاكِبُ
تُفِيدُهُمُ عِلْمًا وَفَهْمًا وَنَائِلاً
وَفَضْلَ حِجًى قَدْ حَنَّكَتْهَا التَّجَارِبُ

إذَا عَرَضَ الإشْكَالُ وَارْتَجَّ فَهْمُهُمْ
فَذِهْنُكَ وَقَّادٌ ، وَرَأْيُكَ صَائِبُ
وَلاَ غَرْوَ ، هَذِي عَادَةٌ قَدْ أَلِفْتَهَا :
إغَاثَةُ مَنْ ضَاقَتْ عَلَيْهِ الْمَذَاهِب
فَكمْ لُحْتَ فِي لَيْلٍ مِنَ الحَرْبِ فَانجَلَتْ
بِوَجْهِكَ وَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ الْغَيَاهِبُ
تَخُوضُ غِمَارَ الْحَرْبِ لاَ مُتَنَكِّرًا ،
وَلا الْقَلْبُ خَفَّاقٌ ، وَلا الوَجْهُ شَاحِبُ
تَصُولُ وَجَيْشٌ مِنْ وَرَائِكَ رَاهِبٌ
صَدِيقٌ ، وَجَيْشٌ مِنْ أَمَامِكَ هَارِبُ
وَمَا الغَيْثُ هَتَّانًا – على نَفْعِهِ الْوَرَى –
بِأَكْثَرَ جَدْوَى مِنْكَ ، لَوْ عَدَّ حَاسِبُ
أَفَضْتَ نَدَى كَفَّيْكَ فِي النَّاسِ أَبْحُرًا
وَبِالدَّلْوِ أَقْصَى مَا تَصُوبُ السَّحَائِبُ
إذَا زَارَكَ الْوَفْدُ انْثَنَوا وَجَمِيعُهُمْ
مِنَ الْبَحْرِ ذِي التَّيَّارِ لِلدُّرِّ جَالِب
فَيَشْكُرُكَ الرُّكْبَانُ مِنْ كَثْرَةِ الْحِبَا
وَتَشْكُوكَ مِنْ ثِقْلِ الْعَطَايَا الرَّكَائِبُ
ومُذْ صَدَرُوا –والعِيسُ كالنَّخْلِ إذْ زَهَا–
سَأَلْنَاهُمُ كَيْفَ الْعُلاَ وَالْمَنَاقِبُ ؟
فَعَاجُوا فَأَثْنَوْا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ ،
وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ الْحَقَائِب)

وَبَعْدَ نَحْوِ عَشْرِ سنين من نظمي لهذه القصيدة وقفت على بيتين أنشدهما أبو عثمان سعيد بن أبي جعفر التُّجيبي في كتابه «لمح السِّحر من روح الشعر» ولم ينسبهما لأحد وهما :

إلَيَّ وإلاَّ لاَ تُشَدُّ الرَّكَائِبُ   وَمِنِّي وإلاَّ لاَ تُنَالُ الرَّغَائِبُ
وَعَنِّي وَإلاَّ فَالْمُحَدِّثُ كاذِب   وَفِيَّ وَإلاَّ فَالمُؤَمِّلُ خَائِبُ

[47 – ب] / والبيت الاول منهما هو مَطلع قصيدتي بعينه ! فلم أدر هل كنت رأيت البيتين في غير الكتاب المذكور – لأني لم أقف عليه قبل – ونَسيتُهُمَا بعد أن علِقا بحفظي؟ أو كان ذلك من توارد الخواطر ؟ وبودِّي أنِّي كنت اطلعت عليهما قبل أن تسير قصيدتي وتذهب في النّاس ، فكنت أسْقِطُ هذا البيت منها .

وقال أبو عبد الله محمد الورغي وقد كان رسول بعض الملوك بالحضرة فأشار إليه :

أَقَصِّرُ وَالتَّطْوِيلُ فِي الشُّكْرِ وَاجِبُ
لِمَنْ فَضْلُهُ فِي كُلِّ مَا شِئْتَ غَالِبُ
[وأهْدِي اللَّبِيسَ النَّاقِصَ القَدْرِ لِلَّذِي
عَنِ النَّقْصِ في كلِّ المَشاهد غَائِبُ] (1)
إذَا لَمْ يَكُنْ فِيمَا مَضَى لِي وَالِدٌ
وَلاَ لِيَ فِي الآتِي مِنَ الدَّهْرِ صَاحِبُ
تُنَادِي مَزَايَا ابْنُ الْحُسَيْنِ أَلاَ انهَضُوا
بِوَاجِبِ إطْرَائِي ! وَأَيْنَ الْمُجَاوِبُ ؟
كَأَنَّ بَنِي الأَشْعَارِ صَمُّوا عَنِ النِّدَا
بَلَى ! فَاتَهُم فِي ذَاكَ طَبْعٌ مُنَاسِبُ
فَوَا عَجَبًا مِنْهَا وَمِنِّي وَمِنْهُمُ
وَفِي كُلِّ قَوْلٍ لِلْفُهُومِ مَآرِبُ (2)

(1) هذا البيت ساقط بالاصل ومثبت ببقية النسخ.

(2) كذا بالاصل ، وفي غيره : مشارب ، وفي **الديوان** : مسارب ، ولكل معنى ، والاخير انسب.

أمَا إنَّهَا عَيْنٌ حِسَانٌ تَبَرَّجَتْ
وَلَيْسَ لَهَا عَنْ عَيْنِ مَنْ رَاءَ حَاجِبُ
كَأنِّي أنَا وَحْدِي رَأيْتُ عُيُونَهَا
تَغَامَزْنَ لي ، وَالْغَمْزُ لِلصَّبِّ جَالِبُ
أطَلَّتْ وَأيَّامُ الْمَكَارِمِ عَنَّسَتْ
عَلَى حِينِ شَاخَ الدَّهْرُ فَهْيَ الْغَرَائِبُ
فَأصْبَحَتِ الأيَّامُ فِي عُنْفُوانِهَا
وَقَامَ لَهَا مِنْ مُقْعَدِ الدَّهْرِ طَارِبُ (1)
فَلاَ خَيْرَ إلاَّ وَهْوَ كَالْعَدْلِ لاَزِبٌ ،
وَلاَ شَرَّ إلاَّ وَهْوَ كَالظُّلْمِ عَازِبُ
فَهَاذِي طَرِيقُ الْحَمْدِ فِيهِ تَوَضَّحَتْ
لِمَنْ هُوَ فِي شُكْرِ الْمَزِيَّةِ رَاغِبُ
وَإنْ ألْسُنُ الأقْوَالِ كَلَّتْ فَإنَّمَا
عَلَى ألْسُنِ الأحْوَالِ مِنْها الضَّرَائِبُ
فَأغْنَاهُ فَيْضُ الْجُودِ عنْ كلِّ مَطْلَعٍ
وَفي كُلِّ صُنْعٍ (2) مِنْ أيَادِيهِ جَانِبُ
وَإجْلاَلُ أهْلِ الْعِلْمِ طُرّاً لأجْلِهِ
وَإيثَارُهُم ، حتى يَغَارَ الأقَارِبُ
وَدِقَّةُ فَهْمٍ لِلْعَوِيصَةِ رَامَهَا
أخُو فِطْنَةٍ أوْ لَجَّ فِيهَا الْمُشَاغِبُ
وَمَعْرِفَةُ الْفَضْلِ الْحَقِيقِ لأهْلِهِ
وَإكْرَامُ مَنْ يَدْنُو لَهُ أوْ يُجَانِبُ

(1) في ز : معقل العز ضارب.
(2) الصواب ما بالديوان : .. عن كل مصقع * وفي كل صقع ..
وهو المناسب لاطراد المعنى في اشتهار المزايا واستغنائها عن اقاويل البلغاء في كل ناحية.

وَإنْصَافُهُ مِنْ نَفْسِهِ غَيْرَ سَاخِطٍ
وَلاَ مُنْكِرٍ ، إنْ جَاءَ لِلْحَقِّ طَالِبُ
وَنُصْرَةُ مَلْهُوفٍ ، وَإحْسَانُ عِشْرَةٍ ،
وَكَظْمٌ لِغَيْظٍ ، حين يَجْفُو المُغَاضِبُ
وَجَبْرُ كَسِيرِ القَلْبِ بَاتَتْ هُمُومُهُ
تُغَالِبُهُ عَنْ نَوْمِهِ وَيُغَالِبُ
وَحِفْظٌ لِذِكرِ الله عَنْ وَصْمِ فَتْرَةٍ ،
وَأصْدَقُ مَا فِي الذِّكْرِ مَا هُوَ دَائِبُ
وَرَعْيُ جَنَابِ اللَّهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ
يُلاَحِظُهَا مِنْهُ التَّقِيُّ الْمُرَاقِبُ
/ فَيَا أيُّهَا الْمَوْلَى الَّذِي يَقَظَاتُنَا [48 – أ]
بِدَوْلَتِهِ حُلْمٌ ، –وحَاشَاكَ– كَاذِبُ
لَكَ اللَّهُ مِنْ قُطْبٍ تَدُورُ بِأوْجِهِ
مَشَارِقُ أمْدَاحِ الْوَرَى وَالْمَغَارِبُ
لِمَا أنَّكَ اسْتَوْجَبْتَهَا بِشَمَائِلٍ
يُسَلِّمُهَا الرَّاضِي وَمَنْ هُوَ غَاضِبُ
دَفَعْتَ بِهَا فِي صَدْرِ كُلِّ مُمَلَّكٍ
يَرَى أنَّهُ فَوْقَ السُّهَا أوْ يُقَارِبُ
فَمَرَّتْ عَلَى أسْمَاعِهِ فِيكَ مِدْحَةٌ
تَقَبَّضَ مِنْهَا جِيدُهُ وَالْعَرَاقِبُ
فَمَا وَسِعَتْهُ الأرْضُ حَتَّى أرَاحَهُ
عَنِ الْفِكْرِ في اسْتِعْلاَمِ شَأنِك نَائِبُ
فَوَجَّهَ مُرْتَاداً يُخَلِّفُ أهْلَهُ
عَلَى رَغْبَةٍ فِي رَجْعِهِ وَهْوَ رَاهِبُ

فَجاءَ وَمِنْ قُدّامِهِ الأمْنُ قائِدُ
وَمِنْ خَلْفِهِ حَبْلُ المَخافَةِ جاذِبُ
وَعايَنَ ما بَيْنَ السِّماطَيْنِ بَرْزَخًا
تَدُبُّ بِهِ رِجْلاهُ ، وَالرَّأْسُ راسِبُ
وَقَدْ حَسَدَتْ عَيْناهُ رِجْلَيْهِ أن سَعَتْ
بِبَهْوٍ تَوَدُّ السَّعْيَ فِيهِ الثَّواقِبُ
وَما شَغَلَتْهُ الدّارُ تَلْعَبُ بِالنُّهَى
عَنِ الْفِكْرِ فِي تَزْوِيرِ قَوْلٍ يُناسِبُ
وَلَمّا افْتَتَحْتَ الْقَوْلَ طَيَّرْتَ سِحْرَهُ
وَضاقَتْ عَلَيْهِ فِي الْخَلاصِ المَذاهِبُ
وَشاهَدَ ما لَمْ يَنْخَرِطْ فِي حِسابِهِ
وَأُسْمِعَ ما لَمْ تَنْتَخِبْهُ الأعارِبُ
وَوَلَّى عَلَى الأعْقابِ تَصْغُرُ نَفْسُهُ
وَمَخْدومُهُ ، وَالمُنْتَمِي ، وَالمُصاحِبُ
وأنْذَرَ مَوْلاهُ بِأنَّ وَراءَهُ
تَمامَ جَلالٍ هَذَّبَتْهُ التَّجارِبُ
وأنَّ مُلُوكَ الأرْضِ قِسْمانِ بَعْدَهُ :
فَذُو الهَزْلِ مَمْقوتٌ ، وَذو الجِدِّ تاعِبُ
فَهَذا حَدِيثِي فيكَ أسْنَدْتُ بَعْضَهُ ،
وَعِشْ لِتَرَى الباقِي – عَدَتْكَ النَّوائِبُ –
وَلَسْتُ بِراضٍ مِنْ مَدِيحِكَ بِالذِي
يُباهِتُنِي فِيهِ – إذا غِبْتُ – عاتِبُ
وَهَلْ لِي اعْتِذارٌ في انْتِحالِيَ ناقِصًا ،
وَمادِحُ ذِي زَيْدٍ بِأنْقَصَ عائِبُ

عَلَى أنَّ مَنْ أهْدَى لِغَيْرِكَ مِدْحَهُ
عَلَى قَدْرِ ما أسْدَى ، له الْعُذْرُ واجِبُ
كَعُذْرِ نُصَيْبٍ إذْ تَبَجَّحَ لِلَّذِي
قَضاهُ نَصِيبًا ضَمَّهُ وَهْوَ راكِبُ
فَقالَ : – وَلَوْ لاقاكَ يا بَحْرُ لَمْ يَقُلْ ،
وَقَدْ أفْعَمَتْ دُنْياهُ مِنْكَ الْمَناقِبُ
(فَعاجُوا فَأثْنَوْا بِالذِي أنْتَ أهْلُهُ ،
وَلَوْ سَكَتُوا أثْنَتْ عَلَيْكَ الْحَقائِبُ)

وقال أبو العباس أحمد العُصفوري :

مَعالِيكَ جَلَّتْ ما حَوَى الحَصْرَ حاسِبُ ،
أيادِيكَ لِلْعافِينَ سُحْبٌ سَواكِبُ
/ وَرَأيُكَ فِي كُلِّ الأمُورِ مُوَفَّقٌ ، [48 – ب]
وَفَهْمُكَ فِي حَلِّ الْعَوِيصاتِ ثاقِبُ
فَيا أيُّها الْمَوْلَى عَلِي باشَةَ الرِّضا
سَلِيلَ حُسَيْنِ الباي ، فِيكَ الْعَجائِبُ
جَمَعْتَ خِصالَ المَجْدِ لم تُبْقِ سُؤْدَدًا
لِغَيْرِكَ ، حَتَّى جانَبَتْكَ الْمَعائِبُ
وصاحَبَكَ الْحِلْمُ الْغَزِيرُ مع الْعُلاَ ،
فَتَغْضِي وَتَخْشَى مِنْ دَهاكَ الْكَتائِبُ
وَوافاكَ عِلْمٌ إذْ طَلَبْتَ كَأنَّهُ
مُحِبُّ ذَكاءٍ مِنْكَ فَهوَ مُصاحِبُ
مُحَيّاكَ إذْ يَبْدُو بِغَيْهَبِ حِنْدِسٍ
أرانا الضُّحَى وَانْزاحَ عَنّا الْغَياهِبُ

يَزِيدُ عَلَى بَدْرِ الدُّجَى عِنْدَ تَمِّهِ :
أَمَا عَابَهَ من كُلْفَةٍ فِيهِ عَائِبُ ؟

يُسَامِرُ فِي الأَسْحَارِ قَبْلَ قِرَاءَةٍ
بِنَادِيهِ مِمَّا يرتَضى ويناسبُ

بِمَعْسُولِ أَلْفَاظٍ أَرَاهَا كَسُكَّرٍ ،
وأَفْعَالُهُ كَالرَّاحِ ، فِيها غَرَائِبُ

فَتُسْكِرُ ذَا صَحْوٍ ، وَتُنْعِشُ سَاكِرًا ،
وَتُفْرِحُ ذَا شَجْوٍ ، لهَا السَّمْعُ شَارِبُ

بِهَا الْمَيْتُ يَحْيَى خَالِدًا عِنْدَ بَثِّهَا ،
فَعِنْدِيَ فِيهَا مَا حَيِيتُ رَغَائِبُ

فَمَا ذَا الْمُدَامُ القَرْقَفُ الرَّاحُ والطِّلاَ
إذَا مَا تُجَلِّيهَا الْكُؤُوسُ السَّوَاكِبُ ؟

لَهَا كُلُّ مَعْنًى نَضَّدَ الذَّوْقُ دُرَّهُ ،
فَجَاءَ بِسِحْرٍ ، وَهْوَ لِلْعَقْلِ سَالِبُ

مَتَى رَامَ فِي نَظْمٍ لَهُ حَصْرَ مَدْحِهِ
مَلِيكٌ قَوَافٍ ، أَعْجَزَتْهُ الْمَنَاقِبُ

فَيَا أَحْلَمَ الأَمْلاَكِ مِنْ غَيْرِ ذِلَّةٍ
وَلَكِنْ لِتَقْوَى اللَّهِ ، وَاللَّهُ حَاجِبُ

وَوَافَاكَ حَتَّى صَارَ فِيكَ سَجِيَّةً
فَلَمْ تَسْتَطِعْ دَفْعًا لَهُ ، فَهْوَ جَاذِبُ

وَأَيْقَنْتَ أَنَّ اللَّهَ أَوْلاَكَ حِفْظَهُ ،
فَنِعْمَ الْحَفِيظُ اللَّهُ ، جَلَّ الْمُرَاقِبُ

وُقِيتَ الرَّدَى ، وَاللهُ يُصْحِبُكَ الْهُدَى ،
وَيُبْقِيكَ مَا لاَحَتْ بِلَيْلٍ كَوَاكِبُ

تُدَبِّرُ مُلْكًا قَدْ أَتَاكَ وِرَاثَةً
فَتَاهَتْ عُلُوًّا مِنْ عُلاَكَ الْمَرَاتِبُ

وَدَامَتْ لَكَ الدُّنْيَا دَوَامًا مُؤَبَّدًا
فَحَكَّمْتَ فِيهَا الْجُودَ . وَاللَّهُ وَاهِبُ

فَقَادَتْ إِلَيْكَ الْيَعْمَلاَتُ خَفِيفَةً
عُفَاةُ الْجَدَى ، وَالْيَعْمَلاَتُ نَجَائِبُ

فَأَثْقَلْتَهَا مِنْ أَنْعُمٍ فِي حَقَائِبٍ
فَسَارَتْ بِهِمْ سَيْرًا خُطَاهَا تُقَارِبُ

(فَعَاجُوا فَأَثْنَوْا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ ،
وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ)

وقال الغراب :

لِبَابِكَ تُزْجَى بِالْمَدِيحِ الرَّكَائِبُ ،
وَتَبْسِمُ فِي وَجْهِ الْعُفَاةِ الْمَطَالِبُ

/ وفيكَ الثَّنَا صِدْقٌ ، وإِنْ أَطْرَأَ الْوَرَى ، [49 – أ]
وَفِي غَيْرِكَ المَدْحُ الذِي قِيلَ كَاذِبُ

يَكَادُ الْجَمَادُ الصَّلْدُ يَنْطِقُ شَاهِدًا
بِفَضْلِكَ ، وَالأَشْجَارُ عَنْهُ كَوَاتِبُ

فَلَوْ قيل : من أَزْكَى المُلوكِ بِأَسْرِهَا ؟
لَقَالَتْ : عَلِيُّ بْنُ الحُسينِ – تُجَاوِبُ –

مَلِيكٌ أَقَرَّتْ أَنَّهَا دُونَ قَدْرِهِ
طَوَالِعُ آفَاقِ الْعُلاَ وَالْغَوَارِبُ

لَهُ خُلُقٌ لم يُبْقِ طَيِّبُ نَشْرِهِ
عَلَى الزَّهرِ طِيبًا ظَنَّهُ – الدهرَ – حَاسِبُ

وَلوْلاَ انخِسَافُ الْبَدْرِ مِنْ نُورِ بِشْرِهِ
لَقُلْنَا سَنَاهُ عَنْ سَنَا الْبَدْرِ نَائِبُ

وآدابهُ الغَرَّاءُ مِن فَرْطِ لُطْفِهَا
بِهَا الْحَيَوانُ الْعُجْمُ كَادَتْ تُخاطَبُ

تَغَذَّى لِبانَ الْحِلْمِ من قَبْلِ حُلْمِه
وَقَبْلِ لِبانِ الثَّدي إذ هوَ حَاجِبُ

إذَا مَا بَدَا مِنْ جَمْعِهِ فِي مَوَاكِبِ
فَبَدْرٌ بِهِ أَمْسَتْ تَحفُّ الْكَوَاكِبُ

إذَا فِي أَرَاضِي الْمَحْلِ حَلَّت خِيَامُهُ
بِهِ اعْشَوْشَبَتْ وَانْهَلَّ عنْها السَّحَائِبُ

إذَا صَالَ فِي يَوْمِ الوَغَى بِحُمَاتِهِ
لِطَرْدٍ ، وَهزَّتْهُ الْجِيادُ السَّلاَهِبُ

تَطِيرُ إلَى الأعْدَاءِ عِقْبانُ خَيْلِهِ
أَسِنَّتُهَا لِلطَّائِرَاتِ مَخالِبُ

يُغَادِرُهُمْ صَرْعَى الْكُمَاةِ لَهُمْ عَلَى
فَرَائِسِهِمْ مِنْهَا الطّيُورُ جَوَاذِبُ

سَمَا لِسَمَاءِ العِلْمِ حَتَّى كَأَنَّمَا
بِهِ جَاهِلٌ حَاوِي الْعُلُومِ وَغَائِبُ

رَفَعْتَ مَقَامَ الْعِلْمِ فِي نَصْبِ أَهْلِه
أَلاَ فَاعْجَبُوا مِنْ رَافِعٍ وَهْوَ نَاصِبُ

مَلِيكٌ تَحَلَّى بِالتُّقَى فَحُلِيُّهُ
غَدَتْ ـ عَنْ حِلاَهَا ـ تَصْطَفِيه الكَوَاعِبُ

لَهُ الجُودُ طَبْعًا حَازَهُ ، لاَ تَكَلُّفًا ،
وَأَيْنَ مِنَ الطّبعِ الندى المُتَكاسَبُ ؟

وَإنْ أَمَّهُ رَاجٍ لِدَفْعِ نَوَائِبِ
دَهَتْ ، كُشِفَتْ عنه الْخُطُوبُ النَّوَائِبُ

ذَا مُعْتَفٍ يَوْمًا حَبَاهُ رَغِيبَةً
تَعُودُ مِنَ الْعَافِي تُنَالُ الرَّغَائِبُ

يُوَالِي الْعَطَا لِلْمُعْتَفِي مُتَتَابِعًا ،
مَوَاهِبَ تَتْلُو إثْرَهُنَّ مَوَاهِبُ

وَلاَ عَيْبَ فِي نُعْمَاهُ إلاَّ لأنَّهَا
يَضِيقُ بِهَا الْمَأْوَى لِمَنْ هُوَ رَاغِبُ

مَحَتْ حَسَدَ الْحُسَّادِ حَتَّى غَدَوْا بِهَا
وَكُلٌّ عَدُوّ لِلْعَدُوّ مُصَاحِبُ

تَرَى نُجُبَ الْعَافِين عَنْكَ صَوَادِرًا
مُثَقَّلَةً ، مِنْهُنَّ تَشْكُو الْغَوَارِبُ

حَقَائِبُهُمْ مُلِّئْن مِنْكَ وَإنَّمَا
حَقَائِبُ تِبْرٍ مَا تُقِلُّ النَّجَائِبُ

[49 ـ ب] غَدَوْا كُلَّمَا مَرُّوا بِحَيّ وَبَلْدَةٍ
ثَنَوْا نَحْوَ مَا مَرَّت عَلَيْهِ الرَّكَائِبُ

/ (وَعَاجُوا فَأَثْنَوْا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ
وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ)

والبيت المذكور يقوله نُصَيْب الشاعر المشهور من أبيات يمدح بها سُلَيمان ابن عبد الملك لمَّا حضر مجلِسه مع الفرزْدَق في قَضِيَّة مشهورة (I) .

(I) القضية في **الاصفهاني** I : 244 – **وابن خلكان** 5 : 137 ، وخلاصتها ان سليمان استنشد الفرزدق شعرا اراده مدحا له فانشده في ابيه غالب فاعرض عنه واستنشد نصيبا فانشده شعرا منه :

قفوا خبروني عن سليمان انني   لمعروفه يا أهل ودّان طالب
فعاجوا .. الخ

ولمّا رأى طلاّب العلم ومن فيه أهلية التعلم إحْسَانَه – أيّده الله تعالى – المتتابع على الفقهاء وتعظيمَه إيّاهم والْتِفاتَه إلى جانبهم رَغِبُوا في تعلّم العلم وانكبوا عليه. فَكَثُر طلاّب العلم، وعَمَرَ الجامع الأعظم جامع الزيتونة بالدروس في جميع الفنون المُتداوَلة. فصرف إليهم – أعزّه الله تعالى – وَجْه عِنايته، فأطلق لهم المرتّبات الواسعة والوظائف النافعة. واتّصل الأمر على هذا الشأن إلى أن دخلَتْ سنة ثلاث وثمانين وقد تكاملت عِمارة الجامع بالدروس، وتوافرت المدرّسون والطلبة. فاقتضى نظره السديد أن يَشْمَلَهم بإحسانه، ويُفيض عليهم سِجال إنعامه وإكرامه، وأتى بها أكْرُومةً لم يُسْبَقْ إليها، ومأثُرةً باقية على وجه الدهر لم يَحُمْ خاطِرُ أحَدٍ عليها، وذلك أنّه أمرَ فَضُبِط له مَالُ الْجِزْيَة بِأسْرِه، ورُفِعَ إليه حُسْبانه، وكُتِبَتْ له جريدة بأسماء المدرّسين بالحضرة من أبنائها ومن الغُرباء الواردين عليها لطلب العلم، وأسماء المُتأهِّلين من الطلبة، ووزع عليهم مال الجِزية كله. فعَيّن لكل مدرّس مُرتّباً في مقابلة التدريس، ولكل طالب [متأهّل] مرتبا دون الأوّل إعانةً لهم على تحصيل العلم الذي هم بصدده. فضاق عنهم مال الجزية لكثرتهم، فزادهم فواضِل أوقاف جليلة مُحبَّسَةٍ على مصالح يفضل عنها بعد إقامة ما عينت هي له، مالٌ له بال يقرب من محصول الجزية، ووزّعه عليهم أيضا، بعد أن شاور أهل العلم في صَرْف فواضل الأوقاف المذكورة في هذا المصرف، فأفْتَوْه بالجَواز بناء على أن لصاحب الأمر أن يتصرّف في أحباس الولاة والعمال ونحوهم ويصرفه فيما يراه من وجوه المصالح. فحصل النفع العام لطلاب العلم [وبعث من دواعيهم]. وهكذا فعل بفُقهاء المُدُن من عمله كفقهاء القيروان، وسوسة، وصفاقس، والمنستير، وباجة، والكاف، وقفصة، وغيرها، فعين لهم المرتبات الواسعة من الجزية وفاضل الأوقاف. غير أن القيروان لمّا لم تكن مسكنا لأهل الجزية لعدم سكنى الكفار بها، تعظيما لآثار الصحابة – رضي الله عنهم – صرف إلى فقهائها جزية جربة. وفي ذلك من اللّطيفة أنّ أهل جربة لما كان مُعْظَمُهم على غير مذهب أهل السنّة لم يكونوا أهلا لصرف جزية بلدهم إليهم، فعدل بها عنهم

إلى أهل القيروان المُنَزَّهةِ بَلْدَتُهم عن سَكنى المخالفين للدين. ثم بعد هذا كلّه أوقف على المدرّسين وقفا عظيما من عقَار انجرّ له بالإرْث في والدته المقدّسة، ودفعه إلى ناظر أوقاف المدرّسين يقسم عليهم غلّته. والعادة جارية في الحضرة بأن الفُقهاء المُرْتَسِمين في ديوان / الجُند من الحَنَفيّة يُعْفَوْن [50 – أ] من الخدمة والسّفر، وتطلق لهم رواتبهم. لكن كان ذلك – في الدول السالفة – مخصوصا بأماثل العلماء وأهل الوظائف منهم. حتى جاءت دولة مولانا – أدامها الله تعالى – ففعل ذلك بكل من تعاطى قراءة العِلم منهم حتى حصل ذلك لِجُلّ المُبتدئين. وبهذا السبب كثر طالبو العلم منهم، وخرجت منهم جماعة نُجباء.

ولمّا أنشأ تُرْبَته المطهّرة بسباط عجم أنشأ مدرسة مجاورة لها (1) وأوقف عليها أوقافا واسعة، ورتّب بها مدرّسين في فنون شتّى، وطلبة، وأجرى عليهم الجِرايات الواسعة التي لم تَكُنْ في مدرسة من المدارس غيرها، وسيأتي تفصيل ذلك – إن شاء الله تعالى. وعلى الجملة فاعتناؤه بالعِلم الشريف وبِحَمَلَتِه قد بلغ من الشُّهرة مبلغا ألْحَقَه بِالمعلومات الضرورية.

واما الحكمة الخلقية

فيدلّ عليها ما أخذ به نفسَه من الأعمَالِ الصَّالِحَةِ والطّاعات، والقُرُبات والمُواظَبة على الخيرات. وأنا أذكر منها هاهنا ما لا يدخل تحت خُلُق من الأخلاق الآتية. أمّا ما هو داخل تحت شيء منها ككثرة الصّدَقات الداخلة تحت السّخاوة، وطهارة الذيل الداخلة تحت العفة، ونحو ذلك فأؤَخّر الكلام فيه إلى موضعه. من ذلك المُحافظة على أداء الصّلَوات لِمَواقيتها، بحيث لا يُحفَظ عنه تأخير صلاة من الصّلَوات عن وقتها في حَضَر أو سَفَر، مع تعديل أركانها، والقيام بِسُنَنِها وفضائلها،

(1) هي الحسينية الكبرى المعروفة بمدرسة التربة الكبيرة فرقا بينها وبين مدرسة والده المقابلة لها المعروفة بالتربة الصغيرة.

والمُحافظة على الطهارة ، والمُبالغة في التحذر من النجاسة ، وإتقان الوضوء وإتمام إسباغه ، والقيام بالسُّنن الراتبة ، وعدم الإخلال بشيء منها في مُعْظَم الأوقات . ومنها المُداومة على حُضور مجالِس العلم من التفسير والحديث والفِقه وغيرها على ما مرّ تفصيله ، ومنها المُواظبة على الأذكار والأوراد ليلا ونهارا بحيث لا يَفْتُر لِسانه عن ذِكر الله تعالى في غالب أوقاته فقد اتَّخذ الذّكر دَيْدَنا ، ورطَّب به لسانه فهو يستعمله حتى في وقت جلوسه للحكم والقضاء ، وفي وقت سَمَره ، وغير ذلك من الأوقات التي يشتغل فيها بقضاء المصالح والحوائج ، مع كونه قد أفْرَد وقتين للذّكر لا يعمل فيهما عملا سواه ، وهما من بعد صلاة الصُّبح إلى أن تَمْضِيَ ساعة من النّهار ، ومن بعد صلاة المَغْرِب إلى العِشاء ، فقد ألْزَم نَفْسَه ذِكْرَ كَلِمة التوحيد ثلاثة آلاف مرة في كل يوم ، فلم يترك ذلك منذ سنين متطاولة ، ولا في أيام الحروب الشديدة ، مع ما التزمه من الأوراد والأذكار وغير ذلك . وله في ذلك أسانيد وإجازات عن الشُّيوخ فقد أخذ ورد [الإمام] العلاّمة سيدي أحمد بن ناصر الدَّرعي (I) عن الشيخ سيدي عبد الحفيظ [الزواوي ابن دوابلاده] الختي ، وهو يرويه عن صاحبه سيدي أحمد بن ناصر — رحمه الله تعلى . وقد أجازه الشيخ سيدي عبد الحفيظ عن سيدي أحمد بن ناصر بسنده المعروف في الطريق ، ولنذكره تبركا به فنقول :

[50 — ب] روى سيدي / أحمد بن ناصر ، عن سيدي محمد بن ناصر ، عن سيدي عبد الله بن حسين [القبّاب] (2) ، عن سيدي أحمد بن علي الحاجي (3) ، عن سيدي أبي القاسم الغازي (4) ، عن سيدي علي بن عبد الله الفيلالي ، عن سيدي أحمد بن يوسف الملياني ، عن سيدي أحمد زروق ، عن سيّدي أحمد ابن عقبة [الحضرمي] ، عن سيدي علي القرافي ، عن سيّدي أحمد ابن عطاء الله ، عن سيّدي أبي العباس المُرْسِيّ ، عن سيّدي أبي الحسن الشاذلي ، عن سيّدي عبد السلام ابن مشيش ، عن سيّدي عبد الرحمان العطّار (I) ، عن القُطب أبي الحسن علي ، عن القطب تاج الدين ، عن القُطب شمس الدين ، عن القُطب زين الدين ، عن القُطب إبراهيم البصري ، عن القُطب أحمد المرواني ، عن القُطب سعيد ، عن القُطب فَتْح السّعود ، عن القُطب الغَزْواني ، عن القُطب جابر ، عن سيّد الأقطاب وأولهم سيّدنا الحسن ابن سيّدنا عليّ بن أبي طالب رَضِيَ الله عنهما ، عن أفضل جميع الخلق سيّدنا مُحمّد — صلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسلّم . ثمّ وَرَدَتْ عليه إجازة من الشيخ العلاّمة الفاضل سيدي يوسف بن محمد بن محمّد بن ناصر ابن أخي سيّدي أحمد بن ناصر القائم مَقامه الآن — فسح الله في أجَله . ونصّ المقصود منها : « وقد بلغنا كتابك ، وفهمنا مضمونه ، ومأخَذَك عمّن ذكرت — قدّس الله سِرّه . فأحمد الله على ذلك ، وقد زدنا فيك محبّة بما ذكرت من توفيق الله تعالى لك إلى ما أنت عليه من رحمة الغريب ، ونَهْج مَنْهَج مَنْ هداه السميع القريب ، فحمدنا الله لك ، وطلبنا لك الزيادة من فضله . وعليه فنَأمُرُك أنْ تُحاسِب نفسك بقانون الشّريعة لتعلَم ما أنت عليه ، وقد أجَزْناك في كلّ ما أخذته عن السّيد عبد الحفيظ قولاً وفِعلا ، وأجزناك أيضا في سائر مرويّاتنا ومسموعاتنا عن الأشْياخ ، تُحدّث عنّا بكل ما تَجُوز — لنا وعنّا — روايته بِشَرْط أهل الإجازة المُعتَبر ، من التثبّت والاحتساب واحترام العلم وأهله . فقد اتّصلت لنا رواية الكتب الستة ، والشّفا لِعِياض ، والمواهب اللّدُنّيّة ، وحِلْية أبي نعيم ، والترغيب والترهيب ، وإحياء علوم الدين ، والجامعين الصغير والكبير ، وكنز العمّال ، والفُتوحات المكية ، رِوايةً ودِراية . أما الدّراية فعن عدّة من العلماء — رحمهم الله تعالى . وأما الرّواية فعن العلاّمة شيخ الجماعة بالديار الفاسيّة سيدي مَحمد بن عبد السّلام بنّاني — رحمه الله

(I) مرجع ما سيذكر من الاسانيد اليه وهو من اعلام المغرب ومتصوفيه له رحلة طبعت بفاس على الحجر سنة 1320/1902 توفي سنة 1129/1717.

(2) الزيادة من **ثبت الأمير**.

(3) فيه : الخزرجي بدل الحاجي.

(4) في ز : التازي.

(I) هنا يفترق سياق السند بين الأصل — وهو ما يعطيه شيوخ الطرق لمريديهم — وبين سند الامير المحرر ، وهو بعد العطار — ويسميه المدني — عن التنابري يرفعه الى الشبلي عن الجنيد عن السري عن الكرخي عن حبيب عن الحسن البصري عن الحسن السبط وللنقاد مطاعن فيه ولا سيما فيما بالاصل من مجاهيل.

تعالى ، وهو عن عِدّة من العلماء كالشيخ أبي علي الحسن اليوسي ، والشيخ أبي زيد عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي ، والشّيخ عبد السّلام جسوس ، وكل بطريقه في فِهْرِسْتِه ، وعن إمام الحرم الشريف سيدي محمد بن الطيب الفاسي عام حجّنا ، وهو عام اثنين وستين ومأئة وألف ، وعن أخينا أبي عمران سيّدي موسى بن محمّد بن محمد بن ناصر ، عن العمّ الشّيخ البَرَكة سيّدي أحمد بن محمد بن ناصر ، وهو عن والده — رحمهم الله تعالى — سيّدي محمّد بن ناصر ، عن البابلي — ح — وعن أبي العبّاس المجذوب وسيّدي أحمد بن إبراهيم السّباعيّ ، عن العمّ المذكور ، وعن والده أبي
إسحاق سيّدي / إبراهيم السّباعي ، عن البابليّ المذكور ، عن الشّبْراملسي ، [51 — أ]
عن النّجم الغيطي ، عن السّنهوري بسنده إلى الحافظ بن حَجَر ، والشيخ ابن الطيّب يروي عن العَمّ ، وعن مؤلّف المِنَح البَادِية في الأسانيد العالية سيّدي محمد الفاسي وأشياخه في فِهْرِسْتِهِ ، وعن العلاّمة سيّدي محمد ابن عبد الله ، عن ابن سليمان الرّسموكي ، عن اليوسي ، وعن السيد عبد الله ابن أحمد الريكامتي ، عن العمّ أيضا ، عن والده ، عن الشيخ ابن سعيد المرختي السوسي ، وهو عن مولانا عبد الله بن علي بن طاهر الحسني ، وهو عن عمه ، عن النجم الفاسي بِطُرُقِهِم كلّها حَسَبَ فَهَارِسِهم ، وعن أبي العباس الهِلاليّ رحمه الله ، عن الشيخ أحمد الحبيب السلجماسي ، وعن الشيخ الحفناوي المصري والإسكندراني ، والشيخ الطّبلاوي عام حجّنا المذكور ، وأخذ الجدّ أيضا سيّدي محمد بن ناصر عن أبي عبد الله محمد ابن أحمد المصمودي ، وهو عن أبي زكرياء يحي السّراج ، عن العلاّمة ابن هارون ، عن الإمام ابن غازي ، عن أشياخه المعلومين في فِهْرِسْتِه ، وأخذ أيضا عن العلاّمة أبي الحسن علي بن يوسف اللكتاوي التمارزي التهرجاتي ، وهو عن العلامة التتائي ، وهو — رحمه الله — عن والده ، وعن أبي علي الحسن ابن عثمان الجزولي ، عن الإمامين ابن غازي والقوري ، وعمّنا أحمد — رحمه الله — يروي عن صفيّ الدّين القشاشي بأسانيده أيضا ، ويروي أيضا عن أبي سالم العيّاشي ، عن أشياخه المذكورين في فهرسته : الاقتفاء ، والمنظومة ،

وغيرهما كما في الرّحلة ، وعن الشيخ العلاّمة المحقّق أبي العباس أحمد ابن محمد الورزيزي دفين تطاون — صانها الله تعالى ، وهو — رحمه الله تعالى — عن عدة منهم عمّنا المذكور ، وعمه أبو عبد الله محمد الصّغير ابن عبد الله بن حسين التّجموري المدفون قرب ابن القاسم العتقي وأشهب — تغمدهم الله برحمته وأسكنهم فسيح جنته ، وهو يروي عن عدّة مغاربة ومشارقة ، كما يروي عنهم السيد [أحمد] المذكور ، ويروي عن الحافظ اللاّفظ الحجّة سيّدي أحمد ابن مبارك السلجماني إمام الجماعة بفاس بالقرويّين ، عن عدة من أشياخه ، وأروي أيضا عن الشّيخ المجاهد سيّدي محمد بن محمد بن عبد الله الورزيزي صنو السيد أحمد ، وهو عن ميّارة الصغير وعن البناني الملقب بالمحوجب ، وعن العلاّمة القسمطيني ، وعن الحافظ سيدي محمد بن زكري ، وعن الزكي العلامة سيّدي محمد العربي بردلة ، الفاسيين وكل عن أشياخه . ولولا خوفُ الإطالة لتتبعنا الأسانيد كلها حتى تكون دفترا عظيما . ولكن حسبنا التبرّك بذكر هؤلاء فقد أجازونا والحمد لله في العلوم الإسلامية معقولا ومنقولا ، حديثا وتفسيرا ، ونحوا وتصريفا ، وأدبا وعروضا ، وتوقيتا وتوحيدا ، وتعديلا ، ومصافحة ، ومشابكة ، ومناولة ، ومعانقة ، [وضيافة] بالماء والتّمر وبالحديث المسلسل أول كل شيء في المجلس وبقراءة سورة « الصفّ » وقراءة
سورة « ألم نشرح » واليمنى على الصدر / واليُسرى أسفلها . وبجميع ما [51 — ب]
ذكرت أجزْتُ السيّد علي باي ابن حسين باي كما أجازني أشياخي في جميعه ، وبكل ما تَصحُّ روايته من مسموع ومقروء وتقييد ، وأذنت له في تلقين الذكر لمن أراده من أولاده وعياله وزدته في ورده أحد عشر الفا من يا لطيف يا لطيف كل يوم ، وأذنت له في قراءة المُسَبّعات العشر عند كل طلوع شمس وغروبها ، وحزب النّوَوي ، وحزب البحر ، والوظيفة الزرّوقية ، والصّلاة المشيشية مؤكّدا عليه في الإقبال على الله ، والتوكّل عليه ، والاعتصام بحبله ، موقنا أن الله تعالى لم يخلقنا في الدنيا إلاّ لنعبر إلى الآخرة عليها . وأوصيته بالغرباء ، وبالاقتصاص من القَرْناء للجَمّاء فإنّك مسئول عن رعيتك ، فأعِدّ لسؤالك ما استطعت ، فإن سائلك لا تخفى عليه خافية في

الأرض ولا في السماء ، والله يرعاكم ، ويحفظكم ، ويتولّى بِمَنّه أموركم ويَأخُذ بأيديكم ويُعِزّكم ، ويدفع عنكم كل سوء ، آمين . وفي أربع وعشرين من صفر سنة سبع وثمانين ومائة وألف ، كتب عبيد الله تعالى — عن فرط هول نسأل الله العفو والعافية — يوسف بن محمد بن محمد بن ناصر تاب الله عليه ، آمين . انتهى .

ولمولانا — أيّده الله تعالى — تعظيم زائد ، وتوقير كبير لجانب سيّدي أحمد ابن ناصر ، واعتناء بكل من هو منتم إلى طريقته ، وداخل في دائرته ، حتى لقد بلغه عن بعض أصحابنا من الطلبة وهو ميلاد [بن سليمان] المؤدب أنه منتسب إلى طريقة الشّيخ ومواظب على ورده ، فقضى له عدة حاجات وإذا ذكر عنده يقول : ذاك أخي من الطريقة الناصريّة . ولقد ورد على الحضرة سنة ثمان وثمانين شابّ مغربي ادّعى أنه ابن أخي سيّدي يوسف بن ناصر فاهتزّ له مولانا — أعزه الله تعالى — وبالغ في إكرامه وأعطاه عطايا ضخمة وأجازه بجوائز جزيلة ، وأوصله إلى كل مقترح اقترحه . وكثر الطعن عليه من المغاربة بأنه كاذب في دعواه ، ودَعِيّ في نسبه ، وإنما هو طالب من طلبة الزّاوية الناصريّة ، وأثبتوا ذلك بشواهد وقرائن . وبلغ ذلك مولانا — بلّغ الله آماله — على وجهه فلم يَصُدَّه عن إتمام ما أسدي إليه ، ولا رَدّه عن إنجاز جميع ما وعده به ، حتى انصرف من عنده موفورا محبورا . وورد قبله على الحضرة أحد تلامذة الشيخ سيدي يوسف بن ناصر اسمه عبد الله بن المقدّم وهو رجل فاضل من أهل الصلاح ، وله ولأبيه اختصاص بالبيت الناصري . فاستزاره مولانا — أيده الله تعالى — وأحسن اليه . ولَمّا صَدر راجعا إلى المغرب كتبت عن مولانا — أعزه الله تعالى — إلى سيدي يوسف بن ناصر كتابا ذكرت فيه السيد عبد الله المذكور ونصه :

« المَقام الذي تُقْتَبَس منه أنوار المعارف ، وتستمنح منه لَمَحات العوارف ، ويتفيّأ على الأنام ظِلُّه الوارف ، وتَصْرِفُ منه القلوبَ إلى حَضْرة القُدْسِ الصّوارِف ، وتنسكب فيه من خَشْيَة الله تعالى الدّموع / الذوارِف ، [52 — أ]

مَهْبِط البَرَكات ويَنْبوع العِرفان ، ومَحَطّ رِحال الأفاضِل من كلّ قاصٍ ودانٍ ، حَضْرة الأستاذ الأعظم والملاذ الأعصم الطيّب الطاهر ، ذي المناقب والمفاخر ، العلاّمة الفاضل ، الرّبانيّ الكامل ، مولانا أبي المحاسن سيدي يوسف بن ناصر ، أدام الله عليه من معارفه إمدادها ، وأتمّ نِعمته عليه وزادها ، ولا أغْفَلَه مِنْ وَارِد نَفْحة ، وعائد مِنْحة ، [وَهِبَةِ قُرْبَة] ، ورَهْبَةِ رِقْبَة — آمين — السّلام التامّ الكريم ، الطيّب المبارك العميم ، يخص مَقَامَكُم الأعلى ، ومثابَتَكُم المُثْلى ، ورحمةُ الله تعالى وبركاته . وبَعْدُ فقد كتبناه إليكم — كتب الله لكم الحُسنى وزيادة ، وسَنّى لكم المَحلّ الأسنى في دار السّعادة — من خَضْراءِ تونس — حرسها الله — استجلاباً لصالح أدْعِيَتِكم التي نَعْتَدُّها أوفى جُنّة ، ونعتمدها من الأسباب الموصلة إلى الجنّة ، وتَأكيداً لعَهْد مودّتكم التي نراها من أوكد الطّاعات التي تُقرّبنا إلى الله زُلفى ، وأنفع القُرُبات التي تُبلغنا عند الله المقام الأسنى ، وعلى ما اسْتَقَرّ من حُنُوّكُمْ عَلَى الْمُرِيد وبِرّكُم به ، وحِرْصكم على تقويمه وتهذيبه ، ألاّ تَنْسَوْنا من دَعْوة مُسْتَجابة تكون لنا ذُخْرا في المعاد ، ووِقاية لنا ولذُرّيّتنا من كيْد الأعداء والحسّاد . فهذا ما يَسْتَوْجِبُه انْتِماؤُنا إلى طريقتكم المَرْضِيّة ، ودخولنا في دائرة سِلْسِلَتِكم العَلِيّة ، ضَاعَف الله لديكم النَّعْماء ، وجَزاكم عنا أحسن الجزاء بمنّه . هذا وقد ورد علينا السيّد أبو محمّد عبد الله ابن المقدّم رضيع لِبان مجدكم ، ونجم فَلَكِ سعْدكم ، صادرا عن حجته التي ظهرت عليه علامات قبولها ، وزيارته التي لاحت عليه أنْوار حصولها ، راجعا من حضرتكم إلى بيته الذي منه خرج ، ووَكْره الذي منه دَرَج ، ومحلّ عِزّه الذي به تخرّج ، فاستدعيناه إلى زيارتنا التماسا لِبَرَكته التي بكم حَصَل له طريفها وتِلادها ، واقتباسا من مِشْكاة أنواره التي منكم اسْتِمْدادها . فرأينا عليه هَيْبَة المعرفة ، ونَضَارة العِبادة ، ووقار الخَشْيَة ، ورِقّة الوجد ، وارتياح الشّوْق ، ومَتانة الدّيانة . وقَبول الإخلاص . وجدير بمن تَربّى في عقر تلك الدّيار ، وتَخرّج بأولئك السادات الأخيار ، أن لا

يُصَدّ عَنْ بُلوغ العَلْياء ، ولا يُعاق عن تَسنُّم الرُّتْبة الشمّاء . فعرّفنا من فضائلكم المأثورة ما لا يَسَع أحدًا ألاّ يعْلَمَه ، وذكّرنا من مزاياكم المشهورة ما لم يكن يَنْساه إلاّ مَنْ عَدِمَ التوفيق وحُرِمَه . فحرّك من اشْتِياقنا — لو نجد سبيلا — وهزّ من ارتياحنا — لوْ أمكن في ذلك الظِّلّ مقيلا — لكنّا اكتفينا من رؤيته بالصعيد الطيّب ، عن مَعين العارض الصيّب ، وأنبْناه عنّا في مصافحة يدكم الكريمة ، والتماس دعواتكم المباركة العميمة — والله تعالى يديم بهجة هذا العالم [ببقائكم] ، ويزيد كُلّ طَرْفةٍ في صعودكم إلى رُتَب القُرْب وارتقائكم — آمين .

وسمِعت مولانا — أدام الله سعادته — يَسْتَشْكِل قوله — في سَنَد الطريقة المذكورة عن سيّدنا / الحسن بن عليّ رضي الله عنهما — أنه سيّد الأقطاب [52 — ب]
وأولهم ، ويقول : كيف يكون — رضي الله عنْه — سيّد الأقطاب وأولهم ، وقبله الخلفاء الأربعة — رضي الله عنهم — وهم أفضل منه بلا شكّ وأسبق ؟ فكيف لا يبلُغون مرتبة القُطْبانيّة وقد بلغها من هو دونهم ؟ وكيف يكون عصرهم خاليا عن القُطْب الذي لا يخلو منه عصر من الأعْصار ؟ فنقول : قد أقام الله تعالى القُطْب لحفظ نظام العالَم والتصرّف فيه بالوِلاية والعزْل وغيرهما من جميع ما يَعْرِض فيه ، فلا يقع شيء إلاّ بإذْنه وتصرّفه ، غير أنّ تصرّفه في الباطن دون الظاهر ، والتصرف الظّاهري إنّما هو للملوك والأمراء . ومعلوم أنه على عهد رسول الله — صلّى الله عليه وسلّم — كان التصرف الكُلّي له ظاهرا وباطنا ، والنِّظام محفوظ بعدله وسيرته — صلّى الله عليه وسلم — حفْظا لا يقوم به غيره من البشر . فلمّا قبضه الله تعالى وتقلّد الأمر بعده خُلفاؤه الرّاشدون — رضي الله عنهم — اقتفوا سيرته ، واهْتَدَوْا بهَدْيه ، وحفِظوا النِّظام على مُقْتضى ما بيّن لهم من السُّنَن ، وحَدّ لهم من الحدود ، ولم يكُن الوقْت إذ ذاك محتاجا إلى قُطْب لِلاسْتِغْناء عنه بالخلافة القائمة بحِفظ النظام على الوجه الأكمل . فلمّا انقضى أمر الخلافة بانقضاء المُدّة التي عيّنها رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، وصارت مُلْكًا عَضُوضًا كما قال — عليه الصلاة والسّلام — وذلك بنزول الحسن بن عليّ عنها إلى معاوية

— رضي الله عنهم أجمعين — احتاج الوَقْت حينئذ إلى قُطْب يقوم بحِفْظ النِّظام باطنا حيث طَرَقه الخَلَل ظاهرا . ولم يكن في ذلك الوقت أولى بذلك من الحَسَن بن عليّ — رَضِي الله عنه — لكمال فضله وبُنُوّته لرسول الله — صلّى الله عليه وسلّم ، فأقيم بعد نزوله عن الخلافة قُطْبًا يتصرّف في الباطن دون الظّاهر . فلا جَرَمَ كان أوّلَ الأقطاب ، إذْ لم يكن قبلَه إلاّ الخلافة ، وسيّدَهم ، إذ لم يَلِها بعده من هو أفضل منه قطعا . هذا ما ظهر لنا في حلّ هذا الإشكال من غير وقوف على كلام لأحد في ذلك . فمن وقف على نصّ لأحد من الأيِمّة فَلْيُثْبِتْه ، والله تعالى مُلْهِمُ التّوفيق لا ربّ غيره .

ثم وردت عليه في سنة سبع وثمانين من المدينة المنوّرة — على صاحبها أفضل الصّلاة والسّلام — إجازة من الشيخ الصّالح المتصوّف أبي عبد الله محمّد بن عبد الكريم السَّمّان المَدَنِيّ — رحمه الله تعالى . وهي إجازةٌ عامّة بجميع مروياته ومصنفاته وأوْراد وأذْكار لم يحضُرني الآن لفظها فأنقله . وهذا الشيْخ السَّمّان — رحمه الله تعالى — لَقِيتُه عام حَجّي سنة إحدى وثمانين بِداره بإزاء المسجد الشّريف مِنْ شرْقيّه ودخلْت عليه في جماعة من أهل بلدنا وغيرهم . فدعا بالطّعام فأكلنا ، ثم دعا لنا بخير . فلما نهضنا للانصراف اختصّني من بَيْنِهم وأمرني بالجلوس بعدهم . ولم أكُن متميزًا عنهم بِزِيّ الفقهاء ولا أظنّه سَمِع ذكري قبْل أن أدخل عليه — فقال لي : أتروي عني الحديث المُسَلْسَل بالأوّلية ؟ قلت : نعم . فسمعته من لفظه ثم
[53 — أ] أجازني بعد ذلك / بالإجازة العامّة وتُوفّيَ بالمدينة المُنوّرة سنة..........(1)
— رحمه الله تعالى .

وها هنا أشعار أنشدت بمجلس مولانا — أدام الله بقاءه — مدحا فيه عند خَتْمه لصحيح البخاري في ختمات مُخْتَلِفة تُثْبِت منه ما يليق أن يُثْبَت في هذا المحلّ . قال الفقيه الكاتب أبو عبد الله محمد بن أحمد الورغي :

(1) ترك المؤلف عدد السنة بياضا للاستدراك ، وقد حرر الشيخ الكتاني (عبد الحي) في كتابته على الموالد **بالمجلة الزيتونية** (جزء 4 مجلد 2) ان هذا المحدث توفي سنة 1193/1779.

خَتْمُكَ الجَامِعَ الصحيحَ كَرَامَهْ
يَتْبَعُ الْفَوْزُ يَوْمَهَا وَالسَّلاَمَهْ

حَقَّقَ اللَّهُ مَا تَمَنَّيْتَ مِنْهَا
عِزَّةً فِي الدُّنا وَدَارِ الْمُقَامَهْ

دَعْوَةٌ تَمْلأُ الْقلُوبَ ارْتِيَاحاً
وَعَلَى صِدْقِهَا الْخُشُوعُ عَلاَمَهْ

سِيَّمَا وَالْخِتَامُ فِي سلْخِ شَهْرٍ
عَظَّمَ اللَّهُ لِلْعَبِيد صِيَامَهْ

لاَ يُرَدُّ الدُّعَاءُ فيه مُضَاماً
عِنْدمَا يحضر الْمُطِيعُ طَعَامَهْ

ذَاكَ بَحْرُ الْحَدِيثِ لَيْسَ عَلَى مَنْ
ظَلَّ يَرْوِي الْغَرِيب مِنْهُ مَلاَمَهْ

خُضْتَ يَا ابْنَ الْحُسَيْنِ فِيهِ بِجِسْمٍ
وَبِنَفْسٍ بَعِيدَةٍ عَنْ سَآمَهْ

بَعْدَ عَامٍ تَسِيرُ سَيْراً دِرَاكاً
كُلَّ يَوْمٍ بِرِحْلَةٍ فِي إقَامَهْ

تَطْلُبُ الْوَصْلَ مِنْ حَبِيبٍ بِقَوْلٍ
قَدْ أَصَبْتَ وَقَدْ سَمِعْتَ كَلاَمَهْ

لُؤْلُؤاً سِلْكُهُ الْمَسَامِعُ لَكِنْ
طَوَّقَ الرُّوحَ مِنْه طَوْقُ الْحَمَامَهْ

عَدَّ جَمْعُ المِئِينَ مِنْه جَلِيلاً
لاَ يُجَارَى ، وَكَانَ عِزٌّ تَمَامَهْ

كُلُّ لَفْظٍ لِكُلِّ عَقْلٍ حَيَاةٌ
لاَ أَقُولُ كَمَا يُقَالُ مُدَامَهْ

أيُّ شَيْءٍ يَلَذُّ بَعْدَ خِطَابٍ
مِنْ عَزِيزِ الْوُجُودِ فَحْلِ الْقِيَامَهْ

فَاهْنَأ الآنَ بِالْوِصَالِ لِوَقْتٍ
مَوْسِمُ الْفِطْرِ مَدَّ فِيهِ خِيَامَهْ

أتَرَاهُ أَتَى يُهَنِّيكَ عَمّاً
أَوْجَبَ الْحَقُّ أَنْ تَكُونَ إمَامَهْ ؟

فَهْوَ عِيدٌ لَهُ وَجُودُكَ عِيدٌ
عَمَّهُ اللَّهُ بِالرِّضَا وَأَدَامَهْ

أيُّهَا الْمُسْتَجَادُ فِي كُلِّ مَحْلٍ
وَهْوَ فِي الْمُلْكِ فِي مَحَلِّ الْعِمَامَهْ

مَا عَرَفْنَا مِنَ الْكَلاَمِ نَفِيساً
نَصْطَفِيهِ لِجِيدِ تِلْكَ الْفَخَامَهْ

غَيْرَ أنَّ الْكَمَالَ فِي الْفَضْلِ نَزْرٌ
حَازَهُ النَّزْرُ ثُمَّ كُنْتَ خِتَامَهْ

وقال الفقيه المُشاوَر أبو محمّد عبد اللّطيف الطُّوير القيرواني :

حَدِيثُ الْمُصْطَفَى المُخْتَارِ نُورٌ
بِهِ يُهْدَى ، وَتَنْشَرِحُ الصُّدُورُ

إذَا نَرْوِيه يُرْوِينَا فَنَحْيَا
وَتُكْتَسَبُ الْمَحَامِدُ وَالأجُورُ

/ لِقَارِئِهِ وَمُقْرِئِهِ قُصُورٌ [53 — ب]
إذا وَصَفَ اللِّسَانُ لَهُ قُصُورُ

يَزِيد تَأَنُّساً وَيُزِيلُ وَحْشاً
إذَا بِالْوَحْشِ أظْلَمَتِ القُبُورُ

يُسَكِّنُ رَوْعَةً وَيُنِيلُ أَمْنًا
إِذَا بِالْخَوْفِ أَفْئِدَةٌ تَطِيرُ

وَيُورِدُ كَوْثَرًا لِلْحَوْضِ عَذْبًا
إِذَا كَانَ الْقِيَامَةُ وَالنُّشُورُ

يُحِيطُ عَنِ النُّفُوسِ إِذَا دَهَتْهَا
مُلِمَّاتٌ ، وَيَنْجَبِرُ الْكَسِيرُ

وَيَحْمِيهَا مِنْ الأَغْيَارِ طُرًّا
كَمَا يَحْمِي عَنِ الْحَرَمِ الْغَيُورُ

وَفِيهِ صَنَّفَ الْفُضَلاَءُ كُتُباً
بِهَا حَقًّا تَزَيَّنَتِ الْعُصُورُ

خُصُوصًا جَامِعُ السُّنَنِ الْبُخَارِي
إِمَامُ السُّنَّةِ ، الْعَلَمُ الْكَبِيرُ

فَقَدْ جُمِعَتْ بِجَامِعِهِ مَزَايَا
لَهَا قَدْ أَذْعَنَ الْجَمُّ الْغَفِيرُ

تَرَاجِمُهُ تُتَرْجِمُ عَنْ مَعَانٍ
يَحَارُ لِفَهْمِهَا الْحَبْرُ الْكَبِيرُ

وَأَبْوَابٌ بِدَاخِلِهَا قُصُورٌ
مُشَيَّدَةٌ ، وَوِلْدَانٌ وَحُورُ

فَآثَارُ الرَّسُولِ بِهَا تَجَلَّى :
كَوَاكِبُ ، أَوْ شُمُوسٌ ، أَوْ بُدُورُ

إِذَا فِي الْجَدْبِ وَالإِمْحَالِ يُرْوَى
تَصَوَّبَ لِلْوَرَى الْمَطَرُ الْغَزِيرُ

وَمَهْمَا شِدَّةٌ نَزَلَتْ بِقَوْمٍ
فَإِنْ قَرَءُوهُ تَنْكَشِفُ الشُّرُورُ

بِهِ مِنْ كُلِّ مَا مَرَضٍ شِفَاءٌ ،
وَمَوْعِظَةٌ تَلِينُ لَهَا الصُّخُورُ

بِهِ احْتَفَلَ الْوَرَى غَرْباً وَشَرْقاً
وَقَلْقَلَ بِالرِّكَابِ لَهُ الْمَسِيرُ

وَسَادَ بِنَفْعِهِ أُمَرَاءُ سَادُوا
خُصُوصاً مِنْهُمُ الْمَوْلَى الأَمِيرُ

أَبُو الْحَسَنِ الرِّضَا الْبَاشَا عَلِيٌّ
هُوَ ابْنُ حُسَيْنٍ الْمَلِكُ الشَّهِيرُ

أَدَامَ عَلَى قِرَاءَتِهِ فَأَضْحَتْ
عَلَيْهِ حُلًى مَحَاسِنُهَا تَدُورُ

تَرَوَّى مِنْ رِوَايَتِهِ مَلِيًّا
كَمَا يُرْوِي الصَّدَى الْمَاءُ النَّمِيرُ

تَسَنَّمَ مِنْ دِرَاسَتِهِ مَقَاماً
تَخِرُّ لِبُعْدِهِ الشِّعْرَى الْعَبُورُ

مَجَالِسُهُ يُزَيِّنُهَا الْبُخَارِي
فَتَشْرُفُ ، لاَ الْجَوَاهِرُ وَالْحَرِيرُ

وَأَسْفَارٌ لَهُ تُجْلَى بِهَا لاَ
مُعَتَّقَةٌ يَطُوفُ بِهَا الْمُدِيرُ

وَوَصْلُ خِتَامِهِ فِي كُلِّ عَامٍ
بِهِ قَدْ هَامَ ، لاَ الرَّشَأُ الْغَرِيرُ

رَفِيقٌ بِالرَّعِيَّةِ ، ذُو حَنَانٍ ،
نَزِيهُ النَّفْسِ ، مِفْضَالٌ ، وَقُورُ

/ أَخُو حِلْمٍ ، أَخُو عَفْوٍ وَصَفْحٍ ، [54 – أ]
مُجِيرٌ إِنْ أَتَاهُ الْمُسْتَجِيرُ

مُقِيمٌ لِلْجَمَاعَةِ مُسْتَدِيمٌ ،
لِذِكْرِ اللَّهِ لَيْسَ لَهُ فُتُورُ

وَفَيْضٌ لِلْمَوَاهِبِ وَالْعَطَايَا
إِذَا مَا أَجْهَدَ الزَّمَنُ الْعَسِيرُ

مَجَالِسُهُ بِدَرْسِ الْعِلْمِ زِينَتْ
كَمَا زِينَتْ بِحِلْيَتِهَا النُّحُورُ

إِلَهِي بِالنَّبِيِّ وَبِالْبُخَارِي
سَأَلْتُكَ يَا مُدَبِّرُ ، يَا قَدِيرِ

تَقَبَّلْ صَوْمَ هَذَا الشَّهْرِ مِنْهُ
فَتَزْدَادَ الْمَوَاهِبُ وَالأُجُورُ

وَأَعْتِقْهُ مِنَ النِّيرَانِ فِيهِ
فَلاَ يَخْشَى إِذَا لَفَحَ السَّعِيرُ

وَأَسْبِلْ سِتْرَكَ الضَّافِي عَلَيْهِ
إِذَا انْهَتَكَتْ أَوِ انْكَشَفَتْ سُتُورُ

أَنِلْهُ عَلَى الَّذِي أَوْلَيْتَ عَوْناً
فَإِنَّكَ أَنْتَ مَوْلاَهُ النَّصِيرُ

وَأَصْلِحْ بَالَهُ فِي كُلِّ حَالٍ
وَأَرْشِدْهُ إِذَا دَجَتِ الأُمُورُ

وَصُنْهُ وَصُنْ بَنِيهِ مِنَ الْبَلاَيَا
إِذَا مَا حَارب الدهر الْهَصُورُ

وَأَصْلِحْ شَأْنَهُ وَاخْتِمْ بِخَيْرٍ
خِتَاماً مِنْهُ قَدْ حَصَلَتْ خُيُورُ

خِتَاماً كَانَ «بَدْءُ الْوَحْيِ» بَدْءاً (1)
لَهُ ، فَالتَّاجُ كَوْكَبُهُ الْمُنِيرُ

خِتَاماً قَدْ حَوَى شَرَفاً وَبُشْرَى
وَنَشْراً لاَ يُحَاكِيهِ الْعَبِيرُ

تَقَبَّلْ سَعْيَهُ الْمَشْكُورَ مِنْهُ
فَإِنَّكَ قَابِلُ الْعَمَلِ ، الشَّكُورُ

تَجَاوَزْ عَنْهُ وَارْحَمْ وَالِدَيْهِ
وَإِخْوَتَهُ فَأَنْتَ هُوَ الْغَفُورُ

وَمِنْ إِخْوَانِنَا مَنْ غَابَ فَارْحَمْ
وَمَنْ هُمْ فِي مَجَامِعِنَا حُضُورُ

وَهَذَا الْعِيدُ فَاجْعَلْهُ سَعِيداً
يَعُودُ عَلَى الدَّوَامِ بِهِ السُّرُورُ

وَبَلِّغْهُ الْمُؤَمَّلَ فِي بَنِيهِ
وَقَبْرَ الْمُصْطَفَى الْهَادِي يَزُورُ

عَلَيْهِ صَلاَةُ رَبِّي كُلَّ حِينٍ
وَتَسْلِيمٌ تُنَالُ بِهِ أُجُورُ

كَذَاكَ الآلُ وَالأَصْحَابُ طُرّاً
وَمَنْ بِسَنَاءِ سُنَّتِهِ يَسِيرُ

وقال الأديب الكاتب أحمد سمية :

إِنْ رُمْتَ ذِكْراً فِي الْمَوَاطِنِ يُحْمَدُ
وَعُلاَكَ بَيْنَ الْعَالَمِينَ يُخَلَّدُ

(1) يشير الى ان **صحيح البخارى** بدؤه : (باب كيف كان بدء الوحي) ، مع ان الشهر الذي ختم فيه كان بدء الوحي في 17 منه كما في كتب السيرة.

فَالْزَمْ تَقَارِيرَ الْعُلُومِ وَكُنْ بِهَا
مُتَوَلِّعًا فَهْيَ الْمُنَى وَالْمَقْصِدُ
لاَ سِيَّمَا عِلْمِ الْحَدِيثِ فَإِنَّهُ
نُورٌ بِهِ أَهْلُ الشَّقَاوَةِ تَسْعَدُ
/ فَذَوُو الْجَلاَلِ تَوَاضَعَتْ لِجَلاَلِهِ [54 — ب]
وَذَوُو الْكَمَالِ لَهُ تُقِرُّ وَتَشْهَدُ
وَبِهِ الْمَدَارِسِ وَالدُّرُوسُ تَشَرَّفَتْ
شَرَفًا يَقُومُ لَهُ الزَّمَانُ وَيَقْعُدُ
مَا لاَحَ مِنْهُ سَنَا الهُدى فِي مَجْلِسٍ
إِلاَّ وَنِيرَانُ الضَّلاَلَةِ تَخْمُدُ
مَنْ بِالْبُخَارِي لاَذَ نَالَ حِمَايَةً
وَسِيَادَةً مِنْهَا الإِسَاءَةُ تَبْعُدُ
فَلِكُلِّ شَيْءٍ نَافِعٍ فَاسْأَلْ بِهِ
مَا شِئْتَ رَبًّا فَضْلُهُ لاَ يُجْحَدُ
حَرَسَ الإِلَهُ ابْنَ الْحُسَيْنِ بِفَضْلِهِ
وَحَمَاهُ حَتَّى مَا بِسُوءٍ يُقْصَدُ
وَأَعَانَهُ وَأَطَالَ مُدَّةَ مُلْكِهِ
وَأَنَالَهُ الآمَالَ وَهْوُ مُؤَيَّدُ
وَكَسَاهُ ثَوْباً كَامِلاً مِنْ سِتْرِهِ
وَأَدَامَ نِعْمَتَهُ لَهُ تَتَجَدَّدُ
لاَ زَالَ يُبْدِي كُلَّ عَامٍ هَكَذَا
بِحَدِيثِ خَيْرِ الْخَلْقِ نُورًا يُوقَدُ
لَمَّا تَجَلَّى فِي الْجَلاَلِ خِتَامُهُ
أَرَّخْتُهُ : (خَتْمٌ جَلِيلٌ يُحْمَدُ)

1175

وقال أيضا :

يَا خَلِيلَيَّ عَلِّلاَنِي بِيَوْمٍ   هُوَ لِلْخَلْقِ بَهْجَةٌ وَانْتِظَامُ
مَا دَرَيْتُ السُّرُورَ فِيهِ لأَمْرٍ   هُوَ فِي الْحَالِ يَقْظَةٌ أم مَنَامُ
حَدَّثَانِي بِوَاصِلٍ عَنْ عَطَاءٍ   يُنْبِتُ الزَّهْرَ طَلُّهُ والغَمَامُ
ذَكِّرَانِي الحَدِيثَ فِيهِ بِوَصْلٍ   هَاجَنِي بِالْحَدِيثِ عنهُ الغَرَامُ
يَارَعَى اللَّهُ لِلإِمَارَةِ خَتْماً   فَهْوُ لِلْمُلْكِ عِزَّةٌ وَدَوَامُ
أيَّ بَدْءٍ بَدَا الأَمِيرُ وَيَوْمٍ   حِينَ أَرَّخْتُ:(فِيهِ جَاءَ الخِتَامُ)

وقال أيضا :

بُشْرَى لِبَيْتٍ بِهِ آيِ الْهُدَى اتَّصَلَتْ
وَعَنْ جَوَانِبِهِ الأَذْكَار مَا انْفَصَلَتْ
بِهِ شُمُوسُ عُلُومِ الدِّينِ مُشْرِقَةٌ
فِي كُلِّ يَوْمٍ مدَى الأَيَّام ما أفَلَتْ
حَدِيثُ أَحْمَدَ خَيْرِ الْخَلْقِ بَهْجَتُهُ
فِي الدَّرْس من حُسْنِها شَمسُ الضُّحَى خَجِلَتْ
فَسِرُّهُ سَارَ بَيْنَ الْعَالَمِينَ فَمَنْ
دَعَا الإِلَهَ بِهِ حَاجَاتُهُ حَصَلَتْ
مَنْ أَمَّ أَبْوَابَهُ لَبَّاهُ مَقْصِدُهُ ،
وَالْمُشْكِلاَتُ مِنَ الأَشْيَا لَهُ سَهُلَتْ
طُوبَى لِمَنْ بِتَعَاطِيهِ لَهُ شَغَفٌ
وَنَفْسُهُ بِسَنَا عَلْيَائِهِ اشْتَغَلَتْ
مَا لاَذَ ذُو أَلَمٍ يَوْماً بِجَانِبِهِ
إِلاَّ وَآلاَمُهُ عَنْ جِسْمِهِ اعْتَزَلَتْ
[55 — أ] / إِذَا تَوَجَّهَ سُلْطَانٌ لَهُ وَجَرَتْ
بِالْعَدْلِ أَحْكَامُهُ أَيَّامُهُ اعْتَدَلَتْ

مُجَرَّبٌ لِنُزُولِ الْغَيْثِ ، مُزْنَتُهُ
إِذَا دَعَا النَّاسُ مَوْلَاهُم بِهِ نَزَلَتْ

يَا مَنْ لَهُ فِطْنَةٌ فَاقَ الْمُلُوكَ بِهَا
وَهِمَّةٌ فَعَلَتْ مَا زَانَهَا فَعَلَتْ (1)

وَمَنْ سَجِيَّتُهُ طَابَتْ وَسِيرَتُهُ
عَلَى الْهُدَى وَالتُّقَى وَالبِرِّ قَدْ جُبِلَتْ

وَمَنْ لَهُ خُلُقٌ فِي الْخَلْقِ مُمْتَدَحٌ ،
وَمَنْ مَكَارِمُهُ كُلَّ الْوَرَى شَمِلَتْ

لَكَ الْهَنَاءُ بِأَنْوَارِ الْحَدِيثِ عَلَى
جَمَالِ وَجْهِكَ كَالْبَدْرِ الْمُنِيرِ جَلَتْ

حَلَّتْ بِقَلْبِكَ لَمَّا جُلْت روضته
هِدَايَةٌ منه مَا زَالَتْ وَمَا انْتَقَلَتْ

بِفَضْلِهِ زَانَكَ الْمَوْلَى وَصَانَكَ ، لَا
تَخْشَى الإِسَاءَةَ فَالأَسْوَا قَدِ ارْتَحَلَتْ

دَامَتْ أَبَا الْحَسَنِ الْبَاشَا سُعُودُكَ فِي
طَوْعٍ بِهِ كُلَّمَا أَمَرْتَهَا امْتَثَلَتْ

فِي يَوْمِ خَتْمِ الْبُخَارِي حَال تهنئة
أرخ : (أحاديث صبح الأنبيا كَمُلَتْ)

[الحكمة الخلقية واثرها فى السياسة]

وَمِنْ حِكْمَتِهِ الْخُلُقِيَّةِ سياسته لأهل منزله وأهل بَلَده ومملكته — إذْ ذاك داخل في مُسَمَّاها كما مرّ .

(1) فعلت الأولى من الفعل ، والثانية ، الفاء فيها سببية وعلت من العلو.

فأمّا سياسته لأهل منزله فقد أخذهم بما أخذ به نفسه من الطّاعات ، والمحافظة على الصَّلَوَات ، والأذْكار وقراءة القرآن في المصاحف ، وقراءة دَلائِل الخيرات ، والرّحمة لخلق الله تعالى ، والشَّفَقَة عليهم ، وكَثْرة الصَّدقات والإحْسان ، فَبِكُلّ دار من دياره العامرة صدقاتٌ راتبة لِنِسَاءِ مَسْتُورات ، جارِيَة عليهنّ على الدَّوام سيأتي تفصيلها — دون ما ليست بِراتبة مما لا يحصُره العَدّ — وكَفالة اليتامى وتَرْبِيتهن وتزويجهن إذا بَلَغْن أمَدذلك ، وتجهيزهن بأحسن الجِهاز مما يُجَهِّز به ذوو البُيوتات بناتهم . هذا هو الدَّأب ، لا تخلو دار من دياره العامرة من عدّة يتامى يفعل بهنّ ما ذكرنا ، إلى قَبُول الشَّفاعة في أهل الجرائم ، والتوسّط لطُلاَّب الحاجات والأرزاق فتجري على أيديهن بذلك خيرات كثيرة .

ولقد اعتنى بتهذيب أبنائه السُّعداء — حفظهم الله تعالى — وتقويمهم في صغرهم فَضَمَّني إليهم سنة ست وثمانين لتعليمهم العلم الشريف ، فشرعوا يقرءون عليّ العربيّة وضمّ إليهم إمامه الشّيخ الأجلّ الفاضل أبا محمد حمّودة ابن باكير يعلمهم الفقه على مذهبهم الحَنَفيّ الزكيّ . وعليهم من مخائل الرئاسة ، وأمارات الإقبال ، وعلامات النَّجْدة ، والشهامة ، والكرامة ، وعلوّ الهمة ، وكِبَر النفس ، ما أبرزه الغيب . وفيهم أقول إذ ذاك من جملة قصيدة ستأتي بتمامها — إن شاء الله تعالى — في محلّها من هذا الكتاب (1) .

وَمَا ضَاهَاكَ فِي كَرَمٍ وَمَجْدٍ ... سِوَى أَبْنَائِكَ الشُّمِّ الْفِخَامِ
/ رُوَيْدًا يَبْلُغُونَ الْحُلْمَ تَنْظُرْ ... عِدَاكَ تُصَابُ بِالْمَوْتِ الزُّؤَامِ [55 — ب]
سَتُبْصِرُهُم إِذَا رَكِبُوا وَسَارُوا ... تَضِيقُ الأَرْضُ بِالجَيْشِ اللُّهَامِ
فَدُمْتَ لَهُمْ وَدَامُوا كَالثُّرَيَّا ... نِظَامًا مَا تَدَاعَى لانْفِصَامِ
وَلَا زَالَ الْحَسُودُ لَهُمْ وَفِيهِمْ ... يَبِيتُ عَلَى فِرَاشٍ مِنْ ضِرَامِ

وَلَقَدْ عَوَّدَ ابْنَهُ الأَسْعَدَ المَصون مولانا محمّد المأمون — أعزّه الله تعالى — أنّه كلّما دخل عليه وعنده أحد من الفقهاء أعطاه جملة من الدنانير ويأمره

(1) محلها بالمقامة الحمرية الآتية في ختام هذا الجزء.

بتفريقها فيهم حتى صار دَيْدَنًا له ، وذلك من سياسته – أيّده الله تعالى – لمّا رأى طَبْعَه الكريم مائلا إلى الجود والسّخاء جرّأه على ذلك بتعويده مُتابعة العطاء للفقهاء وغيرهم ، حتى جاء أكرم من السَّيْل . ولمّا تأهّل كبيرهم وأفضلهم مولانا أبو محمد حمّودة باشا – نصره الله تعالى – لِلإمارة ، وكان خليقا لها وأهلَها ومحلَّها ،

ولم تك تصلح إلا له   ولم يك يصلح إلا لها

قلّدَه قَوْدَ الأجناد ، وإمْرَة العساكر ، وفوّض إليه أمْر الجِبايات ، فقام بأعباء ذلك أتمّ قِيام ، حسبما شرحنا الخبر عن ذلك فيما مرّ .

وأما سياسته لأهل بلده وأهل مملكته فقد سار فيهم سيرة لم يسلُكها أحد من أهل هذه الأعصار ، من لِين الجانب ، وسهولة الحجاب والعفو عن الجرائم ، والصفح عن الزّلاّت ، والكفّ عن الدماء والمَحارم ، ورفع الظُّلامات ، والتّفقّد لأحوال الضُّعفاء ، وسدّ خَلّتهم ، واستمالة القلوب بالإحسان ، والأخذ من القويّ للضّعيف ، والتزام أحكام الشريعة المُطَهَّرة ، وحمل الكافّة من الخاصّة والعامّة عليها فيما يجري بينهم من المعاملات ، لا فرق في ذلك بين وزير مقرب ، وصُعْلوك مُسْتَضْعَف ، وبلغ بلين الجانب والرِّفق والحِلم مبلغا [من طاعة الرعيّة وانتظام أحوالهم ، وأمْن طُرُقاتهم ، وصِيانة أموالهم ما] (1) لم يَبْلُغه غيره بشِدّة سَطْوته ، وثِقل وطْأته . وسيأتي كثير مما يتعلق بهذا الفصل في الكلام على بيان حِلْمه وعِفّته وكرَمه .

ولمّا استقرّ أخوه المَوْلى محمّد باي – رحمه الله تعالى – على سرير المملكة بتونس بعد علي باشا وَرَآه قَدْ أرْهَفَ حَدّهُ لِلانتقام من أعداء الدولة قال له : «إنّك إن حَمَلْتَ النّاس على طاعتك بشِدّة السّطوة لم تصنَع شيئًا لأن علي باشا قد سلك هذه الطّريق قبلك وبلَغ الغاية منها فان قَفَوْتَ أثَرَه قَصّرت عنه لا محالة ، وجَرّأتَ النّاسَ عَلَيْك فاترك ذلك ، واسلك طريق الإحسان إلى النّاس واستمالة قلوبهم بالتودُّد إليهم فانك تبلُغ ما تريد منهم

(1) الزيادة من : ز ، ح.

مع حسن السُّمعة وجميل الثّناء والسّلامة من عِقاب الله تعالى . فعَلِم صواب قوله وعفا عن النّاس كافة . فلما ملك مولانا – أدام الله ملكه – بعده سلك هذه الطريق ، وبلَغ فيها الغاية التي ما وراءَها غاية كما هو مُشاهَد بالعيان ومنقول بالتواتُر .

[بسطة عن نظام القضاء]

[56 – أ] أمّا إقامة الشريعة وإجراء أحكامها وتنفيذها على كلّ أحد / والوقوف عند حُدودها في جميع ما يجري بين الناس في الدّماء والقِصاصات والأنكِحة وسائر العقود والمُعامَلات ، فأمر اختُصّ به المَغْرِب عن سائر البلاد ، واختصّت به إفريقيّة عن سائر المغرب ، فلا تجد بلدا تقام به مراسم الشريعة إقامتَها بالمملكة التّونسيّة من لَدُنْ عهد المَوْلى الأمير (1) – رحمه الله تعالى – فقد كانت القضاة تَرِد من الحَضْرة العُثْمانيّة – حرسها الله تعالى – ولا هَمّ لهم إلاّ جمع الدّراهم لأنّهم يلتزمونها التزاما بالمال لطالب الفائدة كما هو الشّأن في سائر المملكة العُثمانية (2) ، ثم يُرْهقون النّاس بما يأخذونه منهم على ما يَكْتُبونه من الأحكام في الرُّسوم المُحْتاجة إلى حُكم القاضي وعلى قَسْم التّركات بَيْن الوَرَثة بل على مُجَرّد موت مُوَرّثهم واستحقاقهم الميراث ، وعلى غير ذلك من الأمور المتوقّفة على تنفيذهم . فلَمّا رأى المولى الأمير كَثْرة عَسْفهم وتطاوُلهم إلى أموال الناس حَدّ لَهُم حُدودا رَدّهم إلَيْها فيما يَأخذونه على تنفيذ أحكامهم عَلَى حَسَب القَضَايا لا يتجاوزونها إلى ما فوقها ، وكان ذلك غير مُجْحِف بالنّاس . ومع ذلك فَفَصْل القضايا وإجراؤها عَلَى مَناهِج الشّرْع ، مُفَوّض إلى قاضي الجماعة المالكي ، والمُفْتين من المالكية والحَنفيّة ، ولا تَصَرُّفَ لأولَئك القُضَاة إلاّ في تنفيذ ما يَحْكُم به هؤلاء المتصدّرون لإقامة مراسِم الشّريعة ،

(1) يعني به حسينا بن علي والد المتحدث عنه.

(2) هذا مظهر من مظاهر الانحطاط في تركيا سرى مفعوله الى ممتلكاتها في ذلك العصر يجدر بالدارس ان يلاحظه.

واستمرّ الأمرُ على ذلكَ بقيّةَ دولتِه . وصدرًا من دولةَ
عليّ باشا ، فطلب من الدّولة العليّة إبطال هؤلاء القضاة الواردين
من قِبلها . فأجيبَ إلى ذلك ، وأقام قاضيًا حنفيًا من قِبله منفذا
للأحكام ، أحدَ أهلِ البلد ، ورسَم له أنْ لا يأخذ من أحد شيئا إلاّ ريالا
وربُع الرّيال على ما يكتبه بخطّه من الأحكام في الرُسوم ليس غير . واتّصل
ذلك إلى دولة مولانا — أدامها الله تعالى — فأبطل أخذ الدراهم على الحُكم
جملة ، ومنع القاضي الحنفيّ من ذلك — سواء كتب الحُكم بخطه أو لم
يكتب . وعاقب من بلغه عنه منهم أنه يأخذ على ما يكتبه ، واعتنى بأحوال
القضاة والمُفْتين باحثا عن سرائرهم ، متتبّعا لما يصدر عنهم من الأحكام ،
وعزل جماعة منهم لم يُحْسنوا السِّيرةَ ، واستبدل بهم غيرهم . وباشر
فصل القضايا الشرعية بنفسه الكريمة في مجلسه العليّ ، فإن القانون بالحضرة
— حرسها الله تعالى — أن يجلس القاضيان الحنفيّ والمالكي بالمحكمة الشرعية كلّ
يوم من ارتفاع الشمس إلى قرب الزّوال ، ومن بعد صلاة العصر إلى قرب
الغروب ، فيُمْضيان ما خفّ خطْبُه من القضايا ويُرْسلان بما أشْكل
عليهما الى المفتين من المذهبين فيقضون فيه ، وما أعضل أمره من القضايا
يبقى إلى يوم المجلس . وهُمَا مجلِسان أحدهما يقع عشيّ الأحد عند مولانا
— أيّدَه الله تعالى — بقصره من باردو — صانه الله تعالى — يحضُره المُفْتُون
والقضاة قاضيا الحضرة الحنفيّ والمالكيّ / وقاضي باردو ، ولا تنفصل القضايا فيه [56 — ب]
إلا على وجهها . وقد يقع الخلاف بين الأشياخ في القضيّة ، أو يُشْكل عليهم
وجه الحق فيها ، فيؤخّرون القضاء فيها إلى ان يظهر لهم الوجه . فربّما تردّدت
القضيّة الواحدة الأشهر العديدة حتى تنفصل على صميم الحقّ ، أو على صلح
يرتضيه الخصمان . ومولانا — أيده الله تعالى — يُشاركهم في النّظر ويتفهّم
المسائل على وجهها فلا تنفصل القضية إلاّ وهو عالم بوجه الحقّ في انفصالها .
والمجلِس الثاني يقع ضُحى يوم الخميس بمحكمة الدّاي لا يتخلّف عنه إلا
قاضي باردو . ثم لمّا رأى مولانا — سدّدَ الله رأيه — كثْرة الخصومات
وتشعّبها زاد مجلسا ثالثا يوم الثّلاثاء بالمحكمة الشرعية . وإذا حضر الخصْمان

محكمة القاضي في غير المجلس وحكم على أحدهما وطلب الحضور لدى
مجلس من المجالس أجابه إلى ذلك ، ولاَ ينفُذ الحُكم عليه إلاّ في المجلس
— اللّهم إلاّ أن يكون الحكم من الواضحات التي لا لبْس فيها أصْلا — وهذا
كله لتحرّي العدل والإنصاف فيما بين الناس ، لأنه يبعد كل البعد اتفاق ستّة
أو سبعة من العلماء — قد تُخُيِّروا من بين سائر علماء البلد عِلما ودينا —
على الجوْر عمْدا أو خطَأ . ثم إذا توجّهت دعْوى على أحدٍ كائناً
منْ كان — ولو كان من أخصّ الوزراء — ألْزم بالحُضور لدى الشّرع .
فإن كان ممّنْ يتحاشى عن الخصام بنفسه أقام نائبا ، فإن ثبت الحق عليه
أعطاه . ولقد حضر رجل يوما مجلس مولانا الشرعيّ ووجه عليه — أعزّه
الله تعالى — دعوى شرعيّة وطَلب منه النّصَفَة بمقتضى الشّرع ، فأقام — أيّده
الله تعالى — وكيلا في المجلس ناب عنه في الخِصام مع الرّجل ، وأدْلى كل
واحد منهما بحُجّته ، فكان الحقُّ لمولانا ولم يَثْبُت لذلك الرّجل حقّ .
فقال — أيّده الله تعالى : « ودِدْت لو كان الحقُّ له فأعطيته إياه » .

وأما حكمه الصّادر منه — أيّده الله تعالى — في قضائه بين رعاياه ، وتنفيذه
لأمور ملكه ، وإبرامه لمصالح مملكته فله في ذلك طريقة غريبة ليست لأحد من
الملوك غيره ، من جلوسه العامّ للخاصّة والعامّة ، وسهولة حِجَابه — بل تركه
جُمْلة فلا يُصَدّ عنه أحد رام الدخول إليه — وإصغائه لكلّ متظلّم ،
وأخذه النّصَفَةَ من كُلّ ظالِم في جَميع مَا يَجْري بين الرّعايا ،
واستمرار ذلك كل يوم على الدّوام لا يكاد يتخلّف يوما واحدا .

ولنذكر ترتيب أحواله اليوميّة المُنْدَرِج فيها ما ذكر زيادة في الفائدة ،
فنقول : قد جرَتْ عادته — لا قطَعها الله تعالى — أن يُصَلّي كل يوم الصّبحَ
في الوقت جماعة يؤُمّه إمامه ، ويشهَدها معه الفقهاء الذين تكون نوْبتهم في
المبيت عنده ومماليكه ومؤذّنوه ، ثم بعد الانصراف من الصّلاة والفَراغ من
الدعاء يُسلّمون عليْه وينصرفون فيجلِس للذّكر وقراءة الورد إلى أن
تمْضِيَ ساعة من النّهار أو نحوُها ، فيخرُج إلى محكمته السّامية . فإذا

استقرَّ على كُرْسِيِّه دخل عليه خاصّة وزرائه فيقبِّلون يدَه ويأخذون مواقفهم .
ثم يأذَن لباقي النّاس ويفعلون فعل مَنْ قبلهم / من تقبيل يده والوقوف . [57 — أ]
ولا يجلس في محل الحكم إلاّ الكُتّاب فإنهم يجلسون على مصاطِب معدّة
لهم مترتبين . ثم إن كان هناك وفود من العرب أو مِن أعيانِ الحواضر
دَخلُوا فقَبّلُوا يَدَهُ وانصرفوا . فإذا تَمَّ سلام الناس عليه طِيفَ عليهم
بصُحُون الحَلْوَاء ، وبعدها فنَاجِين القهوة ، ثم ينادي رئيس الحانبة :
(يا سعد) وذلك علامة على الإذن في دخول المتظلّمين وأهل الشّكايات فلا
يحجب عنه فقير مُسْتَضْعَفٌ ، ولا شيخ عاجز ، ولا امرأة قاعدة . ولا
بَدَوِيّ جَافٍ ، فيُنْهِي كُلّ أحدٍ ظُلامتَه ويَتَكَلّمُ كَيْفَ شاء بذات
صَدْره من غير زَجْر ولا إزْعاج ، ورئيس الحانبة واقف بين يديه يَتَلَقّى
كلامهم . فما كان من الظلامات ظاهر الحكم متكرر الأمثال نَفّذه من غير
استئمار ، وغيره يأمر فيه مولانا — أعزه الله تعالى — بأمره . والكتّاب
يكتبون ما يصدر منه من الأحكام إلى العُمّال ورؤساء النّواحي . وقد أذِن
— أيّده الله تعالى — لجماعة من النّساء ثمان أو نحوهن أن يدخلن كل يوم إلى
محكمته السّامية فيُبْلغن إليه ظُلامات مَنْ لا يستطيع الإبلاغ من المسجونين
والنساء الْمُخَدّرَاتِ وَغَيْرِهم مِنْ كُلّ مَنْ يَمْنَعُه من الحضور بنفسه
مانع ، وقد اشتهر أمر هَؤُلاء النّسوة وعرفهُنّ الناس ، فهم يَقْصِدونَهُنّ
بحاجَاتِهم ، ويطُفن كلّ يوم على السجون لتلقّي حاجات أهلها . وقد
حَصَل لهنّ تَمَرّنٌ على إنهاء الظّلامات وكيفيّة أدائها ، وتُقْضَى على
أيديهن حاجات لا تكاد تُقْضى على أيدي الوزراء ، ويحصل لهنّ بذلك نَفْع
واكتساب من النّاس . ومع ذلك فهو — أيّده الله تعالى — يتفقدهُن بِصَدَقاته
وقتا بعد وقت . ومن الغريب أنه لا يحجب عنه إذا جلس في مجلس الحكم
السّؤّال الطالبون للصّدقات فيدخل عليه كلّ يوم من يدخل منهم ويقف بين
يديه في صورة المشتكي من الضّرورة والحاجة ، فيَأمُرهم أن يجلِسوا في
زاوية من زوايا المحكمة حتى إذا اجتمعوا قُرْب انفصاله عن الحكم أتاهم
مملوك صغير فيُفرّق فيهم ما أمر لَهُم به . ولا يزال جالسا بمجلس حُكمه

ينفّذ أوامره إلى أن لا يَبْقى مُشْتَكٍ ولا صاحب ظُلامة . وقد يطول ذلك
حتى يَضْجَر أهل المحكمة من الوقوف . فإذا لم يبق أحد نادى رئيس
الحُجّاب : (العافية) رافعا بها صوته . وذلك علامة على انتهاء الحكم .
فتنصرف الناس . وينهَض هو — أعزّه الله تعالى — من مجلس حكمه . فيطوف
على ديار أهْلِه ثم يخرج إلى مكان من أماكن جلوسه فيستدعي خاصة كتّابه
فيجلسون ويسرد عليه أحدهم جميع ما كتب في ذلك اليوم من الأوامر
والتذاكر ، وهو يصغي إليه يسمع كل ما فيها فيجيز منها ما وافق الحكم
والصّواب ، ويأمر بتمزيق ما خالف ذلك . ويلقي طابعه المبارك إلى صاحب
الطّابع فيطبع ما أجيز منها وتُفَرّق على أصحابها . ثم يؤتى بالْغَدَاء وذلك
عند الزوال فيتغدى معه جماعة عشرة فما دون / من خاصّة كُتّابه وبعض [57 — ب]
خدّامه وأكابر الأعراب فيباسطهم ويُقَرّبُ بيده إلى كُلّ واحد منهم ما
يعرف أنه يشتهيه من الألوان . وربما اشتهى أحدهم اللّون من الطعام فلا يكون
حاضرا فيَأمر أن يُصْنَع له من الغَدِ ويُقَرّبُه اليه . فإذا انقضى الغداء
انصرفوا ، فيدخل إلى محل استراحته فينام قليلا ، ثم يُفيق فلا يدخل إليه أحد
إلاّ من كانت له حاجة مُهِمّة ، أو يستدعيه هو . إلى أن تبقى ساعة للعصر
فيتوضأ ويستدعي الإمام والفُقهاء أصحاب نَوْبَة المَبِيت فيُصَلّون الظهر ثم
يجلسون لقراءة صحيح البخاري . فإذا فرغوا من ذلك صلوا الْعَصْر لأوّل
الوقت وانصرفوا .

وقد جرت العادة في جميع الممالك العثمانية — حرسها الله تعالى — بِضَرْب
النُّوبة بعد العصر ، وهو قانون قديم من عهد السلطان عثمان جدّ هؤلاء
السّلاطين — أدام الله دولتهم — وأول قائم منهم . وذلك أنه لما انحاز إلى
ناحية الروم في قضيّة طويلة ومعه جَيْشٌ مِنَ التُّرْكمان استأذن السلطان
غياث الدين السّلْجُوقي صاحب بلاد الروم في غزو الكُفّار ، فأذِن له في
ذلك فغزاهم وافتتح قلعة قُولْجه ، وقلعة إينَهْ كُول ، وأَرْسَلَ بِذَلِكَ
إلى غِيَاثِ الدّين ، فَسَرّه ذلك وقَلّده ولاية إسْكِي شِهْر ونواحيها ،
وما افتتحه من بلاد الكفر ، وأرسل إليه بالخِلع السلطانية والرّايات والكُوسَات

والطُّبول وغيرها من آلات النُّوبة ، فانتهى إليه ذلك عند صلاة العصر . فقام قائما على قدميه تعظيما للأمر ، وضربت النُّوبة على بابه وهو قائم ، فاستمرَّت نوبة العصر في آل عثمان إلى يومنا هذا ، قد اتخذوها قانونا لهم ولجميع عُمّالهم . وكان ذلك سنة تسع وتسعين وستمائة (1300/699) وهي مبدأ ملكهم . ثم لم يزل أمر السلطان عثمان وبنيه بعده يعلو وأمر الدولة السَّلْجُوقيّة ببلاد الروم يَضعف ، إلى أن تَمَلَّكوا البلاد وكان منهم ما هو مشهور . فإذا فُرِغَ من نُوبة العصر بباب مولانا – أدام الله سعادته – جلس ببيته المسماة ببيت الباشا لديوان العصر ، فيدخل عليه خاصّته وأتباعه فيقفون بين يديه صَفَّين إلاّ الكُتّاب يجلسون على عادتهم في أعلى البَهْو ، فيطاف عليهم بفناجين القهوة ، ثم قد يَفْصل في هذا المجلس بعض القضايا التي لم يحضر المطلوب فيها زمن الحكم . وفي يوم الأحد يكون الديوان بحضور المفتين والقُضاة لفصل القضايا الشرعيّة . فحين يدخلون عليه يقوم لهم قائما على قَدَمَيْه تعظيما لهم فيسلّمون عليه ويقبّلون كتفه فينحني لكل واحد منهم ويضُمُّه بيده ، ولا يأذَن لهم في تقبيل يده – إجلالا وتعظيما للعلم وتواضعا – بل لا يأذن في ذلك لغيرهم من العلماء بل بعضهم يقبّل كتفه وبعضهم يصافحه مصافحة . ثم يجلس فقهاء الحَنَفيّة عن يمينه والمالكيّة عن يساره بأعلى
/ البَهْو ويُؤْذَن للخُصوم في الدُّخول ، ويشرعون في القضاء إلى قرب المغرب ، [58 — أ]
ويبيتون عنده تلك الليلة لا يحضُرها غيرهم حتّى الإمام بل يَؤُمُّه أحَدُهم . وبعد انقضاء ديوان العصر يَطُوفُ عَلَى دِيارِهِ الْعَامِرَةِ أيضا ، ثم يخرج فيستدعي مَنْ يريد إن شاء . فإذا دخل وقت المغرب استدعى إمامه والفقهاء فيصلّون لأوَّلِ الوقت ويخرُجون فيجلس للذكر وقراءة الوِرْد إلى وقت العشاء . فيستدعي الإمام والفقهاء أيضا ، فيجلسون معه للمُسامرة والقراءة كما تقدّم إلى أن تمضيَ قِطْعَة من اللّيل أربع ساعات أو خمس أو أقل من ذلك أوْ أكثر بحسب ما يقتضيه المجلس . ثم ينهض فيجدد الوضوء ويخرج إليهم فَيُصَلُّون العِشاء الأخيرة وينصرفون إلى مَضاجعهم . هذا هو الدَّأب

في الحَضَر والسَّفَر حتى لا يُتْرَك في أيّامِ الزِّيارَة والخَلاعَة إلاّ في النادر مِنَ الأيّام لعروض ركوب أو نحوه .

وأما ترتيب العيد فقد جرَت العادة بالاحتِفال لِيلَتَي العيدَين فيحضُر أهل الدولة جميعا عَشيَّةَ ليلة العيد وبعض الفقهاء فإذا صُلِّيَتْ المَغْرب مُدَّ السِّماط بأنواع الأطْعِمة ونفائس الألوان فيجلس مولانا – أعزّه الله تعالى – في الصّدر ويجلس معه جميع الحاضرين . فإذا طَعِمُوا انْتَشَرُوا . ثُمَّ تجلس طبقة أخرى دون الأولى في الرُّتبة فإذا فرَغُوا جلست طبقة أخرى ، وهكذا إلَى أنْ لا يَبْقى أحد إلاّ طَعِم ، حتى تنتهِي النَّوْبَةُ إلى السائلين فيخرج إليهم بالصحاف مملوءة طعاما . ثمّ بعد بُرْهة يجلس – أيّده الله تعالى – بِبَهْوِه ويجلس عن يمينه وعن شِماله الفُقَهاء والكُتّاب . ويقِف حوله الخَوَاصّ من أصحابه ، ويَصْطَفّ باقي الناس صَفّيْن عن اليمين وعن الشمال وقد أوقِدَت الشّموع ، وأُتِيَ بِالْمَجامِر فيها الطِّيب الْمُسَمّى بطوابع العَنْبَر المصنوع من العنبر والعُود والزَّبَاد والمِسْك الغريب الرائحة الذي لا يُصْنَع إلاّ بتُونِس فيما علِمنا . يحملها غِلْمان الفَرَنْج ، ولا ينقطع ذلك إلى تمام المجلس . ثم يَدْخُل المُغَنُّون من التُّرك بآلاتِهم التركية فيُغَنُّون بلسانهم التّركيّ بُرْهة ثم يقومون ، فيدخل بعدهم المُطْرِبون والمُغَنّون بالغِناء العربيّ فيضربون على آلاتهم البديعة ويُغَنّون بُرْهة أيضا ، ثم ينفضّ الموكِب وينهَض – أعزّه الله – إلى محلّ خَلَواته ويستدعي أهْل سَمَرِه من الفُقَهاء والكُتّاب فيجلسون معه ويخْلَع عليهم ويُفيض إحسانه لديهم . هذا والنّوبة تدقّ بمكان مُعَيَّن من القصر اللّيْل كُلّه ، فإذا أصبح الصّباح خرج إلى صلاةِ الصُّبح ثُمَّ يجلس بِبَهْوِه ويجلس حوله المذكورون ويُؤْتى بأنواع الحَلَويَاتِ المُلوكيّة فيأكلون معه ويشربون القهوة ، ثم ينهض إلى صلاة العيد فيخرج من قصره في ترتيب عجيب والنُّوبة تدق خلفه حتى يدخل الجامع فيصلّي في المقصورة المُعَدَّة له . ثمّ يخرج فيجلس على كُرْسيّه بمحكمته السّامِيَة فيسلّم عليه وزراؤه وخواصّه وكُلٌّ من
/ شَمِلَتْه باردو المعمورة فلا يَتَقَضّى سَلاَمُهم حتّى تَصِلَ أعيان الناس [58 — ب]

من الحَضرة من الفقهاء وأكابر البَلَد . فإذا انقضى سلامهم وُضِع له كُرْسيّ بأعلى دَرَج البُرْج فيخرج ويجلس عليه ، ويأتي البَلْهَوَانات المُصارعون فيتصارعون أمامه وهو ينظر إليهم — عادة قديمة للترك — ثم يدخل إلى قصره فيدخل إليه المُفْتُون والقُضاة فيُسلّمون عليه ويختصون بذلك المجلس ترفيعا لهم عن مساواة غيرهم ، وفي اليوم الثّاني يَصِل عامّة أهل البلد مع مشايخها ثلاث طوائف : فأهل المدينة مع شيخ المدينة ، وأهل رَبَض باب السُّوَيْقَة مع شيخهم ، وأهل ربض باب الجزيرة مع شيخهم . وفي اليوم الرّابع يصل إليه الداي في الاخْتيارية والجاوشية . فإذا دخلوا عليه قام لهم قائما فيقبّل الداي كتفه ويدَه ويقف ، ثم تقبل الاخْتِيارِيّة يدَه وهو قائم ، فإذا فرغوا جلس وأجلس الداي إلى جانبه وأمر الباقين بالجلوس . ثم يُقَبّل الجاوشيّة يده وهو جالس ثم يعيد السّلام عليهم وهم جلوس فيحيّونه رافعين أصواتهم بالدّعاء بلسانهم التُّركي فترتفع لهم بذلك ضَجّة ثم يُطاف عليهم بالأشربة في صِحاف الصينيّ والبِلَّوْر والفِضّة ثم بِفَنَاجين القهوة ، ثم يُطَيّبون بماء الورد المكرّر ومجامر الطَّوابع وينصرفون .

وللشعراء مدائح عيدية تُنْشَد لِيَالِيَ الأعياد بحضرته — أيّده الله تعالى — نذكر منها ما يليق أن يُثْبَت في هذا المَوْضِع . فمن ذلك قول الأديب البارع عليّ الغُراب الصفاقسي :

يَا مَلِيكاً أَثْنَتْ عَلَيْهِ الأَيَادِي
عَادَ كُلٌّ بِهَا كَقُسّ الإِيَادِي (١)

عِشْ هَنِيئاً لِكُلّ عِيدٍ مُعَادِ
وَاسْمُ عِزّاً وَدُمْ لِيَوْمِ الْمَعَادِ

مَنْ بِعِيدٍ غَدَا يُهَنّيكَ هَنّا
بِكَ عِيدَ الْوَرَى وَكُلُّ الْبِلاَدِ

(١) قس بن ساعدة بن عمرو خطيب العرب وحكيمها ومضرب امثالها في الفصاحة.

إِنَّمَا الْعِيدُ بَيْنَ أَيَّامِ الأَعْوَا
مِ كَمِثْلِ الأَمِيرِ بَيْنَ الْعِبَادِ

ذِي الْمَعَالِي عَلِيّ بْنِ حُسَيْنٍ
مَلِكٌ سَارَ فِي طَرِيقِ الرَّشَادِ

مَنْ تَحَلَّى بِحَلْيِ عِلْمٍ وَحِلْمٍ
وَبِرَأْيٍ مُقَارِنٍ لِلسَّدَادِ

بِكَ كُلُّ الزَّمَانِ وَالْعِيدِ يهْنَا
وَبِأَنْجَالِكَ السَّرَاةِ النِّجَادِ

هُمْ تَسَاقَوْا لِبَانَ ثَدْيِ الْمَعَالِي ،
وَتَمَاشَوْا عَلَى ظُهُورِ الْجِيَادِ

كُلُّهُمْ سَيِّدٌ زَكِيٌّ ، كَرِيمٌ ،
شَامِخٌ مَجْدُهُ ، طَوِيلُ النِّجَادِ

بِهِمُ الْمُلْكُ يَسْتَزِيدُ عُلُوّاً
وَامْتِدَاداً بِهِمْ لِيَوْمِ التَّنَادِي

حَرَسَ اللهُ مَجْدَهُمْ وَعُلاَهُمْ
مِنْ طُرُوقِ الرَّدَى وَكَيْدِ الأَعَادِي

[59 — أ] / يَا مَلِيكاً عَلاَ الْمُلُوكَ بِعِلْمٍ
وَبِنَقْدٍ (١) سَمَا عَلَى النُّقَّادِ

وَخِصَالٍ حَمِيدَةٍ وَأَيَادٍ
قَصْرُهَا عَنْ عُلاَهُ بِالإِفْرَادِ

أَنْتَ رِيُّ الصَّدَى ، مُفِيضُ الْعَطَايَا ،
أَنْتَ بَحْرُ النَّدَى ، كَثِيرُ الرَّمَادِ

(١) في ز : وبفكر .

أنْتَ مُرْدِي الْعِدَى (1) جَمِيلِ المزَايَا
أنْتَ رَحْبُ الْفِنَا ، رَفِيعُ الْعِمَادِ
مَنْ يَرُمْ نَيْلَ وَصْفِ عِزِّكَ يَغْدُو
فِـي انْتِقَاصٍ وَنَيْلُـكُم في ازْدِيَادِ
فَضْلُـكُمْ عَمَّ كُلَّ دَانٍ وَقَاصٍ
وَاسْتَوَتْ فِيهِ حُضَّرٌ وَبَوَادِي
لَيْسَ كُلُّ امْرِىءٍ حَوَاه لِمَدْحٍ ،
أوْ لِعِلْمٍ لَدَيْهِ ، أوْ إنجَادِ
غَيْرَ أنّـي حُرِمْتُ لاَ مِنْهُ بَلْ مِنْ
سُوءِ حَظٍّ مُقَارِنٍ لِسَوَادِ (2)
إنْ يَجُدْ لِـي الزَّمَانَ سَهْواً بِنَزْرٍ
مِنْهُ تَمْنَعْهُ غَيْرَةُ الْحُسَّادِ
خِلْتُ أنَّ الآدَابَ خَيْرُ صَدِيقٍ
فَانْجَلَتْ عَنْ عَدَاوَةٍ وَكَسَادِ
عَجَبٌ لِلزَّمَانِ عَنِّـي جَمُوحٌ
وَلِـكُلِّ الأنَامِ سَهْلُ الْقِيَادِ
فَقَدَ الْحُرُّ ، كلّما جِئْتُ أشْكُو
خَطْبَ دَهْرٍ كَمُشْتَكٍ لِجَمَادِ
لَـكِنِ العَبْدُ لَمْ يَزَلْ بِجَمِيلٍ
وَاثِقاً مِنْكَ جَازِمَ الاعْتِقَادِ
لاَ تُخَيِّبْ رَجَاءَ رَاجِي رِضَاكُمْ
فَرِضَاكُمْ أرَاهُ جُلَّ اعْتِمَادِي

(1) جمع لا نظير لـه .

(2) كذا بجميع النسخ ولا يستقيم بـه ما عناه الشاعر من حرمان بسبب وحشة لقبه ، واقرب اصلاح يتماشى مع الاصل : غير اني حرمت منه ، بلى ، من سوء حظ الخ....

لاَ بَرِحْتُمْ لِلْخَلْقِ مَوْرِدَ فَضْلٍ
كَعْبَةَ الآمِلِينَ وَالْقُصَّادِ
فُزْ بِأجْرِ الصِّيَامِ ، وَاهْنَأ بِعِيدٍ
لِلأعَادِي مُفَطِّرُ الأكْبَادِ
بَلْ بِكَ الْعِيدُ وَالأنَامُ تُهَنَّا
كُلَّ يَوْمٍ بِالأمْنِ وَالإسْعَادِ
قَائِلاً كُلُّ وَاحِدٍ لَكَ أرِّخْ :
(بِكَ ذَا الْعِيدُ أبْرَكُ الأعْيَادِ)

وقال الأديب الكاتب أبو العباس أحمد سميّة :

هَنِيئاً أيُّهَا الْمَلِكُ الْمُعَلَّى   بِعِيدٍ فِيهِ إشْرَاقٌ وَنُورٌ
أتَاكَ مُبَشِّراً بِدَوَامِ مُلْكٍ   عَلَيْهِ حِمَايَةُ المَوْلَى تَدُورُ
يُصَاحِبُكَ الْهَنَا زَمَناً طَوِيلاً   وَتُنْتِجُ فِـي مَصَالِحِكَ الأمُورُ
جَلَسْتَ عَلَى مَنَصَّتِكَ ابْتِهَاجاً   كَأنَّكَ فَوْقَهَا قَمَرٌ مُنِيرٌ
إذا ما لاحَ وَجْهُكَ مِثْلَ شَمْسٍ   تَغِيبُ بِحُسْنِ طَلْعَتِكَ الْبُدُورُ
فعيدُ العيدِ أنتَ ، وَمَنْ تُعَادِي   تُعَادِيهِ الْمَوَاسِمُ وَالدُّهُورُ
/ فَمَنْ كابنِ الحُسينِ أبانَ حُسناً   بِهِ الأعْوَامُ تَحْسُنُ وَالشُّهُورُ [59 — ب]
لَهُ فِـي ألْسُنِ الْمُدَّاحِ رَوْضٌ   نَضِيرٌ وَهْوَ لَيْسَ لَهُ نَظِيرُ
فَقَبَّلَتِ الْعُلاَ يَدَهُ وَقَالَتْ :   يَدٌ قَبَّلْتُهَا فِيهَا بُحُورُ
تَزَاحَمَتِ الشِّفَاهُ عَلَيْهِ حَتَّى   غَدَتْ بِاللَّثْمِ تَفْتَخِرُ الثُّغُورُ
عُلُوُّكَ يَا عَلِـيُّ طَوِيلُ بَاعٍ ،   وَبَاعُ سِوَاكَ فِـي الْعَلْيَا قَصِيرُ
سُرُورُ الْعِيدَ طَابَ فَأرِّخُوهُ :   (بِعِيدِ النَّحْرِ طَابَ لَكَ السُّرُورُ)

وقال أيضا :

قَلْبِـي يَمِيلُ إلَى الْجَمَالِ إذَا بَدَا
وَبِحَرِّ نِيرَانِ الْغَرَامِ تَعَوَّدَا

حَتّى رَأيْتُ غزَالَةً فتّانَةً
أيْقَنْتُ أنّ غرَامَهَا سَبَبُ الرّدَى

لَمّا نَظَرْتُ لَهَا ـ وَحيّاهَا الْحيَا ـ
عَادَ اللُّجَيْنُ بِوَجْنَتَيْهَا عَسْجَدَا

سَكِرَتْ بِخَمْرَةِ رِيقِهَا فَتَأوّدَتْ
تِيهًا كَغُصْنٍ بِالنّسِيمِ تَأوّدَا

كُلُّ امْرِىءٍ ذِي عِفّةٍ وَتَنَسُّكٍ
مَهْمَا رَأى مِنْهَا النّهُودَ تَنَهّدَا

بِفُتُورِهِ عُجْبًا تَعَرْبَدَ جَفْنُهَا
فَاعْجَبْ لِجَفْنٍ بِالْفُتُورِ تَعَرْبَدَا

لِمُحِبّهَا فِيمَا يُرِيدُ ـ حَقَارَةً ـ
تُبْدِي مُخَالَفَةً ، وَتُخْلِفُ مَوْعِدَا

لَمّا سَعَتْ بِالْجَوْرِ فِي إهْمَالِهِ
حَكَمَ السُّلُوُّ بِعَدْلِهِ فَتَرَشّدَا

كَمْ بَاتَ يُرْشِدُ لِلْهِدَايَةِ قَلْبَهُ :
لَوْلاَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ لَمَا اهْتَدَى

مَلِكٌ خِصَالُ الْحَمْدِ فِيهِ تَجَمّعَتْ
وَعَلَى الْمُلُوكِ تَفَرّقَتْ فَتَفَرّدَا

أعْرَى الْقُلُوبَ مِنَ الْمَخَافَةِ أمْنُهُ
وَمِنَ السُّرُورِ الْمَحْضِ ألْبَسَهَا رِدَا

حَلاّهُ بِالْعِزّ الْمُجَمّلِ عَدْلُهُ
فَأذَلّ مَنْ جَوْراً عَلَى النّاسِ اعْتَدَى

فَالْعَفْوُ شِيمَتُهُ يَرَاهُ كَأنّهُ
رَحِمٌ لَهُ ، مَا فِيهِ قَطُّ تَرَدّدَا

فِي وَجْهِهِ رَوْضُ الْبَشَاشَةِ يَانِعٌ ،
حَسَنٌ ، وَفِي كَفّيْهِ أنْهَارُ النّدَى

وَكَلاَمُهُ تَهْوَى الْمَسَامِعُ وَصْلَهُ
وَحُسَامُهُ يَهْوَى مُوَاصَلَةَ الْعِدَى

أجْرَى عَلَى صَعْبِ الْمَسَائِلِ لُبّهُ
فَغَدَا سَبِيلُ الْمُشْكِلاَتِ مُمَهّدَا

مَا جَالَ فِي أمْرٍ عَوِيصٍ رَأيُهُ
إلاّ وَبِالرّأيِ السّدِيدِ تَسَدّدَا

فَالْزَمْهُ إنْ هَزّتْهُ مُطْرِبَةُ الرّضَا ،
وَاحْذَرْهُ إن هَزّ الْقَنَا وَتَهَدّدَا

[60 — أ] / فِي طَبْعِهِ لِينٌ ، وَفِي أخْلاَقِهِ
طِيبٌ ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا يَجْلُو الصّدَى

يَا أيُّهَا الْحَكَمُ الذِي أحْكَامُهُ
حِكَمٌ ، وَفِي الْحُكّامِ أضْحَى مُفْرَدَا

جَمُلَتْ بِهَا الدُّنْيَا كَأنّكَ حَلْيُهَا ،
وَزَهَتْ لِمَنْ قَدْ رَاحَ فِيهَا أوْ غَدَا

وَالسّعْدُ مُبْتَسِمًا أتَاكَ كَأنّهُ
رِقٌّ رَقِيقُ الطّبْعِ لاَقَى سَيّدَا

وَزَمَانُ مَنْ وَالاَكَ أصْبَحَ أبْيَضاً ،
وَزَمَانُ مَنْ عَادَاكَ أمْسَى أسْوَدَا

وَالْعِيدُ لَيْسَ لَهُ سِوَاكَ مِنَ الْوَرَى
عِيدٌ فَزَادَ بِهِ عُلاَكَ تَأيُّدَا

تَحْيَى إلَى أمْثَالِهِ إذْ أرّخُوا :
(بِالْخَيْرِ عَادَ العِيدُ يَا مَلِكَ الهُدَى) (1)

(1) حساب التاريخ سنة 1175 على اعتبار الالف اللينة في الهدى بواحد حسب المنطوق لا المكتوب خلافا للقاعدة ، وسمية محافظ على هذا الاعتبار.

وقال أيضا :

هَنِيئاً لَكَ الأيَّامُ وَافَتْكَ بِالْمَجْدِ
وَعِيدُ الأضَاحِي أمَّ مُلْكَكَ بِالسَّعْدِ

يُوَافِقُكَ الإقْبَالُ فِي كُلِّ مَا تَشَا
وَيَأْتِي بِهِ طَوْعًا مِنَ القُرْبِ وَالْبُعْدِ

تَغَارُ مِنَ الأرْضِ السَّمَاءُ لأنَّهَا
رَأتْكَ بِهَا بَدْراً مِنَ الْحُسْنِ فِي بُرْدِ

وَتَحْسُدُ أفْوَاهَ الأنَامِ نُجُومُهَا
لِتَقْبِيلِهَا الْبَحْرَ الذِي مِنْكَ فِي الأيْدِي

إلَى بَيْتِكَ الْمَعْمُورِ مَهْمَا تَوَجَّهَتْ
مَحَامِلُ أهْلِ الْفَضْلِ تُكْرَمُ بِالرِّفْدِ

وَفِي عَرَفَاتِ الغَرْبِ لِلنَّاسِ وَقْفَةٌ
يَفِيضُ عَلَيْهِمْ مِنْ نَدَاكَ شَذَا النَّدِّ

وَكَفُّكَ مَا طَافَتْ بِكَعْبَةِ جُودِهِ
عُفَاةُ الْوَرَى ، إلاَّ وَتَظْفَرُ بِالْقَصْدِ

تَفَرَّدْتَ بِالْفِعْلِ الْجَمِيلِ وَقَدْ بَدَتْ
خِصَالُ كَمَالٍ مِنْكَ جَلَّتْ عَنِ الْعَدِّ

وَلَيْسَ عَلَى الرَّحْمَانِ جَلَّ جَلاَلُهُ
بِمُسْتَنْكَرٍ أنْ يَجْمَعَ الخَلْقَ فِي فَرْدِ

يُهَنَّا بِكَ الْعِيدُ الَّذِي أنْتَ عِيدُهُ
وأنْتَ تُهَنَّا بِالْمَكَارِمِ وَالْمَجْدِ

وَلَمَّا أتَاكَ الْعِيدُ قُلْتُ مُؤَرِّخاً :
(أتَى لِعَلِيٍّ الْعِيدُ بِالْعِزِّ وَالسَّعْدِ)

وقال أيضا :

تَبَدَّى فَرَاحَ الْوَرْدُ يَشْكُو مِنَ الْخَدِّ
وَمَاسَ فَلاَحَ الْغُصْنُ خَصْمًا مَعَ الْقَدِّ

غَزَالٌ إذَا مَا الظَّبْيُ شَاهَدَ جِيدَهُ
وَمُقْلَتَهُ أبْدَى التَّذَلُّلَ كَالْعَبْدِ

تَغَارُ ذُكَا مِنْ حُسْنِهِ ، وَهوَ فِي الْحَشَا
وَتَحْسُدُهُ الأقْمَارُ مُذْ كَانَ فِي الْمَهْدِ

عَلَيْهِ مِنَ الْحُسْنِ الْبَدِيعِ مَهَابَةٌ
فَمَنْ رَامَ وَصْلاً مِنْهُ وَافَاهُ بِالصَّدِّ

تُغَيِّرُهُ مِنْ لِينِهِ نَسْمَةُ الصَّبَا
وَأحْشَاؤُهُ كَالْمَرْوِ وَالْحَجَرِ الصَّلْدِ

[60 — ب] / فَيَعْذُبُ لِي تَعْذِيبُ نِيرَانِ حُبِّهِ
وَمُرُّ غَرَامِي فِيهِ أحْلَى مِنَ الشُّهْدِ

إذَا مَا رَنَا أنْسَاكَ هَارُوتَ لَحْظُهُ
وَأنْسَاكَ حَدَّ السَّهْمِ وَالصَّارِمِ الهِنْدِي

فَمَا فِيهِ عَيْبٌ غَيْرُ خَمْرَةِ رِيقِهِ
تُعَاطِيكَ قَبْلَ الشُّرْبِ رَائِحَةَ النَّدِّ

صَفَا ثَغْرُهُ مِنْ صَفْوَةِ الدُّرِّ مِثْلَمَا
صَفَا بَاطِنُ الْبَاشَا عَلِيٍّ مِنَ الْحِقْدِ

سَلِيلُ حُسَيْنِ الْبَايِ أظْهَرَ سِيرَةً
مُحَسَّنَةً ، فِيهَا رِضَى الْحُرِّ وَالْعَبْدِ

بِهِ تُونِسُ الْخَضْرَاءُ رَاقَتْ وَأصْبَحَتْ ،
تَقُولُ افْتِخَاراً: تَاجُ هَامِ الْعُلاَ عِنْدِي

أَيَسْمَعُ إِنْسَانٌ بِحُسْنِ صَنِيعِهِ
وَيَبْدُو لَهُ مِنْ غَيْرِهِ مِثْلُ ما يُبْدِي ؟

إِذَا كَانَ حُكَّامُ الوَرَى عِقْدَ لُؤْلُؤٍ
بِجِيدِ الْمَعَالِي فَهْوَ وَاسِطَةُ الْعِقْدِ

وَلَوْ كَانَ مَا يُعْطِيهِ غَيْثاً لأَمْطَرَتْ
سَمَاءٌ بِهِ مِنْ غَيْرِ بَرْقٍ وَلاَ رَعْدِ

وَحِيدٌ مِنَ الأَشْبَاهِ ، مُفْرَدُ دَهْرِهِ
فَمَا مَلِكٌ ضَاهَاهُ فِي مَنْهَجِ الْحَمْدِ

إذا وَعَدَ ابْشِرْ فَالْمُؤَمَّلُ نَاجِحٌ ،
يَجِيئُكَ مَحْمُولاً عَلَى كَاهِلِ الوَعْدِ

مَلِيكٌ لَهُ فِي الْحِلْمِ أَرْفَعُ رُتْبَةٍ
وَأَوْفَى مَقَامٍ فِي الْمُوَافَاةِ بِالْعَهْدِ

تَقُولُ العُلا : هذَا الذي ــ دُونَ غَيْرِهِ ــ
نَكَسْتُ لَهُ رَأسِي حَيَاءً مِنَ الْمَجْدِ

مِنَ السِّتْرِ لا يَعْرَى مَدى الدَّهْرِ في الوَرَى
كَسَيْفِ جَبَانٍ لَيْسَ يَعْرَى مِنَ الْغِمْدِ

فَأَبْرَزْتُ نَظْمِي فِي مَدَائِحِ فَضْلِهِ
وَلَوْلاَهُ لَمْ أَبْرِزْهُ مِنْ بَاطِنِ الْخُلْدِ

وحَقِّ مَعَالِيهِ ، حِسَانُ قَلاَئِدِي
مِنَ الدُّرِّ مَا حُطَّتْ سِوَاهُ عَلَى فَرْدِ

مُحَيَّاهُ مِحْرَابِي ونَفْلِي دُنُوُّهُ ،
وخِدْمَتُهُ فَرْضِي ، وَأَمْدَاحُهُ وِرْدِي ،

أَيَا مَنْ لآلِي بَحْرِ فِكْرِي عِنْدَهُ
وَلُؤْلُؤُ بَحْرِيْ رَاحَتَيْ فَضْلِهِ عِنْدِي

كَسَوْتُكَ مِنْ نَسْجِ الحِجَا حُلَلَ الثَّنَا
وثوب المعالي ، فاكسني ثوبك الجعدي

أَتَى الْعِيدُ وَالإِقْبَالُ قَالَ مُؤَرِّخاً :
(أبا الحسن اطرب ، طَنَّ عِيدُكَ بِالسَّعْدِ)

ولا يخفى ما في لفظة طَنَّ من الركاكة والغثاثة ، على أنَّ في مواضع من هذه القصيدة مجالا لانتقاد الناقد .

وقال أيضا :

أَعْيَادُ مُلْكِكَ هَكَذَا بِكَ زَاهِيَهْ
وبحسن طلعتك البهيّة باهيه

فَطِّرْ بِعِيدِ الْفِطْرِ أَكْبَادَ الْعِدَا
وَانْحَرْ بِعِيدِ النَّحْرِ قَوْماً بَاغِيَهْ

فَسَنَاكَ لِلْعِيدِ ابْتِهَاجٌ وَاضِحٌ
لَمْ يَخْفَ بَارِقُهُ كَشَمْسٍ ضَاحِيَهْ

[61 — ِ] / أَيَّامُ دَوْلَتِكَ السَّعِيدَةَ كُلُّهَا
لِلنَّاسِ أَعْيَادٌ حِسَانٌ ضَاوِيَهْ (1)

يُحْيِي الخَلاَئِقَ صَفْوُهَا بِمَوَاسِمٍ
وَبِكَ الْمَوَاسِمُ فِي الْخَلاَئِقِ صَافِيَهْ

فَاهْنَأْ وَطِبْ نَفْساً ، وَقَرَّ بِمَا تَشَا
عَيْناً ، وَدُمْ فِي عِيشَةٍ لَكَ رَاضِيَهْ

إِنَّ اللَّيَالِي بِالْمُنَى قَدْ أَشْرَقَتْ
وَأَتَتْ بِأَيَّامِ الْهَنَا وَالْعَافِيَهْ

(1) كلمة ضاوية عامية قبيحة قلبت المعنى المراد لأن الضوى في اللغة الفصيحة : الهزال والضمور، والشاعر اراد بها الاضاءة وهو مما يدل على قصوره.

نَمْ يا أبا الْحَسَنِ الرِّضَا ، وَأفِقْ ، وَقُمْ ،
وَاقْعُدْ ، وَسِرْ ، وَأقِمْ ، فَذَاتُكَ نَاجِيَهْ
لاَ زِلْتَ مِنَ عِظَمِ الْمَهَابَةِ بَاسِماً
وَعِدَاكَ مِنْ ألَمِ الْكَآبَةِ بَاكِيَهْ
تِهْ نَخْوَةً بِالْعِزِّ فِي رَحْبِ الْعُلاَ ،
وَاطْرَبْ ، وَهَبْ لِلْمَجْدِ نَفْساً زَاكِيَهْ
فَالْحِفْظُ حَفَّكَ وَالأمَانُ مُصَاحِبٌ
لَكَ ، وَالسَّلاَمَةُ بِاحْتِمَائِكَ لاَهِيَهْ (1)
إنْ رُمْتَ سَعْداً سَامِياً وَمُؤَرِّخاً :
(فَالْعِيدُ أقْبَلَ مَعْ سُعُودٍ سَامِيَهْ)

وقال أيضا :

الْعِيدُ أقْبَلَ فِي بَدِيعِ جَمَالِهِ
فَأضَاءَ فَوْقَ سَمَاكَ بَدْرُ كَمَالِهِ
وَالْيُمْنَ جَاءَكَ فِي سَنَا بَرَكَاتِهِ
بِطَوِيلِ عِزٍّ فِي مَدِيدِ جَلاَلِهِ
لَكَ أيُّهَا الْبَاشَا عُلُوُّ الْمُلْكِ فِي
عَلْيَائِهِ ، أهْدَى نَفِيسَ وِصَالِهِ
وَلِسَانُ حَالِ الْعِيدِ قَالَ مُبَشِّراً :
يَبْقَى إلَى الأعْيَادِ مَعْ أنْجَالِهِ
لاَ زِلْتَ تُحْيِي بِالْهِبَاتِ مَوَاسِماً
وَتُمِيتُ ذَا حَسَدٍ بِسَيْفِ نَكَالِهِ
أبْقَاكَ لِلْخَلْقِ الإلَهُ وَأنْتَ فِي
رَوْضِ السُّرُورِ مُمَتَّعاً بِظِلاَلِهِ

(1) لعلها : آتية.

دَامَتْ لَكَ الأيَّامُ فِي إشْرَاقِهَا
وَالدَّهْرُ دَامَ عَلَيْكَ فِي إقْبَالِهِ
صُنْ يَا كَرِيمُ ابْنَ الْحُسَيْنِ وَهَبْ لَهُ
مِنْكَ الْهَنَا ، وَاجْمَعْهُ مَعْ آمَالِهِ
مَلِكٌ كَسَاهُ الْعَدْلُ ثَوْبَ مَهَابَةٍ ،
وَأذَاقَ طَعْمَ الشُّهْدِ مِنْ أقْوَالِهِ
عِيدُ الأضَاحِي فِيهِ قَدْ نَالَ الْوَرَى
شَرَفاً بِلَثْمِ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ
قَبَّلْتُ رَاحَتَهُ فَقُلْتُ مُؤَرِّخاً :
(دُمْ عَادِلاً تَحْيَى إلَى أمْثَالِهِ)

وقال أيضا :

يَا أيُّهَا الْمَلِكُ الْمُطَاعُ وَمَنْ لَهُ
مُلْكٌ بِأفْوَاهِ الْمَعَالِي ضَاحِكُ
فَاهْنَأ بِعِيدٍ جَاءَ فِي تَارِيخِهِ :
(عِيدٌ أتَى بِالسَّعْدِ وَهْوَ مُبَارَكُ)

/ وقال : [61 — ب]

عِيدُ الأضَاحِي فِي بَدِيعِ جَمَالِهِ
وَافَاكَ مُبْتَسِماً بِطِيبِ وِصَالِهِ
لَمَّا أتَاكَ بِيُمْنِهِ وَبِأمْنِهِ
ألْقَى عَلَيْكَ السَّعْدُ ثَوْبَ جَلاَلِهِ
فَاطْرَبْ وَتِهْ بِالْعِزِّ فِي رَحْبِ الهَنَا
وَاجْنِ الْمُنَى ، فَالدَّهْرُ فِي إقْبَالِهِ
صُبْحُ المَسَرَّةِ فِي مَقَامِكَ مُشْرِقٌ
فَغَدَا بِهِ كَالْبَدْرِ فِي إكْمَالِهِ

عِشْ سَالِماً مِنْ جُرْأَةِ الأَسْوَاءِ فِي
رَوْضِ الأَمَانِ مُمَتَّعاً بِظِلاَلِهِ

فَلَكَ المَفَاخِرُ يَا أَبَا الْحَسَنِ الرِّضَا
بِعَظِيمِ مُلْكٍ لَمْ يَزَلْ عَنْ حَالِهِ

لِلْعِيدِ إِشْرَاقٌ يَزِيدُكَ بَهْجَةً
بِسَنَا مُحَيَّاهُ وَفَرْطِ جَمَالِهِ

فَاهْنَأْ بِهِ إِذْ جَاءَ فِي تَارِيخِهِ :
(تَبْقَى بِإِجْلاَلٍ إِلَى أَمْثَالِهِ)

وقال :

تَعِيشُ إِلَى أَمْثَالِ عِيدِكَ فِي الْهَنَا
وَتَظْفَرُ فِي عَلْيَاكَ بِالْقَصْدِ وَالْمُنَى

بِثَالِثِ عِيدِ الفِطْرِ قُلْتُ مُؤَرِّخاً :
«لَقَدْ خَلَّفَ الْعِيدُ ــ الدَّوَامَ ــ لَكَ الهَنَا»

ومِمَّا يُنَاسِبُ هَذَا تَوَارِيخُه فِي تَهْنِيَاتِ تَحْوِيلِ الْعَامِ فمنها قوله :

وَافَاكَ عَامُ الْيُمْنِ بِالْبَرَكَاتِ ،
وَالسَّعْدُ سَاعَدَ ، وَالزَّمَانُ مُوَاتِي

وَالْوَقْتُ مُبْتَسِمُ الْمُحَيَّا مُشْرِقٌ
بِسَنَا الْهَنَا صَافٍ مِنَ الشُّبُهَاتِ

بِكَ كُلُّ أَرْضٍ ــ سِرْتَ فَوْقَ تُرَابِهَا ــ
سَعِدَتْ ، وَأَنْتَ سَعِدْتَ بِالأَوْقَاتِ

يَا مَنْ تَرَفَّعَ قَدْرُهُ وَسَمَا عَلَى
كُلِّ الْمُلُوكِ بِأَرْفَعِ الدَّرَجَاتِ

يَا مَنْ لَهُ سَنَدٌ قَوِيٌّ فِي الْعُلاَ
عَنْ وَالِدٍ يَرْوِيهِ خَيْرُ رُوَاةِ

أَقْبِلْ إِلَى مَا تَشْتَهِي مِنْ حَاجَةٍ
فَيَؤُمُّكَ الإِقْبَالُ بِالْحَاجَاتِ

اللَّهُ أَوْدَعَ فِيكَ نُورَ فِرَاسَةٍ
فَتَكَادُ تُخْبِرُنَا بِمَا هُوَ آتِي

أَصْبَحْتَ فِي وَجْهِ الْفَضَائِلِ غُرَّةً
يَجْلُو سَنَاهَا غَيْهَبَ الظُّلُمَاتِ

أَبْقَاكَ رَبُّكَ لِلأَنَامِ مُؤَيَّداً
وَحَمَاكَ ــ إِكْرَاماً ــ مِنَ النَّكَبَاتِ

مَا أَنْشَدَ النُّجَبَاءُ قَوْلَ مُؤَرِّخٍ :
(أَسْعِدْ بِعَامٍ هَلَّ بِالْبَرَكَاتِ)

وقوله في هذه السَّنَة :

يَا مُفْرَداً جَمَعَ الْكَمَالَ وَمَالَهُ
فِي الْحِلْمِ مِنْ أَهْلِ الزَّمَانِ مُشَارِكُ

قَدْ أَقْبَلَ الْعَامُ السَّعِيدُ فَأَرِّخُوا :
(عَامٌ عَلَيْكَ كَمَا تُرِيدُ مُبَارَكُ)

[62 ــ أ] / وقوله :

أَوْقَاتُ دَهْرِكَ فِي سُرُورٍ صَافِيَهْ
وَالْعَامُ أَقْبَلَ بِالْهَنَا وَالْعَافِيَهْ

نَتِجَتْ مَقَاصِدُكَ الَّتِي أَمَّلْتَهَا ،
وَمَقَاصِدُ الأَعْدَاءِ أَضْحَتْ بَالِيَهْ

الآنَ جَاءَ السَّعْدُ وَالنَّحْسُ انْتَفَى :
لَوْ تَطْلُبُ الدُّنْيَا لَجَاءَتْ حَافِيَهْ

فالنَّصرُ مُمتثلٌ لجيشكَ طائعٌ ،
يَعصي البُغاةَ ذوي النُّفوسِ الغاليهْ (1)
مَهما اتَّجهتَ لِما أردتَ تلألأتْ
شمسُ السَّلامةِ في سماءٍ ساميهْ
لم تسمعِ الاَّ ما يسرُّ ، ولا ترى
إلاَّ الذي يُرضي ، ونفسُكَ زاهيهْ
لكَ كلَّ يومٍ يا عليُّ مسرَّةٌ ،
ولِكُلِّ باغٍ مِنْ جيوشِكَ غازيهْ
قرَّتْ بعينِ الأمنِ عينُكَ فرحةً
وغدتْ عيونُ ذوي الخيانةِ باكيهْ
عمرتْ منازِلُكَ العليَّةُ بالهنا ،
ومنازلُ السُّفهاءِ عادتْ خاليهْ
ما همَّ خاطِرُكَ النَّقيُّ بحاجةٍ
إلاَّ وتأتي باعتنائِكَ شافيهْ
لمَّا أتى عامُ الهنا أرَّختُهُ :
(عامٌ تجلَّى في سماءِ العافيهْ)

وقوله :

فُتِحتْ عليكَ بما تشاءُ بلا عنا
بمفاتحِ الإقبالِ أبوابُ الهنا
فوَّضتَ للأقدارِ أمرَكَ كلَّما
أمَّلتَهُ تلقاهُ سهلاً ليِّنا
ناديتَ سعدَكَ ، والزَّمانُ مُساعدٌ ،
فأجابَ : سلْ ما شئتَهُ فلَهُ أنا

(1) لعلها : الغاويـة.

أجرى الكلامَ على لسانِكَ طيبُهُ
ولِنَشرِ طيبِ ثناكَ أجرى الألسُنا
وملوكُ عُربِ العالمينَ وعُجمِها
أفواهُها صارتْ لذكرِكَ مسكَنا
إنْ كانتْ الأمراءُ بدراً أو ذُكا ،
فعليُّ باشا ابنِ الحُسينِ هوَ السَّنا
نهرٌ مِنَ المعروفِ يغرفُ مَنْ نأى
مِنْ فيضِهِ المعروفَ ، أحرى من دنا
لوْ حلَّ في ماءٍ أجاجٍ طبعُهُ
لحلا ، وفي حجرٍ لأضحى ليِّنا
لوْ مرَّ بالأشجارِ وهيَ عريَّةٌ
لكسا بأوراقٍ شذاهُ الأغصُنا
تتنشَّقُ الأمراءُ طيبَ ثنائه
فكأنَّهُ لهمُ الشِّفاءُ مِنَ الضَّنى
وأكابِرُ العُلماءِ تشهدَ أنَّهُ
بيدِ الذَّكاءِ مِنَ العُلومِ تمكَّنا
بدتْ لهُ الأيَّامُ وهيَ سنيَّةٌ
بسناهُ في أفقِ الهنا شمسَ المُنى
/ وهواتفُ الإقبالِ في عليائه [62 — ب]
تشدو : نجا مَنْ بالإلهِ تحصَّنا
لكَ يا أبا الحسنِ السُّرورُ ، وللعدا
حُزنٌ ، فليسَ لهُ دوا إلاَّ الفنا
لمَّا أتى العامُ الجديد تجدَّدتْ
حُلَلُ الهناءِ بها بقيتَ مُزيَّنا

فَلِذاكَ قُلْتُ مُبَشِّراً وَمُؤَرِّخاً :

(عَامُ السُّعُودِ أتَى ، فَلاحَ لكَ الْهَنَا)

وَقَالَ الفقيه المُشاور أبو محمّد عبد اللّطيف الطّويْر القيرواني — وكتب بها إليه من القيروان ، وذكر الليالي التي كان يشهدها بمجلسه السّامي وتشوق إليها — وهي رسالة تشتمل على نثر قبل القصيدة وأولها : «حرس الله تعالى حضرة الكمال ، ومَطْمَح ألحاظ ذوي الآمال ، ومَلْثَم شفاه الأقيال ، ومطلع شمس السعادة والإقبال ، والبَهاء والجلال والجمال ، ومنبع الفضائل وينبوع الإفضال ، من شرّ الكايد ، وحَسَد الحاسد ، ومن كل شيطان مارد ، ولا زلت سماءً لبدور الأعلام ، وثواقب الأفهام ، وروضة زاهرة بأزهار العلوم ، واجتناء ثمار المنطوق منها والمفهوم ، حضرة مولانا الملك الكامل ، والهمام الهِزَبْر الباسل ، والقَيْل السَّمَيْذَع الجَحْجاح الحُلاحِل ، السّامية مناقبُه ، الهامية مواهبُه ، العَذْبة مناهلُه ، المنهملة بصافي اللُّجَيْن والنُّضار أنامله ، الشّامخة معاليه ، المُشْرقة بأنواع السرور أيامه ولياليه .

مَلِيكٌ لَهُ فِي الْعَالَمِينَ مَنَاقِبٌ
هِيَ الشَّمْسُ لا تَخْفَى بِكُلِّ مَكَانِ
لَيَالِيهِ أيَّامٌ ، وَأمَّا زَمَانُهُ
فَقَدْ فَاقَ فِي الْمَعْرُوفِ كُلَّ زَمَانِ

الألْمَعِيُّ النَّاقِدُ الأريب ، الرّامي بسهام فِراسته إلى أغراض الضّمائر فَيُقَرْطِس ويُصيب ، إصابة ليس فيها لِإيَاسٍ نصيب ،

إذَا ظَنَّ لاَ يُخْطِي كَأنَّ ظُنُونَهُ
عَلَى مَا يَضِلُّ النَّاسُ عَنْهُ دَلاَئِلُهُ

أسْدَلَ عَلَى الأنَامِ أمَاناً ، وَغَمَرَهُمْ عَفْواً وَحِلْماً وَفَضْلاً وَإحساناً ، حَتَّى أمِنَ الْجُنَاةُ سَطْوَتَه ، وَالْجُفَاةُ جَفْوَتَه ، بل قابل كُلا بِسَماحه ، وأغْمَد في غِمْد الصّفح مجرّدات صِفاحِه .

صَفُوحٌ عن الجَانِي وَصَفْحَةُ سَيْفِهِ
إذَا هِيَ لَمْ تَقْتُلْهُ فَالصَّفْحُ قَاتِلُهْ

حَلَّ رُتَبَ السُّؤْدَدِ وَالْمَعَالِي ، وَحَلَّى بِلآلِئِ الْمَجْدِ أجْيَاد الأيَّامِ وَاللَّيَالِي ، فَهْوَ الشَّامِخُ الْهِمَمُ ، الجامع بين النَّجدة والحياءِ والحِلْم والكرم .

فَأوْجَدَنَا المَعْدُومَ مِنْ حِلْمِ أحْنَفٍ
وَنَجْدَةِ بِسْطَامٍ وَمَوْهِبِ حَاتِمِ

***

/ وَلَيْسَ حَيَاءُ الْوَجْهِ لِلذِّئْبِ شِيمَةً [63 – أ]
وَلَكِنَّهُ مِنْ شِيمَةِ الأسَدِ الْوَرْدِ

سَيِّدنَا وَمَوْلاَنَا الباشا عليّ باي، حفظه الله بما حَفِظَ به السُّوَر والآي ، ابْن المَلك الهُمام ، والاسد الضّرْغام ، كوكب الفخار ، ونخبة الأمراء الأخْيار ، المُنَعَّم المرحوم ، برحمة مولانا الحيّ القيوم ، سيدنا ومولانا حسين باي — رحم الله الأصل وبارك فِي الفرْع ، وسدّد أحْكامه وأجراها على مَنْهج الشّرع — سلام عليكم ورحمة الله وبركاته يتضوّع نَشْره ، ويتنوّع بِشره ، ولا أقولُ كأنفاس النّسيم فإنّها باردَةٌ عَليلَة ، ولا كأزهار الرياض فإنّ أيّام مُقامها قليلة ، ولا كصِرْف المُدام فإنها غير حَلال ، ولا كالمِسْك العبيق فإنه بَعْضُ دَمِ الْغزَال ، ولا كالعنبر والغَالية ، فإنّها دونَ أنفاسكم العالية ، بل أهدي لكم سلاما كطيب أخلاقكم المُتعَطِّرة على الدّوام ، الشافية بأنفاسها الزّكيّة من السّقام ، المُؤْنِسة لِلأرْواح ، المُنْعِشة للأشباح ، المُثْمِلة لِلألباب بغير جُناح ، فهي السِّحر الحلال ، والكوثَر الزلال ، والرَّوْض الضافي الظِّلاَل ، الذي لَيْسَ لأيام زَهْره من زوال .

سيدي : الأطيار إنّما يُطْربها الربيع ، ووَشْيُه الرائق البديع ، فتَتَزَهَّى بأزْهاره ، وتستعذِب زُلال أنهاره ، وتَخْطُب على منابر أغصانه ،

وتتفنن بأنواع من السجع على أفنانه ، وتصح بنسيمه المعتل ،
ويصلح حالها المختل ، مع أن أيامه ربع العام ، وربيع حضرة مولانا
دائم الأيام ، وروضتها زاهرة الأزهار ، يانعة الثمار ، باللجين والنضار .
تترنم فيها أطيار العلوم والآثار ، وتسمع فيها الألحان بفصيح (1) الأخبار ،
لا برنات الأوتار ، وتتمايل فيها أغصان الأقلام ، في أكف الأعلام .
بنسمات الأفهام ، وتدار فيها سلاف العلوم ، لا سلافة بنت الكروم .
وفيها بلوغ الأمل ، والشفاء الشافي من العلل ، قد اتخذتها طيور الأوطار
أوطانا ، تغدو لها خماصا وتروح بطانا ، فلا بدع أن خفق «الطوير»
لها الجناح إذ لم يرتكب في ذلك الجناح ، فهو ما خفق جوانحه ، حتى
ملأ الشوق إليها حشاشته وجوانحه ، سيما وقد تذكر ما سلف له
في الحضرة من الليالي الأنيقة ، وما شملته من الطرائف الرشيقة ،
والمعاني الرقيقة ، والأوقات البهية ، والأقوات الشهية ، والفكاهة
المستعذبة ، والسمر بالأحاديث المطربة المستغربة ، مع جلة
أعلام ، وجهابذة كرام ، والجميع من إشراق محيا سيدنا — أدام الله
علاه — بين أنوار ، ومن مؤانسته ومواساته في روضة ذات أزهار ،
تارة نستفيد منها الأدب ، والأنس والطرب ، والفضة والذهب ،
/ وأخرى نهتدي بنبراس ذكائه إلى صوب الصواب ، ويرشدنا إلى ما [63 — ب]
خفي على الألباب ، من معاني الخطاب ، وأسرار الكتاب ، فيسبح
في بحره بغواص الأنظار ، فيستخرج جواهر الدر المختار ، ويصطاد
شوارد العلوم ، من مكامن المنطوق والمفهوم ، ويفحم ببداهته المجادل
والمسائل ، عن مغلقات المعاني وعويصات المسائل . فإذا سنح
للعبد ذكر تلك الليالي والأيام ، وما خول فيها من المنح العظام
والأيادي الجسام حيث........(2) فأطار جناحه ، وكساه رياشا ، فأكسبه
انتعاشا ، فلم يفقره فقره ، ولا ابتزه بازه أو صقره ، هزه

(1) في ز : بصحيح.
(2) بياض بالأصل تقديره : حيث حقق الامير نجاحه ، فاطار جناحه الى آخر الجملة الشرطية ، وجوابها هـزه الخ ....

للإلمام بالحضرة العلية التوق ، وكاد أن يطير به إليها طائر الشوق ، إلا
أنه ربما توهم سآمة الترداد ، إن هو أجرى النفس على المعتاد ، لأن
من واصل الزيارة يمل ، (ومن أكثر الترداد أضناه الملل) ، فيحجم
عن الإقدام على القدوم — وإن كان شائقا ، ويتحمل أعباء التصبر
— وإن كان التبريح له سائقا .

هذا وإن شهر الصوم قد زمت منه رحال الارتحال ، وعيد الفطر قد
واجه الحضرة بالاستقبال ، رافلا في حلل السعادة واليمن والإقبال . مهنئا
لكم بما أسلفتم في رمضان من ذخائر الأعمال ، مبشرا لكم بنيل المراد
وبلوغ الآمال ، باسم الثغر متبهج المحيا ، متكفلا لكم بعود مسراته
ودوام المحيا . والله المسؤول ، أن يبلغكم غاية المأمول ، وأن يصاحبكم
فيه بالإسعاد ، ويجعله عليكم من أسعد الأعياد ، وأن يحييكم لأمثاله ،
وأمثال أمثاله . إلى أبعد غاية ، في حفظ من الله تعالى وهناء وأمن ورعاية ،
وأن يصون من الأسواء أنجالكم ، ويبلغكم من خير الدنيا والاخرة
آمالكم . ولما أعوز العبد أن يعمل للقدوم القدم ، استناب عنه
القرطاس والقلم ، فقال :

أدِّ السَّلاَمَ إلَى الأمير مُعَطَّرَا
فِي طيبِ رَيَّاه يَفُوقُ الْعَنْبَرَا
أقرِ السَّلاَمَ عَلَيْهِ كُلَّ عَشِيَّةٍ
وَإذَا سَنَا الإصْبَاح أقْبَلَ مُسْفِرَا
بَلْ كُلَّ حينٍ خُصَّه بتَحِيَّةٍ
مِنْ كُلِّ ما طيبٍ أعَمَّ وَأعْطَرَا
يَحْكِي شَذَاهَا طِيبَ أخلاَقٍ لَهُ
إذْ لَسْتُ عَنْهَا بِالْعَبِيرِ مُعَبِّرَا
وَالْثِمْ يداً تَرْوِي الْبُخَارِي دَائِماً
ومِنَ النَّدَى تُرْوِي الأنَامَ الْكَوْثَرَا

واغْضُضْ جُفونَكَ إن لَمَحْتَ جَبينَهُ
وَحَذارِ مِنْ كَفَّيْهِ عَشْراً أبْحُرَا
وَجْهٌ إذا الْقَمَرَ الْمُنيرُ بَدَا لَهُ
لَبِسَ الْحَيَاءَ ، وبِالسَّحابِ تَسَتَّرَا
واخْصُصْ لَيَالِي الأرْبَعَاءِ جَمِيعَهَا
بِمَزِيدِ تَسْلِيمٍ عَمِيمٍ أعْطَرَا
[64 – أ] / فِيهَا شَفَيْنَا «بِالشِّفَاءِ» غَلِيلَنَا
وَعَلِيلَ صَدْرٍ لِلشِّفَاءِ تَصَدَّرَا
إنْ يَكْتَحِلْ أعْمَى الْبَصِيرَةِ مِنْ سَنَى
أنْوَارِهِ فِي الْحِينِ يَرْجِعْ مُبْصِرَا
وَكَذَا لَيَالٍ لِلْخَمِيسِ فَحَيِّهَا
وَلَيَالِيَ الأحَدِ الأنِيقَةِ مَنْظَرَا
هَاذِي الثَّلاثُ لَهَا فُؤَادِي شَيِّقٌ
لَمْ يَأْلُهَا قَلْبِي الْعَمِيدُ تَذَكُّرَا
فَمَتَى ثَنَيْتُ لَهَا عِنَانَ تَذَكُّرِي ،
يَوْماً تَفَسَّحَ مَنْزِلِي وَتَعَطَّرَا
لَكِنَّ قَلْبِي مَا تَذَكَّرَ أنْسَهَا
إلاَّ تَأجَّجَ شَوْقُهُ وَتَسَعَّرَا
لَمْ أنْسَ أنْساً بِالأمِيرِ خِلاَلَهَا
نَجْنِي بِهِ زَهْرَ الْمَسَرَّةِ أزْهَرَا
وَجَنَى الأمَانِي نَجْتَنِيهِ ونَجْتَلِي
وَجْهاً مِنَ الشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ أبْهَرَا
أنْوَارُ بَهْجَتِهِ عَنِ المِصْبَاحِ تُغْـ
ـنِي مَنْ يُطَالِعُ فِي الطُّرُوسِ مُسَطَّرَا

آتِي لِحَضْرَتِهِ وَقَدْ غَسَقَ الدُّجَى
فَأخَالُ لَيْلِي مُشْمِساً أوْ مُقْمِرَا
لاَ أرْتَضِي بَدَلاً بِهَا عَصْرَ الصِّبَا
كَسَكَابِ (1) حُرِّمَ أنْ يُعَارَ وَيُشْتَرَى
إنْ كَانَ شَخْصِي قد نَأى فَالْقَلْبُ لاَ
يَنْفَكُّ فِي تِلْكَ الْمَحَاضِرِ مُحْضَرَا
لَوْ أنَّ ذِكْرِي لِلْقُدُومِ بِهَا جَرَى
لأجَبْتُ مِنْ قَبْلِ الدُّعَاءِ مُشَمِّرَا
إذْ قَدْ ذُكِرتُ بِلَيْلَةٍ فَرَكِبْتُ فِي
غَدِهَا مِنَ ارضِ الْقَيْرَوَانِ مُبَكِّرَا
أحْيَيْتُهَا كَمَوَاسِمِ الأعْيَادِ لَـ
ـمَّا كَانَ يَوْمُ لِقَاهُ عِيداً أكْبَرَا
مَنْ يَغْشَ حَضْرَتَهُ الْعَلِيَّةَ يَنْثَنِي
عِلْمَا وَنَيْلاً مُوقَراً وَمُوَفَّرَا
فِيهَا كَوَاكِبُ بِالذَّكَاءِ تَوَقَّدَتَ
مَا بَيْنَهَا قَمَرٌ يُزِيحُ معسكرَا (2)
يُهْدِي إلى أسْمَاعِنَا وَعُقُولِنَا
وَأُنُوفِنَا أدَباً وَنَشْراً أعْطَرَا
وَالْعِلْمَ وَالنُّكَتَ الدَّقِيقَةَ وَالْحِبَا
وَالأنْسَ وَالأكْلَ الشَّهِيَّ مَعَ الْقِرَى
يُلْقَى لَهُ صَعْبُ الْمَسَائِلِ مُشْكِلاً
فَيَرُدُّهُ سَهْلَ الْمَنَالِ مُفَسَّرَا

(1) سكاب : اسم فرس لاحد بني تميم طلبت منه فقال :
أبيت اللعن ان سكاب علق   نفيس لا تعار ولا تباع
(2) من عسكر الليل : اذا تراكمت ظلمته.

فَهُوَ الْمَجَلِّي لِلْعَوِيصِ إِذَا اخْتَفَى
وَهُوَ الْمُجَلِّي فِي الذَّكَاءِ إِذَا جَرَى (1)

وَيَرَى الْمَغِيبَ فِرَاسَةً فَتَخَالُ فِي
مِرْآتِهَا مَا فِي الضَّمِيرِ مُصَوَّرَا

لِخَرَائِدِ الْمَعْنَى صَبَا قَلْباً ، فَمَا
عَلِقَ الْغَوَانِيَ وَالأَغَنَّ الأَحْوَرَا

وَبِدُرِّهَا الْمُخْتَارِ (2) هَامَ فَلَمْ يَزَلْ
مِنْ بَحْرِهَا الْفَيَّاضِ يَلْقُطُ جَوْهَرَا

وَرِثَ الْمَآثِرَ عَنْ أَبِيهِ عِصَابَةً
وَالشِّبْلُ لَا يَعْدُو السَّبَنْتَى الحَيْدَرَا (3)

[64 – ب] / فَعَلِيُّ بْنُ حُسَيْنٍ الْبَاشَا الرِّضَا
بِحُلَى الْفَخَارِ قَدِ ارْتَدَى وَتَأَزَّرَا

يأبى الدَّنَايَا خِيمُهُ وَخِلَالُهُ ،
وَتَرَاهُ لِلْفِعْلِ الْحَمِيدِ مُشَمِّرَا

أَلِفَ التُّقَى وَالدَّرْسَ وَالأَوْرَادَ لَا
نَغَمَ الْمَثَانِي وَالرَّبَابَ وَمِزْهَرَا

وَحَوَى الإِنَابَةَ ، وَالمَهَابَةَ ، وَالْفَخَامَةَ ،
وَالإِصَابَةَ ، وَالْعَطَاءَ الأَوْفَرَا

وَالْعَفْوَ عَمَّنْ قَدْ جَنَى ، وَالْحِلْمَ ،
وَالتَّرْحَابَ ، وَالخُلُقَ الجَمِيلَ ، وَأَكْثَرَا

وَبَشَاشَةً تَسْبِي النُّهَى فَتَخَالُهَا
سِحْرَ الْبَلَابِلِ أَوْ عُقَاراً مُسْكِرَا

(1) المجلي الأول اسم فاعل بمعنى المظهر ، والثاني اسم الفرس الأول من حلبة السباق.
(2) كتاب من أمهات الفقه الحنفي.
(3) ارث العصابة يجمع التركة كما هو معلوم ، والسبنتى . من اسماء الأسد.

مَهْمَا يَلِنْ يَصْلُبْ ، وَإِن يَصْلُبْ يَلِنْ ،
وَيُرِيبُ إِن يَرْتَبْ ، وَإِن يَخْلُقْ فَرَى (1)

قَالُوا : بِهِ خَوَرُ الخِلَالِ لِحِلْمِهِ ،
وَلَدَى السَّفِيهِ الْحِلْمُ شَيْءٌ مُزْدرَى

نَقَمُوا عَلَيْهِ الْعَفْوَ عَمَّنْ قَدْ جَنَى
وَمَدِيحُهُ فِي الذِّكْرِ حَقّاً قَدْ جَرَى

«عَفْوُ الْمُلُوكِ عَنِ الْجُنَاةِ إِذَا جَنَوْا
لِلْمُلْكِ أَبْقَى» صَحَّ عَنْ خَيْرِ الوَرَى (2)

وَاسْتَنْكَرُوا مِنْهُ الْحَيَاءَ ، وَإِنَّمَا
تَلْقَى الْحَيَاءَ إِذَا لَقِيتَ غَضَنْفَرَا

سَبَرَ اللَّيَالِيَ فَامْتَرَى أَخْلَافَهَا
خُبْراً ، وَسَوَّغَ صَافِياً وَمُكَدَّرَا (3)

جَوَّابُ مَوْمَاةٍ يَحَارُ بِهَا الْقَطَا
خِرِّيتُهَا ابْنٌ لِلسَّبَاسِبِ وَالسُّرَى (4)

وَحُلَاحِلٌ شَهْمُ الجَنَانِ سَمَيْذَعٌ ،
سَمْحُ السَّجَايَا ، لَيْثُ آسَادِ الشَّرَى

كَشَّافُ أَزْمَاتٍ ، أَرِيبٌ حُوَّلٌ
بِدَهَائِهِ يَغْزُو فَيَهْزِمُ عَسْكَرَا (5)

جَلَلٌ إِلَى الجُلَّى يُنَادَى مُنْجِداً
دَرِبٌ إِذَا مَا الأَمْرَ أَوْرَدَ أَصْدَرَا

(1) يريب غيره : يشك فيه ولا يستبين الريبة فلا يضره ، وان استيقن خنقه وقراه من قولهم « خلق الاديم اذا قدّه » أي بطش بـه.
(2) اشارة الى حديث نبوي ورد في **السيوطي : الجامع الصغير** : عفو الملوك ابقى للملك.
(3) امترى : استخرج : والاخلاف ج خلف . حلمة ضرع الناقة .
(4) الموماة : المفازة لا ماء فيها . والخريت : الدليل .
(5) الحول : الداهية .

بِالْبِيضِ وَالسُّمْرِ اللِّدَانِ يَخُوضُ فِي
مُغْبَرِّ نَقْعٍ ، أو نَجِيعٍ أحْمَرَا
أيْقِظْهُ لاَ عُمَراً إذَا أمْرٌ عَنَا
أوْ نَابَ خَطْبٌ فَادْعُهُ لا مِسْعَرَا (I)
قُلْ لِلْمُحَاوِلِ أنْ يَرَى شَبَهاً لَهُ
فِيمَن تَقَدَّمَ : مَا رَأيْتُ وَلاَ أرَى
سَبَقَ الأوَائِلَ سُؤْدَداً ، وَسَمَاهُمُ
فَخْراً ، وَإنْ هُوَ فِي الزَّمَانِ تَأخَّرَا
لاَغَرْوَ أنَّ الْبَحْرَ يَعْلُو فَوْقَهُ
زَبَدٌ ، وَيُمْسِكُ فِي الْمَقَرِّ الْجَوْهَرَا
وَاللَّيْلُ قَدْ سَبَقَ النَّهَارَ سَوَادُهُ ،
وَالصُّبْحُ صَادِقُهُ يَلُوحُ مُؤَخَّرَا
لَوْ أنَّهُم فِي جَامِعِ الْعَلْيَاءِ قَدْ
جُمِعَتْ جُمُوعُهُمُ رَقِيتَ الْمِنْبَرَا
هِمَمٌ مُرَفَّعَةٌ تَعُدُّ حِذَاءَهَا
نَجْمَ الثُّرَيَّا وَالنُّجُومَ لَهَا ثَرَى
سَمْحٌ إذَا مَا الْقَطْرُ أمْسَكَ غَيْثَهُ
أزْجَى لَنَا صَافِي النُّضَارِ فَأمْطَرَا
[65 — أ] / وإذَا الرُّعُودُ خَبَتْ وَصَوَّحَ غَرْسُهَا
ألْفَيْتَ مَوْعِدَهُ الْمُوَفَّى مُثْمِرَا
فَمَتَى وَصَفْتَ خِصَالَهُ وَخِلاَلَهُ
دَعْ عَنْكَ كِسْرَى ــ ما وَصَفْتَ ــ وَقَيْصَرَا

(I) اشارة الى بيت بشار : (اذا ايقظتك حروب العدا ــ فنبه لها عمرا ثم نم) . ومسعر الحرب بالسكر : موقدها.

أو تَبْغِ لِلأقْيَالِ جَمْعَ مَآثِرٍ
لَهُمْ «فَكُلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الفَرَا» (I)
يَا كَوْكَبَ الأمَرَاءِ بَلَ يَا شَمْسَهُمْ
لاَ نَالَ نُقْصَانٌ سَنَاكَ الأبْهَرَا
وَافَاكَ بَعْدَ الصَّوْمِ عِيدٌ عَائِدٌ
لَكَ مِنْ إلَهِكَ بِالسُّرُورِ مُوَفَّرَا
يَسْعَى لِحَضْرَتِكُمْ بِوَجْهٍ نَيِّرٍ
كَيْمَا يُحَيِّي مِنْكَ وَجْهاً أنْوَرَا
ومُقَبِّلاً لِيَمِينِ يُمْنِكَ نَاشِقاً
مِنْ طِيبِ رَيَّاكَ الْعَبِيرَ الأعْطَرَا
وَأتَى إلَيْكَ مُهَنِّئاً مُسْتَبْشِراً
وَبِعَوْدِهِ لَكَ بِالْهَنَاءِ مُبَشِّرَا
لاَ غَرْوَ أنْ وَافَى يُحَيِّي مَجْدَكُم
إنَّ الصَّغِيرَ أتَى يُحَيِّي الأكْبَرَا
وَيَرَى شِفَاهَ الْخَلْقِ كَيْفَ تَزَاحَمَتْ
عَنْ رَاحَةٍ ، فِيهَا جَمَعْتَ الأبْحُرَا
فَلْيَهْنِكُمْ مِنْهُ دَوَامُ مَسَرَّةٍ
وَصَفَاءُ عَيْشٍ لاَ تَرَاهُ مُكَدَّرَا
وتَقَبَّلَ الرَّحْمَانُ مَا أسْلَفْتُمُ
مِنْ حُسْنِ صُنْعٍ صَائِماً أوْ مُفْطِرَا
عِشْ سَالِماً مِنْ كُلِّ خَطْبٍ طَارِقٍ
مُتَبَوِّئاً حِصْنَ الأمَانِ مُعَمَّرَا

(I) مثل مشهور . انظر الميداني 2 : 82 .

وَبَنُوكَ فِي كَنَفِ الإلَهِ وَحِفْظِهِ
بِهِمُ رُبُوعُ الْمَكْرُمَاتِ مُعَمَّرَا

وَعَلَيْكَ يَا سَعْدَ الزَّمَانِ تَحِيَّةٌ
يَحْكِي ثَنَاءَكَ طِيبُهَا لاَ الْعَنْبَرَا

وقال أيضا :

بِشَارَاتٌ وَأَفْرَاحٌ وَنُورٌ
بِعِيدٍ دَائِمٍ مَعَهُ السُّرُورُ

تَبَدَّى مُشْرِقا بِشْراً وَبُشْرَى
نَضِيرَ الْوَجْهِ لَيْسَ لَهُ نَظِيرُ

بِهِ ظَهَرَتْ تَبَاشِيرُ التَّهَانِي
وَفِيهِ قَدْ تَجَمَّعَتِ الْخُيُورُ

فَإِنْ يَكُ فِي اسْمِهِ (عِيداً صَغِيراً)
فَمَا هُوَ بَهْجَةً إلاَّ كَبِيرُ

بِتُونِسَ قَدْ تَزَيَّنَ كُلُّ قَصْرٍ ،
وَزِينَةُ تُونِسَ الْمَوْلَى الأَمِيرُ

أَبُو الْحَسَنِ الرِّضَاءُ عَلِيٌّ ابْنُ الـ
ـأَمِيرِ حُسَيْنٍ الصَّدْرُ الشَّهِيرُ

مَلِيكٌ قَدْ رَقَى مَتْنَ الْمَعَالِي
فَدُونَ مُقَامِهِ الشِّعْرَى الْعَبُورُ

وَزَيَّنَ كُلَّ مَأْثُرَةٍ فَأَضْحَتْ
عَلَيْهِ حُلَى مَحَاسِنِهَا تَدُورُ

فَخَارٌ قَدْ سَمَا فَوْقَ الثُّرَيَّا ،
وَقَارٌ مِثْلَ مَا أَرْسَى ثَبِيرُ

[65 — ب]

وَفَاءٌ زَانَهُ حِلْمٌ وَعَدْلٌ
فَلَيْسَ عَلَى أَعَادِيهِ يَجُورُ

نَظِيفُ الْعِرْضِ ، مَحْمُودُ السَّجَايَا ،
رَحِيبُ الصَّدْرِ ، مِفْضَالٌ ، وَقُورُ

تَسَرْبَلَ لِلْعَفَافِ ثِيَابَ تَقْوَى ،
فَلَمْ يَسْتَصْبِهِ الرَّشَأُ النَّفُورُ

بَشَاشَةُ وَجْهِهِ تُولِيكَ بُشْرَى ،
وَتُمْلأُ مِنْ مَهَابَتِهِ الصُّدُورُ

لَهُ خُلُقٌ كَنَشْرِ الرَّوْضِ غَضًّا
لَطَافَتُهُ تَلِينُ لَهَا الصُّخُورُ

كَأَنَّ مِزَاجَهُ مَمْزُوجُ رَاحٍ
لَهُ يَصْبُو أَخُو النُّسْكِ الْوَقُورُ

وَجَدٌّ قَدْ أَعَارَ البِيضَ حَدًّا
لَهُ تَنْبُو صَوَارِمُهَا الذُّكُورُ

تَرَاهُ بَاسِماً طَلْقَ الْمُحَيَّا
إذَا عَبَسَ الْمُهَنَّدَ وَالطرير (1)

جَلِيلُ الْقَدْرِ ، يَكْشِفُ كُلَّ جُلَّى
إذَا سُودُ الْخُطُوبِ لَهَا سُتُورُ

إذَا عَايَنْتَهُ عَايَنْتَ بَدْراً
لِحُسْنِ بَهَائِهِ عَنَتِ الْبُدُورُ

وَإنْ يَمَّمْتَهُ يَمَّمْتَ بَحْراً
فُرَاتاً مَا لَنَا عَنْهُ صُدُورُ

(1) المهند : السيف ، والطرير : سنان الرمح .

فَمِنْ يُمْنَاهُ إيقَاعاً (1) وَجَدْوَى
تَفِيض لَنَا الْوَقَائِع وَالْبُحُورُ

وَهِجِّيرَاهُ ذِكْرُ اللَّهِ دَوْماً
فَلاَ يَعْرُوه فِي الذِّكْرِ الْفُتُورُ

بِتَدْرِيسِ الْعُلُومِ لَهُ اعْتِنَاءٌ
فَلاَ تُلْفِيهِ يَضْجَرَ أوْ يَخُورُ

لَقَدْ وَرِثَ الْمَآثِرَ عَنْ أبِيه
وَشِبْلُ اللَّيْثِ عَدَّاءٌ هَصُورُ

يَصِيدُ بِفِكْرِه نُكَتَ الْمَعَانِي
كَمَا انْقَضَّتْ عَلَى الصَّيْدِ الصُّقُورُ

وَيَلْمَحُ هَاجِسَ الأفْكَار حَتَّى
كَأنَّ بِهَا يُنَاجِيهِ الضَّمِيرُ

فَمِنْ آرَائِهِ البَرَكَاتُ تُجْنَى
فَيَسْهُلُ عِنْدَهَا الأمْرُ الْعَسِيرُ

يَجُودُ بَدِيهَةً بِنِكَاتِ بَحْث
إذَا انْبَهَمَتْ عَلَى الخرقِ (2) الأمُورُ

جَرَى ذِكْرِي مِنَ الإخوانِ لَيْلاً
بِمَحْضَرِهِ ، وَأنِي لَوْ أزُورُ

وَمِنْهُ الإذْنَ لِي طَلَبُوهُ كَيْمَا
مِنَ ارْضِ الْقَيْرَوَانِ لَهُمْ أسِيرُ

وَكَانَ الذِّكْر لَيْلَةَ أرْبَعَاء
وَفِي غَدِهَا أتِيحَ لِيَ الْمَسِيرُ

---

(1) ايقاعـا بالاعداء ، وجدوى للاولياء .
(2) الخرق : عديم الصنعة .

تَخَاطَبَتِ النُّفُوسُ عَلَى بِعَادٍ
لأُلْفَتِهَا ، وَلَيْسَ لَهَا شُعُورُ

وَطَاعَتْهَا الْجُسُومُ إلَى التَّلاَقِي
وَسِرُّ الأمْرِ أنْ أذِنَ الأمِيرُ

فَأخَّرْتُ السَّلاَمَ عَلَيْهِ يَوْماً
فَعَاتَبَ ، وَالْجَوَابُ بِهِ قُصُورُ

[66 – أ] / فَقِيلَ : «إذَا أجَبْتَ بِغَيْرِ نَظْمٍ
فَإنَّ العتْبَ لَيْسَ لَهُ فُتُورُ»

فَقُلْتُ لَهُ : أيَا مَلِكَ الْمَزَايَا
وَمَنْ مِنْهُ الْمَسَائِلُ تَسْتَعِيرُ

أرَدْنَا أنْ نَجِيءَ بِفَالِ خَيْرٍ
وَحُسْنُ الفَالِ لَيْسَ لَهُ نَكِيرُ

فَقَدَّمْتُ التَّأخُّرَ يَا مَلِيكِي
وَقَلْبِي نَحْوَ حَضْرَتِكُم بَصِيرُ

فَكَيْفَ أقَدِّمُ التَّقْدِيمَ عَنْهُ
وَفِي التَّأخِيرِ خَيْرٌ يَا خَبِيرُ

فَلاَزِلْتَ الْمُقَدَّمَ فِي الْمَعَالِي
وَفَرْعُكَ فِي الزَّمَانِ هُوَ الأخِيرُ

وَلاَ بَرِحَتْ لَيَالِيكَ اللآلِي
تُقَلِّدُ لِلدُّهُورِ بِهَا نُحُورُ

وَلاَزِلْتَ الْمُفِيدَ لَنَا كَمَالاً
وَرَبُّ الْخَلْقِ عَاضِدُكَ النَّصِيرُ

وَلاَ قَرَعَتْ لَكَ الأسْوَاءُ بَاباً
وَلاَ دَبَّتْ بِسَاحَتِكَ الشُّرُورُ

وقال أيضا :

لاحَ سَعْدُ السُّعُودِ بِالأفْرَاحِ
وَالتَّهَانِي بِيَوْمِ عِيدِ الأضَاحِي
وَالْمَسَرَّاتُ وَاجَهَتْ بِوُجُوهٍ
نَيِّرَاتٍ مُسْتَبْشِرَاتٍ صِبَاحِ
وَرِيَاضُ الْحُبُورِ تُزْهِرُ بِالنَّوْرِ
عَلَيْهَا بَلابِلُ الانْشِرَاحِ
وَطُيُورُ الإقْبَالِ تَهْتِفُ بِالتَّبْـ
ـشِيرِ فِي كُلِّ غُدْوَةٍ وَرَوَاحِ
وَتَجَلَّتْ عَرَائِسُ الأنْسِ وَالْبِشْرِ
عَلَيْهَا مَلابِسُ الأفْرَاحِ
وَازْدَهَى الدَّهْرُ بِالأمِيرِ عَلِيِّ ابْـ
ـنِ حُسَيْنِ الْحُلاحِلِ الجَحْجَاحِ
مَلِكٌ ذُو جَلالَةٍ ، وَجَمَالٍ ،
وَعَفَافٍ ، وَسُؤْدَدٍ ، وَفَلاحِ
وَذَكَاءٍ ، وَنَجْدَةٍ ، وَوَقَارٍ ،
وَاتِّجَارٍ فِي صَالِحٍ ، وَرَبَاحِ
نَدِسٍ ، حُوَّلٍ ، هَصُورٍ ، حَيِيٍّ
ألْمَعِيٍّ ، سَمَيْذَعٍ نَفَّاحِ
مَلِكٌ يَجْذِبُ الْقُلُوبَ بِمَغْنَا
طِيسِ أخْلاقِهِ الْكِرَامِ الْفِسَاحِ
هِمَمٌ تَعْتَلِي الثُّرَيَّا اعْتِلاءً
وَعَلَيْهَا الْجَوْزَاءُ مِثْلَ الْوِشَاحِ

خُلُقٌ وَاسِعٌ وَبَاعٌ طَوِيلٌ ،
وَزِنَادٌ فِي الرَّأيِ غَيْرُ شَحَاحِ
لَيِّنُ الجَانِبِ الرَّفِيعِ ، نَظِيفُ الْـ
ـعِرْضِ ، مُرُّ النِّزَالِ ، حلْوُ الْمِزَاحِ
مَأمَنُ الْخَائِفِ الْمَرُوعِ ، وَيَخْشَا
هُ لَدَى الْحَرْبِ كُلُّ شَاكِي السِّلاحِ
الْعَدِيمُ النَّظِيرِ عَفْواً وَحِلْماً ،
وَالعَطُوفُ الصَّفُوحُ لا فِي السَّفَاحِ
/ يَقْتُلُ الْمَاكِرَ الْمُخَادِعَ بِالعَفْـ [66 — ب]
ـوِ ، وَبِالصَّفْحِ ، لا بِبِيضِ الصِّفَاحِ
لَيْسَ يُرْضِيهِ أنْ تَكُونَ أعَادِ
يهِ بِوَجْهِ الصَّعِيدِ مِثْلَ الأضَاحِي
بَلْ يُرْضِيهِ مِنْهُمُ الجَزْمُ بِالسِّلْـ
ـمِ ورَفْعُ الأذَى ، وَخَفْضُ الْجَنَاحِ
كُلُّ هَذَا تَنَزُّهٌ عَنْ دِمَاءٍ
سَفْحُهَا بِالصِّفَاحِ غَيْرُ مُبَاحِ
نَالَ مِنْهُ الأنَامُ نَيْلَ الأمَانِي
وَأمَانَ الأشْبَاحِ وَالأرْوَاحِ
وَصَلَ الْفَصْلَ بِالصَّلاةِ ، وَبِالأوْ
رَادِ وَالْفِقْهِ ، وَالْحَدِيثِ الصِّحَاحِ
فَإذَا مَا دَجَتْ دَيَاجِي الْمَعَانِي
لاحَ مِنْ فِكْرِهِ سَنَا الْمِصْبَاحِ
وإذَا مَا عَلَيْكَ يُرْتَجُ بَابُ الْـ
ـفَهْمِ أوْمَا إلَيْكَ بِالْمِفْتَاحِ

وَبَنَاتُ الأفـكَارِ فِـي الـكُتُبِ تُجْلَى
بِيَدَيْهِ لاَ الرَّاحُ فِـي الأَقْدَاحِ
هَذَّبَتْنَا أَخْلاَقُهُ وَسَقَتْنَا
رَاحَ أُنسٍ لَـكِنْ بِغَيْرِ جُنَاحِ
عَلَّمَتْنَا الآدَابَ فِـي الْجِدِّ وَالهَزْلِ
بِلاَ هُجْنَةٍ وَلاَ اسْتِقْبَاحِ
غَمَرَتْنَا آلاَؤُهُ فَسَبَحْنَا
فِـي بِحَارِ الْعَطَاءِ لاَ الضَّحْضَاحِ
إن يَضِنَّ السَّحَابُ بِالْقَطْرِ يَزْخَرْ
بَحْرُ كَفَّيْهِ بِالنُّضَارِ الصُّرَاحِ
وإذَا صَوَّحَتْ رِيَاضُ الأَمَانِـي
أَزْهَرَتْ مِنْ نَوَالِهِ السَّمَّاحِ
مَن كمِثْلِ البَاشَا عَلِـي بْن حُسَيْن ابْـ
ـنِ عَلِـيّ فِـي جَودِهِ الطَّفَّاحِ ؟
مَنْ يُضَاهِـي عَلِياً بْنَ حُسَيْن ابْـ
ـنِ عَلِـيّ فِـي عِفَّةٍ وَصَلاَحِ ؟
مَنْ يُجَارِي عَلِيًّا بْنَ حُسَيْن ابْـ
ـنِ عَلِـيّ فِـي عَقْلِهِ الرَّجَّاحِ ؟
يَا مَلِيكَ الْفَخَارِ وَافَاكَ عِيدٌ
عَائِدٌ بِالسُّرُورِ وَالأفْرَاحِ
بَاسِمَ الثَّغْرِ ، مُشْرِقَ الْوَجْهِ ، قَدْ
حُلِّيَ نَحْراً بِنُورِكَ الْوَضَّاحِ
وَكَسَاهُ الْبَهَاءَ حُسْنُكَ ، وازْدَادَ
عَبُوقاً بِطِيبِكَ الفَيَّاحِ

خدَمَتْكَ السعودُ فيهِ عَلَى الأَ
قْدَامِ تَسْعَى كَمِثْلِ خودٍ رَدَاحِ
وأتَى لِلْهَنَاءِ وَهْوَ كَبِيرٌ
لاَثِماً كَفَّ آمِرٍ جَحْجَاحِ
كَـيْ يَرَى زَحْمَةَ الشِّفَاهِ عَلَى لَثْمِ
بَنَانٍ يَشْفِـي الصَّدَى صَفَّاحِ
عِشْ لأمْثَالِهِ مُعَافًى إلَى مَا
لَيْسَ يُحْصَى ، فِـي رَاحَةٍ وَارْتِيَاحِ
لَكَ الايَّامُ وَاللَّيَالِـي عَبِيدٌ
وَإمَاءٌ ، مَا إنْ لَهَا مِنْ بَرَاحِ
/ سَالِماً مَعْ بَنِيكَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ [67 – أ]
يَا أَمَانَ النُّفُوسِ وَالأَشْبَاحِ
وَاعْلُ ،وَاسْعَدْ،وَاصْعَدْ،وَدُمْ،وتنعَّمْ،
وَتَيَمَّنْ بِيُمنِ عيدِ الأضَاحِـي

وقلت من عيدية لم يحضرني منها الآن إلاّ قولي :

لَمْ يَحْمِلِ الْقَلْبُ فِيكَ مَا حَمَلاَ
لِيَنْثَنِـي حِينَ يَسْمَعُ الْعَذَلاَ
وَلَمْ تَبِتْ مُقْلَتِـي مُسَهَّدَةً
لِتَرْتَضِـي مِنْكَ فِـي الْهَوَى بَدَلاَ
قَدْ أَحْرَقَ الْحُبُّ قَبْلُ أَفْئِدَةً
أَمَّا كَوَجْدِي الذِي أُجِنُّ فَلاَ
خُفُوقُ قَلْبٍ ، وَلَوْعَةٌ ، وَبُكَا ،
لِلَّهِ هَذَا الْغَرَامُ مَا فَعَلاَ

وكُلُّ ذَا هَيِّنٌ ومُحتَمَلٌ
مَا لَمْ يَكُنْ مِنْكَ بَغْضَةٌ وقِلَى

يا ظَبْيَ أنس رَعَى الحَشَا ثَمَراً
وبَدْرَ تَمٍّ بِالْقَلْبِ قَدْ نَزَلاَ

مَاذَا تَرَى فِي مُتَيَّمٍ أخَذَتْ
عَلَيْهِ أيْدِي الصَّبَابَةِ السُّبُلاَ

يَحِنُّ لِلأمْرِ تَرْتَضِيه لَهُ
وَلَوْ غَدَا سَائِقاً لَهُ الأجَلاَ

وَهَبْكَ أتْلَفْتَهُ – تَعِيشُ – فَهَلْ
أوَّلُ صَبٍّ فِي الْحُبِّ قَدْ قُتِلاَ ؟

أيَّةَ نَارٍ قَدَحْتَ فِي كَبِدِي
يُوقِدُهَا الدَّمْعُ كُلَّمَا انْهَمَلاَ

وَأيُّ قَلْبٍ – بِاللَّهِ – حَمَّلَهُ
هَوَاكَ مَا لاَ يُطِيقُ فَاحْتَمَلاَ

نَاشَدْتُكَ اللَّهَ – نَسْمَةٌ نفحت
مِنْ جَانِبِ الرَّمْلِ تَشْتَكِي العِلَلاَ –

هَلْ ذَلِكَ الشَّادِنُ الرَّبِيبُ – وَقَدْ
أضْرَمَ قَلْبِي – يُبَرِّدُ الغلَلاَ

إيهٍ ! وَإنْ كَانَ حُبُّهُ أجَلاً
فَرُبَّمَا حَسَّنَ الْهَوَى أجَلاَ

أحِبُّهُ أوْ يُعِيدَ مُقْتَدِحٌ
لِلزَّنْدِ سِقْطاً مِنْ بَعْدِ مَا اشْتَعَلاَ

ومن مديحها :

الْفَارِسُ الطَّاعِنُ الْكَتِيبَةَ لاَ
يُرِيدُ مِنْهَا سِوَى الدِّمَا نَفَلاَ

وَالْوَاهِبُ الْخَيْلَ فِي أعِنَّتِهَا
فُرْسَانُهَا تَحْمِلُ الْقَنَا الذُّبُلاَ

وَالْجَيْشَ قَدْ جَرَّ خَلْفَ سَاقَتِهِ
غَنَائِماً ، وَالْبِلاَدَ ، وَالدُّوَلاَ

فَعَدِّ عَنْ حَاتِمٍ وَشُهْرَتِهِ
فَغَايَةُ الأمْرِ أنْ حَبَا إبِلاَ

يَأذَنُ لِلضَّيْفِ وَالْمُبَارِزِ فِي
زِيَارَةٍ ، ثُمَّ يَمْنَعُ الْقَفَلاَ

جَارَتْ عَلَى الْمَالِ كَفُّهُ فَغَدَا
يَقُولُ : مَهْلاً ، يَا خَيْرَ من عَدَلاَ

[67 – ب] / وكلَّمَا أذْهَبَتْهُ مِنْ ذَهَبٍ
عَوَّضَهَا اللَّهُ قَدْرَهُ قِبَلاَ

وَيَكْرَهُ السَّفْكَ لِلدِّمَاءِ فَلاَ
يَقْتُلُ إلاَّ الْمُبَارِزَ الْبَطَلاَ

تَطِيرُ مِنْ حَوْلِهِ الْفَوَارِسُ إنْ
زَحْزَحَ طَرْفاً وزَعْزَعَ الأسَلاَ

هِمَّتُهُ الْمَكْرُمَاتُ يُبْدِعُهَا
مَا كَلَّ عَنْهَا – كَلاَّ – وَلاَ نَكَلاَ

تَصْدُرُ عَنْهُ الْمُلُوكُ حَافِلَةً
تَسْتَعْظِمُ الرِّفْدَ وَهْوَ مَا احْتَفَلاَ

يَا مَلِكاً مِنْ عُلُوِّ هِمَّتِهِ
لَوْ أمَرَ الدَّهْرَ جَاءَ مُمْتَثِلاَ

كَيْفَ دَعَاكَ الأنَامُ فَارِسَهُمْ
وَأنْتَ تَخْشَى مِنْ قَوْلِهِمْ : بَخِلاَ

سَاوَاكَ فِي الْجُودِ عَارِفٌ بِكَ لَمْ
يَسْتَقْصِ مَا قَدَ مَلَكْتَ إِذْ سَأَلاَ

قَدْ سَارَ يَطْوِي الْبِلاَدَ صِيتُكَ لَمْ
يَسْتَثْنِ مِنْهَا سَهْلاً وَلاَ جَبَلاَ

لَمْ يَأْتِ أَرْضاً إِلاَّ أَصَابَ بِهَا
مِنْ جُودِ كَفَّيْكَ عَارِضًا هَطِلاَ

صَبَغْتَ قَلْبِي صَبْغًا بِحُبِّكَ لَوْ
حَكَتْهُ زُرْقُ النِّصَالِ مَا نَصَلاَ

وَكَيْفَ لاَ أَسْتَهِيمُ فِيكَ وَقَدْ
نَوَّهْتَ بِاسْمِي مِنْ بَعْدِ مَا خَمَلاَ

أَلْبَسْتَنِي نِعْمَةً مُضَاعَفَةً
وَزِدْتَ حَتَّى سَلَبْتَنِي الأَمَلاَ

وقال الأديب الكاتب أبو عبد الله محمد بن أحمد الورغي وذكر أبناءه الكرام :

مَحَاسِنُ الْعِيدِ يَوْمٌ إِنْ صَفَا الزَّمَنُ
أَمَّا وُجُودُكَ فَهْوَ الدَّائِمُ الْحَسَنُ

وَلَوْ سَأَلْنَا بِكَ الأَعْيَادَ مَا حَكَمَتْ
إِلاَّ بِأَنَّكَ رُوحٌ ، أَوْ هِيَ الْبَدَنُ

فَهْيَ الْمُهَنَّاةُ إِذْ كُنْتَ الْحَيَاةَ لَهَا
وَإِنْ جَرَى بِخِلاَفِ ذَلِكَ السَّنَنُ

فَاهْنَأْ بِعِيدٍ تَمَامُ الْعَشْرِ لَيْلَتُهُ
وَصُبْحُهُ بِافْتِتَاحِ السَّيْرِ مُقْتَرِنُ

تُعْطِيكَ مِنْ بَعْدِهِ الأَيَّامُ بَالِغَةً
لِمِثْلِهِ مِنَناً فِي إِثْرِهَا مِنَنُ

تَنَالُ مِنْهَا الْجَدِيدَ اللَّيِّنَ تَلْبَسُهُ
عَفْواً ، وَيَنْحَطُّ عَنْكَ الدَّارِسُ الْخَشِنُ

حَتَّى تَرَى مِنْ سُلَيْمَانَ وَتَابِعِهِ
مُحَمَّدٍ (1) مَا تَلَذُّ الْعَيْنُ وَالأُذُنُ

وَتَرْتَقِي بِأَبِي عَمْرٍو لِغَايَتِهِ
وَمَا تَخَافُ عَلَى الْمَأْمُونِ مُؤْتَمِنُ

أَفْلاَذُ قَلْبِكَ هُمْ فِي نَفْسِ وَامِقِهِمْ (2)
شَأْنٌ وَفِي عَيْنِ مَنْ يَشْنَاهُمُ شَجَنُ

مِنْ كُلِّ أَرْوَعَ يُسْتَشْفَى بِطَلْعَتِهِ
وَيَسْتَجِيرُ بِهِ مِنْ هَمِّهِ الأَحِنُ

أَعِزَّةٌ لِمَقَامِ الْمُلْكِ رَشَّحَهُمْ
ذَكَاؤُهُمْ وَهُمُ مِنْ بَعْدُ مَا خُتِنُوا

[68 – أ] / بَلْ مَا اسْتَهَلَّ لَدَى الْمِيلاَدِ صَارِخُهُمْ
إِلاَّ وَعَقْدُكَ فِي كَفَّيْهِ مُرْتَهَنُ

تَبَادَرُوهُ فَلاَ فِي كَفِّ حَامِلِهِ
مِنْهُمْ نُكُولٌ ، وَلاَ فِي طَبْعِهِ دَدَنُ (3)

تَوَدُّهُمْ صَهَوَاتُ الْخَيْلِ حِينَئِذٍ
وَهُمْ عَلَى الرَّكْضِ فِي الأَرْحَامِ قد مَرِنُوا

وَقَوْلُكَ وَحْشَةَ قَوْلِ النَّاسِ : مُنْفَرِداً
وَقَوْلُهُمْ : سَرْحَةٌ مَا إِنْ بِهَا غُصُنُ !

(1) هو ابنه حمودة الشهير وكان الاقدمون يعتبرون هذا الاسم تصغيرا – او تدليلا – فلا يكتبونه في الرسميات ، لذلك تجد في بعض التواريخ تسمية حمودة المرادي بمحمد باشا . وفي ز : حمودة بدل محمد على الواقع وهو وزن مصروف للضرورة فينبغي الرجوع اليه لأنه صار علما مشهورا والأعلام لا تغير .

(2) المقة : المحبة .

(3) لعب .

بَلْ هُم جَمَالُكَ إنْ بَاهَيْتَ مُفْتَخِراً
وَهُمْ سُيُوفُكَ ـ لا مَرَّتْ بِكَ الْفِتَنُ ـ

وَهُمْ عَلَى الدَّهْرِ سَوْطٌ إنْ بَغَى حَرَناً
وَحَيْثُ يَجْمَحُ هُمْ فِي رَأْسِهِ رَسَنُ

فَمَا تُخَالِفُ عَنْ مَرْضَاكَ نَافِرَةٌ
إلاَّ وَمِنْهُمْ عَلَى أعْنَاقِهَا شَطَنُ (1)

وَمِثْلُهُمْ لَيْسَ قَدْرُ السِّنِّ يَرْفَعُهُ ،
بَلِ الشَّمَائِلُ وَالأحْسَابُ وَالفِطَنُ

يَقُولُ فِيهِمْ مُدِيرُ اللَّحْظِ يُبْصِرُهُمْ
إذَا تَفَرَّسَ : عِلْقٌ مَا لَهُ ثَمَنُ

وَمَنْ تَكُنْ أبَهُ اسْتَغْنَى بِجَوْهَرِهِ
عَنِ الْمَزِيدِ وَأرْضَى كُلَّ مَنْ يَزِنُ

تِلْكَ الْمَكَاسِبُ لاَ تَأْتِي بِهَا إبِلٌ
مِنَ الْقَصِيِّ ، وَلاَ تَأْتِي بِهَا سُفُنُ

كَسَبْتَهُمْ بعد مَا عَمَّرْتَ غَامِرَةً
مِنَ الْفَيَافِي ، وَشَابَ الرأسَ وَالذَّقَنُ

وَخُضْتَ بَحْراً مِنَ الأهْوَالِ ، سَاحِلُهُ
حَيْنٌ ، وَلُجَّتُهُ الآفَاتُ وَالْمِحَنُ

مَا تَسْتَقِلُّ بِأرْضٍ تَبْتَغِي سَكَناً
إلاَّ رَمَتْكَ بِأرْضٍ مَا بِهَا سَكَنُ

وَحَيْثُمَا لاَحَ وَجْهُ الضَّيْمِ فِي وَطَنٍ
كَانَتْ ظُهُورُ الْمَذَاكِي عِنْدَكَ الْوَطَنُ

(1) حبـــل .

قَطَعْتَ أحْقَافَ «سُوفٍ» وَهِي مَجْهَلَةٌ
لاَ تَسْتَقِرُّ بِهَا الأخْفَافُ وَالثَّفِنُ (1)

وَفِي مَهَامِهِ «تُقُرْتٍ» وَفَدْفَدِهَا
كَلَّتْ ـ سِوَاكَ ـ أولُو الأبْدَانِ وَالْبُدُنُ

وبعْد كشفك مَا بِـ«الزَّابِ» مِنْ طُرُقٍ
دَعَاكَ «نَاجٍ» وَنَاجٍ كَاسْمِهِ حَسَنُ

فَزُرْتَهُ وَعَلَى «خَيْرَانَ» مَا نَكَصَتْ
بِكَ الْعِتَاقُ وَلا وَلَّى بِهَا العَطَنُ

وَقَدْ تَرَقَّيْتَ فِي أعْلاَمِ «نَازِيَةٍ»
مَنَازِلاً مَا بِهَا مِنْ طَيْرِهَا وُكَنُ

وَجِئْتَ «أورَاسَ» تَطْوِي كُلَّ شَاسِعَةٍ
تَمْتَدُّ فِيهَا بِكَ الأطْلاَلُ وَالدِّمَنُ

مَدَاحِضٌ قَلَّمَا يَنْفَكُّ سَالِكُهَا
عَنِ التَّوَرُّطِ أوْ يَنْجُو بِهَا اللَّقِنُ

يَرْتَاعُ مِنْ وَصْفِهَا مَنْ جَاءَ يَسْمَعُهُ
فَكَيْفَ مَنْ جَالَ فِيهَا وَهْوَ مُمْتَحَنُ ؟

وَأنْتَ تَمْرَحُ فِيهَا غَيْرَ مُكْتَرِثٍ
بِحَيْثُ تَعْجَبُ مِنْكَ الغَوْرُ وَالقُنَنُ

فَلاَ يَصُدُّكَ لَفْحُ الشَّمْسِ عَنْ غَرَضٍ
وَلاَ يَرُدُّكَ عَنْهُ العَارِضُ الهَتِنُ

/ وَتُؤْثِرُ اللَّيْلَ عَنْ سَيْرِ النَّهَارِ بِهَا [68 ـ ب]
كَأنَّمَا أنْتَ فِي جَفْنِ الدُّجَى وَسَنُ

(1) ثفنات البعير : ما يبرك عليه ، وخفه معروف ، وفي هذه الابيات اسماء بلدان واقطار معروفة بصحراء الجزائر كان لجأ اليها الممدوح في فتنة ابن عمه .

يَخَافُكَ الْخَوْفُ إِنْ نَازَلْتَ مُعْضِلَةً
هَذَا وعِرْضُكَ صَافٍ مَا بِهِ دَرَنُ
حَتَّى ظَفِرْتَ بِإِرْثٍ كُنْتَ تَطْلُبُهُ
وَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا عِلْمُهُ عَلَنُ
لاَ يَحْسَبِ الْمَجْدَ مَنْ يَبْغِيهِ مَأْدُبَةً
سكنى الْجِنَانِ شَهِيٌّ دُونَهُ الْجَنَنُ (1)
~~يَا مُوسِعَ الْخَلْقِ مِنْ إِشْرَاقِ هِمَّتِهِ~~
إِلاَّ أَنَا فَنَصِيبِي مِنْهُ مُمْتَهَنُ
إِنْ كَانَ حُبُّكَ يُدْنِي مِنْكَ مَنْزِلَةً
فَإِنَّنِي قَبْلَ مَنْ يُدْلِي بِهِ قَمِنُ (2)
هَاذِي نَتَائِجُ فِكْرِي قَدْ أَقَمْتُ بِهَا
دَلِيلَ صِدْقٍ لِمَنْ يَبْلُو وَيَمْتَحِنُ
~~أَخَذْتُهَا~~ مِنْكَ إِلاَّ أَنَّ حِلْيَتَهَا
يَصُوغُهَا كَيْفَ شَاءَ الْحَاذِقُ اللَّسِنُ
كَفَتْكَ أَنْ تَرْتَجِي تَعْدِيلَ شَاهِدِهَا
لا يَسْطَعُ الطِّيبُ مَا لَمْ تَصْلُحِ الجُونُ (3)
فَلْتَجْزِنِي بَعْضَ وِدٍّ كَيْ أَقُولَ لِمَنْ
يَلُومُنِي : إِنَّ بَيْعِي مَا بِهِ غَبَنُ
فَإِنَّ حُبَّكَ شَيْءٌ إِنْ سَمَحْتَ بِهِ
زَكَتْ به النَّفْسُ وَانْقَادَتْ به الشُّجُنُ (4)
وَلاَ يَقِلُّ قَلِيلٌ أَنْتَ وَاهِبُهُ
يُضِيءُ بِالْقَبْسَةِ الرُّسْتَاقُ وَالْمُدُنُ

(1) الجنن : القبر .
(2) خليق وجدير .
(3) ج جونة :وعاء الطيب .
(4) ج شجنة مثلثة كرابطة الرحم .

واسْلَمْ هَنِيئاً قَرِيرَ الْعَيْنِ فِي دَعَةٍ
ودُمْ كَمَا دَامَ فِي هاذِي الدُّنا حَضَنُ (1)

وهذه القصيدة جمعت بين الشَّذْرَة والمَدَرَة والغُرَّةُ والعُرَّة فقد اشتملت على الجيّد العالي الذي لا يتعلق به أحد ، والرديء السّافل الذي لا يرضى به أحد . فمن أوابدها قوله :

تودّهم صَهَوَاتُ الْخَيْلِ حِينَئِذٍ
وهُمْ على الرَّكْضِ فِي الأَرْحَامِ قد مَرَنوا

فإن هذا البيت مع كونه مأخوذا من قول أبي بكر ابن الأبيض الإشبيلي من قطعة فِي مولود أنشدها له أبو بحر صفوان ابن إدريس في زاد المسافر . وهي :

يَا خَيْرَ مَعْنٍ وَأَوْلاَهَا بِعَارِفَةٍ
شُكْراً لِنَعْمَاءَ عَنْهَا الدَّهْرُ قَدْ نَعَسَا
لِيَهْنِكَ الْفَارِسُ الْمَيْمُونُ طَائِرُه
لِلَّهِ أَنْتَ ، لَقَدْ أَذْكَيْتَه قَبَسَا
أَصَاخَتِ الخيلِ آذَاناً لِصَرْخَتِه ،
وَارْتَاعَ كُلُّ هِزَبْرٍ عِنْدَمَا عَطَسَا
تَعَشَّقَ الدِّرْعَ إِذْ شُدَّتْ لَفَائِفُهُ
وَأَبْغَضَ الْمَهْدَ لَمَّا أَبْصَرَ الْفَرَسَا
تَعَلَّمَ الرَّكْضَ أَيَّامَ الْمَخَاضِ بِهِ
فَمَا امْتَطَى الْخَيْلَ إِلاَّ وَهْوَ قَدْ فَرَسَا
بَشِّرْ قَبَائِلَ مَعْنٍ أَنَّ سَيِّدَهَا
قَدْ أَتْمَمَ الْمُلْكَ بِالْفَرْعِ الذي غَرَسَا

(1) حضن جبل مشهور ، وفي المثل « انجد من رأى حضنا » أي دخل نجدا

أردت البيت الخامس ، فقد قصّر عنه غاية التقصير وتبارد ما شاء بكلمة «حينئذ» فإنها ما / [69 — أ] صادفت موقعها ولا أصابت مَحزّها . والطّامة الكبرى قوله «في الأرحام» فإنه لا يذكر هذه اللفظة في حرم الملوك إلاّ من أصابه البِرسام . (1)

ومن محاسنه قوله : «كأنّما أنت في جفْن الدُّجا وسن» .

فإن هذا المصراع وإن كان قد أخذه من قول المتنبي :

وَقَفْتَ وَما فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ
كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهْوَ نَائِمُ

ومن قول ابن زيدون بعده :

سِرَّانِ فِي خَاطِرِ الظَّلْمَاءِ يَكْتُمُنَا
حَتَّى يَكَادَ لِسَانُ الصُّبْحِ يُفْشِينَا

إلاّ أنه أحسن الأخذ وأتى به في غاية الحسن .

[الحكمة الخلقية]

واما حسن التدبير وثقابة الراى وصواب الظن

فكثيراً ما يرى الرأي في مُهِمّات الأمور يخالفه في مباديه كلّ من يعرض عليه ، ثم لـمّا تبين عاقبته ينجلي الأمر بصوابه ، ويَعترف كلّ ما أنكره بإصابته ، وأنه لا ينبغي أن يكون الأمر إلاّ كذلك ، وذلك لِبَصارته بعواقب الأمور وخبرته ، كما قلت من جملة قصيدة تقدمت في موضعها (2) :

بَصِيرٌ بِأَعْقَابِ الأُمُورِ كَأَنَّمَا ... يُرِيهِ حِجَاهُ شَاهِداً كُلَّ غَائِبِ
وَكُلٌّ يَرَى صَدْرَ الأُمُورِ ، وَإِنَّمَا ... تَبِينُ مَزِيَّاتُ النُّهَى فِي الْعَوَاقِبِ

(1) الحمى .

(2) في ثورة وسلات ـ اول هذا الجزء ـ .

فمن ذلك ما رآه من النظر السديد في مُطاولة أهل وسلات ، لمّا شقّوا العصا ، وخرجوا عن الطّاعة ، وكفّه عن قتالهم في عُقْر جبلهم لِعلمه بأنّ قتالهم في تلك الأوعار والمداحِض التي أحاطوا عِلْما بمَتالفها ، وسَهُل عليهم لطول التمرّن سلوكها ، ممّا يزيدهم جُرْأة وقوّة شوكة ، وإنْ كان النّظر هو مناجزة الثائر ، وترك المطاولة معه فإن المُطاولة ممّا تنفع صاحب الدّولة المُستجَدّة دون المستَقِرّة ، كما تبيّن في محلّه ، لكنّ ذلك إذا كان القتال مُجْديا في دفاعهم ، ومحصّلا للغرض من استئصالهم . ولذلك لـمّا نبذت ماجر وأولاد عيّار الطاعة ، وتابعوا أهل وسلات ، وشايعوهم على النفاق ، بادر ـ أيّده الله تعالى ـ لمناجزتهم وأخذهم ، وغزاهم بمكانهم من البَسائط التي لا يخشى على أجناده من التورُّط [في مهالكها] ، وترك أهل وسلات وجبلهم ، ولم يعرض لهم بغيْر الأخْذ بِمُخَنَّقِهِمْ بالْمَحَلاّتِ الْمُحَاصِرة لهم ، وقطع المادّة عنهم ، واجْتِثاث زرعهم كما تقدّم تفصيله . فكانت عاقبة ذلك أمرا لم يكن في الحساب : من نزولهم من جبلهم ـ وهم أمنع من عُقاب لُوحِ الجوّ ـ وصيرورته مرعى للذئب ، ومأوَى للبوم وإجابة الصّدى ، بعد التأهيل البالغ ، والعِمارة الكاملة ، والمنعة التي اعترضت شَجىً في صدور من يرومهم ، بحيث لا / [69 — ب] تطمع الملوك منهم بأكثر من الطاعة . أمّا حسم مادّتهم ، وخَضْد شوكتهم ، واستئصال شأفتهم ، واستنزالهم من معاقلهم ، وصيرورتهم عبيدا لِلْعَصا ، وخَوَلاً للمغارم ، فَمِمّا لا مَطْمَع لأحد فيه .

ومن ذلك مُلاَيَنَتُه لِلْفَرَنْسيس لـمّا نقضوا الصلح في مبادىء الفِتْنة بين السُّلطان والموسكو وجُنُوحه لِلسِّلْم لـمّا جَنَحوا لها ، لمـا رأى في ذلك من المصلحة العظمى ، والحَوْطَة لِحوْزة الإسلام ، والنظر العامّ للمسلمين [كما تقدم تفصيله وصارت بعد ذلك مراكبهم تذهب وتجيء بسلام المسلمين] (1) في خِفارتهم إلى جميع البلاد . وربح التجار في ذلك ربحا بالغا ـ ولولا ذلك لاخذ الموسكو ـ خذله الله تعالى ـ ما قدر عليه منها .

(1) الزيادة من ح .

حكى القاضي شمس الدين بن خلّكان في تاريخه « وفيات الأعيان » في ترجمة السُّلطان ملك شاه ابن ألب أرسلان السلجوقي : أنه لَـمَّا مات أبوه في سفره إلى ما وراء النهر وَوَلِـيَ هُوَ الأمْرَ بِوَصِيَّةٍ إليه وتَحْليف الأمراءِ وَالأجناد على طاعته ، وَوَصّى وزيره نِظام الملك أبا علي الحسن بن علي الطوسي بتفرقة البلاد بين أولاده ويكون مرجعهم إلى مَلِكْ شَاهْ ، ففعل ذلك وعَبَر بهم جَيْحون راجعا إلى البلاد . فلمَّا وصل إلى البلاد وجد بعض أعمامه قد خرج عليه ، فعاجله وتصافّا بالقرب من هَمَذَان ، فنصره الله عليه وانهزم عمّه فتَبِعه بعض جند ملك شاه فأسَّروه وحملوه إلى ملك شاه ، فبذل التَّوبة ورضي بالاعتقال وأن لا يُقْتَلَ . فلم يجبه ملك شاه إلى ذلك ، فأنفذ إليه خريطة مملوءة من كتب أمرائه ، وأنّهم حملوه على الخروج من طاعته ، وحسّنوا له ذلك . فدعا السُّلطان الوزير نظام الملك وأعطاه الخريطة ليفتحها ويقرأ ما فيها ، فلم يفتحها . وكان هناك كانون من نار فرمى الخريطة فيه ، فاحترقت الكُتُب ، فسكنت قلوب العساكر وأمِنُوا ووطّنوا أنفسهم على الخدمة ، بعد أن كانوا قد خافوا من الخريطة لأن أكثرهم كان قد كاتبه . وكان ذلك سبب ثبوت قدم ملك شاه في السلطنة ، وكانت هذه معدودة في جميل آراء نظام الملك . انتهى . قلت : هذه الفِعْلة — وإن كانت من الآراء الصائبة الجميلة التي بَقِي ذكرها إلى آخر الدهر — إلاّ أن نِظام الملك لم يكن صاحب الأمر ولا هو المقصود بالثَّوْرة لكونه وزيراً لا مَلِكا ، فلم يكن عنده من هَيَجان القُوَّة الغضبيّة ما يحمِله على ترك الرأي ، وإضاعة الحزم في إحراق الكتب لِيَطَّلع على ما فيها فينتقم من أصحابها . ويُحْتاج في مجاهدة هذا الغضب إلى عقل مُؤَيَّد بالتأييد الإلهي ، ونفس قُدُسِيّة تسوس هذه القوّة ، وتُقدّر حركتها على القدر الواجب ، وتسكّن ثورتها ليظهر لها موقع الرأي . وأيضا لقائل أن يقول : يحتمل أن يكون لنظام الملك كتاب من جملة تلك الكتب فأحرقها كلّها لئلاّ يفتضح — وإن كان الظنّ بنظام الملك تنزيهه عن مثل هذا لكمال عقله ، وعلو همّته ، وتمام مروءته ، ووفور / ديانته ، [70 — أ]
فقد كان من رجال العالم وأفراد الدهر ، رحمه الله تعالى — وعلى كل حال فلم

تكن حاله مثل حال مولانا — أعزّه الله تعالى — لمّا وقع له مثل هذا بعينه مرتين : إحداهما حين هرب إسماعيل بن يونس من وسلات وتفرقت جموعه ، فإنه جيء إليه بخريطة مملوءة من كتب كاتبه بها كثير من رؤساء الجند وأكابر العرب وأعيان البلد ، ففتحها وقرأ ستة كتب منها ، فعلم أصحابها ثم ردّها إلى الخريطة وأمر بإحراقها بجميع ما فيها ، فأحْرِقت في الحال . ولمّا تَواتَر عند الناس إحراقها سكنت نفوسهم واطمأنّوا وأمِنوا ووطّنوا أنفسهم على النُّصح والخدمة — كما وقع من عسكر ملك شاه بعينه — وأغرب من هذا أنه لم يُعاقب الستة الذين اطّلع على كتبهم ، ولا عرّفهم أنه علم ذلك منهم ، ولا سمعوا به . وقد مات بعضهم وبعضهم باق إلى الآن لا شعور له بشيء من ذلك . والثّانية لمّا أخذ عثمان الحدّاد — الذي ثار بجبل خمير وادّعى أنه ابن يونس ، وأتِـيَ به أسيرًا إلى الحضرة كما تقدّم (1) شَرْح ذلك — أتي معه بخريطة كُتُبٍ كاتبه بها أيضا من يريد الفساد ، فلم ينظر — أيّده الله تعالى — في شيء منها وأمر بإحراقها فأحرقت ، فحصل بذلك الأمْن والطُّمأنينة لِجميع العرب وغيرهم . وهذه الغاية لا تدرك من كمال العقل ، وحسن التّدبير ، وقهر الغضب ، ووُفور الحلم .

ومن آرائه الصائبة وتدبيراته البديهية التي تعجز عنها الأنظار الدقيقة في الأزمنة الطويلة أنه لما عيّن صاحب الجزائر المحلّة لاسترداد مُلْكه ومُلْك أخيه من علي باشا ، وفَصَل مولانا — أيده الله تعالى — عن [الجزائر إلى] قسنطينة ليضمّ إليه أطرافه ، وتجتمع إليه قواصيه ويزيح عللهم ، وانتشر الخبر في قبائل العرب من أهْل إفريقيّة ، فتتابعت عليه وفودهم ، وخرج صحبة حسن باي صاحب قسنطينة حتى نزل على « بشر » . فاجتمعت عليه قبائل العرب من إفريقيّة ونبذوا طاعة علي باشا واضطربت لذلك إفريقيّة . فعند ذلك بَدَا لصاحب الجزائر في حرب علي باشا ورجع عنه وخاف عاقبته ، وأظهر له بعضُ أكابر دولته [من شيعة علي باشا] النصيحة في ذلك بسبب ما استحكم لعليّ

(1) صوابه كما يأتي .

باشا من المُلك ، وتوسّع فيه من النعم ، واختصّ به من الأموال وكَثُر عنده
من ارتباط الخيل ، واستجادة الأسلحة ، وعظُم لديه من الأهبة المَلَكيّة ،
فقَبِل رأيهم وكتب إلى حسن باي عامله على قسنطينة يأمر بإبطال الحركة ،
ويخبره أنه رجع عن رأيه وأبطل السفر . فاجتمع بمولانا ــ أعزّه الله تعالى ،
وألقى إليه هذا الخبر المزعج ، فما تغيّر لذلك ولا تلعثم ، ولا أظهر له جزعا
ولا خشوعا ، بل أجابه على البديهة بقوله : أما أنا فقد خرجت من تونس
صغيراً وأكثر إقامتي بالجزائر وعملها ، وقد تأنست بسكانها واغتنمت بها
الراحة وهدوّ البال ، فما أهتمّ بهذا الأمر كبير اهتمام . ولكن أخبرني
عنك ، كيف / يكون خلاء أوجاق الجزائر على يدك ، وتبقى معرة ذلك [70 — ب]
عليك إلى آخر الدهر ؟ ــ قال له : كيف ذلك ؟ ــ قال : أنا أبيِّنه لك حتى
تعترف الآن بصحّته ! هل جرت العادة بأنكم إذا توجّهتم إلى قتال ملك
إفريقيّة مع أحَدٍ من ملوكها معكم أن تنقسم نصفين ، فيأتيكم من شيعة الذي
معكم ــ من قبائل العرب وغيرهم ــ ما يقرب من مقاومة الذي بقي منهم مع
صاحب تونس ؟ ويَمُدّونكم بالمِيرة والعلف ويعينونكم بجميع أوجه
الإعانة ؟ وهو ذا ترى من حولي العرب كم يبلغ عددهم ؟ وإنما يأتونكم
وثوقا بغَلَبَتِكم . وقد أتونا عام الكاف ولمّا رجعنا عنها عاقبهم عليّ باشا
أشد العقوبة ، ونكّل بهم كُلّ التنكيل ، فقتل الرّجال ونهب الأموال ، إلاّ
أنّ ذلك لم يصدّهم عن معاودة قصدنا هذا العام ، لما شاع بين الخاصّ والعامّ
من أنّ عِشّي حسن باي الذي [كان] يتولى قسنطينة قبلك لما توجّه بتلك المحلّة
كان في باطن أمره مظاهرًا لعلي باشا ساعيا في نصره ، وإنما انحلّ الأمر
ورجعت تلك المحلّة من الكاف بتدبيره ! وأنت الآن لست كمثله لأنّك قد
جاهرت بعداوة علي باشا ، وأطلقت لسانك بالقول فيه ، فإذا بطل السفر ثبت
عند النّاس أنّ ذلك إنما هو لعجزكم عنه ، وعدم مقاومتكم له ، وعاد هو
إلى نكال من جاءنا من العرب . فإذا شرعتم في الحركة مرّة أخرى لم يأتكم
من إفريقية نافخ ضرمة نار بل يكونون كلّهم عليكم ، ولا طاقة لكم بقتالهم
إذا كانوا مجتمعين . وأخرى أكبر من هذه : وهو أنّكم تظلمون رعاياكم

وتسومونهم الخسف ، وتستبيحون أموالهم ولو أمكنتهم النقلة إلى عمل آخر
ما أقاموا بعملكم يوما واحدا ! ولا يمنعهم من النُّقلة إلى عمل تونس مع قربه
منهم ومجاورته إياهم إلاّ علمهم بأنهم لو انتقلوا لرددتموهم قهرا ،
وزدتموهم من النكال أكثر ، وما تردونهم قهرا إلا لِغَلَبَتِكم واستطالتكم
على صاحب تونس . وحيث بان عجزكم عن مكافأته ــ بعد إظهار تمام العداوة
له ــ استخفَّت بكم الرَّعيّة ، وصار من ناله منهم ضَيْم أوْ أضرَّ به ظُلْم
مِنْ قِبَلِكم يرتحل إليه ، فَيُؤْوِيه ويستظهر به ، ثم إذا طلبتموه لم يردّه
إليكم لتهاونه بكم حيث كنتم عاجزين عنه . ثمّ إذا وقع بينكم وبينه قتال
قاتل عنه من هرب إليه من رعيّتكم أشد قتال ، ودافع عنه أكبر مدافعة ،
خوفا من استيلائكم عليهم ، وعقابكم إيّاهم ، وانعكس الحال ، فقد كنتم أنتم
ورعية تونس إلْباً على ملِكها ، فيصير ملك تونس ورعيته مع رعيتكم إلبا
عليكم ، فقد آل الأمر إلى خلاء عملكم من الرّعايا بالانحياز إلى ملك تونس ،
ثم تغلبه عنكم بكثرة المقاتلين !

فوقع هذا الكلام في نفس حسن باي وأثّر فيه ، وقال له : صدقت والله
وأصبت في جميع ما ذكرت ، ولا يكون هذا على يدي أبدا : ولو كان فيه
تلف نفسي ! ودعا بكاتبه في الحين فأمره أن يكتب إلى صاحب الجزائر ، ويعرفه
بهذه المفاسد الناشئة عن إبطال السّفر ، ويقول في كتابه : / « إمّا أن يتم [71 — أ]
السّفر ، وإما أن أترُك قسنطينة وآتيك تفعل بي ما تشاء ، وإما أن أقتل
نفسي ! » وأرسل بالكتاب وبَقِي مدّة مغيب رسوله واجمًا كاسف البال ،
على غاية من الغمّ ــ ومولانا ــ أيّده الله تعالى ــ يُسلّيه ، ويسكّنه ، ويهوّن عليه
الأمر وفي قلبه من ذلك ما فيه ــ ولمّا بلغ الكتاب إلى صاحب الجزائر حرّك
من عزائمه ، وظهر له فيه وجه الرأي ، وصوّب له خاصّتُه من شيعة المولى
محمّد باي رأى حسن باي ، وقالوا له : أرْم به علي باشا وفوّض له أمر الحرب
فلَنْ تجد من يكفيك أمره مثله ، فأمر بإنفاذ أمر المحلّة ، فكان من أمرها
ما كان .

وقد تقدَّم في أخباره ـ أيّده الله تعالى ـ أنّه لمّا فَصَل عن الخنقة وبلاد الزّاب ، واتّصل ركابه العالي بعِشّي حسن باي صاحب قسنطينة ، ووعده أن يقوم بنصر والده على علي باشا ، وأقام ـ أعزّه الله تعالى ـ بالضّواحي في ناجعته ، وخرج المولى محمد باي من سوسة في محلّته ، والتحق بحسن باي ، وخرج لنصرتهم في محلّة بإذن صاحب الجزائر ، ووافاهم مولانا ـ نصره الله تعلى ـ بناجعته والشّيخ أبو عزيز بن نصر شيخ الحنانشة وزعيم العرب المشهور بالدّهاء والمكر في الحنانشة ومن يتبعهم من الأعراب ، اجتمع حسن باي بأبي عزيز في حِلّته فوقعت بينهما مُغاضبة سَخِط بسببها حسن باي على أبي عزيز حتى شتمه وسبّه . ونهض من حينه راجعا إلى محلّته ، وظَفِر بابنه إبراهيم فاعتقله . فارتحل أبو عزيز من يومه نافضا يده من حسن باي ونازعا إلى علي باشا ، فأهمّ ذلك المولى محمد باي وأقلقه ، وعلِم أنه لا يتمّ له أمر بدون أبي عزيز ، وأن في نزوعه عنهم فساد ما دبّره ، وبُطْلان أمر المحلّة ، فأرسل إلى مولانا ـ أعزه الله تعالى ـ بمكانه من ناجعته يأمره بالرّكوب إلى أبي عزيز ليترضّاه ويردّه عن مقصده ، فامتثل أمر أخيه وسار إلى الشّيخ أبي عزيز في أربعة عشر فارسا من أتباعه . فلمّا وصل إليه ساء رأيه فيه ، وأمر في الحال بتحديد خيله وخيل أصحابه ـ وذلك أمارة الاعتقال ـ وأرسلت إليه امرأة أبي عزيز تعلمه أنه حابسه ليفتكّ ابنه من حبس حسن باي . فورد عليهم من ذلك أعظم وارد ، وفزع أصحابه وانزعجوا لِما يعلمون من غدر أبي عزيز . وخافوا أنه إذا لم يتهيّأ له خلاص ابنه يُمكّنهم بيد علي باشا ليتخذ عنده يداً بذلك ، ويأخذ بثار ابنه ! فأمرهم ـ أيده الله تعالى ـ بالتثبّت ، وترك إظهار الجزع ، والتغافل عما فعل بهم ، وقال لهم : إن امتثلتم أمري خلّصت نفسي وخلّصتكم ، والاّ فقد وقعنا في أمر عظيم ! وشرع في الحال في إعمال الرّأي في الخلاص ، فأظهر غاية التبسط والإدلال على الشيخ أبي عزيز ، واقترح ألواناً من الطعام كان يشتهيها ، حتى اعتقد أبو عزيز انه لم يشعر بشيء مما قصده به ، وكلّمه في سراح رجلين من أصحابه لم يطيقا كتم ما
خامرهما / من الرعب والجزع ، وأوهمه أنه مرسل بهما في قضاء بعض [71 — ب]

حوائجه . فسرّحهما وسارا ، وقال لأصحابه : « قد أرحتكم منهما لِئَلاّ نفتضح ، فاكتموا أمركم وانظروا ما أفعل ! » . ثم كلّم الشيخ أبا عزيز في شأن ابنه إبراهيم المسجون وقال له : « لو كنت أعلم أني إن أتيتك به من عند حسن باي صالحته ورجعت معي ولم تفسد علينا أمرنا لكنت ذهبت وأتيتك به ! ولكن حيث كنت عازما على خدمة علي باشا فأنا غير مفارقك ، لأني أعلم أنك لا تترك لأجل غضبك ابنك وكل شيء ، فأنا غير بارح عنك ، وحيثما توجّهتَ توجّهتُ معك أو ترجع عن عزمك ! وإن شئت فاذهب بي إلى علي باشا » . فقال أبو عزيز : « أنا عازم على الانصراف إلى علي باشا وخدمته من غير توقف عندي في ذلك ، ولا شك أني إن فعلت ذلك فسد عليكم أمركم . ولكن إن انطلقت وأتيت بابني رجعت عن عزمي ! » . فأظهر له غاية الامتناع وقال له : « تريد أن تخدَعني حتى تظفَر بابنك فإذا حصل عندك أمضيت رأيك وتركتنا » ولم تزل المراجعة بينهما في ذلك إلى أن حلف له الشيخ أبو عزيز بالأيمان المغلظة أنه إن فعل وأتاه بابنه رجع عن خدمة علي باشا وعن الإفساد عليهم . فقال له : « لا أقبل شيئا من أيمانك لأني عارف بها ! » . فقال له وجوه الحنانشة : « نحن ضامنون في كل ما عاهدك عليه الشيخ » . قال لهم : « لا أقبل ضمانكم لأنكم لا تقدرون على مخالفته » . وجعل يزيد في التمنع ويشتطّ وأبو عزيز يزيد حرصا على ركوبه وانطلاقه لسراح ابنه . وأمر بفرسه وخيل أصحابه فَحُلَّتْ من الحديد وأُسْرِجت ، وعزم عليه أن يركب فركب هو وأصحابه وهم لا يصدقون بذلك . وركب معهم الشيخ أبو عزيز مشيّعا ، فلما فارقوا المحلّة خشِي مولانا ـ أيده الله تعالى ـ أن يبدُوَ له فيندم فقال له : « أيها الشيخ لا تتعب نفسك وارجع ! » قال : « لا بدّ أن أشيعك ! » . فأسرّ إلى بعض الحنانشة كلاما ذكره للشيخ فرجع . فلمّا فارقهم حمدوا الله تعالى على هذا الخلاص الجميل من يدي هذا الماكر الخبيث الذي أعجز بدهائه ومكره كل ذي رأي ، وكان من أمره بعد ذلك ما تقدم شرحه . ثم لو تَتَبّعنا الجزئيات الدّالة على حسن تدبيره وصحة آرائه لاحتجنا في ذلك إلى مزيد تطويل ، وفي هذا الانموذج كفاية .

واما جودة ذهنه وذكائه

فكفاك أني سافرت من تونس إلى مكّة – زادها الله شرفا – ورأيت ملوكاً وعلماء ، وعاشرت خلقا من أهل العلم والأدب وغيرهم ، فما رأيت أذكى ولا أفطن ولا أسرع فهما ولا أقوى عارضة منه . ولقد تُعْرَض عليه كتب الإنشاء الصادرة عن أمره من إنشائي وإنشاء غيري من جهابذة كتّابه فينتقد فيها أشياء كثيرة ، الصّواب فيها معه ، ومنها ما لا يكاد يتفطن إليه إلاّ أكابر الكتّاب والمترسلين . وكلما عُرِضت عليه قصيدة لشاعر وكان فيها موضِع للنقد إلاّ انتقده وبيّن مواضع الخطإ منها . وكثيرا ما يناظر علماء حضرته ويسبِقهم إلى الفهم في كثير من المسائل العويصة – جَوْدة قريحة وسَيَلان ذهن – وها أنا أذكر لك مسألتين من المسائل المشكِلة التي تفرّد بفهمهما وحلّ إشكالها دون
غيره من العلماء الذين / وقع البحث معهم فيها ممّن حضر مجلسه العالي وقت [72 — أ]
المذاكرة وغيرهم ممن عرضت عليه بعد ذلك ، بل ولم يتوصل إلى فهم إحداهما مُحَشّي « الدُّر المختار » ، فوقع في خبط عشواء وأوقع غيره من النُّظار .

الأولى :

إن صاحب « تنوير الأبصار » قال في باب المهر : (ويَجب مَهْرُ المِثْل في نكاح فاسد بالوَطْء لا بغيره) إلى أن قال : (وتجب العِدّة من وقت التفريق) فقال شارحه صاحب « الدّر المختار » شارحا لقوله : (وتجب العِدّة من وقت التفريق) – مازجا – ما نصُّه : (وتجب العدة) بعد الوطء لا الخلوة للطّلاق لا للموت (من وقت التفريق) . فلما قرىء هذا الكلام بمجلسه السامي استشكل الفقهاء الحاضرون قوله (للطلاق لا للموت) لأنه بعد ما قيّد وجوب العدة بكونه بعد الوطء كيف ينفي وجوبها للموت ، وكيف لا تعتدّ إذا مات عنها في نكاح فاسد وقد وطئها ؟ فروجعت حاشية الشيخ أبي إسحاق إبراهيم الحلبي نزيل القسطنطينية فإذا هو قد قال : (قوله للطلاق) متعلق بتجب ، وفي قوله بالطلاق نظر فإن الفرقة هنا فسخ لا طلاق . وأجيب بأن الطلاق قد يراد به التّرك كما سيأتي في نكاح الرقيق (قوله : لا للموت) أي موت الرجل قبل

الوطء ، بخلاف الصحيح فإن العدة فيه تجب قبل الوطء لأنه لو مات بعد الوطء وجبت العدة قطعا كما يأتي في العدة . انتهى كلامه .

فاغترّ الفقهاء الحاضرون بهذا الكلام من المُحشّي وقنعوا به . ورضُوا به في دفع الإشكال ، وخالفهم مولانا – أيده الله تعالى – قائلا : « إنه لم يزد المسالة إلا إشكالا ! لأن الشارح بعد ما قيّد وجوب العدة بما بعد الوطء كيف يُحْمَل قوله : (لا للموت) على ما قبل الوطء ؟ وهل هذا إلاّ تهافت ؟ » وأجاب – أعزّه الله تعالى – بما حاصله : « إن الإشكال إنّما نشأ من قلة التدبّر وتعليق الطّرفين في كلام الشارح – وهما قوله : للطلاق لا للموت – بتجب في قول الماتن : (وتجب العدة) كما صرّح به المُحَشّي . وليس الأمر كذلك بل هما متعلقان بالعِدّة – أي حالا منها – والمعنى وتجب في النكاح الفاسد بعد الوطء عدّة طلاق لا عدّة موت ، أي إنّها تعتدّ بالأقْراء لاَ أربعة أشهر وعشرا . سواء مات عنها الزوج أو فُرّقَ بَيْنَهما أو تاركها ، وهذا هو الآتي في باب العِدّة . وقول المحشّي : (لأنه لو مات بعد الوطء وجبت عِدّة الموت قطعا كما يأتي في باب العِدّة) سهو فاحش جرّه إليه تعليق الطرفين بتجب ! وبهذا يُعلم أن النظر الذي أورده على تعبير الشّارح بِالطّلاق فاسد ، وما ذكره في جوابه غير محتاج إليه » . هذا ملخّص ما أجاب به – سدّد الله رأيه – مع زيادة إيضاح وبيان . فحينئذ أذْعن أولئك الفقهاء وظهر لهم وجه الحق وأقروا له بما هو أهله من الفضيلة .

والثّانية :

أنه كان يوما بمجلس حكمه فعرض عليه الوزير الأجل رجب خزنة دار مسألة عثر عليها في بعض الكتب فلم يعلم وجهها ، ولم يحضرني الآن ذكر الكتاب فأنقلها بلفظها ، ومحصّلها : أن جماعة من الناس اجتمعوا على أسد سقط في زبية وازدحموا عليه فاضطروا رجلا منهم بازدحامهم فسقط
على الأسد في الزبية . / فتعلّق ذلك الرّجل برجل آخر منهم ، وتعلّق الآخر [72 — ب]
بثالث ، فسقطوا جميعا في الزبية وهلكوا . فسئل عن ذلك أمير المؤمنين علي

ابن أبي طالب –كرّم الله وجهه– فقال للأول ربع دية وللثّاني نصف دية وللثّالث دية كاملة ! فاستدعاني – أيده الله تعالى – وسألني عن توجيهها ، فطلبت منه المهلة لأراجع النّظر فأمهلني ، فقبل أن يظهر لي وجه المسألة استدعاني ثانيا وقال لي : « هل يجوز أن يكون وجهها : أن الأوّل لمّا سقط بمدافعة الجماعة وجبت ديّة (1) كاملة في مالهم لانه سقط بفعلهم ، فلمّا سقط الثاني وجبت ديّة (1) أيضا كاملة لكن نصفها في مال الجماعة ونصفها في مال السّاقط أولا الذي تعلق به ، لأنه سقط بفعلهما معا ، والفعل منتصف بينهما بالتسبب والمباشرة . ثم لمّا سقط الثّالث وجبت ديّة (1) أيضا كاملة ، لكن نصفها على الذي تعلق به وهو السّاقط ثانيا ، وربعها على السّاقط الأول وربعها على الجماعة لأنه سقط بفعل الجميع – والفعل منتصف بين السّاقط أولا وبين الجماعة – فعلم من هذا أن الأول وجبت ديته كاملة على الجماعة ، ولزمه نصف دية الثاني وربع دية الثالث فلم يبق بيده إلاّ ربع دية . والثاني وجبت ديته كاملة على الأول وعلى الجماعة ولزمه نصف دية الثالث فلم يبق بيده إلاّ نصف دية ، والثالث وجبت ديته كاملة على الكل ولم يلزمه شيء فله الدية كاملة . ثم عرض المسألة على كل من يغشى مجلسه العالي من الفقهاء فلم يجبه أحد منهم بطائل ، وقصاراهم أن يطلبوا المهلة للتّأمل والمراجعة ، ولهم العذر في ذلك إذ ليست هذه المسألة ممّا يدرك تعليله بالبديهة لغير من أيّده الله تعالى بتأييد من عنده (وذلك فضل الله يؤْتيه من يشاء) .

[اعتدال القوة الغضبية]

واما شجاعته

فاعلم أولا : أن الشجاعة خصلة هي أم الخصال ، وينبوع الفضائل ، ومن فقدها لم تكن فيه خصلة ، فكلّ كريهة تُدفع ، أو مكرمة تُكتسب ، لا تتحقق إلاّ بالشجاعة ، ألا ترى [أن الشخص] إذا أراد أن يمنح شيئا من ماله خار طبعه ، ووهن قلبه فشحّ به ، فإذا حضر عزمُه ، وقويت

(1) في ز : ديتـه .

نفسُه ، وقهرت ذلك العجز أخرج المال المضنون به ، وعلى قدر قوة القلب وضعفه يكون طيب النفس بإخراجه أو كراهيتها له ! وعلى هذا النّمط جميع الفضائل ما لم يقارنها قوة النفس لم تتحقق ، فبقوة القلب يصابر امتثال الأوامر ، والانتهاء عن النواهي ، ويصابر اكتساب الفضائل ، وينتهي عن اتباع الهوى والتضمخ بالرذائل ، ويصبر الجليس عن أذى الجليس ، وجفاء الصاحب ، وتُكتم الأسرار ، ويُدفع العار ، وتُقتحم الأمور الصِّعاب ، وتُحتمل أثقال المكاره ، ويُصبر على أخلاق الرّجال ، وتُنفذ كل عزيمة وروية أوجبها الحزم والعدل ، وتَضحك الرّجال في وجوه الرّجال وقلوبها مشحونة بالضغائن والأحقاد ، وليست الشجاعة والصبر وقوة / النفس أن يكون الرّجل مصرًّا [73 – أ] في المحال ، لجوجا في الباطل ، ولا أن يكون صبورا على الضرب والتعب ، مصمما على التغرير والتهور ، فإن هذه صفة الحمير والخنازير ، ولكن أن يكون صبورا على أداء الحقوق عليه ، صبورا على سماعها وإلقائها إليه ، غالبا لهواه ، مالكا لشهواته ، ملتزما للفضائل بجهده . عاملا في ذلك على الحقيقة التي لا يحيلها عنه حياة ولا موت ، كما قال علي للحسين – رضي الله عنهما : « يَا بُنَيّ مَا يُبَالِي أبوكَ أنْ لَوْ كَانَ الْخَلْقُ خَالَفُوه إذَا كَانَ عَلَى الْحَقّ » .

فهذا معنى الشجاعة على العموم المندرج فيه جميع الفضائل الداخلة تحتها ، وبهذا تعلم وجه اندراج جميع الفضائل تحت الشجاعة ودخولها فيها ، لكن الكلام ها هنا الآن على الشجاعة بالمعنى الخاص وهو اقتحام الشدائد في الحروب وخوض غمراتها وثبات الأقدام في مقارعة أبطالها ، فإن لمولانا – أيده الله تعالى – في تلك الشّدائد المشهورة . والمواقف المشكورة ، والوقائع المنصورة ، ما يشهد به العدوُّ المعاند ، ويُقرّ بِه المنكر الجاحد ، فقد كان له في حرب يونس أيام منازلته القيروان ما اعترف به الجمهور ، وتداولته الألسن على مرّ الدهور ، وكان – أعزه الله تعالى – [متصديا] لكل ملمّةٍ ، ولمدفع كل شدة .

فمن بعض مشاهده الشّاهدة له بكمال الشجاعة ،وتمام الفروسيّة والرجولة . ما أخبرني به [من أثق به] وسمعته من غير واحد أن القتال استمر بينهم وبين

يونس في بعض منازلاته للقيروان مدة طويلة ، فكان يونس يركب كلّ يوم في عساكره وجنوده ويخرج المولى الأمير ــ رحمه الله تعالى ــ في جنوده من القيروان ويقع بينهم مناوشات ومنازلات إلى وقت الظهر ، ثم يرجع يونس إلى محلته ، وقد جرت عادته أنه إذا انتهى إلى المحلة أطلق المدافع واستقر بها ، فحينئذ يعود المولى الأمير إلى البلد ، ويخرج السّرح إلى المرعى ، ويمكث مولانا ــ أيده الله تعالى ــ في سريّة من الخيل لحمايته فلا يدخل البلد إلاّ من آخر النهار حين يرجع السّرح ، فاحتال له يونس في بعض الأيام فأظهر الرجوع إلى محلّته كعادته وكمن بخيوله وراء الذراع ، وأمر بإطلاق المدافع في المحلّة ، فعاد المولى الأمير إلى القيروان بجيشه وخرج السّرح وبقي مولانا ــ أيده الله تعالى ــ لحمايته على الرّسم ، وسار حتى نزل تلقاء الذراع الذي كمن يونس خلفه ، وسار يونس والذراع يحجبه إلى أن لم يبق بينهما إلاّ مسافة يسيرة ، فأحسّ به بعض أصحاب مولانا ــ نصره الله تعالى ، فأسرع إليه وأنذره به ، فجال في عنق فرسه وركب من كان نازلا من أصحابه خيولهم وانكفئوا راجعين ، فأغار يونس في آثارهم ففاتوه ولم يدركهم ، فعطف على السّرح فأخذه واستاقته خيوله ، فصعب ذلك على مولانا ــ أعزه الله تعالى ــ وأدركته رجوليته وثارت حميته ، فعطف عنانه وكرّ راجعا لارتداد السرح ــ وقد انهزم عامة

[73 — ب] أصحابه ونكلوا ــ فلم يساعده إلاّ الحاج / علي بن عبد العزيز ، وأبو الضّيّاف ابن الغزالي ، وعثمان بوحلّوفة ، فحملوا أربعتهم على تلك الجنود التي لا تحصى كثرة ، فتمزقت الكتائب بين أيديهم ــ وأبو الضياف يقول : « ما بِي إلاّ أن أموت على سعي جلاص » ، فدافعوا دفاعا شديدا حتى انتزعوا السّرح بتمامه من أيدي العدو ولم يبق منه إلاّ بعير واحد عاقه الشكال ، فهمّ مولانا ــ أيده الله تعالى ــ بالانصراف فأبى عليه صاحباه وحلفوا أن لا يرجعوا إلاّ بالبعير أو يموتوا دونه ، ولم يزالوا يقاتلون دونه حتى قطع أحدهم شكاله بسيفه ورجع به وضمه إلى جملة السرح ورجعوا به ظافرين ، وقد خرج المولى الأمير من القيروان لـمّا أتاه الصريخ فوجدهم قد فرغوا من شأنهم ، وجُرح

في ذلك اليوم أبو الضياف بن الغزالي ، أصيب بحبة على ركبته فكان فيها حتفه ــ رحمه الله تعالى ــ ومات على سعي جلاص كما قال .

وفي بعض تلك الأيام أغارت أولاد مناع على سعي أهل القيروان وهم نحو أربعماية فارس فاستاقوه ، فأدركهم مولانا ــ أبقاه الله تعالى ــ ومعه الحاج علي أيضا فدافعوهم عنه وانتزعوه من أيديهم ، وبقيت منه بقرة واحدة بأيديهم ، فحمل عليهم الحاج علي لانتزاعها منهم ، فقالوا له : « قاتلك الله دعها لنا نتعشّاها » ، فقال : « لا وَالله إن ربتها أوصتني بها » ! فلما رأوا الجد تركوها وانصرفوا ! وقالوا له : « خذها لا بارك الله لك فيها ! » وأمثال هذه الوقائع لو حكي عن ربيعة بن مكدّم ، أو عتيبة بن الحارث بن شهاب . أو دريد بن الصّمّة ، أو عنترة العبسي (١) وأمثالهم من فرسان العرب لعد في مناقبهم وتُحدّث به من جملة مآثرهم .

وقد تقدم في جملة أخباره ــ أبقاه الله تعالى ــ أن أخاه المولى محمد باي ــ رحمه الله تعالى ــ أيام مقامه بسوسة أرسل إلى أبيه بمكانه من القيروان يستصرخه على جنود علي باشا وهم بالقلعة الصغيرة قد أشجَوْه ، فأمدّه بمولانا ــ أيده الله تعالى ــ في جيش من القرويين ، فنزل على سوسة وعسكر بظاهرها ، وأقبلت المثاليث مددا لأهل القلعة ولمن بها من جند علي باشا ، ودسُّوا إلَى المولى محمد باي أن المثاليث أقبلوا وتركوا حللهم حوالي جمّال خالية من الحامية ، فطمع فيهم وأركب الخيل لتبييتهم وأمر مولانا أن يبعث خلصان خيله معهم ــ وكانت عنده كتيبة مختارة شجاعة وبسالة وفروسية يقتحم بهم كل شدة ، ويخوض بهم كل غمرة ــ ، فأبى عليه وقال له : « هؤلاء لا يفارقوني ولا أفارقهم » فإن شئْتَ سرتُ معهم ، فأعفاهم . ولما فصلت الخيل عن سوسة بلغ خبرهم إلى جند علي باشا بالقلعة الصغيرة فانتهزوا الفرصة وصبّحوا محلة مولانا ــ أيده الله تعالى ــ بموضعها من ظاهر سوسة ــ وكان ــ أعزه الله تعالى ــ بائتا بالمدينة عند

(١) هؤلاء اشهر مشاهير فرسان العرب في الجاهلية وبهم تضرب الامثال . فربيعة فارس مضر ، وعتيبة فارس تميم ، ودريد فارس هوازن ، وعنترة فارس عبس ، والاخيران شاعران ممتازان . راجع الزركلي للاطلاع على تراجمهم ومصادرها .

أخيه – فلمّا سمع هيعة الغارة أمر بفتح باب المدينة ، فامتنع أهلها خوفا من هجوم العدوّ عليهم ، فعنّفهم وقال لهم : « كيف تؤخذ / محلتنا ونحن ننظر [74 – أ] من وراء الجدران ؟ افتحوا الباب ! » ففتحوه له ، فخرج وخرج المولى محمد باي فوقف بظاهر البلد ، وتعرّض مولانا – أعزه الله تعالى – في نحو العدوّ يدافعهم ، فاستنبطن أكثر خيله مسيل ماء هناك وسار هو مستعليا ومعه قليل من الفرسان ورجالة القرويين ، فأجهضه العدوّ بالرّماية وتكاثروا عليه ، فألوى عنانه إلى البلد وأدركه العدو يتخطفون الرّجال حواليه ، ودخل خيله الذين استبطنوا مسيل الماء في غمار العدو فلم يشعروا بهم لكثرتهم وقلة تلك الخيل فيهم ، ودخل المولى محمد باي البلد ، ونزل أهل سوسة من أعالي السور هرابا إلى بيوتهم ، فلمّا رأى مولانا – نصره الله تعالى – شناعة تلك الهزيمة سمت به همتُهُ العالية فنادى في أصحابه بالكرة وعطف عنانه نحو العدو وهم ألوف ولم يبلغ عدد من بقي معه من الفرسان العشرة ، فلما رأوا صدق كرّتِه أقصروا عن شأوهم وأحجموا ، فلما رأى ذلك من دخل في غمارهم من أصحابه ثابت إليهم نفوسهم ورجعت إليهم عزائمهم فضرب كل واحد منهم من يليه من العدو ، فلمّا رأوا ذلك ارتابوا وظنت المخازنية أن العرب غدروا بهم وظن العرب أن المخازنية غدروا بهم ، فسقط في أيديهم جميعا وكانت هزيمتهم ، فولوا لا يلوي أحد على أحد ، وتبعتهم خيل مولانا – أيده الله تعالى – تقتل وتأسر وتنهب إلى القلعة الصغيرة .

ولـمّا كان ركابه العالي مستقرا بضاحية قسنطينة خرج حسن باي بالمحلّة فوافاه – أيده الله تعالى – بها ، ووفد عليه رجب بن أحمد الصّغير – وهو إذ ذاك يتولّى أمر الحنانشة بعد مهلك الشيخ أبي عزيز بن نصر – وكان في نفس حسن باي منه شيء – فاعتقله وعزم على غزو ناجعته وتصبيحها ، وأمر مولانا – أعزه الله تعالى – أن يركب إلى ناجعته ويبعث إلى محمد بن سلطان ابن عم رجب فيستنفره ، وعهد إليه أن يوافيه صباحا للغارة على ناجعة الحنانشة أصحاب رجب ، فركب – أيّده الله – وسار بقية يومه وليلته ومعه نحو عشرين فارسا من أتباعه فأضلّوا الطريق ، ولم يهتدوا إلى صوب ناجعتهم ، ولـمّا أصبحوا وجدوا

أنفسهم قد أبعدوا ، فرجعوا على آثارهم – وقد فاتهم ما قصدوا إليه – وكان حسن باي قد صبّح ناجعة الحنانشة فأخذهم في صبح ذلك اليوم وتشردت خيولهم منهزمة ، فلمّا ارتفع الضحى أقبلت طائفة منهم فصادفت مولانا – أيده الله تعالى ، فلمّا ترآى الجمعان عرفهم وعرفوه ، فخافهم على نفسه . وامتدت أطماعهم إلى القبض عليه ليستخلصوا به صاحبهم . فحملوا عليه فثبت لهم وأمر الحاج علي بن عبد العزيز أن يحمل عليهم فحمل ، ثم حرّض مولانا – أعزّه الله تعالى – حسينا بوطاغان على الحملة ، وعيّره ووبخه ، فحمل عليهم أيضا ، فانهزمت خيل الحنانشة وولوا الأدبار ،ورجع الحاج علي وحسين بوطاغان إلى موقفهما ، فبينما / هم كذلك إذ طلعت عليهم أعنة [74 – ب] الخيول من كل ناحية ، فقال مولانا – أعزه الله تعالى – لأصحابه : لا يرمهم أحد منكم ! فإنكم إذا رميتموهم فاخطأتم تجاسروا علينا ! ولكن ناولوني مكاحلكم واحدة بعد واحدة فأرميهم بيدي فإنه إذا كانت كل رمية تردي فارسا منهم منعهم ذلك من الإقدام علينا – وهم يعلمون أنه – أيده الله تعالى – أرمى النّاس لا يكاد يُخطِيء في رمايته – فتكاثرت عليهم الخيل وأقبلوا من كل أوب وأحدقوا بهم من كل جهة ، فلمّا رأى مولانا – أيده الله تعالى – كثرتهم علم أنه لا طاقة له ولمن معه بهم ، فرجع إلى رأيه السديد وعقله الثابت الرشيد فناداهم : « يا ميعاد الحنانشة أنا فلان ، فمالي ولكم ؟ وإن صاحبكم رجب بن احمد الصغير قد مات قتله حسن باي ، وولّى عليكم مكانه ابن عمه محمد بن سلطان – جعله الله مباركا عليكم ،وإنه قد وجهني حسن باي لآتيه به فيخلع عليه ويعقد له على الحنانشة » ، وعلم من هذا الكلام أنه يخلصه منهم لأنهم إنما يريدون أن يقبضوا عليه ليخلصوا صاحبهم وحيث هلك فلا معنى للقبض عليه إلاّ زيادة في عداوة حسن باي ، ولانهم يسرهم ولاية محمد بن سلطان بعد رجب ، وإنما يكرهون أن يتولى عليهم سديره بن أبي عزيز ، فلمّا سمعوا هذه المقالة ترجّلوا عن آخرهم وأقبلوا نحوه وقبلوا يده واعتذروا إليه بأنهم لم يعرفوه ، ثم ركبوا خيولهم وفارقهم وانصرف راجعا ، وهذه الواقعة تشهد بكمال الشجاعة والثبات والشهامة والنجدة وغاية كمال التدبير

ـ لا سيما في ذلك الموقف الضنك ـ وجودة الرأي وصحة التمييز ، قال أبو الطيب المتنبي :

الرّأي قَبْلَ شجاعةِ الشُّجعان ⁂ هُوَ أولٌ وهي المحلُّ الثاني
فإذا هما اجتمعا لِنَفْسٍ حُرَّةٍ ⁂ بلغت من العلياء كل مكان
ولربّما طعن الفتى أقْرَانَهُ ⁂ بالرأي قبل تطاعن الأقران

وفي أيام مقاتلته لعلي باشا بتونس خرجت عساكر تونس من متارسهم رجالة وخيالة وقصدوا محلة الجزيريين بمكانها من « معيزة » ، فخرجوا إليهم ، وركب حسن باي والمولى محمد باي ومولانا ـ أيده الله تعالى ـ في خيولهم ، والتقى الفريقان ، فلم يلبث الجزيريون أن انهزموا وولوا ألادْبار ، وتبعهم عسكر تونس ، وولّى حسن باي ، وتبعه المولى محمد باي وكانت الهزيمة لا شك فيها ، فثبت مولانا ـ أيده الله تعالى ـ واقتضى نظره الصائب أن تعرّض للمهتارية فحبسهم كرها ، وأمرهم بضرب طبولهم وسريـاناتهم وأبواقهـم لتثبيت المنهزمة ، وأتى ابراهيم بن أبي عزيز شيخ الحنانشة فعاتبه على الفرار من غير كبير قتال فثبت معه ، وتكلم مع الحنانشة فقالوا إنما نحن تبع للترك وقد انهزموا فما يغني دفاعنا ؟ فسار إلى الترك ـ وهم منهزمون ـ فعاتبهم ولامهم على فرارهم من غير / مدافعة ! فاعتذروا بفرار أميرهم ـ لأن حسن باي [75 ـ أ]
بادر بالهزيمة ـ وقالوا أين الباي ؟ فقال لهم : أنا الباي وها أنا ذا معكم ! وحرّضهم وحرّك من حميتهم ببعض ما قال لهم ! فكرّوا معه راجعين ، وكرّت الخيل وثبتوا للقتال ، أخبرني ـ أيده الله تعالى ـ قال : « ما فعلت الذي فعلته من ثباتي وتثبيت العساكر طمعا في عود الكرة لنا ولا رجاء للغلبة ! لانني لما رأيت تلك الهزيمة الشنعاء أيست من ذلك ، وإنما أردت أن يستمر القتال برهة ربما ينجو أخي بنفسه حتى لا يدركه الطلب لأنه لم يكن له طاقة على شدّة الركض لثقل جسمه ـ رحمه الله تعالى ـ فقلت أشاغلهم عنه حتى ينجو ، فلما ثبت الجزيريون وعاودوا الكرة لم يلبث عسكر تونس ان انهزموا واستمرت بهم الهزيمة إلى أن دخلوا متارسهم ـ وكانوا قد خرجوا على غير تعبئة ولا لنظر

رئيس يدير أمرهم ـ وأميرهم محمد باي بن علي باشا جالس داخل المترس ينظر بالمرآة ، فلما رأى هزيمة عسكره جعل يبكي ويخضع لرؤسائهم جبنا وخورا وسوء تدبير ، ومن ذلك اليوم استفحل أمر الجزيريين وأخذ أمر علي باشا وابنه في الانحلال والتلاشي ، إلى أن كان ما تقدم ذكره من أخذ تونس ودخولها في التّاريخ المذكور ، فدخلها مولانا ـ أيده الله تعالى ـ هو وحسن باي وقصدا دار الباي التي أسفل القصبة وبها عيالات علي باشا ليستوفي حسن باي ما عندهن من الحلي والجواهر ، فدخل مولانا ـ أعزه الله تعالى ـ وأمر النساء أن يعتزلن في الحجر ووضع كرسيا بصحن الدار وأجلس عليه حسن باي ، ودخل هو ـ أيده الله تعالى ـ على زوجه الجليلة ابنة علي باشا فأمرها أن تجمع له ما عندهن من الحلي ، فأخرجت له من ذلك شيئا كثيرا ، وخرج به فتيان من الخصيان فوضعوه بين يدي حسن باي ، فلم يرضه وطلب إحضار ما بقي . فرجع مولانا إلى زوجه وأمرها أن تخرج له جميع ما بقي عندهن ، فأخرجته له ، فلم يرضه حسن باي أيضا ، وقال له مولانا : لم يبق عندهن شيء ، قد أتيتك بجميع ما عندهن ! قال : لا حتى أدخل بنفسي وأنظر هل بقي شيء ؟ قال له : كيف تدخل على الحرم وفيهن زوجي ؟ قال لا بدّ من ذلك ! فحاوله فلجّ وصمّم على الدخول ! فأظلمت الدُّنيا في عيني مولانا ـ نوّر الله بصيرته ـ وقال : « قبح الله ملكا يجيء بمثل هذا » ! وشتم حسن باي وعمد إلى مكحلة من وسطه فاجتذبها وسوّى زنادها ليرميه بها ! فلمّا رأى حسن باي منه الجدّ فرّ من بين يديه ، وخرج هاربا يعدو إلى فرسه فركبه ـ وهو لا يصدق ـ ورجع إلى محلته وأصبح يتجنّى ويتعالى ويقول : علي باي يوم أدخلته بلده أراد أن يقتلني ! فكان هذا من أسباب خروج مولانا ـ أيده الله تعالى ـ على الإثر إلى صفاقس وإقامته بها إلى أن ارتحل حسن باي من تونس ، فانتقل المولى محمد باي في يوم رحيله من القصبة إلى باردو ، وفي عشيّ ذلك اليوم ثار عسكر تونس
[75 ـ ب] واجتمعوا ببطحاء القصبة ودخل معهم طائفة من طغام عسكر / الجزائر تخلّفوا عن محلتهم وسوّلت لهم أنفسهم أن يملكوا البلد ، وينصِّبوا لِلأمر رجلاً منهم ، إلا أنهم أحجموا عن ذلك ولم يصرحوا به ، وأخذوا يتعلّلون بأن

العرب ضايقوهم في المساكن والملابس ، وصار الجند لا يتميز منهم ، وأشياء غير ذلك لا حقيقة لها ، ودخلوا ربض باب السويقة وعاثوا فيه ونهبوا وقتلوا نحوا من ستين نفسا ثم فرّقهم الليل ، ومن الغد اجتمعوا ببطحاء القصبة أيضا وتكاثروا ودخل معهم من لم يشهدهم بالأمس ، وركب الدّاي مصطفى قزدغلي ، وأظهر أنه يسكنهم وهو يحرضهم في الباطن — زعموا — ومنّته نفسه الأماني ، ولمّا تم اجتماعهم خرجوا من البلد وقصدوا المولى محمد باي بمكانه من باردو ، فارتاع لذلك ، وتخوّف خوفا شديدا ، وأمر بغلق الأبواب ، ووجه إليهم المدافع ولم يكن معه بباردو إلاّ نفر من أتباعه ، فلمّا توسطوا الطريق توقفوا وتآمروا فيما بينهم ، ثم رجعوا — تخذيلا من الله تعالى لهم — ومن الغد أصبحوا مجتمعين ببطحاء القصبة أيضا ، وقد كان المولى محمد باي طير الخبر إلى مولانا — بمكانه من صفاقس — من أول ثورتهم واستعجله للقدوم عليه ، فوصل إليه الخبر في أسرع وقت ، فركب لحينه وسار ليله ونهاره ، وطوى المراحل ، فدخل باردو عشيّا واجتمع بأخيه واشتدّ به عضده ، ولما أصبح الصباح ركب إلى تونس ، فقيل له : « إن هذه ثورة عظيمة ويخشى عليك من بادرة تبدر من بعض طغام الأتراك فلا تأتهم ! » فلم يقبل حتى أتى القصبة ، فأشير عليه أن يجلس بسقيفتها في مجلس الحكم لأنه أهيب ، فأبى وجلس خارجها ببطحاء القصبة ، وأرسل إلى رؤوس الثورة من عسكر تونس وعسكر الجزائر ، فأقبلوا إليه متقلدين أسلحتهم ! فقيل له : « مر بوضع أسلحتهم ! » فأبى وقال : « إذن يعتقدون أن في قلوبنا هيبة لهم ! » فلمّا مثلوا بين يديه شتمهم ووبّخهم وعنّفهم حتى كادوا أن يُقضى عليهم من الرُّعب وحتى أن أحَدَهم بال في سراويله من شدة الخَوْف ! وقال لعسكر الجزائر : « من وجدته منكم بتونس بعد ثلاثة أيام ضربت عنقه ! » وردّهم ولم يعاقبهم بأكثر من التعنيف — سياسة اقتضاها الحال — فرجعوا وقد انحلّ أمرهم وسكنت ثائرتهم وكفى الله المؤمنين القتال ، ثم بعد ذلك تتبّع المولى محمد باي أكابرهم فأبادهم ، وخضّد شوكتهم ، وصفا له ملكه .

واما كبر النفس

فهذا الوصف من الأوصاف اللازمة للملوك غالبا في زمن ملكهم ، نعم قلّ من يسلم منهم مع ذلك من رذيلة الكبر ! وإنما يعرف مقدار كِبَرُ نَفْس المَلِكِ إذا تخلّى عن ملكه ، وألجأته الضرورة إلى غيره . ودخل تحت مملكته — خصوصا إن كان عدوّا له — وقد تغرّب مولانا — أعزه الله — عن ملكه ، وفارق مستقر عزّه وسلطانه ، ودعته الحال إلى التنقّل في أحياء العرب ، وعقد الذّمام من رؤسائهم ، والاستجارة بجوارهم ، ثم الالتجاء إلى أمراء الترك بقسنطينة والجزائر ، فلم يُرَ خاضعا ولا متخشّعا له ، ولا واضعا من نفسه عنده ، بل كان في جميع / ذلك مُعزّزا مكرّما وافر الجاه والحرمة ، عالي [76 — أ]
الهمة ، حافظا لناموس الملك ، لم يغير شيئاً من سمته ، وهديه ، ووقاره .

ولمّا وفد على حسن باي صاحب قسنطينة — أول لقيا لقيه — ترجّل له حسن باي عن فرسه وعانقه ، فاستمرّتْ الحال بينهما على ذلك كلّما دخل عليه قام له وعانقه ، فلمّا طالت المدّة أنكر ذلك من نفسه ، وكأنه أنف من القيام له لما فيه من العجرفة — مع ما في نفسه من العداوة — فتكلّم في ذلك مع نصر بن أبي الضِّياف الرزقي — وكان مختصا به — وقال له : « لِمَ لم يقبل يدي وأنا في مقام والده ؟ » وأمره أن يكلمه في ذلك ! فأتى نصر بالخبر إلى مولانا — أعزّه الله تعالى — وقال له : « أنت محتاج إلى هذا الرجل في نصرتك واسترجاع ملكك ، وقد علمت فساد باطنه معك ، فلو صانعته بتقبيل يده كان أرجى لاستصلاحه ودفع غايلته ؟ » فقال له : « أخبره عني لما جئته أول مرة جئته مستنجدا به لأبي — رحمه الله تعالى — مستصرخا له على عدوه الذي ضيق عليه وأشفى على استئصاله ، فلو أمرني في ذلك الوقت بتقبيل رجله لفعلت لاستنقاذ أبي وأتوصل بذلك إلى مرضاته ، فإذا هو قد ترجّل لي عن فرسه وعانقني ومشى الأمر بيننا على ذلك ، فالآن — حين مات أبي وفات ما كنت آمله من عود الكرّة له — يطمع مني أن أقبل يده ؟ وأي شيء أرجوه إلاّ الإعانة على استرجاع الملك ؟ فقبّح الله ملكا يأتي بالذّلة والمهانة ! والله لا

فعلت ذلك أبدا — يترتب عليه ما يترتب — فعاد نصر ابن أبي الضياف بهذا الكلام إلى حسن باي فسكت وأيس مما أراده منه ولم يعاود الكلام فيه .

واما كرمه

فشيء لم تسمح به الأيام ، ولا اهتدت إلى مواقعه الأفْهام ، ولا عثرت عليه في سالف الحقب الكرام ، وها هنا حكاية غريبة في بابها أقدمها بين يدي ما نقصُّه من مكارمه لما اشتملت عليه من الدلالة على الكرم ، والنزاهة ، وكبر النفس ، والمواساة ، والإيثار : وهو أنه كان في بعض أيام تجولاته في الصّحراء قد نفد الزاد عنده وانقطعت عليه الميرة ، فكان يؤْتى إليه كل يوم برغيف وشيء قليل من التّمر فيقسم ذلك في أصحابه فينال كل واحد منهم قطعة من الرّغيف وتمرات ، ويناله من ذلك حصة كأحدهم لا يزيد على ذلك ، حتى بلغ ذلك منه كلّ مبلغ ، وأضرّ به الضعف ، وصار إذا قُدّم إليه فرسه ليركبه لم يستطع أن يركبه إلاّ معتمدا على غيره ، فأتاه يوما خزنداره الزاوي بصحفة فيها خبز مفتت بسمن وتمر ودخل بها إلى محل خلواته ووضعها بين يديه ، وقال له : « كل هذه لتتماسك بها ! » فقال له : ادع أصحابنا يأكلوا معنا منها ! فقال الزاوي : الطّلاق لازم له إذا أكل [واحد] منها شيئا ! وكيف يكون ذلك وقد أضرّ بك الجوع وأكثرهم عنده بقايا الزاد يخفيها ؟ فحلف مولانا — أيده الله تعالى : لا أكَل منها شيئًا وقال له : « تريد أن يتحدث الناس عني أني أستأثر بالزّاد دون أصحابي وهم
[76 — ب] هلكى من الجوع ؟ إن كان الله تعالى قد قدر لي / الحياة فأنا أعيش بدون صحفتك هذه ، وإن قدر لي غير ذلك فما هي تغني عني شيئا ، وكنت على الحالتين كريما غير لئيم ! » فقال له : يا سيدي أطلق امرأتي وأدعوهم ليأكلوا معك ؟ قال لا والله لا أكلت منها وإن شئت فادعهم ! فدعاهم فأكلوها وما ذاق هو منها شيئا ! وما هذه القضية ببعيدة من قضية كعب بن مامة (1) في الماء التي يضرب بكرمه الأمثال من أجلها إلى الآن .

(1) كعب بن مامة الايادي كريم جاهلي يضرب به المثل في الكرم والايثار . وهو صاحب القصة المشهورة في الايثار مورد المثل « اسق اخاك النمري » . انظر الميداني 1 : 346 .

وفي بعض تلك الأيام أيضا وهو بناحية (تقّرت) نفدت نفقته ولم يبق معه إلا عدد قليل من الدّراهم ، فأتاه رجل ضعيف ومعه بُنيّة له تحمل فوق رأسها طبقا بالتمر فأهداه له ، فاستدعى خزنداره الزاوي وقال له : « كم بقي عندك ؟ » قال : كذا وكذا ، قال أعطه لهذا الرجل ونصنع الآن ما كنا صانعين غدا أو بعده إذا نفد كل ما عندنا من النفقة ! فدفعه الرجل وبقي لا يملك درهما ولا دينارا ، فلمّا كان بعد يومين أو ثلاثة أتاه علي الفرين رسولا من والده المولى الأمير — رحمه الله تعالى — أرسله إليه من مكانه بالقيروان بمال للنفقة فاتسعت به حاله .

ولمّا كان نازلا بالنمامشة بعد ارتحاله من ضاحية قسنطينة نفدت دراهمه أيضا ، ولم يبق عنده إلاّ أربعة دنانير ذهبا لا يملك غيرها — وقد نال منه ومن أصحابه الضر — فاشترى بها حملا من التّمر فأخذ عدلا منه لنفسه ووزّع أصحابه العدل الآخر — وكان أكثرهم أو كلهم عنده الدراهم ويعلمون أن نفقته نفدت ولم تسمح أنفسهم بدفع ثمن ما أخذوه لأنفسهم — فضاقت نفسه من ذلك وضجر من طماعيتهم فيه ، مع علمهم بنفاد نفقته ووجود الدراهم عندهم ! حتى همّ أنْ يكلمهم بذلك ، ثم رجع إلى كرمه وقال : إن لَؤُم أصحابي فلا ألؤم معهم ، وما عسى أن تغني هذه الدراهم ! فلم يمض له على ذلك إلا أيام وجاءه رجل أعرابي لا يعرفه وذكر له أن والده المولى الأمير كان قد استودعه غنما وأنه باعها وأتى بثمنها الفي ريال فقبضها منه وانصرف الرّجل ولم يعرفه إلى الآن ! وهذه كرامة أكرمه الله تعالى بها لا شك فيها ، وهكذا صُنع الله تعالى معه في غالب أحواله ، فعليه — أيده الله تعالى — أن يزيد في شكر أنْعُمِ ربّه ويقابلها بما هو أهله من مزيد الإحسان إلى خليقته والرأفة بهم حسبما هو دأبه — ضاعف الله إحسانه لديه . فهذه كانت أحواله في ساعة العسرة ووقت الخصاصة .

وأما عطاياه وجوائزه وإحسانه وصدقاته الجارية بعد عوده إلى ملكه واستقراره على أريكة السلطنة فشيء لا يستوعبه الحصر ، ولا يكاثره القَطْر ،

ولو أخذنا في استقصاء جميع جزئياتها لاحتجنا إلى تأليف مستقل ، فإن عطاياه — أيده الله تعالى — مستقلّة متتابعة متواصلة على ممرّ الأيام — خصوصا على فقهاء حضرته ومن اختصهم منهم لسمره — فلا تخلو ليلة من اللّيالي لا ينالهم منها إحسان ، ولقد وصل إليّ من إحسانه — أيده الله تعالى — في أقرب مدة ما لا
[77 — أ] أذكره لئلا أنسب إلى التزيّد ، وخصوصا / أيضا على الغرباء الوافدين على حضرته من المشرق والمغرب ، فقد بالغ في مراعاتهم ، وايصال الإحسان اليهم — لا سيما من كان منتسبا منهم إلى علم أو صلاح — ولقد ورد على الحضرة سنة اثنتين وتسعين شاب اسمه عثمان يدّعي أنه من ولد الأستاذ الأكبر عبد القادر الجيلاني — رضي الله عنه — مجرد دعوى عارية عن الدليل إلاّ ما أخبر به بعض من رآه بمصر من حصول القبول له بها ، والتسليم لدعواه — فأقام بالحضرة نحوا من أربعة أشهر وصل إليه فيها من ناحية مولانا — أيده الله تعالى — ما ينيف على عشرة آلاف ريال ما بين كسوة ومال وتحف وغلام افرنجي باعه بالف ومائتين وغير ذلك ، مع أنه في نفسه لا يرجع إلى صلاح ولا إلى علم بل الغالب عليه الطيش والتهور ، إلاّ بمجرد انتسابه المذكور ، إلى غير ذلك من إحسانه للشعراء والأتباع والخدم والعساكر والأعراب ، وغيرهم ممن أغنى فيه عن الخبر العيان ، لكنا نذكر من ذلك ما كان المقصود منه ما عند الله تعالى مما هو خير وأبقى.

قد تقدم أنه تفضل على الفقهاء وطلبة العلم بمال الجزية كله في جميع عمله على كثرته ، وزادهم على ذلك ما يقاربه أو يساويه حتى حصل النفع لجميعهم على ما فصّلناه سابقا ، وهذه إحدى الحسنات العظام والخيرات الجسام التي وفقه الله تعالى لاحراز مثوبتها ، وألهمه نيل فضيلتها.

وفي المحرم من سنة سبع وثمانين صدر عنه في جانب المتقاعدين من العسكر مكرمة لم يسبق اليها ! وذلك أنه قد جرت العادة في الديوان المنصور أن من كبُر سنه من العسكر ، وضعف عن السّفر ، أو حصلت له زمانة أو غيرها من الأمراض العائقة عن الحركة ولم يكن قد خدم الديوان بمرتبة من مراتب

ولايته فإنه يعفى عن الخدمة والأسفار وحراسة الثغور وينقص من راتبه ويرد إلى مقدار يسير — وتسمى هذه الطائفة المتقاعدين — فلمّا علم — أيده الله تعالى — ضعف حالهم ، وأن المقدار الذي ردُّوا اليه لا يكفيهم اقتضى نظره السديد أن يزيدهم في مرتباتهم رفقا بهم وشفقة على ضعفهم ، فأمر أن تجرّد أسماؤهم في جريدة ويعرضوا عليه وباشر ذلك بنفسه ، ونظر في أحوالهم وزاد في أعطياتهم على حسبها ، فمنهم من ردّه إلى عطائه الذي كان يأخذه زمن الخدمة ، ومنهم دون ذلك على ما اقتضاه النظر في أحوالهم ، ومن كانت فيه أهلية واختار الخدمة ردّه إلى عطائه الأول وأخرجه من ديوان المتقاعدين ورسمه في ديوان الخدمة ، ثم زاد في راتب معزولي الأغوات على المقدار الذي يردُّون اليه حين تنقضي خدمتهم ، وذلك أن الرجل من العسكر يتوصل إلى أن يصير بلوكباشي ويترقّى في المراتب إلى أن يصير آغا العساكر بالديوان المنصور ، فيمكث كذلك ستة أشهر ثم يخرج فلا يدخل الديوان بعد ذلك ولا تبقى له خدمة أصلا ، وسمي معزول آغا ، ويردّ راتبه — كائنا ما كان — إلى عشرين ناصريا (1) ، وأكثرهم يكون راتبه قد بلغ / النهاية وهي تسعة [77 — ب]
وعشرون ناصريا ، فرسم — أيده الله تعالى — أن يردُّوا إلى أربعة وعشرين ناصريا بزيادة أربعة ناصريّة على القدر الذي كانوا يردون إليه — إعانة لهم ، ونظرا لمصلحتهم — ثم نظر — أيده الله تعالى — في مصلحة أخرى عظيمة النفع والفائدة لا تصدر إلاّ عمن سمت همته إلى مراعاة مصالح الرّعية ، وذلك أنه قد جرت العادة في الديوان المنصور أن من بلغ راتبه اثني عشر ناصريا وكان له ولد رسم اسمه في الديوان بنصف ناصري ، فان مات والده بعد ذلك كمل له ناصري

(1) الناصري : عملة صغيرة نحاسية مجزأ اليها الريال الفضي الذي كان وحدة المعاملات الاكثر شيوعا كما يؤخذ من الرسوم القديمة، واما الوحدة الذهبية فيعبر عنها بالدينار والمحبوب، والتعامل بها قليل ومصارفتها بالريال مختلفة حسب الوزن والزيف ، والظاهر ان الناصري منسوب الى ناصر بني عبد المؤمن الذي احتل تونس وطرد عنها الموارقة ووضع بها اساس الدولة الحفصية في اوائل القرن السابع ومن آثاره بها تعديل العملة التي تدهورت بترادف الفتن والنزوات فنسب له هذا الناصري ، لكن نسبته الى الوحدة المجزأ منها كانت تختلف باختلاف العصور والزيف ، وفي آخر عهده بالوجود — قبل الاحتلال الفرنسي — كانت نسبته من الريال كما يأتي : قال بيرم الخامس في **صفوة الاعتبار** 3 : 59 : والريال منقسم الى نصف وربع وثمن وخروبة وهي نصف الثمن وتساوي ثلاثة نواصر وربع ، وتحقيق هذا الموضوع يرجع فيه الى اهله وانما اتينا بهذه اللمحة لتقريب المقدرات التي يذكرها المؤرخ للافهام .

ويسمى « ناصري اليتيم » إلى أن يكبر ويرسم في الديوان فلا يحتاج حينئذ إلى تعريف به لأن اسمه مرسوم هناك ، ومن لم يبلغ راتبه اثني عشر ناصريا لم يرسم اسم ولده في الديوان ، فإن مات وكبر الولد واحتاج إلى الإثبات في الديوان فربما تحصل له مشقة ، إن لم يكن معروفا مشهورا فانه يطالب بإثبات نفسه ، فرأى — أيده الله تعالى — في المصلحة أن يرسم أولاد من ماتوا قبل استكمال اثني عشر ناصريا بنصف ناصري بمجرد موت آبائهم ليكون ذلك حفظا لأسمائهم في الديوان مع ما يحصل لهم من النّفع بما يأخذونه — وإن كان يسيرا — سيما من كان منهم فقيرا . ومن وقف على هذا الفصل من كلامنا ولم يعلم أحوال الرّاتب وتشديد الملوك السّابقة في شأنه وضبطهم له ومبالغتهم في الاحتياط عليه ربّما استصغر هذه الأمور — وليس الأمر كذلك — فقد كان أمر الراتب قبل إيالة مولانا — أدام الله تعالى وجوده — في غاية الصعوبة لا تكاد تجد ملكا من ملوك إفريقية يتساهل في اليسير منه ، ولقد رأيت دفتر محمد باي بن مراد في سنة ولايته الثّانية وهي سنة سبع وتسعين وألف فوجدته قد نقص من رواتب الفقهاء كلهم إلاّ أفرادا حتى أن راتب الشيخ الفقيه مصطفى بن عبد الكريم مفتي الحضرة قد كان كاملا تسعة وعشرين ناصريا فردّه إلى ثمانية عشر ناصريا ! ولقد ألزم علي باشا كثيرا من الفقهاء السّفر والخدمة أو يتركوا الراتب ! وعزل كثيرا من المؤذنين بجوامع الحنفية ليخدموا ! ولم يقرّ بها إلاّ من لا راتب له ، أو من كان مسرحا من الخدمة بسبب آخر غير الأذان . ولقد كان الفقيه من الحنفية يقرأ العلم السنين المتطاولة ويبلغ في مرتبة المدرسين ولا يتوصل إلى سراح راتبه ، ومولانا — أيّده الله تعالى — قد سرّح رواتب أكثر الطّلبة المبتدئين في أوائل بداية طلبهم وأعفاهم من الخدمة إعانة لهم على طلب العلم وحرصا على تكثير العلماء حتى بلغ عددهم........ (1) وأين هذا مما صدر من مراد باي ابن علي باي ابن مراد آخر ملوك بني مراد المتقدم الذّكر فإنه وقع بصره يوم الصّف في آخر خَرْجَةٍ خرجها بالمحلّة سنة أربع عشرة على محمد شبشاره رئيس المؤذنين

(1) هذا الموضع بياض بجميع النسخ ، فلعل المؤلف تركه كذلك للاستدراك بعد الاحصاء الثابت.

بجامع جده حموده باشا فقال له : ألست عسكريا ؟ ما لي أراك بغير سلاح في مثل هذا الموكب ؟ وأمر بالقبض عليه وسجنه ثم أرسل به من الغد إلى الديوان وأمر / أن يضرب ثلاثمائة سوط وأن يرد بعد ذلك إلى السجن — وكان [78 — أ] شيخا مسنا ضعيفا — ثم أمر بالقبض على جميع المؤذنين بجوامع الحنفية الثابتين في الرّاتب وأرسلهم إلى الديوان وأمر أن يضرب كل واحد منهم خمسماية سوط ثم سجنهم بعد ذلك ، وأرسل طبيبه لاختبار أحوالهم هل تضرروا بذلك الضرب أم لا ؟ فمن لم يجد على جسده آثارا سيئة من الضرب أمر باعادة الضرب عليه ثانيا وكان من جملتهم الشيخ أبو العباس أحمد برناز والشيخ الكبير بن الشيخ المفتي أبي الحسن علي الصوفي — وكان لطيف البنية قد غلبت عليه الحضارة فحصل له من ذلك ألم شديد — وكانت واقعة تقشعر منها الجلود . لا جرم كان ذلك يوم السبت لست خلون من المحرم فلمّا كان يوم السبت الذي بعده لثلاث عشرة خلت منه أتي برأسه على رمح وطيف به في الأسواق وشاهده أولئك الفقهاء المظلومون ! وأنت إذا تأمّلت بعين البصيرة وجدت مقتضى المقابلة قاضيا بدوام ملك مولانا — أدام الله تعالى — وجوده ، ودالاّ على طول أمد دولته — حرسها الله تعلى .

وله — أيده الله تعالى — أوقاف جليلة أوقفها على وجوهٍ كثيرة من وجوه البر .

فمن ذلك : المدرسة (1) الرفيعة التي أحدثها بساباط عجم — من أحسن المدارس وأبدعها — ورتّب بها شيخا مالكيا ، وأسند له النظر في أمرها ، واشترط عليه إقراء درس من مختصر الشيخ خليل بشرح من شروحه صباح كل يوم — فيما عدا رجب وشعبان ورمضان، وأما في هذه الأشهر الثلاثة فاشترط قراءة صحيح البخاري دراية — ودرسا في الفرائض ، وجعل له إمامة المدرسة ، وجعل له راتبا في كل يوم ستة وأربعين ناصريا ، وأوقف دارا لسكناه أمام المدرسة من أحسن الدور كانت في القديم لوالده المقدس — رحمه الله تعالى — فوهبها لبعض خواصّه فاشتراها مولانا — أيده الله تعالى — من ورثته وأوقفها على ما ذكر ،

(1) هي الحسينية الكبرى جوار تربة الباي .

ورتب بها أيضا شيخا حنفيا يقرأ بها درس فقه جامع للعبادات والمعاملات بعد صلاة العصر ، ورتّب بها ثمانية طلبة من الحنفية يقرؤون عليه الدرس المذكور، ورتّب بها أيضا شيخا ثالثا مالكيا يقرىء درسا في العربية أو الأصول أو الكلام ، أو المنطق ، أو نحوها من الفنون بعد صلاة الظهر ، ورتّب بها أيضا شيخا رابعا من القراء يقرىء درسا من التجويد قبل صلاة العصر ، وأسكن بها ثلاثين طالبا يحضرون درسها ويقرؤون كلّ يوم حزبين من القرآن العظيم بعد صلاة الصبح ، وحزبين بعد صلاة المغرب ، ورتّب بها ثمانية مؤذنين للأذان بصومعتها وقيام اللّيل للذكر والتسبيح ، وقَوَمَة يقومون بمصالحها وضرورياتها ، وأجرى على كل واحد من هؤلاء الأرزاق التي لا توجد في غيرها من المدارس ، وعيّن من الوقف صدقة توزع على الشيخ والطّلبة وغيرهم يوم ختم صحيح البخاري من شهر رمضان في كل سنة ، وفي يوم عاشوراء من كل سنة يختن بها مائة صبي من الفقراء ، ويعطى لكل واحد منهم كسوة وريال ، وأوقف عليها أوقافا معتبرة تفي بجميع هذه المصاريف وبما يحتاج
إليه من زيت / لوقد السُّرج وشمع وطيب في أوقاته وغير ذلك من [78 — ب]
الضروريات ، وهي الآن على أحسن حال من العمران — عمرها الله تعالى بدوام ذكره — وأحدث بجوارها تربته المقدسة ورتّب بها رواية صحيح البخاري كل يوم بحيث يختم كل عام ختمة ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان ، وأسند ذلك لشيخ المدرسة ، ورتّب بها للثلاثين طالبا الذين بالمدرسة أن يقرأ كل واحد منهم حزبا من القرآن العظيم صباحا وحزبا مساء في الأسفار بحيث تحصل من مجموعهم ختمة كل يوم ، ورتب بها أربعة طلبة يذكرون « لا إله إلاّ الله » سبعين ألف مرة في كل شهر ، وقارئا يقرأ دلائل الخيرات ويختمه في كل جمعة مرتين ، ورسم أن تحيى بها ليالي المواسم الفاضلة بالقرآن والذكر ، بحيث يختم بها في كل ليلة من ليالي المواسم ختمتان من القرآن ، وجدد بناء مكتب ملاصق لها ورتب به مؤدّبا وعشرين صبيا يعلمهم كتاب الله ، وأجرى الأرْزاق السنية على الجميع ، وأوقف عليها الأوقاف النافعة ، ولمّا استدارت قبتها قبل تمامها وقبل تمام المدرسة رتّب بها أولا

ثلاثين قارئا يختمون كل يوم ختمة من القرآن العظيم يقرأ كل واحد منهم سفرًا بحزبين ، ثم بدأ له فزاد ثلاثين قارئا بعد ثلاثين إلى أن بلغوا مائة وثمانين قارئا يختمون كل يوم ستة ختمات من القرآن العظيم على الرّسم المذكور، وعين لهم في كل شهر مائتي ريال وسبعين ريالا وذلك من ريع أوقاف التربة والمدرسة لعدم وجود مستحقيها قبل تمام بنائها وترتيب دروسها ، وسكنى الطلبة بها ، وكان قصده أن يستمروا على ذلك إلى أن يتمّ بناء المدرسة وتعمر بالطلبة ويقوموا بوظائفها المتقدمة فحينئذ ينصرف أولئك القراء ويخلفهم طلبة المدرسة — وعلى هذا الشرط كان دخولهم — فلمّا تم بناء المدرسة وصرفت غلات الأوقاف في مصارفها أرسل للقراء مالا ووزعه عليهم إحسانا وصرفهم ، ثم بَدَا لَهُ في ذلك ورأى أن لا يحرم نفسه الكريمة من أجر ست ختمات من القرآن العظيم كل يوم أو أجر الإعانة عليها ، فردّ أولئك القراء إلى قراءتهم ، وأقرّهم على ما كانوا عليه ، ورأى أن تخرج أرزاقهم من خزانته العامرة مدة حياته — أدامها الله تعالى —

ومنها : بناؤه للمكتب الملاصق لجامع والده المقدس ، ورتب به درسي تجويد اشترط في أحدهما أن يكون شيخه حنفيا يقرىء رواية حفص عن عاصم ، وفي الآخر أن يكون شيخه مالكيا يقرىء رواية قالون عن نافع ، ورتّب على كل شيخ ثمانية طلبة ، وجعل لكل واحد من الشيخين نصف ريال كل يوم ولكل طالب خروبة ، واشترط أن لا يزيد الطالب على ختمة واحدة فإذا أتمها ترتب مكانه غيره حرصا على عموم النفع لما رأى من إهمال الطلبة للتجويد وعدم اهتمامهم به في هذا العصر ، وكان أول شيخ تصدر به لتجويد رواية حفص مفتي الحضرة شيخ الإسلام أبا عبد الله حسين بن ابراهيم
البارودي فختم به ختمة واحدة كان ختمها / بحضرة مولانا العلية فأسنى [79 — أ]
جائزته وجوائز الطلبة وانصرفوا ، وبعد ذلك نزل عن الدرس المذكور لابنه الفقيه الخطيب المفتي أبي عبد الله محمد فهو يتولاّه إلى الآن .

ومنها : ما أوقفه على قراء الحزب الكبير المعروف بالسّبع الذي يقرأ بمحراب جامع الزيتونة بعد صلاة الصبح ، ويختم فيه القرآن العظيم ختمة في كل

جمعة – وهم يزيدون على المائة منقسمون إلى سبع طوايف كل طائفة لها يوم من أيام الأسبوع – فأوقف عليهم وقفا جليلا ، وأجرى عليهم من غلته راتبا يساوي راتبهم من الأوقاف القديمة ، وأجرى على المتطوعين به راتبا أيضا واشترط عليهم أن يقرءوا بعد الفراغ من قراءة الحزب الفاتحة ثلاثا وسورة الإخلاص أحد عشر مرة ويهدون ثوابها له ، وعلى أن يجتمعوا كلهم ليلة سبع وعشرين من شعبان في كل عام بجامع الزّيتونة ، وتجلس كل دولة من الدول السبع بزاوية من زوايا المسجد ، ويختمون ختمة من القرآن العظيم إلى صحائف المحبس .

ومنها : ما أوقفه على المؤذنين القائمين بالأسحار في جميع الصوامع بتونس للتهليل والتسبيح والذكر ، وأجرى عليهم من ذلك رزقا في كل شهر .

ومنها : ما أوقفه على المدرسة الجاسوسية المنسوبة إلى الشّيخ الصالح أبي حفص عمر الجاسوس دفين الجلاّز – رحمه الله تعالى – لما استولى الضّياع على أوقافها ولم يبق منها إلاّ القليل لا يفي برواتبها وكادت أن تضمحل ، فأوقف عليها ما يقوم بذلك وعمرت الآن بقراءة العلم الشريف ، وكذلك أوقف أوقافا نافعة على المدرسة التوفيقية لما وقع في أوقافها الاختلال .

[بناء التّكية]

ومن أوقافه الجليلة النّافعة التّكية المتقنة البناء ، الحسنة الشكل الواسعة الفناء ، التي أحدثها بمكان حانة الدّبدابة بعد هدمها وتعطيلها كما سيأتي وجعلها ذات بيوت كثيرة أعدها لسكنى الفقراء المتعففين عن السؤال ، وأجرى عليهم الأرزاق من الطّعام والشّراب والفرش والكسوة ، وعين لهم اللّحم والأرز في كل اثنين وخميس ، وبنى بها مسجدا ، ورتّب به إماما يصلّي بهم الصّلوات الخمس ، وأجرى له على ذلك رزقا ، وأعدّ بها طعاما كثيرا كلّ ليلة خارجا عن طعام السّاكنين بها يُطعم منه كل من يغشاها من الفقراء

والسُّؤال خلق كثير بحيث لا يصدّ عنه وارد ، ولا يردّ عنه قاصد ، وعظم الارتفاق والانتفاع بذلك لهذه الطّائفة من الفقراء ، ولمّا وقعت المسغبة سنة إحدى وتسعين ، وكثرت السُّؤّال ، واشتدت حاجتهم زاد في ذلك الطعام على ما عينه من الوقف زيادة بالغة وصار يغشاها من الفقراء أضعاف من كان يغشاها قبل ذلك فدفع خُلّتهم ، وسد جَوْعتهم ، وكفاهم مؤونة القوت ، وأحيى رمقهم – ضاعف الله في حسناته – واشترى دارا مجاورة لهذه التّكية وأعدها لسكنى النساء المتعففات ، وأجرى عليهن بها أرزاقهن مثل ما أجرى على الرّجال ، وأوقف عليها عقارات استحدث بناءها بمكان حانة القرامد / [79 — ب] التي كانت داخل باب البحر بعد هدمها أيضا واجتثاثها ، فانظر إلى فعل من وفّقه الله وألهمه رشده كيف صيّر هذه الأماكن الخبيثة – التي كانت يقام بها للفسوق سوقٌ نافقة ، ويجاهر فيها بمعصية الله – أمكنةَ خير مصروفة في وجوه البر ، فالتّكية التي هي مأوى الضعفاء من خلق الله ومجرى رزقهم بمكان حانة من الحانات المشهورة ، والأوقاف التي منها ارتفاقهم ، وبها قوام معاشهم ، بمكان حانة أخرى كذلك ، ما هذه إلاّ مواهب ربّانية . ومثل هذا ما أحدثه من العقارات الوافرة النفع بمكان الحانات المسماة بالمنشية ومخازن الهوير الكائنة بين القصبة وباب البنات بعد تعطيلها أيضا وقطع مادّة الفُسوق منها ، وأوقفه مع غيره من العقار على الاسلاميين الّذين فارقوا دين اليهود ودخلوا دين الاسلام [وعلى الطبقة الأولى من أولادهم تأليفا لقلوبهم وترغيبا في الاسلام] (1) – لمن أراده منهم – يجري عليهم رزقهم من ذلك في كل شهر ، وهذه من الحسنات المخترعة التي لم يسبق إليها كما قيل :

تنزّه عن عون المكارم فعله ... فما يفعل الفعلات إلاّ عذاريا (2)

ولمّا تم بناء التّكية المذكورة صدر الأمر العالي بعمل تاريخ يكتب على بابها ، فنظم الشعراء في ذلك تواريخ كثيرة تنيف على العشرين ، فوقع الاختيار منها على قولي :

(1) الزيادة من : ح ، م .
(2) البيت للمتنبي وهو من قصيدته التي طالعها : كفى بك داء ان ترى الموت شافيا .

كلُّ برٍّ محله ذي التّكية
هي بحر وما سواها ركيّه (1)

صنعُ مولىً له — ولاَ فَخْرَ — تبدو
كل يوم على الملوك مزيّه

ويمينا لابن الحسين علي
أكرمُ النّاس — غير ذي مثنويه — (2)

ذو وقارٍ كما رسى الطّود لكن
للمعالي تهزّه الأريحيه

من مزاياه هذه الدارُ فيها
جنةٌ أثمرت قطوفا جنية

هي للبائس الفقير تراها
نعم مأوى غدت ونعم بنيّه

حرم آمنٌ وظل ظليلٌ
ورخاءٌ وعيشةٌ مرضيه

تعدل الأهل للغريب فأرخ :
(نعم كهفا لابن السّبيل التكيّه)
1188

ثم عمل صاحبنا الكاتب الأجلّ أبو عبد الله محمّد الدرناوي تاريخا فصدر الأمر بكتبه على باب تكيّة النّساء وهو :

بنى الباشا علي ذي التكيّة — لوجه الله فهي إذن بهيّه
سليل حسين سيدنا المفدّى — أبو الخيرات ذو السّير الرضيّة
على الفقراء ماكولاً ومأوى — مدى الأيام من أعلى مزيه
/ فدأبهم الدُّعاء له بخير — تقبّل منهمُ رب البريّة [30 — أ]

(1) الركية : البئر ذات الماء .
(2) من غير استثناء في اليمين .

سما بصنيعها شرقا وغربا — وذو التّوفيق رتبته عليه
فيا بشراه لما أرخوها : — (له أوفى ثواب في التكيّة) (1)

وله أوقاف كثيرة غير هذه ، منها ما أوقفه على المدرسين زيادة على أوقافهم ليعينهم بذلك على نشر العلم وتعليمه ، ومنها ما أوقفه على إجراء المياه وإصلاح قنواتها المعدة للسّبيل — وسيأتي تفصيل ذلك — ، ومنها ما أوقفه على زاوية الشّيخ الولي العالم عبد العزيز المهدوي — رحمه الله تعالى — الكائنة بقرطاجنة بعد أن بنى عليه مشهدا حافلا ، ومنها البئر المَعينة الكائنة . بسفح جبل المنارة والعقار المحبس عليها لشرب الزائرين للشّيخ الأستاذ الأكبر أبي سعيد الباجي — رحمه الله تعالى — وكثرة من يغشاه منهم ، وزاد في قبّة الشيخ المذكور زيادة حسنة ووسّعها وخصّها بالرجال وبنى للنساء بيتا لها منفذ لضريح الشيخ ، بحيث تحصل لهن الزيارة والاتصال بضريح الشّيخ ولا يختلطن بالرجال ، ومنها البئر المعينة العذبة برادس المعروفة ببئر الطرّاز أوقفها للواردة ، إلى غير ذلك من أوقافه النافعة المصروفة في وجوه متعددة من وجوه البرّ ، جعلها الله تعالى من الصّدقات المتقبّلة والأعمال المبرورة .

وأما صدقاته الجارية على الفقراء والمساكين من المتعففين والسّائلين والعميان والقواعد والأيتام وذوي الضّرر والحاجات فشيء أربى به على من تقدّمه ، وأعجز به من تأخر عنه ، فقد رتّب لجماعة عظيمة من مستوري الحال المتعففين عن السُّؤال مالا راتبا يوزع عليهم في كل جمعة ، فبعضهم تصل إليه نفقته في محلّه ، وبعضهم يجيء يوم الجمعة إلى باردو المعمور لأخذها ، وبعض هؤلاء يدخل إليه — أيده الله تعالى — للسّلام عليه في جملة الأعيان الذين يدخلون عليه يوم الجمعة ، وبعضهم تصل إليه سرا بحيث لا يعلم أحد أنهم من أهل الصدقة صونا لهم عن التبذل بالسُّؤال ، ورتّب لجماعة عظيمة من السُّؤال والمُكدين وأهل الضرر من عُرج وعِميْانٍ ونحوهم ممن لا يقدر

(1) لا يتم هذا التاريخ بموافقة السنة 1188 الا باعتبار الالف اللينة في (اوفى) بواحد حسب لفظها — لا رسمها — خلافا للقاعدة ، وقد تقدم مثله كثير .

على التكسّب – تجاوز عددهم الألف – رزقاً يجري عليهم في كل يوم على الدّوام والاستمرار فتراهم يهرعون إلى باردو المعمور كلّ يوم أفواجا لأخذ صدقاتهم ، وبعضهم قد استوطن باردو المعمور وأعد لهم – أيده الله تعالى – أماكن كثيرة يبيتون بها، ويأوون إليها ويأتيهم رزقهم فيها من أطعمة الصّدقة الخارجة من دياره المعمورة ، ومن بره بهذه الطّائفة أنه كلّما خرج ركابه العالي إلى محلة أو زيارة يخرجون بخروجه ويتوجّهون معه حيثما توجه فتجري عليهم أرزاقهم الراتبة ، ويعين لهم مع ذلك الإنزال بكرةً وعشية ، [80 – ب]
وينصب لهم الخيام لنزولهم / ، كأنهم من جملة عسكره . وقد ذكرت ذلك في قصيدة قلتها في بعض خرجاته – أيده الله تعالى – ووصفت فيها حالهم ، وقد كان – أعزه الله تعالى – لمّا أراد الخروج تتابع نزول المطر فتأخر لذلك أياما ينتظر الصحو فتعرضت لذلك أيضا وقلت أصف الحال :

سر لستَ تُعمِل إلاّ للعلا قدما … وكلُّ أرض تُوافيها غدت حرما
وحيثما وَخدَت أيدي الرّكاب تجد … أمنا ويمنا وإقبالا ومعتصما
رُمْتَ الرّحيلَ فناداك السّحابُ أقم … حتى أروّي لك الأوهاد والأكما
كي لا تحل بها إلاّ مُطَهّرةً … في وقع نعليك فيها طيب من لثما
لما رأى سَيْبَكَ المنهلَّ فاضحَه … مضى أمامَك يستوفي لك الخدما
لو مسحته يمين منك مغدقةٌ … ما كان يمطر إلاّ المجد والكرما
هَمَى وأقلعَ ، والغيث الذي سكبت … كفّاك ما زال يهمي في الورى ديما
فسرت تُحدِثُ للدنيا نضارتَها … شبيبةً لا تلاقي بعدها هرما
والأرض ديباجة خضراءُ مُذهبَةٌ … بالنّور فيها بديع النقش قد رقما
والزهر يحكي ثناء عن علاك شذى … ويقتفي منك في أفعاله شيما
يكسو الرُّبى مثل ما تكسو الورى حُلَلاً … ومثل لقياك يلقى الوفدَ مبتسما
ورام بدر الدُّجى أيضا مجانسة … لما نفيت ظَلامات نفى ظُلَمَا
ولو غدا منك دون الشّمس مُكْتسِبا … للنُّور ما كان أخرى الشهر منعدما
تسمو على ضامر تختال من مرح … حتى كأنّ بها من طائف لَمَمَا
شهباء كالصُّبح تخفي الشهبَ طلعتها … إلاّ التي زينت في رأسها لجما

وأحدقت بك من سُمر القنا ظُلَلٌ … والليث عادته أن يسكن الاجما
جيشان خلفك : ذا شاكي السلاح ،وذا … من المساكين قد خولته نعما
أوقَاهُما لك مَنْ فِي الليل أسهمُه … تردُّ عنك البَلاَ والضُّرّ والألما
ليس الذي إن عَرَاه أو ألمَّ به … – يوم الكريهة – روعٌ يتّخذْك حمى
علمتَ يا فارس الإسلام أنك يو … م الحرب وحدك دفّاع لما دهما
فكم نسفتَ جيوشاً في الحروب ، ومن … أتى لنصرك ولّى عنك منهزما
لذا عدلتَ إلى جيش حمايته … تقيك يوم يكون الحر (1) محتدما
/ تعطيهمُ نائلا جمًّا ، وتوسعهم … قرى هنيئا ، وتبني فوقهم خيما [81 – أ]
وأنت تَعْطِفُكَ الرُّحمى كأنّك من … أبيك آدم فيهم واصِلٌ رحِمَا
وقد حوى بابك الحاوي لكل علا … من الوفود وطلاب الندى أمما
هذا قضى حاجة في نفسه ، ولذا … عفو وصفح ، وذا ولّى وقد غنما
حبّبتَ للناس بالعفو الذنوب وقد … أضحى البريء حسوداً للذي اجترما
وما كفى العفوُ حتى قد أقمت لهم … على الرجاء دليلا واضحا أمَمَا
يقول قائلهم : ذا العفو يصدر من … عبدٍ ، فما الظّنُّ بالمولى وقد رحما ؟
لابن الحسين علي كل منقبة … بدتْ ، فلا عربا خصّت ولا عجما
أفعال مجد تسرّ الناس قاطبة … إلا الملوك فقد ماتوا لها غمما
تبدو لهم كل يوم منك مبدعةٌ … لم يلحقوها ولم تترك لهم عمما
لكن بنوك – وأعلى المجد أثبته … والفرع يَكرُم إمّا أصله كرُما –
جاءوا على نسَقٍ يقفون إثرك في … فعل المكارم ، كلٌّ للعلا التزما
ثلاثة تُشرق الدنيا بأوجههم … هم البدور ، وفي عين الحسود عمى
داموا ملوكا وداموا في تعاضدهم … مثل الثريا نظاما قط ما انفصما
ودمت كهفا لهم من كل حادثة … وكلّهم في ظلال العيش قد نعما
ودمت في ملكك المحروس تصلحه … ومَن تعاديه قد ألقى لك السّلما
تُحيي أناسا وأنعاما وأمكنة … فأنت أنفع من مزن الحيا انسجما

(1) **بالديوان** المخطوط : الحرب ، وهو أوقع . والمعنى كله يدور على ادعاء ان هؤلاء المرزوقين أفيد للممدوح ، وانتزع منه مدحا آخر له بالشجاعة والكفاية .

وقد عيّن بداره الكريمة — دار الأسعد المعظّم مولانا حمودة باشا باي أعز الله أنصاره — صدقةً جارية على طائفة من النِّساء مستورات متعففات وقدرها خمسون ريالا في كل يوم، وهي جارية من يوم ولادته — أبقاه الله تعالى — إلى الآن ، وبداره الكبيرة — دار ابنة الباشا — صدقة أخرى جارية على نسوة أيضا من المستورات وقدرها سبعون ريالا في كل جمعة ، وفي كل يوم يدخل محكمته السّامية وقت جلوسه للحكم ويحضر بين يديه من يتّفق حضوره من الفقراء المتعفّفين لا يحجب عنه أحد منهم ولا يرد ، فيأمر لكل واحد منهم بما يفتحه له الله تعالى ، وفي أيام المواسم والليالي الفاضلة يكثرون جدا ويزاد لهم في العطاء وهذا كله دون الصدقة المستمرة الخارجة من بيت خزنداره — اثنى عشر ريالا كل يوم — وبلغه في بعض السنين أن بعض المسجونين في
[81 — ب] سجن باردو لا يجد طعامًا — لفقره أو / لبعد أهله — فعيّن لكل من يسجن
به — كائنا من كان فقيرا كان أو غنيا — رغيفًا كل يوم وخروبة لنفقته ، وجرى الأمر على ذلك منذ سنين كثيرة إلى اليوم ، ولما بنى الدّار التي جعلها محكمة شرعية يجلس فيها القضاة لفصل الحكومات بكرة وعشية وجعلها [وقفا على ذلك] بنى بلصقها دارا أخرى جعلها حَبْسا للنساء — وهي المسماة بدار العدل — وأوقفها على ذلك أيضا ، وبنى خارج الدّارين حوانيت كثيرة يجلس بها العدول وأوقف غلتها على الفقراء من النسوة اللاتي يسجنّ بدار العدل — يطعمن منها ما دمن في السجن — وكان قد رأى — أطال الله عمره — والده المقدس — روح الله روحه — في المنام كأنّه يشكو اليه بعض الحاجة ، فعمد إلى مائتي رجل من المشايخ العاجزين والعميان وذوي الضّرر وأجرى عليهم صدقة — نصف ريال كل يوم جمعة — يأخذونها بعد أن يجتمعوا بتربة والده — برّد الله مضجعه — بعد الفراغ من صلاة الجمعة ويقرأ كل واحد منهم سورة الإخلاص إحدى عشر مرة ويهدي ثوابها إلى صحيفة صاحب التربة ، هكذا كان ترتيبهم في أول الأمر ، ثم لم يزل يزيد فيهم من ذلك النمط ناسا بعد ناس ، إلى أن بلغوا الآن بضعة عشر مابة رجل ، فكانت هذه الصّدقة العظيمة نافية عن والده — رحمه الله تعالى — كل حاجة ، ودافعة عنه كل خلة — إن شاء

الله تعالى ، ثم رتّب صدقة أخرى عظيمة مثل هذه لطائفة عظيمة من النساء — أرامل وقواعد وعجايز وذوات ضر — بلغ عددهن الآن ألفا وثلاثمائة يأخذونها كل يوم جمعة أيضا ، ومن لا تبتذل بالخروج منهن تبلغ اليها بمحل سكناها ، ومَخرج هاتين الصّدقتين العظيمتين على يد إمامه الشيخ الفقيه الأجل أبي محمد حمودة بن باكير — أبقاه الله تعالى، وفي كل سنة عند دخول الشتاء وهجوم البرد يشتري ألوفا من أحْرِمة الصُّوف الغليظة ويكسوها للمحتاجين من الضُّعفاء والأرامل والأيتام والعميان وأهل الضرورات وقاية لهم من ألم البرد — جعلها الله تعالى له وقاية من حرّ الجحيم وجُنّة ، مفضية إلى برد النّعيم بالجنة — وكثيرا من هذه الصّدقات الجسيمة يباشرها بنفسه الكريمة ، يدخلون محكمته السّامية وهو بمجلسه الرّفيع فيكسوهم وينصرفون ، وفي كل عام — أيام المولد الشّريف — يخرج الفي ريال تفرق في القرّاء المرتبين [في الأحزاب والمؤدبين المنتصبين لتعليم الصبيان كتاب الله تعالى] في المكاتب عادة مستمرة ، ولمّا وقع الغلاء سنة إحدى وتسعين وما بعدها — وهي مجاعة شديدة — بلغ ثمن قفيز القمح فيها بالحضرة مائة ريال وأكثر ، وأما أطراف العمالة كبلاد الجريد فقد تجاوز فيها السعر المائتين وبلغ في بعض الأحيان الثلاثمائة ، وانتهى قفيز الشعير بالحضرة إلى بضعة وستين ريالا ، وهلك الخف والكراع ، وانتشر الفناء في الماشية ، ثم وقع الموتان في النّاس وعمّ المدن والقرى والبوادي — وأشد الناس ضررا بذلك أهل البادية — فإن عامّة مكاسبهم الأنعام
والمواشي / — وقد هلكت — فانثالوا على المدن يتكففون في الأسواق — وأثر [82 — أ]
الضرّ بادٍ عليهم ، والمرض منتشر فيهم ، والموت يتخطفهم — فأول ما ابتدأ به — أيده الله تعالى — أن عيّن صدقة للأرامل من النسوة توزّعُ عليهن بباردو المعمور كلّ يوم فتسامعن بذلك وتكاثرن ولم يزل عددهن يتضاعف إلى أن بلغ عددهن أربعة آلاف امرأة ، ولم تزل الصّدقة جارية عليهن — تارة دراهم وتارة خبزا — حتى غصّ بهن الفضاء من الكثرة ، وتعسّر التوزيع عليهن لشدة الازدحام حتى كاد أن يفضي إلى وقوع الهلاك بهن ، وآن وقت حصاد الحب، وتيسّرت المعيشة فتفرّقن ، ثم لمّا انحشرت الأعراب وأهل الضّواحي في العام

الثاني إلى الحضرة أقام لهم طعاما من شربة البرّ يصنع لهم كل يوم بالملاّسين – عدا ما زاده بالتّكية على ما ذكرناه – فسدّ ذلك من خُلّتهم وأحيى من رمقهم ، وأمر بالمرضى منهم والمنتهكين – وكانوا مرميين على قوارع الطرقات وأبواب البلد ، وقد تأذت النّاس من روائحهم – فحملوا إلى خان واسع خارج باب البحر فرّغه لهم وجمعهم فيه وأقام لهم المؤنة صباحا ومساء ، وتبعه أهل الحضرة فما قصّروا في مواساتهم ، وأتّصل ذلك إلى أن دخلت سنة ثلاث وتسعين فترادف الغيث وتتابعت الأمطار ، وأدال (1) الله من الجدب خصبا ، ومن الغلاء رخاء ، وأعقب الشدة فرجًا والبؤس نعيما ، فلم يكن إلاّ ريثما شرع الناس في الحصاد خلالها حتى كثرت الحبوب وانثالت الأقوات وانحطّ السعر فصار قفيز القمح ببضعة وعشرين وقفيز الشعير بثمانية ريالات وأقل ، وعلى هذه النسبة سائر الحبوب . ومن جملة مرافقه – أيده الله تعالى – في هذه المجاعة أن أمر الناس ببيع القمح سائر زمنها حتى أشرفت خزائنه على النفاد – سوى ما تصدق منه على الفقراء وأهل الحاجات – وكانت همّته مصروفة إلى تكثيره بالأسواق لئلا يتعذر على النّاس القوت من فقده جملة ، وبعث في جلبه من الأقطار على أيدي التجار فأتوا منه بمراكب كثيرة وقع بها الارتفاق ، ووجد بخزائنه قمح كثير تغيّر ووقع فيه فساد الرّائحة من طول المكث فأمر أن يباع برخص لمن أراده من فقراء العساكر والأجناد إلى أجل ضرب لهم ليقاصصهم بثمنه من أرزاقهم ومرتباتهم ، فاشتروه كله ، فلمّا جاء الأجل وحضرت المقاصَصَةُ سمت به همته العالية وأدركته رأفته الشّاملة فأسقط ذلك عنهم جملة واحدة ، وأعطاهم أرزاقهم كاملة ، فهذا اهتمامه بالطّعام وقت الحاجة إليه .

وأما اهتمامه بالمياه لمّا رأى قلّتها بالبلد لكثرة السّاكن وقلة الأمطار – فان شرب أهل الحضرة إنما هو مما يختزنونه بالمواجل من ماء المطر – فأمر من وراء الحسبان ، فأحيى مراسم آبار رأس الطّابية المجلوبة إلى الحضرة على

(1) في ح ، م : وابدل .

الحنايا ذوات الأقواس المرتفعة السمك بعد أن كانت تعطلت أيام علي باشا ، ونظر / في أوقافها فأحياها بعد الدّثور ، واستأنف جدّتها ، ثم عمد إلى بئر [82 – ب] معينة ذات ماء فوّار [بمكان يقال له قصة] أسفل الجبل الأحمر المحدقة به غابة الزّيتون على فرسخين من الحضرة فشق الأرض حفرا عندها حتّى صار الحفر أسفلها أخدودا يبلغ عمقه ستين ذراعا ثم مشى بالأخدود منحدرا مطويا تحت الأرض ببناء محكم الصنعة وخرق البئر إلى الأخدود فجرى ماؤُها فيه . واستنبط بحافته آبارا سبعة خرقها إليه أيضا وأجرى مياهها فيه وانتهى الأخدود مطويا – يمشي فيه الرّجل مستقيما – إلى وادي بعيرة فسهلت الأرض هنالك وانبسطت فأجرى الماء في ساقية عظيمة تحت وجه الأرض إلى أن بلغ رأس الطابية واختلط بمياه آباره جاريا على الحنايا إلى الجبل الأخضر داخلا إلى القصبة متسربا منها في غيابات المدينة متشعبا في سككها في مذانب تحت الأرض إلى بضعة وعشرين سبيلا في أماكن متفرقة ينهمر ماؤها وقت المصيف ووقت فراغ المواجل ليلا ونهارا لا تخلو من ازدحام الواردة بقلالهم وأوانيهم (والمورد العذب كثير الزحام) واتصل العمل في إجراء هذا الماء من الجبل الأحمر وشق الأرض وبناء الأخدود حتى دخل الماء إلى الحضرة نحوا من ست سنين ، وبلغ عدد الفَعَلَةِ فيه كل يوم ما ينيف على الألف مضروبة لهم الخيام حواليها جارية عليهم مئونتهم – عدا الدواب العاملة المسخّرة في نقل التّراب والجِير والجبس والحجارة والآجر – وبلغت النفقة على ذلك مئين من الألوف عدا ما أوقف من الأوقاف المعتبرة على ما يحتاج إليه من الإصلاح والرمّ وقت الحاجة إليه ، وفي ذلك يقول أبو عبد الله محمد الورغي من قصيدة أولها :

حيّا فحنّ له الفؤادُ المُدْنَفُ ... طيف ألمّ بمن له يتشوّفُ
لأيًا تَخلّص كالشّفاء ، ودونه ... ظنٌّ يُسيءُ به ، ووعد يخلف
وأقلُّ ما استقلَلْتُ وقفةُ زائر ... خاف العيون وضَاق عنه الموقف
وأقلُّ منه – وكنت جلدا قبلها – ... صبري وقد ولّى الخيال المشرف
ماذا لقيتُ من الزّمان يَرُوعُني ... بالحيف – حتى في المنامِ – ويَقرفُ
من كل وجه لي عليه ملامةٌ ... وله عليّ غضاضةٌ وتكلّفُ

أفلا كفى أن عشتُ فيه – وقالبِـي   واهٍ ، وقلبي بالدّواهي يُقصَف ؟
يرد المياهَ بنوه لا عن غِـلة ،   وأحوم من فرط الغَليل فأصْرف
هيْنٌ عليهم لو قذفتُ بهمّتي   وسعيتُ ما بين الملا أتكفّف
والموت أسعد – وهي بُغيةُ كلّهم   لي – من وقوفي بينهم أستعطف
فإذا قَرِمت أكلت لَحْم أناملي   وإذا عطِشتُ فمن دمي أترشّف
/وتَنُوبُ عن حَطَبِ الوقود دَفاتِري   إذ حيلتي عن غير ذلك تضعف [83 – أ]
عجبًا لأيامي تجور ! ألم يكن   فيها علي بن الحسين المنصف ؟
حرمُ الأمان لمن أراد حمايةً   ولذي الخصاصة فالسّحاب الأوطف
ملأ القلوب إذا بدا متبسّما   وذكاؤه مثل الزمان ونيّف
كم نَحتمي بالقول عند مديحه   من قَوْلَةٍ عند التأمل تَكشُف
حتى إذا نُشِر المديحُ بدَا لَه   بدءاً سوى ذاك الكثيفِ الألطف
فنعود من آدابه بفوائدٍ   وبمثلها أخرى عليها تُعطَف
وعلا بهمته الكريمة أن يُرى   في غير طاعة ربِّه يتصرف
وكفاه عن سَمْعِ الملاهي درسُه   قولَ النبيء ، ووردُه ، والمُصحف
وتفقهٌ في الدين ، ثُمّتَ فصلُه   لحكومة عنها الشريعة تَكشِف
وإفاضةٌ للعُرف بين طوائف   تأتي ، وأخرى بالجوائز تُصرَف
وألذّ ما يسديه منها عنده   نيلٌ يُعانُ به الفقيه ويُتحَف
ومضت كذا عفوا جميعُ فِعاله   لا راجعٌ عنها ولا مُتَكَلّف
ودعا بقَصَّةَ (1) فاستجاب معينُها   عقب النِّدا – وهو الأبِـي المتعسّف
وجرى يخرّق بطن كل قرارة   عرضت له ، ولكل صلد يَشْقَف
وأطاعت الأنجادُ فيه وِهادَها   وتماثَلَت أوْعارُها والصَّفْصَف
فتراه كالثعبان في حركاته   سهلَ الممرّ على البَسيطة يَزْحَف
حتّى لَوى بشِعاب تُونس رأسَه   ومشى على أرجائها يتَطَوّف
وانحلّ عن عذبِ الزُّلال وِكاؤُه   فإذا به في كلّ رَبْع يَقذف

(1) اسم للبئر المجلوب ماؤها فيما ذكر قريبا ، وهذا الاسم يطلق الى الآن على بعض اراضي الجبل الاحمر . والياء في « الأبي » لا تحرك لضرورة الوزن .

فغذت به الأكباد – بعد أوارِها –   ريّا ، وصحّ سمينُها والأعجف
ورأته أعظمَ مِنّة إذ جاءها   والنّجمُ في وقت الإغاثة مُخْلِف
لا زال يُظهر كلّ حينٍ غُرّةً   يَفنى الزمانُ ونورُها لا يُكْسَف

وصدق في قوله « ورأته أعظم منة » البيت فانه اتّفق بعد وصول الماء إلى الحضرة إخلافٌ من المطر أعواما متوالية لم يكف فيها ماء المواجل للشرب فكان للنّاس في هذا الماء غناء وكفاء .سمعت الشيخ / الإمام مفتي الإسلام أبا عبد [83 – ب] الله حسين بن ابراهيم الباروديّ – رحمه الله تعالى – يقول : هذا الرّجل – يعني مولانا أعزه الله تعالى – مسعود مُؤتى لَهُ حيث حبَس الله تعالى الغيث بعد إيصاله الماءَ إلى الحضرة ليظهر فضل صنيعه وكمال مزيته ، أو أنه ينظر بنور الله فوقع في خلَده ما حصل من قلّة الغيث قبل كونه فسبَق إلى جلب الماء اعتداداً به عند الحاجة إليه .

وأما الماء الدّاخل إلى ربض باب السويقة فأصله من البئر الكائنة بأعلى الفدّان المعروفة ببئر عتيق فضمّ إليه مولانا – أيده الله تعالى – بئر العلجية المجاورة لها – اشتراها من فاضل الأوقاف المحبسة على بئر عتيق – ثم اشترى بئراً ثالثة داخل باب سيدي عبد السّلام عذبة الماء وعمل عليها ناعورة وزاد ماءها إلى ماء البئرين المذكورتين وتسرب الكل إلى أماكن من الربض المذكور ، بكل مكان سبيل مباح لكل وارد ، واشترى بئر المسيد المشرف من ربض باب الجزيرة وعمل عليها ناعورة وبنى حولها حوضا كبيرا يجتمع الماء فيه ترده الأناسي والأنعام ، وبئرا أخرى بالمركاض من ربض بني حماد على هذا المنوال ، ثم لمّا رأى شدة الحاجة إلى سقاية والده المقدس المرحوم الموازية للجبل الأخضر (1) وعظم النفع بها ونفادها في بعض السنين القليلة الأمطار قبل انقطاع الحاجة اليها أنشأ سقاية مجاورة لها ملاصقة إياها مثلها عظم مساحة وإحكام بناء وجعل بينهما منفذا ينحدر الماء فيه من السّقاية الجديدة إلى

(1) الجبل الاخضر : ربوة الرابطة ، السقاية الموازية له فسقية كانت هناك عند تقاطع سكة حديد الغرب وطريق السيجومي ، وازيلت الآن .

العتيقة ، والامتياح والاستسقاء كله من العتيقة إبقاءً على مأثُرة والده وتفاديا عن الاشتهار ، فعظم النفع وحصلت الكفاية . وتقدم أن من آثار والده أيضا السقاية التي أنشأها بظاهر القيروان — صانها الله تعالى — وجلب اليها ماء المطر في خليج اقتطعه من الوادي الهائل العظيم النفع المعروف بمرق الليل الذي منه ومن زرود المماثل له في العظم والمنفعة سقيا غالب مزارع القيروان عند طمومهما بماء السيول من قاصية الجبال . وكان المنهل قبلها السقاية القديمة المنسوبة إلى بني الأغلب ، فاستولى عليها الدثور وتراكم في صهاريجها مخلّف السيول من الطين والغثاء، فلما استقلّ مولانا — أيده الله تعالى — بالأمر، وتوفّرت عمارة القيروان وماجت بأهلها وازدادت السقاية الأغلبية دثورا كُلِّم في عمارتها فتفادى عن ذلك — لتحامي الملوك قبله إياها — وأنشأ سقاية أخرى أعظم من سقاية والده — قدّست تربته — تسقى معها بماء واحد من الخليج النازع من وادي مرق الليل ، فحسن الأثر ، وعظم النفع ، وكثر الداعي وأذيع الثناء ، وأنشأ أيضا بمدينة صفاقس — حرسها الله تعالى — سقايته التي ظهرت بركتها ، وحُمد أثرها ، وحسُنت عائدتها ، وذلك أن السقاية العتيقة لا تفي بسقياها فيحتاجون أيام المصيف إلى امتياح آبار بعيدة فأنشأ — أيده الله تعالى —
[84 — أ] / هذه السقاية على مسيل وادي عقارب ، فمذ تم بناؤها وكملت عمارتها لم ينضب ماؤها بل كلّما شارف النفاد أتى الله تعالى بالمطر فسال الوادي ، وأفعم أرجاءها ، وربما كان ذلك عند احتدام القيظ وانقشاع السحب وانزواء المطر إعظاما من الله تعالى للمنّة ، وإبعاداً للصيت ، وإحماداً للأثر ، وزيادة في المثوبة ، واشترى البئر المعينة المشهورة بعذوبة الماء وطيبه المعروفة ببئر الطراز الكائنة برادس وأوقفها للسّبيل كما مرّ ، واشترى البئر المعينة التي بسفح جبل المنارة المعروفة ببئر الخلاّدي وأوقفها أيضا سبيلا لورد الزائرين مقام الأستاذ الأكبر أبي سعيد الباجي — رضي الله عنه — بجبل المنارة لعزّة الماء به وكثرة العمارة ، فقد أحدثت به ديار ومساكن حوالي مقام الشيخ أكثرها على عهد مولانا — أدام الله أيامه — جاءت كأبهج ما أنت راءٍ من القرى ، لا تخلو من السّاكن وقتاً من الأوقات ، حتى إذا طابت الثّمار واعتدل الهواء أخريات

المصيف وأول الخريف ماجت حينئذ بالسّاكن موجاً ، التماسا لبركة الشيخ ، وتعرُّضاً لصحة الهواء ، واغتباطا بطيب الأصائل والأسحار ، وابتهاجا بحسن المنظر الملتفّة حوله الحدائق الزّاهرة ، والبساتين ذات الرياض العاطرة ، المطل على ثبج البحر حاملا للمراكب داخلة الميناء وخارجة . وقد جرت عادة مولانا — واصلها الله تعالى — بالخروج إلى زيارة الشيخ — رضي الله عنه — مرتين في السّنة ربيعية وخريفية فينزل بقصر العبدلية من بساتين قرطاجنه، ويغدو إلى زيارة الشيخ ومن حوله من الصّالحين ، ويعود إلى مكانه من العبدلية ، وقد رتّب لطائفة من الفقهاء والمتعففين صدقة تدفع لهم كلما خرج للزيارة ، فمن خرج منهم إلى محل الزيارة أخذها هنالك ، ومن لم يخرج أتته إلى محلّه ، وقد يتفق في بعض السِّنين أن لا يخرج إلى الزيارة فلا تبطل الصّدقة بل تدفع لأهلها بمكانهم من الحضرة . وصار ذلك لهم كالرّواتب اللاّزمة في كل عام مرتين ، وقد تقيّدت أسماؤهم في جريدة ومع اسم كلّ واحد منهم ما له من الصّدقة — من الأربعة محابيب ذهبا أو أكثر أو أقل .

وقال أبو عبد الله محمد الورغي قصيدة بديعة قالها في بعض خرجات مولانا — أعزه الله تعالى — لزيارة الأستاذ مولانا أبي سعيد — قدّس الله روحه — وهي :

وردتَ بطالِـعِ اليمنِ السَّعيدِ ... على حَرَمِ الوَليّ أبي سعيدِ
كما ورد الكريمُ أبوك قبلاً ... عليه وأنت في طَوْرِ الوليدِ
وأمّ بك المشاهد حين لاحَتْ ... عليك له أمارات السعيد
وما تُخْطِـي الفراسةُ حيث جاءت ... من المهديّ في شيمِ الرّشيد
/ وعادَ كما تعُودُ وقدْ تناهت ... مطالبُه بعائِدة الودود [84 — ب]
ألا للّه صبري حينَ سارت ... بكَ البيضاءُ من تحتِ البنُود
تُنازعُك العِنان وهيَ تُومِـي ... إلى جبل المنارة من بعيد
فتقصُرها ولو تُركت لحطّت ... سنابكها على ذات الوَصيد
وجانَبَت البُحيرةَ حين مرّت ... وفي صَهَواتها بحرُ المَديد
وقابَلَها الظريفُ علَى يَفَاع ... فلم تثبت علَى وجه الصعيد

وأدركَها المسا ولَهَا تراءت … قِباب العبْدَليّة في نُهُود
تسابق للتقرّب مِنْكَ أخرى … فتقْذفُها بذي الطّلْع النّضِيد
كغانيةٍ رأتك فلفّعتها … وليدتُها بمخضرّ البُرود
فبتَّ بِهَا وعينُ الحفظ ترعَى … مُقامَكَ والحوادثُ في هُمود
وصبّحْتَ الضريحَ بمولَويّ … سعى للّه فِي صِفَة العبيد
وخفّفت الزّيارة وَهْوَ رأيٌ … يصوّبُه ذوو الرّأي السّديد
وحزت بليلتين عظيم كنزٍ … تُوزّعُه إلى أبد الأبيد
وأُبتَ ولم تَغب ما غبتَ عني … ولكنْ فاتَني سرُّ الشُّهُود
وكم قلّبتُ إثرك طرْفَ راجٍ … برُوقَ الوَصْلِ من رَعْد الصُّدود
فلم أُسعف ، ولو أومضت شيئا … سبقتُ إليك ركبانَ البريد
ومن تعبِ الحياة لمُبتغيهَا … مباعدةُ المُرادِ من المُريد
وما في صحبتي –لو شئتَ– بأسٌ … وهل رَحْبٌ كذرعِك للوفود ؟
وإنّ مؤمّلا يلقَاك يوماً … ويسلو بعد ذاك لفي جمود
وما يُسْليه عنك ؟ وليسَ يُلْفِي … على الحالات مثلَك في الوُجود
سلامةَ خاطر ، وسَماحَ وجه ، … وقلةَ كلفة ، وكمالَ جود
ومَا في ذا العتابِ لديّ قصدٌ … ولكن جرّه سوق النشيد
وإلاّ فالمقامُ أجلُّ من أن … أضيقَ بِهِ إلى إذْنٍ جديد
علَى أني دفعت بِهِ دعَاوِي … تُصوّرُها خيَالاتُ الحسُود
فإن ظهُورَ شمسك وانْحِجابي … بها عندي مِنْ الأمْرِ الزهيد
/ فمَا أجراه ! إمّا ظن هذا … وقلبُك في القَضيّة من شهودي [85 – أ]
وعند نزولك «المرسى» ذكرْنَا … نزولك قبلهَا «جبل الجلود»
فقُلْنا : عند فتح اللّه فتح … وقلنَا السعدُ عندَ أبِي سعيد
فطار مِنْ العيافَة طيرُ فألٍ … يصحّح أن عزّك فِي مزيد
وقد صدق الحديثُ فقدْ أناخت … ببابكَ عاجلاً زُمَرُ الوُفُود
تؤمّل من رضاك جميلَ عود ، … وتطلبُ منك تجديدَ العهود
وأهدت عندَ مقدمهَا نفيساً ، … وأنفَسُه أسيلاتُ الخدود

فهي الخيْرُ قد قدِمت بِصُلْحٍ … وهو الخيْرُ فِي الذكر المجيد
ومَا فِي جمعِ شملِ الدّين وصمٌ … ولا عَنْ قصدِ ربْعِك من محيد
لأنك فِي الملوكِ عريقُ بيت ، … وفي أخلافهم بيْتَ القَصيد
فلا زالت حيَاتك في امتِدَاد … ولا زالت سعودك فِي صعود

والعبدليتان اللّتان ذكرهما هما من آثار ملوك بني أبِي حفص واعتنى بهما ملوك الحضرة بعدهم واتّخذوهما منزلا لنزاهتهم ، وقد ذكرهما الورغي في قصيدته النونية التي ذكر فيها المنتزهات التونسية المشتملة على التشبيه البديع في الحنايا وهي :

باكِرْ سعُودك ليس الوقتُ بالدُّون … واجعل صَبوحَك عندَ باب سعدون (1)
واصحب إلَى الأنس جذلاَن الفؤاد إذا … طَغَت حُمياك قاد الصعبَ باللين
ماذا التوقُّفُ عن عيش تُسَرُّ به ؟ … وقطعُ آنِك فِي حدْسٍ وتخمين ؟
فاخلع عذار التوقِّي من عواقبه … مَا الحزم تركُك قطعيًّا لمظنون
أما ترى الرّوض قد ألقى السحابُ به … على طريق الغوَادي أي بِزْيُون (2)
قد وشّحته فنونُ النّور وانبسطَت … على خمائِله ظلُّ الأفانين

---

(1) بالاصل : باشر سعودك ليس اليوم .... في باب لسعدون ، وصحح كما في ز ، م **والديوان** ، وهذه القصيدة وردت ضمن مقامة الورغي في مدح الشيخ احمد الباهي وابنه اسماعيل وعارضها كثير من الشعراء التونسيين كالمسعودي وابن ابي الضياف والشيخ كريم وحسن المزوغي وصالح سويسي وغيرهم .

(2) الغادية : مطرة الغداة ، والبريون بكسر اوله وفتح يائه (وقد ضمها الشاعر للضرورة) : رقيق الديباج والسندس ، وهو في وصف الطبيعة .

كأنما قُزَحٌ لمّا تقوّس فِي
أرجائِه رشّه من كل تلْوين
وقف هُنا بأبي فِهرَ المَحيل فقد
مضت بِهِ دولةُ الشمّ العرانين (1)
ترى الحَنَايا كسطر النخل مُدّ به
بعضٌ لبعض بمَحْنِيّ العراجين
أو خُرّدٍ نهضت للرّقص فاعتنقت
كي لاَ تجيء برقص غير موزون
ولست صاحبَ ظَرفٍ إن مررت على
(مرسى الظّريفِ) ولم تنزِل إلى حين
[85 ـ ب] / (والعَبْدَليات) تحكي في تصنّعها
ضرائرا جئن فِي غنج وتزيين
وما مقيمٌ لدى الأفيا (بسُكّرةٍ)
عَلى القلالية الغنّا بمغبون
ولو وقفتَ (بقمّرتَ) التي جمعت
شطوطُها بين مرعى الضّبّ والنّون
ومل (لمنّوبةٍ) وقت العَشِيّ إذا
فاح الأصيل بها بين البساتين
وانظر إلى القصرِ والأخرى تُناظِرُه
مثل البيادِق طافت بالفَرازين
والطّيرُ تصدحُ في حافاتها زُمَراً
جموع تُركٍ أتت بعضَ الدواوين

(1) رياض ابي فهر من مصانع الحفصيين تضرب الى اريانة ، وهو هنا ممنوع من الصرف للاضطرار ، والمحيل من المحل بمعنى العفاء .

ورُحْ (لرادس العليا) ، وقبتُها
بين الفَرادسِ تبدو مثل شاهين
حتى إذا ما قضيت البعضَ من وطرٍ
ورمت إيقاعَ فرضٍ بعد مَسنون
فاركض إلى ضَحوة (المرْكاض) وانس بها
ما كان عندك من وحيِ الشياطين
واحضُرْ عشيةَ (باب البحر) مُغْتَبِطا
فرُبّما نفّست عن نفس محزون
أما (ترنجة) فهي البُرْءُ لو سلِمت
ساحاتها الفُسحُ من لَسعِ الثعابين
وادفع إلى البيت من (باب المنارة) أو
(باب الجديد) إلى سوقِ الرّياحين
وطُفْ من (البرْكةِ) المعمور جامعُها
إلى (الرّباعَ) إلى ركن (القرَسطون) (1)
واخشَ الجِمار لدى (بئر الحجّار) إذا
سعيتَ منها إلى (حمّام زرقون)
وإن خرجت إلى (رَوض السّعود) فقف
كما عرفت وبت في (درب زيتون)
تلك المنازلُ لا (الزهرا) (وقُرطُبةٌ)
كلا لعمري ، ولا غيطان (جَيْرون)
فَصِدْ سوانحها إن أمكنَتْكَ وإن
تعسّرت فاستعن بمثل فركون (2)

(1) حومة القرسطون بأعلى سوق الوزر ج وزرة ، وبقية المعالم المذكورة معروفة اليوم.
(2) الاقرب انه علم لشخص يتعاطى تجارة الرقيق الابيض كما يقال في هذا العصر.

ولا تَصِدْ غير ساجي اللّحظ ذِي حَوَرٍ
فأنت في غير هذا غير مأذون

واستَمْنحِ السعد من عندِ الجوادِ به
واستَغْنِ إن نِلْتَه عن كنز قارون

ولا تقل كيف يدنو ما أؤمِّلُه
فإن مغزاك بينَ الكاف والنُّون

وكأنه عارض بهذه القصيدة قصيدةَ عامر بن هشام القرطبي التي قالها حين رقَّت حالُه وزيّن له بعضُ أصحابه الرحلةَ إلى حضرة ملك الموحدين مراكش . وذكر فيها المنتزهات القرطبية وتسمى عند أهل الأنْدلس «كَنز الأدب» وكان أبو يحي الحضرمي يحفظها ويزين بها مجالسه ويحلف الا ينشدها بمحضر جاهل لا يَفهم ، أو حاسد لا يُنصف في الاهتزار لها ، قال ابن سعيد القيسي : وإنه لجدير بذلك فإنها من كنوز الأدب (1) وهي :

/ يا هَبّة باكرت من نحوِ دَارين [86 – أ]
وافَتْ إليَّ على بعد تحييني

رَدّت على جسدي روحَ الحياةِ وما
خلتُ النَّسيمَ إذا ما متُّ يُحيينِي

لو لا تنسُّمها عن نشر أرضكمُ
ما أصبحت من أليم الوجدِ تُبريني

مرّتْ عَلى عَقَدات الرَّمل حاملةً
من سرّكم خبراً بالوحي يَشفيني

عَرفتُ من عَرْفِهِ ما لستُ أجهَلُه
لمَّا تنسَّمَ في تلك الميادين

(1) هذا التعريف بالقصيدة مأخوذ من **المقـــري** I : 223 . ونقل فيه عن ابن سعيد قول الحضرمي وتعليقه عليه . انظر نص القصيدة بالمصدر نفسه I : 257.

نزوتُ من طربٍ لما هفا سحراً
وظلّ يَنشُرُني طوراً ويَطويني

خلت الشّمال شَمولاً إذ سكِرتُ بها
سُكْراً بما لستُ أرجوه يُمنّيني

أهدى إليّ أريجا من شمائِلكُمْ
فقلت قرّبني من كان يُقْصِيني

وخلت من طمعٍ أن اللِّقَاء عَلَى
إثْرِ النسيم ، وظلّ الشوقُ يحدُوني

فَظَلَتُ أَلْثِمُ من تعظيم حقِّكم
مجرَّ أذيَالِهَا والوجدُ يُغْريني

مسارح كم بِهَا سرَّحْتُ من كمدٍ
قلبي ، وطرفي ، ولا سلوان يُثْنيني

بين المصلّى إلى وادي العقيق وما
يزال مثل اسمه إن بان يبكيني

إلى الرَّصافةِ ، فالمرجِ النَّضير ، فوادي
الدَّير ، فالعَطفِ من بطحاء عبدون

لباب عبدٍ ، سقته السُّحب وابلَها
فلم يزل بكُؤُوس الأنْس يسقينِي

لا باعد الله عيني من مَنَازِهِه
ولا يقرّب لها أبوابَ جيرُون

ما شأنها من محلاّت مُفَارَقة
من شيّق – دونها في القرب – محزون

أين المسيرُ ؟ ورزقُ الله أدركهُ
من دُون جَهدٍ وتأميلٍ يُعنِّيني

يَا من يزيّن لِـي التّرحالَ عن بلدي
كم ذا تحاول نسلا عند عِنّين

وأين يعدلُ عن أرجاءِ قرطبةٍ
من شاءَ يَظفرُ بالدّنيا وبالدّين

قطرٌ فسيحٌ ، ونهرٌ ما به كَدَرٌ ،
حفت بشطّيه ألفاف البساتين

يا ليت لِـي عُمْرَ نوح في إقامتها
وأن ماليَ فيهَا كنزُ قَارون

كلاهما كنت أفنيه علَى نَشَوات
الرّاح نَهْبا ووصلِ الخُرَّد العين

وإنما أسفى أني أهيمُ بِهَا
وأن حَظّـيَ منها حظُّ مغبُون

أرى بعينيّ ما لا تَسْتَطيل يدِي
له ، وقد حازه مَنْ قدرُه دُوني

وأنكدُ الناس عيشا من تكون له
نفسُ الملوكِ وحالاتُ المساكين

/ يَغضُّ طرف التصافي حين يُبْهته [86 — ب]
قُضبانُ نُعمانَ في كُثبانِ يَبْرين

قالوا الكفافُ مُقيمٌ ! قلت ذاك لمن
لا يستخفُّ إلى بيت الزّراجين

ولا يُبلْبِلُه هبّ الصّبا سحرا
ولا يلطّفه عَرفُ الريَاحين

ولا يهيمُ بتفّاح الخدودِ ، ورمّانِ
الصُّدورِ ، وترجيعِ التّلاحين

لا تُجتَنَى راحةٌ إلا علَى تعبٍ
ولا تُنَال العُلا إلاّ من الهُون

وصاحبُ العقلِ في الدُّنيا أخو كدر
وإنما الصّفوُ فيها للمجانين

يا آمِري أن أحُثَّ العيسَ عن وَطني
لَما رأى الرّزقَ فيه ليس يُرضيني

نصحتَ ، لكنّ لي قلبًا يُنازِعُني
فلو ترحّلتُ عنه حلّه دُوني

لألزمنْ وطني ، طورا تطاوعنِي
قُودُ الأماني ، وطورًا فيه تَعصيني

مذلّلاً بين عِرْفانِـي ، وأضرب عن
سير لأرض بهَا من ليس يدريني

هذا يقول : غريبٌ ساقه طمعٌ ،
وذاك حِين أريه البرّ يجفوني

إليكِ عنِي — آمالي — فبعدُكِ
يَهديني ، وقُربُكِ يُطغيني ويُغويني

يا لحظَ كلّ غزالٍ لست أملكه
يرنو ولا لي حال منه تدنيني

ويا مدامةَ دَيْرٍ لا ألمُّ بِهَا
لولاكُما كان ما أعطيت يكفيني

لأصبرنّ علَى مَا كَان من كدر
لمن عطاياه بين الكاف والنُّون

ومن آثار مولانا — أيده الله تعالى — الخالدةِ الذكر، العظيمةِ الأجر : القنطرةُ على نهر مليان المنصوبة جسرا على الطريق العظمى مدرجة السّابلة من

جميع البلاد القبلية ، وهي من أحسن القناطر ، جمالَ منظر ، وإحكامَ بناء ، وعظمَ منفعة ، فقد كانت السَّابلة — على كثرتهم جدا — يحتاجون زمان الشتاء ووقت زيادة النهر في عبوره إلى العدول إلى القنطرة القديمة على طريق رادس فيتجشّمون زيادة مسافة ذات أميال ويتركون الطريق الجادة ، ومن الاتفاقات القاضية بسعادة الجد ، ونجح السعي ، أنه لمَّا وقع الشروع في بناء هذه القنطرة احتيج إلى قَطْع الصخور العظام التي تقاوم شدة جرى الماء لتوضع في الأساس ويرفع بها السمك ، وكان بين مكانها وبين المكان الذي تجلب منه الصخور العظام مسافة بعيدة يحتاجون في نقلها منه إلى عمل كبير ومشقة فادحة ، فلم يشعر أحد إلاّ وقد عثر بعض الفَعَلَة على دفينٍ من الصخور العظام بأرض قريبة جدا من مكان القنطرة — بينها وبين شوشة رادس —
فاستخرجوها وبنوا بها كأنما كانت معدة لهذا / الشأن ، وبقى ذلك المكان [87 — أ]
مقطعا للحجارة المعدلة التي تقع في المباني الضخمة يجلبها منه من شاء ، ورأيت بأعلى القنطرة رخامتين مكتوبا على كل واحدة منهما أبياتا تتضمن التاريخ : احداهما وهي اليمنى على طريق الذاهب من الحضرة مكتوب عليها من نظم الورغي :

انظُر لجسرٍ ينجلِـي   بكل صُنعٍ أجمل
يزهو به مليان عَنْ   مَجْرَدَةَ ويَعتلِـي
ومن معاني اسْمَيْهمَا   يَظْهرُ فضْلُ الأول
وازداد فضلا إذْ دنَا   لمَنْ بنى بالمنزل
نجلِ حسينٍ من نحَا   منحى الهُدَاةِ الأوَل
بلَّغَهُ خالقُه   مَا يَبتغي من أمل
وباسمِه أرّخْتُه :   (زكـا به الباشا علي)
1180

وعلى الأخرى وهي اليسرى منهما من نظم الطوير :

انظر فخَامة مبنى   قد تمّ حسا ومعنى
علا بِمليَان يَزهُو   عَلَى القناطر حسنَا

نجلُ الأميرِ حُسَيْنٍ   بنَاه رفقاً وأمناً
فارفق بِهِ وأنِلْهُ   مولاي ما يتمَنّى
يهَنيهِ سعي جميل   لغيره ما تسنّى
يا عَابر الجسر يمشي   من فوقه مطمئنا
للمنشىء ادع وأرّخ :   (علي باشا يهنا)
1180

وأما القناطر الصغار التي نصبها على أودية وأماكن يعسُر عبورها أوقات الأمطار والأوحال فكثيرة — كقنطرة الخضراء ، وقنطرة وادي الحيطي ، وقنطرة الأحواش ، وقنطرة الفدان ، وغيرها — أكبرها قنطرة البغلة التي على خليج من وادي زرود في طريق الساحل من القيروان .

ومن مآثره الجميلة ومساعيه الحميدة ومصانعه الضَّخمة سور القيروان الذي أداره عليها سياجا ، وشدَّه عليها نِطاقا ، وحلاَّها به سِوارا ، فقد ذكرنا أن يونس بن علي باشا كان قد اجتثّه من أصله ، واستأصله جملةً بأسره ، أيام الفتنة حين ملك القيروان بعد حصارها الطَّويل ، وبقي على تلك الحال منجعفا
أيام علي باشا كلها ، فلمَّا أديل للمولى الأمير محمد باي / واقتعد أريكة الملك [87 — ب]
بالحضرة صرف عزمه إلى رفع دعائمه ، وإحياء معالمه ، واهتم بذلك واعتنى به ، واعتزم على أن يديره محيطا بأرباض القيروان كلّها وبالجناح الأخضر امدفن الأعلام والصّالحين من رجالها ، فوجّه إليه مهَرة العَملة من الحضرة ، واختطوا أساسه على حسب ما قدّره ، وابتدأوا البناء من الجهة الشرقية حيث لا ربض هنالك وتباعدوا عن الأساس القديم مسافة تتهيأ بها الاستدارة على وفق تقديره ، وبنوا طائفة من السُّور والبرج الضّخم المشيد الأركان ، وعاجلته المنية عن إتمام ما أراده — رحمه الله تعالى ، واستقلّ بالأمر بعده مولانا — أطال الله بقاءه — فصرف عزمه إلى إتمامه لكنّه رأى أن إتمامه على ذلك الوضع يأتي على الأموال ، وتفنى دونه الأزمان ، ولا يوفّي التعب فيه بالمنفعة منه ، فبنى القصبة ، وانحرف به إلى الأساس القديم وأتمه متقن البناء ، مُحكم الصنعة محيطا بالمدينة دون أرباضها ، وأذن للناس في بناء الدور في البراح الذي استقرّ

بين أساس السور القديم وبين القطعة الشرقية التي بناها أخوه — رحمه الله تعالى . فعمرت هنالك نحو ثلاثمائة دار ، ولما تمّ بناء السور أمر بعمل تواريخ تكتب في الرُّخام على أبواب المدينة الأربعة من نظم الكاتب أحمد سمية ؛ فعلى باب تونس منها :

هَذَا الذِي بسموّ منشئِه سَمَا
وبِحُسْنِ طَلْعَتِهِ الزّمَان تَبَسَّمَا
مَا لِلْبِلاَدِ البَاب إلاّ هَـكَذَا
حِصْنٌ وحُسْنٌ فَاقَ كلٌّ منهُمَا
فَابْن الحسَيْن عَلي بَاشَا أظهرَتْ
عزَمَاته سُوراً يَسرّك كلّما ...
ودعَا لأبْوَابِ الْمَدينَة بَهْجَةٌ
فَأَتت مُجِيبَته بِوَجْهِ الانْتِمَا
يَا دَاخِلاً لِلْقَيْرَوَانِ مُؤَرّخاً
(من بَابِ تونس جُزْ مصاناً في الحِمى)
1183

وعلى باب الجديد :

كمال السرّ يظهر من بعيد ... بِسُورٍ لاَحَ من مَلِكٍ حَميد
سليلِ حُسَيْنِ بَايِ عَليّ بَاشَا ... سَنَا العلياءِ ذي الرأيِ الرّشيد
لَهُ بِالْقَيْرَوَانِ نِظَام سُور ... بَدَا كَنِظَام عقيَانٍ مجيد
ومفتاح الفَلاح سعَى إلَيْهَا ... بحل البَاب لِلْخَيْرِ المديد
من البَابِ المُبَارك جُزْ وأرّخ : ... (سنا البركاتِ في الباب الجديد)
1183

وعلى باب الجلاّدين :

سُوراً لِمدينَة فَاقَ بِالتّحصين ... والبَابُ مِنْهُ كغرّة بجبين
[88 — أ] / فَانظره ، وادعُ لمن سعى لله في ... تَجْديده بِالنّصْرِ والتّمكين
نجلِ الحسينِ عليّ بَاشَا منْ له ... عزمَاتُ مأمُون وعز أمين

كثرت مَزَايَاهُ فَحُسّابٌ لهَا ... عجزت عَنْ الإحصاء والتبيين
حُثَّ الخُطَا لترى الكمال مؤرّخا ... (فَالحُسن خط بباب جلادين)
1183

وعلى باب الخويخة ، ويسمى باب الجامع — وهكذا سمّاه في الشعر — :

الله أكبر لاَحَ بابُ الْجَامِع ... كضياءِ صبح أو كبرقٍ لامِع
فحلاه فِيهَا للمُشاهد نزهةٌ ... وتشوفٌ وتشوقٌ للسَّامِع
لمَّا الهمام عليٌّ أبدًا نَفْعَهُ ... بالسُّورِ أحدثه بِهِ لمنافِع
فَالله يَنْفَعهُ بِنِيَّتِهِ وَمَا ... يبغي لَهُ يسعى بغير ممانع
فَجزَاهُ خيراً إذ أتَى تَاريخه: ... (خير الصّلاح نما بباب الجامع)
1183

ومن آثاره الشاهدة بفخامة الدولة ما أحدثه بباردو المعمور من القصور المشيدة ، والديار الفيح ، والدواوين السّامية ، والغرف المنيفة ، والمجالس الموطاة ، فقد كانت باردو على عهد ملوك الموحّدين من بني أبي حفص منتزها من سائر منتزهاتهم التي اتّخذوها لفرجهم وخلاعتهم كرأس الطابية وأبي فهر وغيرهما من مصانعهم ، لكنهم ما اتّخذوها داراً للسكنى ، ولا لإقامة مراسم الملك ، حتى كانت دولة آل مراد بعدهم فاعتنوا بشأنها وبنوا بها الدور والمساكن وصيروها مدينة استقلوا بسكناها — تفاديا عن ملابسة الجند من الأتراك ، وتجافيا عن التورّط في حبائل ثورتهم — واختاروها لقربها من الحضرة فإنها على فرسخ منها أو أقل من شماليها على طرف الحرايرية ، فسكنها منهم محمد باي ابن مراد ، وأخوه رمضان باي ، وابن أخيهما مراد باي بن علي ، فلمّا انقرضت دولتهم وملك بعدهم إبراهيم الشّريف رفض سكناها واستقرّ بدار حمودة باشا من الحضرة للدالة على الأتراك بعجمته ، فلمّا ثُلّ عرشُه واستبدّ بالمملكة المولى الأمير — رحمه الله — بعد مهلك محمد الأصفر انتقل إليها واتخذها أريكة لملكه وأسكن بها معه خاصته وخدمه ، وأقام بها الجمعة ولم تقم بها قبله ، وبقي بها مدة دولته ، وبها كان مولد موالينا أبنائه الكرام ونشأتهم ، فلمّا ملك بعده علي باشا اعتنى بها غاية الاعتناء فزاد فيها زيادة تقرب من نصفها ، وأدار بها خندقا حاجزا ، وشيّد أبراجها ،

وبني بها الهياكل المرتفعة ، واحتفل بالقصر ، وجلب له الرخام والمرمر حتى قيل لا زيادة على ما صنع ، فلمّا رجع سيفها إلى قرابه ، ومُلكها إلى نصابه ، وأعطى القوس باريها بعودة مولانا — أيده الله تعالى — إلى مقر سلطنته منها اتّخذ بها
ما لم يخطر على ذهن/أحد ممن تقدمه ، فبنى بها المصانع الحافلة ، وجلب [88 — ب]
إليها من المرمر الملوّن المجزّع ما لم يجلب إلى الحضرة قبله حتى صار نزهة للناظرين وموقفا لأبصارهم ، ومن جملة مصانعه بها المحكمة السّامية المناظرة لمحكمة علي باشا المضاهية لها في ضخامة الشان ، المُربية عليها في حسن الشكل ، وكوّن المدخل إليها من البيت فاغنى عن تجشم الكلفة بقطع مسافة الصحن في الغدوات الباردة ، وهي على يسار الصاعد إلى القصر ، والأخرى على يمينه وصارت الآن لمولانا أبي محمد حموده باشا — واصل الله سعادته — يجلس فيها أيام الأعياد والمواكب ، وليحكم بين النّاس إذا استنابه مولانا — أيّده الله تعالى — في ذلك . وفي سنة احدى وثمانين وقع الطّاعون بأطراف العمالة من ناحية الشرق وتوقّع النّاس وصوله إلى الحضرة — حرسها الله تعالى — وأرجف بذلك، ففكّر مولانا — أعزه الله تعالى — في التّحر زمن دخوله إلى باردو — صانها الله تعالى — بمنع الدّاخل إليها ،ولم تطب نفسه بترك الحكم بين النّاس والنّظر في أحوالهم ، فعمد إلى برج من أبراج سور باردو المعدة لوضع المدافع — وهو الذي على يسار الداخل إليها — فأنزل مدافعه وأزال شرفاته ، وبنى عليه قبة مسرفة على الطريق وقدّر أنه يجلس فيها للحكم بين النّاس ليسمع كلامهم من غير أن يدخل أحد منهم إلى باردو ، فكفى الله تعالى شرّ ذلك وارتفع الطاعون من أطراف العمالة وبقيت تلك القبة من أحسن الاواوين مطلة على بساتين منوبة والحرايرية ، مشرفة على الداخل إلى باردو والخارج منها ، وجعل منفذين من البيت الطويلة التي بصدر القصر احداهما عن يمين البهو ، والأخرى عن شماله ، ومن غريب ما اتفق بها أنه لمّا استدارت قبتها ، واحتيج إلى فرش قاعتها أخذت مركبٌ من المراكب الجهادية غنيمة للفرنج بها من الجليز البديع الصنعة الغريب الطلي والتّزويق ما فرشت به قاعتها فكان وفقها كأنما أعدّه صانعه لها ، وجلب إليها الماء في فوارة من

الرُّخام وسطها ، وعمل فيها أبو عبد الله الورغي قصيدة كتبت بدائرها نطاقا عليها نقشا في الجبس بالخط المشرقي البديع وهي :

سعيدُ المَباني ما يطول ويمتدُّ
إذا كانَ لِلْوَجْهِ الجميل به القصد

ولاسيما إنْ كانَ في خُلق الذي
بناهُ انطباعٌ ، لا انقباضٌ ولا حقد

بذا يَحسنُ المبنى ويَسعَدُ أهلُه
ويحوي بِهِ آماله الأبُ والوُلْد

ويصدق أنْ قَالَ الخبير بوصفه
هي القُبَّةُ الفيحاء مَا إنْ لها ند

لقد خفيَتْ حتّى إذا البختُ زارها
تبدّت ، ومَا للملكِ منْ مثلها بد

نَتيجةَ تدبيرٍ سهَا عنه من مضَى
وشيّدها من هذّب الأمر من بعدُ

/ فجاءت كنجم الصُّبح طال انتظارُه [89 — أ]
فمن كل نَجّامٍ لطلْعَتِهِ رصد

ولو لم تكُنْ نجما يُرجّى طلوعُه
لما كَانَ من برجِ السعود لها مهد

فألقت على مَا فِي المنَازلِ يمنهَا
في كل بيتٍ من سعادتها سعد

وكانت لأعيَان المحبّين قُرّةً
وإن كَانَ مِنْهَا في عُيون العِدا فَقْد

فسرّحْ بِهَا طَرْفا إلى الآن لم يكن
لهُ بِبَديعِ الشّكلِ من قَبلِها عهد

فتُعطيك بِالتمثيلِ ما شئْتَ من مُنى
فإن شئتها روض وإنْ شئتها خود

وإنْ أنت أمْعَنتَ التأمُّل خِلْتَهَا
يَتيمة دَار الملْك تَمَّ بِهَا العقد

هي الرأسُ منها ، والطويلة صدرُهَا
ومَا قد علا ذاك الصُّدَارَ لهَا نهد

ومَا صغُرتْ تلك البسَاتين حولَهَا
لأن قليلاً كافياً كُثْرُهُ دَدُ (1)

عَلى أنَّهَا روض يدبّجه الْحَيَا
فمن كل نَوْر فِـي تَفاصيلِها بُرد

وفي أوْجِها حيث الكوَى منه أومأتْ
إلى الشَّمس قوس الله في قلبها يبدو

فإذذاك أضداد الأشعة جمِّعَت
ومن قبلِ هذا الحينِ ما اجتمع الضّد

على أرْبَع قَامتْ وإنْ كَان شبهُهَا
من الغيد يَكْفِي فِي ملاحتها قدّ

ولكِنَّهَا زَادتْ لتلعب بِالنُّهَى
إلَى الغَاية القصوى أساطينها المُلْدُ

ومَا قيّد الألْحاظ منْهَا كمركز
مواتٍ وأمواهُ الحياة بِهِ تغدو

لمعنى ترى الأنحاء منهَا ثَمَانيَا
فهل هي إلاَّ من جِنان بها الخُلْد ؟

(1) لعــب .

وألقت عَلَى ظهْرِ الطريقِ وسَادهَا
لئلا يُلاقي الغبنَ في قصدها الوفْدُ

وتُبصِر مِنْ قُرْب مريداً تودّه
وتسمعَ بدءاً صوتَ من قصدُه الرِّفْدُ

فَحَسْبُ من استعفى من الضيم وقفة
وحسب الذي يَأتي لعاداتها العود

وأعظم بها والبرج يَكْفِتُ (1) ذيلها
كجالسة قعساء كرسيُّها طود

ولو نَطقتْ قالتْ له : كيف كنتَ لي
ومَا بينَنا فِيمَا طُبعنا لَهُ بُعد

طبِعتُ عَلَى التقوى فأقبلُ من دنا
وأدْنو لِمن ينْأى ومن طبعكَ الطّردُ

فأين مُخيفَات بِهَا كنت تحتمى
أمِنْ قَدَرٍ يأتي بِهِ الصّمَد الفرد ؟

وهَا أنَا ذِي وجهت وجْهِي لِوَجْهِه
ومِن ذكره ـ ما دمتُ في الدهر ـ لي ورْد

وبعت المغاني بالمثاني ، ونَشْوَتِي
بمَا قَام حمَّالُ الحديث بِهِ يشدو

/ بهذَا رأيت السّمكَ أصبحَ مَنزلِي [89 ـ ب]
وأنت ـ كمَا عَاينتَ ـ منزلك الوَهْدُ

كذلك يَعلو من إلى الخَيْرِ سعيُه
وَيسفُل مَنْ يَغْدُو إلى الشَّرِّ يشتدُّ

(1) الكفت : الصرف ، وكفت ذيله : شمره وقبضه.

كفتني مِنَ الْمَولى القَوِيّ عِنَايَةٌ
وما بعدَ عون اللّه فِي شدةٍ جند

عَلى أن بِالإسْنَادِ لِي لكَ حرمة
عليك لِمَنْ أوْلاَ كُما يَجِبُ الحمد

هُوَ السّيد البَاشَا الّذِي بِكَمَالِه
وإكْمَاله مَا يَنْبَغِي كمُل الحَمْدْ

مُرادِي عليّ بن الحُسين ، ومَنْ يقلْ :
لَهُ فِي النُّهى ثَانٍ ، فَقَوْلَتُه رَدّ

إذَا عُدّ من وفى بِكُلّ مليحة
وقِيلَ عليّ أول ، وقَفَ العَد

سقى قصرَه هَذَا وكلّ قرَارَة
يَحِلّ بِهَا سَارٍ من اللُّطفِ مُمْتَد

دعاءٌ أجَابَ اللّه من قَدْ دَعَا بِهِ
وتاريخها : (بيت به أوْنَس السّعد)

1281

بحرمةِ من وَافى إلَى الخلقِ رحمةً
فزالت بِهِ الأسوا وتَمّ بِهِ الرُّشد

عَلَيْهِ صلاة لاَ يُحاط بِقَدْرِهَا
يماط بِهَا عَنْ بَابِ فيض الرّضا السّد

ويدخل باني البَيْت في حصنِ درعها
فتحفظه حِفظ الحِمَى الحافظُ الجَلْدُ

وفي حِرْز «بسمِ اللّه» وهْيَ وجيهة
يحق بِهَا المبْدَا ويزكو بِهَا العود

وكتب في سقيفتها من المجاز الأيمن :

هَـذِهِ بيت تَسُرّ النّاظِرين — تنزل الرّحْمَة فِيهَا كل حين
واجبٌ حتمٌ عَلَى داخلهَا — حمدُه للّه رَبّ العَالَمِين

إذْ أتَى مِنْهَا مكانا طيباً — فيهِ ما يَبغيه من دُنْيَا وَدِين
هُنئت لابن الحُسَيْن ربِّها — وبَنيه الغُرّ أنجَابِ البَنين
فَهْيَ سعد ورد الآن لَهُ — ولهم بالنّصر والفتح المبين
وإذَا تَمّ البنا وأرّخت : — (يدخلوهَا بسلام آمِنِين)

1181

وقد كدنا أن نخرج عن المقصود — وما خرجنا إن شاء الله تعالى — فلعل هذين المصنعين اللّذين خصّصناهما بالذّكر من شرطنا المذكور في صدر الكلام . وأنهما ما بنيا إلاّ للجلوس فيهما للحكم الّذي به تصل الحقوقُ وتندفع المظالم ، فلنغضّ عنان القلم ، فقد سلك طريقا لا تقطع ، وتيارا لا يصد عن سبيله ولا يمنع ، فإنّ صدقاتِ مولانا — أيّده الله تعالى — وإحسانَه أكثرُ مما ذكرناه وذلك كلّه دون الطارئة لمن يقصده من الغُرباء وأبناء السبيل والأسارى والحجاج وغيرهم ، ودون الخارج / في كلّ عام لأناس معيّنين من قمح وزيت وسمن [90 — أ] وكسوة وغير ذلك ، ودون تجهيز من يموت من الفقراء المتسورين بجهاز أوساط الناس ، ومع هذا كله فهو معترف بالتقصير ، كثيرا ما يقول : « إنما هي أموالهم أوصلها إليهم فلا فضل لي في ذلك ! » وقد تحرّى في أكثر هذه الصّدقات أن تكون من حلال ، والله تعالى الموفق لا رب غيره .

واما حلمه وكظمه الغيظ وعفوه

فاعلم أن هذه الأخلاق الثلاثة الشّريفة — مع تقاربها — بينها فرقٌ : فان كظْمَ الغَيْظ عبارة عن التحلم — أي تكلف الحلم — ولا يَحتاج إلى كظم الغيظ إلاّ من هاج غضبه ، ويُحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة ولكن إذا تعوّد ذلك مدة صار ذلك اعتيادا فلا يهيج الغيظ ، وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب — وهو الحلم الطبيعي — وهو دلالة كمال العقل والاستيلاء به ، وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل ، فهو أفضل من كظم الغيظ وأشرف ، لكن ابتداءه بالتحلم وكظم الغيظ تكلفا لمن لم يكن مجبولا عليه من أول الفطرة . وأما العفو فهو أن يستحقّ حقا فيسقطه ويبرأ عنه من قصاص أو غرامة ، وهو غير الحلم وكظم الغيظ ،

فهذه الخلال الثّلاث – ويدخل فيها الاحتمال – هي من أعظم الأخلاق وأشرف الملكات وأكرم الخصال وقد آتى الله تعالى مولانا – أيّده الله تعالى – منها ما لا يعرف في العالَم إلاّ لمثل الأحنف بن قيس (1) ونظرائه ممّن يضرب بهم المثَل ، وتُدوّن أخبارُهم في السير ، وهذا ضروري عند من شافنه وعرف أخلاقه – بل عند كل من شملته إيالته – فلا يكاد يَستفزّه الغضب ولا يحمله على التشفي والانتقام – بل يحلم عمن جهل ، ويعفو عمن جنى – أما خاصته فلا يعاقب من جنى منهم جناية أو هفا هفوة بأكثر من الإعراض عنه وترك الالْتفات إليه أياما بحسب جنايته من غير فحش ولا سباب ولا كلام يكسر قلبه – إلاّ في حقّ شرعي لله وللنّاس فيستخرج ولو من أحظى النّاس لديه – وأما رعيته فلا قتل ولا ضرب ولا تنكيل : وإنما هو زجر وتأديب هين بحسب ما تقتضيه الشّريعة أو السّياسة .

حضرت ليلة مجلسه العالي – رفعه الله تعالى – وكان معنا الشيخ الفقيه القاضي أبو الظفر منصور المنزلي قاضي باردو المعمور فانجرّ الحديث إلى ذكر الحِلْم والغَضب فقال مولانا – حفظه الله تعالى – : أنا والحمد لله لا أغضَب ! فقال له القاضي : من استُغضِب ولم يغضَب..... فتغيّر وجهه وظهر عليه آثار الامتعاض وقال له : « أنا حمار أيها الشيخ ! » ثم نظر إلينا كالمستنطق ؟ فبدره الشّيخ الفقيه الأجل أبو محمد عبد اللطيف الطوير مفتي القيروان راداً عليه بما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه « أن رجلا قال : يا رسول الله مُرْني بعمل وأقلِلْ فقال : لا تغضب ! ثم أعاد عليه فقال : لا تغضب » وقلت له أنا : هذا الأثَر من كلام الشافعي – رضي الله عنه – وهو محمول – كما قال حجة الإسلام الغزالي / – على من فقد قوة الغضب ، أو ضعفت فيه بحيث [90 – ب]
لا حميّةَ فيه ، حتى لا يأنف مما يُؤنفُ منه من التعرّض للحرم والزّوجة والأم والإماء ، ويحتمل الذُل من الأخسّاء ، ويتصف بصغر النفس والغمارة – وهو مذموم جدّا – ومن ثمراته عدم الغيرة على الحرم الذي هو خنوثة ،

(1) تميمي وهو فصيح من دهاة العرب واحلمهم ، وفاته سنة 72/692.

فهذا هو الّذي عناه الشافعي – رحمه الله – بقوله : من استُغضِب ولم يغضَب فهو حمار ! فسكت القاضي ونهض مولانا – أيّده الله تعالى – إلى صلاة العشاء وانفضّ المجلس ، فلمّا كان الغد وانتشرت القضيّة وأرْجِفَ بعزل القاضي خاف خوفا شديدا وانطلق إلى الوزير الأجل أبي الحسن علي بن عبد العزيز مستجيرا به وأخبره بالقضيّة ، فقال : هذا الّذي خفتَه منه حق لنفسه أو لغيره ؟ قال : بل حقٌ لنفسه ! قال له : لا بأس عليك وأنا الكفيل لك بذلك ! ثم جاء ابن عبد العزيز إلى مولانا – أعزه الله تعالى – وأخبره بما دار بينه وبين القاضي وبضمانه الذي ضمنه ، فقال له : جزاك الله خيرا ، أمّا أنت فقد عرفتني ، أخبِره أنه لا بأس عليه ، أيريد أن يكذبني حتى يقال : غلبه الغضب وطلب الانتقام لنفسه حتى عزل قاضيه ؟ لا يكون ذلك أبدا إن شاء الله !

ومن حلمه الدّال على انقياد غضبه لعقله ، ودخوله تحت قهره : أنه حضر في بعض الأيام مجلس الشيخ الفقيه القاضي أبي عبد الله محمد بن علي سويسي قاضي الحضرة بمحلّ حكمه رجل يُعرفُ بوكيل الطبربيه مترافعا مع خصم له فأدّاه اللّجاج إلَى أن صدر منه في حقّ مولانا – أعزّه الله تعالى – حين ذكره له خصمه – من قبيح القول وفظيع السّب ما لا يليق أن يُذكر ! فأشهد عليه القاضي بذلك وسجّل عليه ، ولما حضر القاضي مجلس مولانا الرفيع يوم المجلس أتى بالرجل المذكور وأحضر السجل الّذي فيه الشهادة عليه بما صدر منه ، فلمّا علم مولانا – أعزه الله تعالى – القضية على وجهها أمَر بإطلاق الرّجل وقال له : اذهب فإن الحقّ لي وقد عفوت عنك ! والتفت إلَى القاضي فعاتبه وقال له : كان الأولى بك ألاّ تُبلغ إلَيّ مثلَ هذا .

وفي سنة خمس وثمانين ورد على الحضرة رجل من أهل مساكن اسمه عبد الله كان منتميا إلى بعض الرؤساء بتونس ، ثم ارتحل إلى المشرق فأقام بمصر ، وانتقل إلى الحجاز فجاور مدة ، ثم انتقل إلى اصطنبول فأقام بها أيضا مدة ، ثم ورد على الحضرة ومعه كتابان من مولانا السُّلطان مصطفى خان – رحمه الله تعالى – إلى مولانا – أعزه الله تعالى ، مضمّن أحدهما : « أنه

وردعلينا السّيد عبد الله الشريف المساكني وأخبرنا أن أهل مساكن الأشْراف بعملكم قد وقع عليهم الظلم من جنابكم بالزامهم أداء أموال جبايات وغيرها على وجه الظلم فلترفعوا ذلك عنهم وتعفوهم من جميع المظالم لأنهم أشراف لا ينبغي أن يُرهقوا بالظُّلم » ، ومضمن الثاني : « أنا كنا كتبنا لكم في شأن أهل مساكن الأشْراف لترفعوا عنهم الظلم لشرفهم فلم تمتثلوا » وأكد في
الوصيّة والأمر برفع الظلم عنهم وامتثال ذلك ! وتاريخ الثّاني / بعد تاريخ [91 – أ]
الأول بنحو ستة أشهر وأتى من نزارة عقله بالكتابين جميعا إلى مولانا – أعزه الله تعالى – ودفعهما إليه ، فلما اطّلع عليهما استشاط غضبا وقال له : أيّ ظلم صدر مني لأهل مساكن ؟ وما الذي فعلته معهم مما أوجب هذا منك ؟ ثم ما كفاك أن كذبت عليّ أولا ورميتني بالباطل ، حتى كذبت عليّ ثانيا وأظهرت لحضرة السلطان العليّة أني عصيت أمره فكتب لك الكتاب الثّاني والأوّل باق بيدك لم أطلع عليه ! فصدر من ذلك الرّجُلِ من التّهور في الخطاب ما لا مزيد عليه ! فكتب مولانا – أيده الله تعالى – إلى أهل مساكن ، واستدعى جماعةً من كبارهم وأعيانهم وقال لهم : أيُّ ظُلمٍ صدر منّي لكم حتى ترسلوا إلى حضرة السلطنة وتشكوني وتنسبوا إليّ القبيح ؟ وأنتم محرّرون من جميع ما يلزم الرّعايا من القوانين المخزنية ، وإنما تؤدون خراج زيتونكم القديم – على كل أصل أربعة ناصرية – كغيركم ، ومُحدَثُ الغراسة من أوائل دولة الترك إلى الآن لا تؤدون عليه شيئا ! وذلك لا يوفي بالنّزر مما يلزمكم من عُشره شرعاً ! وها أنا ذا تاركٌ عنكم قانون الزّيتون ومطالبكم بأداء عشر ما تعصرونه منه الذي هو حقٌّ شرعي ، فحلفوا كلهم بالأيْمان المغلظة أنّ هذا الفعل لم يكن عن ملإ منهم وأن ليس عندهم علمٌ بشيء مما فعله هذا الرّجل ، وقالوا : لا تؤاخذنا بفعل رجل مختلّ العقل ، وكيف تتركُ عنّا قانون الزيتون الّذي استقر عليه الأمْر بيننا وبين الترك من أول مُلكهم وتأخذُ منا العشر الذي لم تجر عادةٌ علينا باعطائه لجانب المخزن ؟ فلا تُحدِثْ علينا حدثاً لا نعرفه ! فصرفهم إلى بلدهم لمّا تحقّق منهم الصّدق ، وأهمل عبد الله المذكور ولم يؤاخذه ، فلم يزل بعد ذلك يتردّد إلى محكمته السّامية ويتهوّر

في كلامه ، فأمر – أيده الله تعالى – آغا الباب أن يصدّه عن الدخول إلى باردو ، فأقام بتونس واختلّت أحوالُه وضاقت معيشتُه وبلغ منه الجهدُ مبلغا عظيما ، فلمّا وقفتُ على ذلك من حاله أعلمت به مولانا – أيده الله تعالى – وكلّمته أن يتفضل عليه بشيء يسد خلّته ، فرقّ له لما جُبِل عليه من الرّحمة ، وقال : هذا أولى من يُعطى ! لأن ما نعطيه إيّاه يكون خالصا لله تعالى إن شاء الله لإساءته إلينا ! وأمر أن يُرسم مع جماعة المتعفّفين الذين يأخذون نفقتهم كل يوم جمعة من باردو المعمور ، وأذن له في الدّخول إليه وتقبيل يده يوم الجمعة ، فاستمرّ على ذلك مدةً ، ثم وقع بينه وبين بعض أصهاره شحناءُ ومخاصمة أدّت صهره ذلك إلى أن أتى إلى مولانا – أعزه الله تعالى – وأطلعه على السبب الذي توصّل من أجله عبد الله إلى حضرة السلطان العلية وكُتب له الكتابان ، وهو كتابٌ من الشّريف مُساعِدين سعَيد صاحب مكّة المشرّفة – رحمه الله تعالى – إلى حضرة السُّلطان مصطفى خان – قدّس الله روحه – يطلب منه
أن يكتب للسيد عبد الله الشريف المساكني كتابا إلى / صاحب تونس برفع [91 – ب]
الظُّلم عن الأشْراف أهل مساكن فإنهم قد أرهقتهم المظالم ! وأحضر الكتابَ إلى مولانا واطّلع عليه ، فانّ عبد الله توصّل إلى عود الكتاب إليه بعدما اطّلع عليه السلطان وبقي في مخبئاته ! فنال ذلك من مولانا – أعزّه الله – وآلمه ، فاستحضر عبد الله ووبّخه وقال له : بِمَ استحللت هتك عرضي بين الملوك بالبلدان من مكة إلى اصطنبول ؟ فهل وقع مني ظلم لك أو لأبيك أو لأحد من أهل بيتك ؟ أو كان بيني وبينك أو بين أحد من أقاربك معرفةٌ أو ما يوجب شيئا من هذا ؟ فاعتذر بمعاذير باردة ولم يخرج عن التهوّر في كلامه – وما رأيتُه – أيده الله تعالى – غضِبَ في وقت مثل غضبه في ذلك اليوم – وقال : هذا رجل مجنون ينبغي أن يُجعل في المرستان مع المجانين ! ثم رجع إلى حلمه وخلّى عنه وصرفه إلى منزله ، فلمّا كان يوم الجمعة دخل عليه لتقبيل يده وأخذ نفقته على رسمه فأرسل إليه أن امكث بتونس ولا تدخل باردو ونفقتك تأتيك كل جمعة إلى منزلك فإني أخشى إن رأيتك أن تبدر مني بادرة إليك لا أملك معها سورة الغضب ! فترك غشيان باردو مدةً ونفقته جارية

عليه في منزله ثم عاد بعد ذلك إلى دخول باردو ومباشرته أخذ نفقته ولم يزل على ذلك إلى الآن .

وقد قدمنا أن محمدا بن رجب بن مامي كان لما قربت محلّة الجزاير إلى تونس هرب في البحر إلى طرابلس بعياله وأمواله بحيلة تمّت له فارّا بنفسه من القتل ، فإنه كان يُقدّر أن محمدا باي لو ظفر به — أو مولانا أيده الله تعالى — قتلاه لقرابته من أبناء علي باشا — لأنه ابن خالتهم — ولخدمته وخدمة أبيه لعلي باشا ومناصحتهما له ، فقد تنقّلا في ولاية الأعمال الجليلة كولاية الأعراض وغيرها ، وقدمنا أنه لما حصل إسماعيل بن يونس بطرابلس نزل معه في داره بها ، وقد كان وقع الإرجاف عند هروبه أن ذلك وقع منه بإذن علي باشا ، وأنه سلّم إليه أموالا عظيمة خرج بها خوفا من وقوع الدائرة عليه لتسلم له ، وتحيّل على إخفاء ذلك بخروجه في صورة الهارب ، وشاع هذا الكلام إلى أن بلغ صاحب الجزائر فكتب إلى صاحب طرابلس يطلبه منه ليستوفيَ منه أموالَ علي باشا ! فدافع عنه صاحب طرابلس وامتعض من تسليمه ، ثم إن محمدا بن مامي كره المُقام بطرابلس واختار الحصول في قبضة صاحب الجزائر [وألحّ في طلب النقلة فأجيب إليه فركب البحر بعياله متوجها إلى صاحب الجزائر] ، فلمّا حصل عنده بحث عن حقيقة الأمر واستقصى أحواله — بعد القبض على موجوده — فلم يثبت عنده شيء من ذلك وتيقّن أن ذلك الإرجاف لا حقيقة له فخلّى عنه واستقرّ بالجزائر مستوطنا لها إلى سنة إحدى وثمانين واشتاقت نفسه إلى وطنه لِما علم من حلم مولانا — أيده الله تعالى — وعفوه وحسن معاملته مع أصحاب علي باشا ، فكتب إليه يطلب منه الأمان ويستأذنه في العود إلى الحضرة فكتب إليه كتاب الأمان وأذن / له في العَوْد [92 — أ]
إلى وطنه ، فأقبل بعياله وماله ، فقوبل بما لا مزيد عليه من الإكرام والتبجيل ، وعُيِّنتْ له التعيينات ، واستخدَم ولدَه من جملة مماليكه الخاصّة الّذين يتولّون خدمته — أعزه الله تعالى — في بيته ، واستأذنه بعد ذلك في الحجّ فأذن له فحجّ ورجع .

ثم بعد ذلك في سنة خمس وثمانين كان القائد أحمد السهيلي — الّذي قام في أمر الفتنة بوسلات مع ابن يونس وطوع له أهل الجبل قاطبة وصاهره على ابنته وفرّ معه إلى الغرب عند فراره كما تقدم — لَمّا رأى ما صنع مولانا — أيده الله تعالى — مع محمد ابن مامي من الوفاء والإحسان وأعرْضت نفسه عن المقام بالجزائر واشتاقت إلى العود لوطنه كتب إلى مولانا — أيده الله تعالى — يطلب الأمانَ والإذنَ في القدوم والعفوَ عما جناه ، فكتب إليه بذلك فقدم بعياله وأولاده وقدم معه جماعة من أهل وسلات الّذين هربوا معه ، فقوبلوا بما لا مزيد عليه من الإكرام والتبجيل والإحسان ، وعيِّنَتْ له التعيينات ، وولاّه قائداً على وسلات كما كان قبل عصيانه ، ولم يزل مكرما عنده إلى الآن يختصه ويواكلُه على مائدته ويبيت بحضرته في بعض اللّيالي ، ولم يعاتبه فيما صدر منه من قيامه مع ابن يونس بكلمة إلى الآن ! سمعته — أيّده الله تعالى — يقول غير مرة : الناس يقولون إنني فعلت مع محمد ابن مامي وأحمد السهيلي ما لم يفعله أحد من العفو والإحسان ولي عليهما بذلك مزية عظيمة ! وليس الأمر كذلك ، بل لهما عليّ المزيةُ من وجهتين : أحدهما ركونُهما إليّ ووثوقُهما بوفائي وعهدي ، وركونهما إلى جانبي حتى رجعا إلي ولم يستوحشا مني ، والثّاني : ما ظهر للنّاس بصنيعي معهما من الحلم والعفو والوفاء فإنّ عفوي عنهما ليس كعفوي عن غيرهما .

ولمّا استقرّ المولى محمد باي — رحمه الله تعالى — بالحضرة على أريكة السّلطنة وحصل على أصحاب علي باشا بأسرهم أمر أن تُكتَبَ له جريدة بأسماء الأكابر منهم ، فكتبت له جريدة فيها أسماء نحو السبعين ، فهمّ بسجنهم والتّنكيل بهم وتصريف أنواع العقاب عليهم ، وشاور في ذلك مولانا — سدد الله رأيه ؟ فقال له : « أما دون أن تضرب بسور على جميع عملك حتى لا يمكّن أحد أن يخرج منه فلا ! وإلاّ فكيف يكون هذا وأصحاب علي باشا الّذين أقررتهم على أعمالهم — إلى وقت مّا — متفرقون بنواحي البلاد في أعمالهم ففلان بمكان كذا وفلان بمكان كذا ، وعدّدهم له ، فهؤلاء إن بلغهم أن أصحابهم سجنوا وعوقبوا هربوا وفاتك ما تريد منهم ! ولكن خذهم

واحدا بعد واحد وتعلّل على كل واحد منهم بعلّة خاصة به زائدة على خدمة علي باشا ! فاسجن الآن عبد الرحمان البقلوطي للدّين الذي لك عليه ! وعلي الحطّاب لخيانته لك وهروبه عنك ، وإفضائه بأسرارك إلى علي باشا ! ورجب ابن مامي لأنّ أصله مملوك وقد احتوى على ما لم يحتو عليه غيره من الأموال فينبغي أن يعينك بشيء منها ! فاستصوب رأيه واقتصر على سجن هؤلاء وخلص
الباقون! سمعته — أيده الله تعالى — يقول : إنّما أشرت / عليه بهذا الرّأي إبقاءً [92 – ب]
على أولئك الجماعة حتى خلصتُهم منه ! ثم سعى في خلاص من سجن حتى أطلقهم، وقد كان المولى محمّد باي — رحمه الله تعالى — عازما على قتل علي الحطاب لشدة غيظه عليه — وزاده إغراءً على ذلك صاحبه أبو عبد الله محمد الشافعي فلما بلغ ذلك مولانا — أعزه الله تعالى — قال له : إنّ علياً الحطاب — مع كونه من أعدى الأعادي اليك — أعز عليك من نفسك ! قال وكيف ذلك ؟ قال إنك قاتله وذنبه الذي تقتله من أجله لا يستوجب القتل شرعا ! فيقتل مظلوما فيدخل الجنة وتدخل أنت النّار بسببه ! فتكون قد عرّضت عدوّك لدخول الجنة ، وعرّضت نفسك لدخول النار ! ولكن إن أردت قتله ففتش عن أحواله فلعلّك تجده قد صدر منه ما يقتضي القتل شرعا من قتل نفس أو زنى بعد إحصان فإذا ثبت ذلك عندك ثبوتا شرعيا فاقتله حينئذ فتكون قد قتلته في حدّ من حدود الله تعالى وشفيتَ نفسك منه ، فهذا هو الذي كان سببا في نجاة علي الحطاب من القتل .

وفي أثناء فتنة وسلات ، ومُقام ابن يونس بالجبل ، صار إليه — أيده الله تعالى — كتب كثيرة من الأعيان كاتبوا بها ابن يونس فعفا عنهم أجمعين ، منهم الفقيه محمد بن عبد الكريم أحد الفقهاء المشار إليهم ،وقع إليه — أعزه الله تعالى — كتابٌ بخطه أرسل به إلى ابن يونس يقول فيه : « إلى عبد الله بن أسد أما بعد فان زوج أبيك بها من الشّوق إليك كيت وكيت وهي غير راضية بالمحلل الذي أخذها ولا ترضى إلا بك أن تكون بعلا لها فعجّل لها الأوْبة » وكلام من هذا الهذيان ، فأرسل إليه وأراه الكتاب وقال له : « أتُثْبِتُ هذا الخط ؟ » فاعترف بأنه خطه ، قال مولانا — أيّده الله تعالى : « وددت أنه أنكر الخطّ

فكنت احتملها له ، ولا أتعرّض له بمكروه له أصلا ، ولكنه لمّا اعترف لم يسعْني ذلك لما فيه من تضييع الحزم بتطرق المفسدين إلى الجرأة على فسادهم » — إذ الحرب إذ ذاك قائمة على ساقها — ففعل به ما نذكره ؛ وذلك أنه لمّا اعترف بالخطّ قيل له : « ما الحامل لك على ذلك ومثلك في علمه وفضله لا يكون من أهل الشقاق ؟ » فاعتذر بأنّ هذا الكتاب كتبه على لسان رجل لا يحسن الكتابة طَلب منه أن يكتبه لرجل اسمه عبد الله بن أسد لا يعرفه، فأجيب بأن مثلك من فقهاء البلد المشار اليهم يكتب لرجل يستدعيه لأن يتزوج بزوج أبيه ! لولا أنك أردت بعبد الله بن أسد اسماعيل بن يونس ، وبزوج أبيه تونس حضرة المملكة ، وبالمحلّل مالكها — أطال الله بقاءه ! فبهت وتلجلج ولم يَحِرْ جوابا ! فقال له : « أنت رجل من العلماء فلا يسوغ لي أن أنكل بك اذهب فقد عفوت عنك ! ولكن لا تساكنّي بتونس ما دامت الحرب قائمة بيننا وبين صاحبك فإذا نصرنا الله عليه أعدناك » ، فخرج إلى رفراف وسكن بها ، فلمّا وضعت الحرب أوزارها أعاده إلى الحضرة فبقي بها إلى أن توفي — رحمه الله تعالى .

ومنهم الفقيه محمد بن الشيخ / يوسف درغوث مفتي الحنفية — وقد كان [93 – أ]
أيام علي باشا تولّى الفتيا بعد وفاة أبيه عوضا منه ولم يكن أهلا لها وإنما حصل له ذلك بمصاهرته لسليمان باي بن علي باشا فإن ابنة يوسف درغوث كانت تحته — فلمّا انقضت دولة علي باشا أخّر عن الفتيا ورشح لها من هو أهل لها ، فبقي في نفسه ممّا فيها ، فلمّا ثار ابن يونس بوسلات كاتبه ووقع كتابه إلى مولانا — أيده الله تعالى — فأخفاه ولم يُطلع عليه أحداً إلاّ أنه تغيّر له وقصّر به عما كان يعامله به من البرّ واللّطف ، ولم يعلم محمد درغوث السّبب الذي من أجله جفاه لأنه لم يقع في حسبانه أن كتابه وقع إليه ، فلمّا طال عليه أمد الجفوة استأذن عليه في بعض الأوقات فأذن له — وصادف منه خلوة — فعاتبه على جفوته له وبالغ في العتب ! فقال له : « قد فعلتُ معك ما لا تَطْمَعُ أن يفعلَه معك غيري ! قال : ما الذي فعلته معي وأنا منك بهذه المنزلة ؟ قال : ألست قد كاتبت ابن يونس بكذا وكذا وهذا كتابك عندي ؟ فتحيّر وكاد أن

يقضي عليه من الجزع ! فقال له : أما ترضى أن أعاقبك على هذا الذنب العظيم — الذي يجازي عليه غيري بالقتل فما دونه من أنواع العقاب — بما يعاقب به الرّجل الحليم ابنه إذا صدر منه ذنب يجفوه مدة حتى يستقيم ؟ ثم لمّا رأى شدة جزعه تبسّم له ولاطفه ووعده بالجميل وصرفه إلى منزله ! ولم يزل بعد ذلك يكرمه ويبره ويحسن إليه إلى أن توفّي — رحمه الله تعالى .

وكان أول ما ظهر للناس من أخلاقه الشريفة من الحلم والعفو : أنّ أهل جمّال لما خالفوا وشقّوا العصا واستقدموا ابن يونس إلى بلدهم — وكان من خبرهم ما تقدم شرحه من استيلاء المحلة المنصورة عليهم ، وأخذ بلدهم عنوة كما تقدم كل ذلك مبسوطا — أتى إليه بطائفة عظيمة من أعيانهم هم الذين تولّوْا كِبْرَ الفتنة وبذلوا فيها أنفسهم وأموالهم ، ولم يشكّ أحدٌ في أنه يقتلهم لأنه ما عرفوا أخلاقه ولا مارسوها بعدُ — لحدثان العهد بولايته أدامها الله تعالى — ولأنّهم لم يعهدوا ممن قبله عقابا على هذه الجريرة إلاّ القتل ، فلمّا حضروا بين يديه — وهم نحو من سبعين رجلا — أمر بتمييز ستة منهم هُمْ أكابرُهم فسجنوا ، وأطلق الباقين وأمّنهم ، ثم بعد أيام أطلق أولئك الستّة وأمّنهم وعفا عن دمائهم ، وأمّن جميع أهل جمّال وأذِن لمن جلا منهم بالعود إلى بلاده ، ولمّا تحدث الناس بذلك قال قائلون : ما عفا عن أهل جمّال إلاّ سياسةً ودهاءً فان ابن يونس قد استقرّ بوسلات وقد بقي عليه من حربه ما بقي ، فهو يتألّفُ النّاس ويتودّد إليهم ، ولو انحسمت شوكة العدوّ ، ووضعت الحرب أوزارها لنكّل بالمخالفين ، ونوّع لهم العقوبة ، فما كان بأسرع من أن أوتي إليه بجماعة من أهل وسْلاتْ بعد جماعة أسرى
[93 — ب] / فلم يعاقبهم بأكثر من أن استخدمهم في عمل السّاقية المعمولة لجلب الماء إلى الحضرة من الجبل الأحمر كما تقدّم ، فلمّا قضى الله تعالى بلطيف صنعه بخلاء وِسْلات وجلاءِ أهله ونزولهم من ذروته — أمنعَ ما كانوا وأوفر عُدة وعديداً — لم يتعرض لهم بمكروه ، ولا أهرق من دمائهم محجمةً ! بل أطلق أساراهم ، وعفا عن جميعهم عفوا عاما ، وحلمُ عنهم ، ولم يلزمهم إلاّ بالجلاء من جبلهم الذي فعلوه بأنفسهم ، فمنعهم أن يعودوا إليه وأمر أن يتفرقوا في

البلاد ويسكنوا حيث شاءوا منها مراعاة للمصلحة العامة (ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين) فسكنوا القيروان وقُراها ، وزغوان ، وقرى الساحل وتستور ، وغيرها من البلاد ، وأمِنوا على أنفسهم وأموالهم ، وكذلك عفا عن ماجر ، وأولاد عيار وأولاد سعيد ، وغيرهم من الأعراب والبوادي الذين خالفوا مع ابن يونس وقاتلوا معه ، وبالجملة فأموره في الحلم ، وكظم الغيظ ، والعفو ، والاحتمال ، أمور غريبة ، والجزئيات في ذلك والحوادث اليومية لا تنضبط كثرة .

وقد أكثر الشعراء من وصفه والثناء عليه بهذه الأوْصاف فقلّما تخلو قصيدةٌ مدحه بها شاعر من المدح بهذه الخلال ، فمن ذلك قول الوزير الأجل الكاتب أبي العباس أحمد الأصرم :

تجمّعت فيهِ أصْنَافٌ منوّعَةٌ   فنُونٌ ازْدَحَمَتْ فيهِ وأفنان
عدل وعفو وبذل زاخر ، وهدى ،   ولِلْمَعَالي هُنَا روح وريحان

وقول الأديب الكاتب أحمد سمية :

يَا أيُّهَا المَلِكُ الّذي بِنَوَاله   نُسِخَتْ فَضَائِلُ أسحب وبحور
مَحَقَ البغاةَ رماحُ حلمك إذ غدت   مَا بَيْنَ شلو بِالقَنَا وأسير
كَمْ مَرّ سيفُ العفو منك بهامة   ومضى بِقطع سَوَاعِدٍ وظهورِ
ولَكَمْ صفحتَ عن العظام كرامةً   وفتَحْتَ مِنْ حِصنٍ نأى وثغور
وأتَاكَ مَنْ ألِفَ الخلافَ مُطاوِعا   مُلْقِي السِّلاح لبيتك المعمور

وقال :

أيامه الحسنى لزائد حِلْمِهِ
يَسْرِي لهَا في عرضِ تونس طُولُ
يَا حُسْنَهَا من دولة قد هُذّبت
خُلُقا بِخُلُقٍ مَا إليْه سَبِيل
يَا أيُّهَا الملك الّذي حسناته
ظهرت ظُهُوراً لَيْسَ فيه أفول

إن شاع فرط الحلم عنك لدى الورى
فلدى الوغى الضرغام منك ذليل
[94 – أ] / أو كنت مأمون الغوايل رحمة
فلأنت سهم في القلوب جليل

وقولي من قصيدة :

سواك بحد السيف أصبح غالباً … وأنت لمن ناواك بالصفح غالب
تقابل بالعفو المسيء وإنما … أفدت به ما لم تفده الكتائب
فكانت لك العقبى بذاك وإنما … تبين فضيلات العقول العواقب
وأحزت حمداً واسعاً ومثوبة … ونلت مرادا لم ينله المعاقب
وبات الورى في ظل أمنك نوماً … وأرواحهم فيما تنيل مواهب

وقولي من أخرى :

حببت للناس بالعفو الذنوب فقد … أمسى البريء حسوداً للذي اجترما
وما كفى العفو حتى قد أقمت لهم … على الرجاء دليلاً واضحا أمما
يقول قائلهم : ذا العفو يصدر من … عبد ، فما الظن بالمولى وقد رحما ؟

وهذا معنى غريب لا أعلم أني وقفت عليه لأحد .

ومن ذلك قول الأديب البارع علي الغراب .

وحملت أعناق الأنام أياديا … فما عجزوا عن شكر ما قد تحملوا
عفوت عن الجاني فمات ندامة … فما العفو إلا كالعقوبة يقتل
ولم يكف منك العفو حتى شملتهم … بجاه لهم فيه علا وتفضل
كأن جنايات الجناة جميعهم … بهن لهم فضل عليك مطول
فعفوك عنهم رحمة وتكرماً … كأن عوقبوا عما جنوه ونكلوا
فما بين عفو منكم وعقوبة … تمايز إلا المدح والذم ينقل

وقوله أيضا :

مليك حلم وعفو في الجناية لا … يثنيه عذل عذول طال أو قصرا
فالعفو منه على ذنب ألذ له … طعما من العفو للجاني وإن كبرا

وقول الفقيه الأجل أبي محمد عبد اللطيف الطوير من قصيدة طويلة :

حلم ، وعدل ، وعفو بعد مقدرة ، … وعفة ، وسعادات ، وإقبال
والناس يبغون منك البطش منتقما … وأنت في العفو رغاب وميال
(والراحمون لمن في الأرض يرحمهم … من في السماء) بذا قد صح أنقال

[94 – ب] / وقوله من أخرى :

قالوا : به خور الخلال لحلمه … ولدى السفيه الحلم شيء مزدرى
نقموا عليه العفو عمن قد جنى … ومديحه في الذكر حقا قد جرى
(عفو الملوك عن الجناة إذا جنوا … للملك أبقى) صح عن خير الورى

وقوله من أخرى :

يقتل الماكر المخادع بالعفو … وبالصفح لا ببيض الصفاح
ليس يرضيه أن تكون أعاديه … بوجه الصعيد مثل الأضاحي
بل يرضيه منهم الحزم بالسلم … ورفع الأذى وخفض الجناح
كل هذا تنزهاً عن دماء … سفحها بالصفاح غير مباح

وقوله من أخرى :

وسع الناس حلمه فهم قد … وردوا عذب فضله لا عذابه
وأنام الأنام في ظل أمن … أمنوا فتك فاتك وسبابه

وهذه القصيدة من أحسن شعره وأعذبه وأولها :

من لصب في الحب قضى شبابه … واحتسى خمرة الصبا والصبابة
لبس السهد في الغياهب حتى … مزق الصبح للدجى جلبابه
ذاب جثمانه فلم تترك الأشواق … إلا عظامه وإهابه
صاده ساحر الجفون غرير … خامر القلب منه حب حبابه (1)
شادن ما رمى إلى القلب من عينيه … سهم المنون إلا أصابه
قد علاها من السقام فتور … وهي للفتك في الحشا وثابه

(1) اسم لجارية يزيد بن عبد الملك سارت مسير المثل . انظر ابن الأثير 4 : 191

هو لَدْنُ القوام ، صعبٌ تدانيـــــه . ومرُّ الجفاء حلوُ الدُّعابه
أخجل البَدْرَ إذْ أطلَّ عليْهِ / فأرانا مِنَ السَّحاب انتقابه
وجنى الطرفُ وردَ خدَّيْه غضا / فرمى فِي فُؤادِهِ نشَّابه
غارَ مِنْهُ غُصْن وورد فَهذَا / ذَا ذبول وَذاكَ أبْدَى اضطرابه
لامَ فيهِ مُعنِّف فَعَدَدْنَا / لَوْمَه في الهوَى طنينَ ذُبَابه
[95 — أ] / ثم لجّ العذُولُ يَهذِرُ فِي اللّوم / فقلنا «شرّ أهرّ كلابه» (1)
وتراءى الرّقيب يرقب فِي البد / ر فأرخى عليْه ليْلَ الذؤابه
أرسل الفرْعَ حيةً فهْي تسعَى / ومِنَ الصدغ عقْربًا دبّابه
لسعا قلْبِيَ المعنّى فلَمْ تبْقَ / لَهُ فِي الحيَاة غيْر صُبابه
خفتُ أنْ يأتِيَ الهيامُ على النفس / كما صرّع الهوَى أرْبابه
قلت : فِي ريقك الشفاءُ إذَا مَا / رشف العاشقُ اللّديغُ رُضابه
قَالَ لِي : إن ريقتِي لَمُدامٌ / مُسكِر لَسْتُ أسْتبيح شرابه
قلت : لِمْ قتَلْتني أبحتَ وقلبِي / قدْ تحلّلتَ حرْبه واستِلابه ؟
ودمُ الوجنتين يشهد إنْ أنكرتَ / في الفتْك عِنْدَ قَاضِي الصّبابه
ومليكِي علِيُّ بنُ حُسَيْنٍ / يأخذ الثّار لِي بغيْر حرابه
ملك يقنص الأوابد فِي البِيدِ / ويُردِي مِنَ الهوَاء عُقابه
حلَب الدّهْرَ أشطرًا ومَضَى فوْق / مَطاه وذَاقَ شُهْدًا وصَابه
جلَلٌ يكشف العظائمَ والجُلّـــــى إذَا مَا الوطيس أذكَى لِهابه
يُؤْثر السّلم جانحًا ، فإذَا مَا / مَاج بحر الهيجاء خاض عُبابه
بطرير لَدْنِ القوام وعَضْبٍ / صارمُ الشّفرتين ماضي الذُّبابه
لاَ تلُمْه إذَا ازدهَى حِينَ يُجلَى / فنجيعُ القروم كانَ خضَابه
بجسُوم علَى الجِيادِ جُمُودٍ / وقُلُوب حَشْوَ الصُّدُورِ مُذابه
يغلب الجحفل العظيم بتَدْبِيـــــرٍ مُبِين ونِيّة غلاّبه
يُنْقذُ الْمُسْتجيرُ من برثن الهلـــــك وليثُ الخُطُوب أنشب نابه
وإذَا أمّه علِيلُ اللّيالِي / أبرأت راحةٌ لَهُ أوْصابه

(1) شر أهرّ ذا ناب : مثل . انظر الميداني 1 : 384.

مِن هُمَامٍ حُلاحِلٍ ذُو دهَاء / حُوّل فِي أحْواله تعْجَابه
يخلق الأمر ثم يبدي ومَهْمَا / يلتبس مَازَ قِشْرَه ولُبَابه
يكشف الغامض العويص فما أعضـــــل أمْرٌ إلاّ وفتّح بَابه
بِذَكَاء يحكي ذُكَاءً سوَى أنّ / حجاه مَا غَابَ يُبْدِي حجَابه
مَا دعَى مشكلا مِنَ الْبحثِ يوما / لحِجَاه إلاّ سَريعًا أجَابه
/ وإذَا ضَلّت الْعُقُولُ هَدَاهَا / لِهُدَاهَا وَقدْ أصابَ صوَابه [95 — ب]
وَإذَا ذُو الْجِدَال رَامَ جَوَابًا / كَانَ إقْرَارُه بِعجز جَوَابه
وَإذَا ندّ مُشكلٌ للمعَانِي / صَاده بِالْقَرِيحَة الوثّابه
وَإذَا لِلسِّبَاقِ شمّر كُلٌّ / أحرز الْخصْل لاَ يَحُثُّ ركَابه
هيّن ، ليّن ، مُطِيع ، مُطَاع ، / ضرب الْمَجْدُ في ذُرَاه قِبَابه
هو صَعْبُ المنالِ سَهْلُ السَّجَايَا / قدْ كَسَاه الإله تَاج المهَابه
واسعُ الصّدر عَنْ جفَاةِ الرّعَايَا / لَيْسَ مُسْتكبِراً ، ولا عيّابه
وسع الناسَ حلْمُه فهمُ قد / وردوا عذب فَضْله لاَ عَذَابه
وأنَامَ الأنَامَ في ظِل أمن / أمِنوا فتك فَاتِكٍ وسِبَابه
غَالَطَتْنَا طبَاعُه فَغَلِطْنَا / وَحَسِبْنَا أعْدَاءَه أحْبَابَه
لَيْسَ يَدْرِي عَدُوُّه أنّهُ مِنْه / بَعِيد وَخَال مِنْهُ اقْترَابه
طبعُه الحلمُ ، والرَّزَانَةُ ، والعفّة ، / والعفو ، لاَ الْجفَا وَالْخلاَبه
فإذَا ندّتْ النُّفُوس فمغناطيس / أخْلاَقه لهَا جذّابه
رايةَ المكرمات قد حاز ، لا (الصّلت) / حواها وَلاَ (يَمِين عرَابه) (1)
فإذَا قيل : من حوَى رايةَ المجد ؟ / أشَارُوا إليه بِالسّبّابه
صهوة الملك قَدْ عَلاَ وَهْوَ طِفْل / بذّ أشْيَاخه ، وبذّ شَبَابه
ذُو لسَان رَطْب دواماً من الذّكْرِ / ونفس لِرَبِّهَا أوّابه
مُفْرَدٌ حَازَ مِنْ خصَال المعَالِي / كلَّ مَا استصعبَ الجميع طِلاَبه
قَامَ فِي جَامعِ اللّيَالِي خَطِيباً / ثم قدْ حلّ دُونهم مِحْرَابه

(1) لا يدري مراده بالصلت الا أن يكون أراد أبا أمية ابن ابي الصلت الشاعر المتأله المعروف ، واما عرابة فهو ابن اوس الاوسي ، جواد اسلامي مشهور وفاته سنة 60/680 .

خلق مجمل ، وَخلق جميل ،   فَاق في المجْدِ وَالتُّقى أضرابه
وَجوَاد لاَ عيْب فِيه سِوَى   أن عَطَايَاه لِلْمُنَى سلاَّبه
فَإذَا الْغير أطلعَ الْجُودَ طَلعاً   وَجَدَ النَّاس عِنْدَهُ ارطَابَه
أوْشَكَ البحر أنْ يغِيض اغْتِياظا   حَيْثُ وَالى أمْوَاجَهُ واضطرابه
وَأتَى الغَيْمُ حَاكِياً لِنداه   ثم أضْحَى يَبْكِي عليْه كآبَه
رعْدُهُ مُعْوِلٌ ، وَلِلْبَرق خفَق   وعُيُونٌ تَجْرِي لَهُ سكَّابَه
/جَاءَ لِلْقيْرَوَان في عَام مَحْلٍ   لبِسَ الْجَوُّ فيه ثوْبَ ضَبَابَه [96 – أ]
فَاسْتَقَى إثْر دَرْسه لِلْبُخَارِي   فَسقَتَهَا السَّحَائِب السكَّابَه
وحبَا النَّاس عسجداً وَلُجَيْناً   أخْجَلاَ كلّ زَاخِرٍ وَسَحَابَه
كلّ حِين تَأتِي رَغَائِب للنَّاسِ   فَيَأتون عُصْبَة وَعِصَابَه
دَامَ فِي حضرة الْكَمال عليّاً   لاَبِساً تَاج عزة وَمَهَابَه
وبَنُوه الْكِرَامُ في ظِلّ أمَنٍ   وهَنَاء وَعِيشَة مُسْتطَابَه
وَصَلاَة مَعَ السَّلاَم عَلَى المخـــتَارِ والآل بَعْدَه والصّحابه
مَا رقى منبراً لوعظٍ خَطِيبٌ   وَدَعَا اللَّه سَائِلٌ فَأجَابَه

وهذه القصيدة عارض بها قصيدة للوزير الكاتب أبي العباس أحمد الأصرم على هذا المنوال – الروي والقافية – يمدح بها مولانا – أيّده الله تعالى – وهي :

يَا رَعى اللَّهُ للرَّبِيعِ شبَابَه   إذ أشَابَ البطاح زَهْرٌ تَشَابَه
هينم الغُصْنُ فِي الريَاض فتصغي   مثلمَا سلْسَلَ الْحَبِيبُ عِتَابَه
وَاكتسَت بالزهُورِ ثوب عَرُوس   كَانَ في كفها الشَّقِيقُ خِضَابَه
عَبَس الجَوُّ فَوْقَهَا فَعَجِبْنَا   مِنْ عُبُوسٍ أتَى لِنَفْيِ الكآبَه
عجّت الطير عندهَا وَتَغَنَّت ،   إن دَعَا مُنْشِدٌ أخَاه أجَابَه
يوم قَامت عَلَى مَنَابر أفْنَانٍ   أجَاد الهزَارُ فَنّ الْخَطَابَه
لِي رُوع مَا يرعوي عن رياضٍ ،   وحيَاض ، وربرب ، وربَابَه
بِالْجُفُونِ اللّوَاءِ يرمين قَلبِي   همت مِنْ قَوْس مَا علمت انتشابه

وَفتَاة فَتَّانَة إنْ تَبَدَّتْ   سدل الْبَدرُ مِنْ حَيَاه حجَابَه
فسقتني الْعُيُونُ أيَّ عُقَارٍ   لَمْ يُمازَج ! وَمَنْ يطيقُ شرَابَه ؟
لَوْ تَرَانِي أُهَان بَيْنَ يَدَيْهَا   شِمْتَ شَيْخاً وَشَيْبُهُ ما أعَابَه
تَتَجَنَّى فَأستفزُّ خُضُوعي   يَسْتَقِي وَصلَهَا فتسقي سرابَه
وَنظَام وشيتُه لَمْ يُفِدْنِي   فِيك لَوْلاَكَ ما أبحت لُبَابَه
فكأنِي – وَخَالِص الْودّ مني –   جَاهلٌ فِي الْهَوَاء يبغي الكتابه
غدرتنِي بَوَارِقٌ مِنْ رِضَاهَا   هَكَذَا هكذَا قَتِيلُ الصّبَابه
[96 – ب] /كمْ وقيتُ الْحَبِيب دهراً بعيْنِي   ثمّ كَانَ الْهَوَانُ عينَ الإثَابَه
وخلعت الْعنَانَ ثَمَّ طَلِيقاً   لاَ أبَالِي شعَافه وشعَابَه
فَإذَا استَفْهَمَ العذول جزَائِي   أسْتَحِي أنْ يَكُونَ هوني جوابه
لكَ مِنْ قَتلي اعْتذار فنرضى   وَجَعَلْنَا الوُشَاة نَالُوا سِبَابَه
كم أذَاعُوا عني أقَاوِيلَ هُجْرٍ   أثمرتْ هجرَ صادقٍ لاَ يشَابَه
أمّلوا مِنْكَ خفضَ مَا رفع اللَّـــــهُ ولطف الاله وَالى انْتِصَابَه
وَدَعُوا لِي غدراً وَمَا أنَا غدَا   رٌ وَيَا غَادرُ ادّعَيْتَ اجْتِنَابَه
وَكَبِيرٌ عَلَى الْفُؤَادِ حَسُود   يتهم الصّب بِالَّذِي قدْ أصَابَه
قَالَ أهْل الولوع : «إن المعنّى   ماء كفر الصنيع يُطفِي الْتِهَابَه»
ولكَم ذُقْت فِي وِدَادكَ بَلْوى   سمْتُ نَفْسِي هلاكَها لن أهَابه
أكْذَب الناصحَ الصدوقَ ارتيَابٌ   أيْنَ للصّبّ مَا يُزِيلُ ارْتِيَابَه
كَمْ تغذيت بِالمُرارِ مِرَاراً   وتملّيت عَذْبَه وَعَذَابه
كلُّ ذَا فِي رِضَاك عندي قَلِيلٌ   سَاعة مِنْهُ تَسْتَعِين صِعَابَه
يَا ترَى تذكرين سَاعَةَ وَصْلٍ   حِينَ كُنّا ، والكأس يذري حبابه
يتدلى مِنَ الْغُصُونِ عَلَيْنَا   مائِساتٌ ، والنّبت زانَ تُرَابَه
مِنْهُ قَدْ بِتُّ فِي نَمَارِق خضر   بين بيض النحور سُودِ الذُّوَابَه
والسماء اكْتسَتْ وشاحا نضيراً   والصّبَاح انبرَى يرِيد انْتِهَابَه
وَكَأنَّ الْهزَبْرَ وَاشٍ رَقِيبٌ   صامتٌ – يَابن أمّ – كشَّر نَابَه
خفتُ طُغْيَانَه فعذتُ برامي الـــقوس أنْمَى بِقَلْبِه نَشَّابَه

وكأنّ النّسيم — والجو ساه — ... ساهر ضعّف المُدام خطابه
وكأنّ الدُّرّ المنظّم في النّحـــر ... قطاعٌ منَ الهلال مذابه
غارت الشهب منْ سناها فغارت ... نسخ الفجر من دُجاها غرابه
وبدتْ شمسهُ ولمّا تجلّتْ ... فتح النورُ منْ عليه نقابه
كعليّ مولاي لمّا تبدّى ... حلّ كلّ منْ العفاة جرابه

أقول هذا من المخالص البديعة التي يُعقد عليها بالخناصر

[97 — أ] / عمركَ اللّه حضرةُ ابْن حسين ... جنّةٌ سهلةُ القطوف مُطابه
مخضت عن سماكَ أم المعالي ... وقضى المجْدُ من سناك اعتجابه
ودعا الدّهرُ أنْ يُحلّى بعدل ... كُنْتَه ، إذ دعا بوقت الإجابه
جئت فرداً ، ومجمعاً للمزايا ، ... تتوالى عُصابةٌ فعصابه
إن يولّى الأنسانُ ما يقتضيه ... حزت في دارة الملوك القطابه
إنّما الفضْل في سواك مُعارٌ ... قام فيه السّوى مقام الإنابه
ذاع في إفريقيّةٍ لكَ نشرٌ ... مثل ما ضوّع النّوارُ هضابه
طلعتْ منْكَ نفحةٌ فأسرّت ... إذْ سرت في أقطارها جوّابه
جلبت خلْفكَ الخليقةَ طرّا ... فدعوناها الدعوة الجلاّبة
نسبتك النّهَى إلى ناظريْها ... فعلمنا أن النّهى نسّابه
بدر علياك واضحٌ ليسَ يخفى ... منْهُ بدرُ السّماء يكسى ضبابه
فلكٌ أنتَ منْ يُناضلكَ يرمي ... ضوؤك المنتقى عليْه شهابه
أنتَ بحر ! بل ذاك ملحٌ أجاج ! ... أنتَ قطعاً غمامةٌ سكّابه
أنتَ ينحوكَ كلُّ فضْل وخيْر ... حيثُما سرتَ جدّ فيك طلابه
هذه شيمةُ المليك عليّ ... هذه هذه السجايا المُطابه
أنتَ تعني عليّا بن حسيْن ... إن منْ عنصر الكمال انتسابه
قد أرادت أقرانه الخوض في الشّطّ ... ويأبى الهمامُ إلاّ عُبابه
جمع المجدَ ، والشجاعةَ ، والسؤدد ... والجودَ ، والحجا ، والنجابة
باهر ، طاهرٌ ، تقيٌّ ، نقيٌّ ، ... ماجدٌ ، هاجدٌ ، كبير المهابه

هيّن ليّن ، وفي حومة الحرب ... يعير الهنديّ منْهُ الصّلابه
يتمشّى إلى الحرُوب رُويْداً ... بين جنبيه مهجةٌ وثّابه
إنْ توقّتْ أقرانُه بدُروع ... اكتسى حصْنَ ربّه جلبابه
يتلقّى اللّقا بنفْس جموح ... زيّنتْ منْ دم العدوّ رقابه
سعدتْ أمّة النّبيء به إذْ ... شقي المال والعدا والحرابه
ذهب ذاهبٌ وظلم مُصابٌ ... ولُجينٌ يلج ممّا أصابه
/ كرمٌ يُخجل الغمام فحدث ... ما ترى منْ حديثه يا سحابه [97 — ب]
جال في مهيع الكرام طليقاً ... وامتطى كفّه الرّحيبُ رحابه
نُشرتْ رايةُ المكارم فينا ... فتلقّاها مالكي لا عرابه
منْ فتى قلب الحوادث والدهر ... وعانى إقبالَهُ وانقلابه
هوَ في عسكريْن بأسا ورأياً ... جاء كلّ مطنباً أطنابه
وكثيرٌ منَ الملوك سواهُ ... ذو اجتهاد ، لكنّ أين الإصابه ؟
هوَ في جده مُجيدٌ نجيدٌ ... أوْ يداعبْ ، سبتْك حُسنُ الدّعابه
علّمتني صفاتُكَ المدحَ لولاَ ... أنتَ أغلقتُ منْ قريضي بابه
صارمٌ (أصرم) أنا بكَ إلاّ ... أنني في عداك أسقي الذّبابه
بعت عُمري — بني حسين مطيعا — ... في رضاكم ، أروم منه صُبابه
وفؤادي سكنْتُمُوهُ فحاشا ... أحدٌ منكمُ يُحب انتكابه
غمرتْني في بحركُمْ منن الله ... وسيبٌ لاَ تحرموني انسكابه
مطلبي في الدُّنا أبا حسن إن ... طالَ قولي فلاَ تلُمْ إطنابه
إنما جاءَ مقولي ترجُمانٌ ... عنْ لسان الورَى أنيبَ منابه
أيُّها الزّاخرُ الذي كل من ينـــحو ... لهُ منْ نداهُ يملأُ وطابه
دمْ مُعافى مظفراً منْ يُعاديك ... يُعاني خُوارَه ونُعابه
أنتَ في حصْن ربّنا ومُجارٌ ... بشفيع الورى — غدا — والصّحابه

وللكاتب أحمد سمية مقرضا لقصيدة الأصرم هذه :

درٌّ هذه بدتْ أم دراري ... أم رياض زهت بقطر السّحابه
أم بدورٌ سطت ببازي سناها ... فأطارت منَ الظلام غرابه

أم شُمُوس تلألأت فِـي المَعَالِـي   فَأَزَالَتْ عَنِ الْعُيُون ضبابَه
أم عبير مِنَ الْعَنَابِرِ أهْدَى   نفحة تذهب الْعَنَا وَالْكآبَه
أم خدود بِفَجْرِهَا تَتَجَلَّى   في سَمَا الحسن تحتَ ليل الذؤابَه
أم لآل تنظمت فِـي عُقُودِ   لنحور ، بِهَا الْبَهَا وَالْمَهَابَه
أم نظام الذَّكِـيّ نَهرِ الْمَعَانِـي   أحمد الأذكياءِ فَخرِ الكتابَه
[98 – أ] / هُوَ بَحْرٌ ، فإن بَدَا منْه درٌّ   بَارِع فِـي جَمَالِهِ لاَ غرَابَه
لاَ يُلاَمُ الْقَرِيض إن تاه فخرًا   سَيْفُهُ (أصرم) كَبير النَّجابَه
كيف لا وَهْوَ فِـي عَلِـيّ الْمعلّى   مَلِك كل مَنْ رَآهُ أهَابَه
حلمه فَاقَ حلم أحنف إلاَّ   أنَّهُ مَنْ دَعَا رِضَاه أجَابَه
بذله فَاقَ بذل حاتِمَ لَكِنْ   فضله كالغمام أبْدَى انسكَابَه
جَاد دهري به وَكَانَ بَخيلاً   وَعَلَى من قَلاَهُ ألقى شهَابَه
فَلَهُ فِـي الْحُرُوبِ إقدامُ عمرو   وَبِتَاجِ السموّ زَادَ مَهَابَه
فَاضل ، عَادلٌ ، شجَاعٌ ، مطاعٌ   فِـي رحاب العفاف جرّ ثيابه
قَلْبُهُ بثّ فِـي محيّاه نُوراً   فزرَى بسنَا الهلاَل وَعَابَه
فيهِ لين فسله مَا شِئْتَ وَاحْذَر   من سَطَاه ، فإن فيه صَلاَبَه
عفت نَوْمِـي إذَا رَأَيْتُ مُحيَّا   ه ، وَسهدي إذَا سَمِعْتُ خطَابَه
مفرد إنْ تَجَمَّع الْفَضْل فيهِ   حقه فَالإله وَفَّى منابَه
زَادَهُ اللّه هِمَّةً وَوَقَاراً   وَحَمَى عِزَّهُ وصان جنَابَه
وَأَطَالَ الْهَنَا لَدَيْهِ وَأَبْقَى   ذكرَه طيّبَ الشَّذَى وَجَوَابَه

وأبيات الغراب اللاّمية المتقدمة من قصيدة طويلة مدح بها مولانا ـ أعزه الله تعالى ـ وهي من أحسن شعرٍ قاله ؛ وأولها :

نعم لستُ عن دين الصَّبَابَه أعدل   يجُورُ الهوَى في الحكم ،أو هو يَعْدل
وَمَا أنَا ممن يصرف العذلُ في الهوَى   عنانيَ عَنْ قَصْدِ الهوَى ، وهو مقبل

إذَا افْتَتَحَ العذّالُ بالعذل قولَهم ،   فَمِنْ دُونِهِ بَابُ الْمَسَامع يُقْفَل
أينحُونَ ميل الْقَلْب عنهُ ونقلَه ؟   وَمَا هُوَ يَوْماً بِالإمَالَةِ مبدل
همُ أودعوا قَلبِـي أسًى يوم ودّعُوا   وهم نَزَلُوا في الْقَلْبِ يوم ترَحّلوا
وهم حرّموا نَوْمِي المُحلّل بِالْجَفَا   وهل قِيلَ فِـي شيء حرَام محلّل ؟
وَلَوْلاَ فؤادي (سعد أخبية) لَهُمْ   لَمَا كَانَ مضروبًا لهم وهو منْزِل
همُ ظَعَنوا والبرُّ يطوى أمَامَهُمْ ،   وَمِنْ خَلْفِهِمْ بحرُ المدامع يَهمل
وَمَا عُظْمُ أيّام اللّقَاء مسرةً   بأعظم من يوم النّوى وهو أهول
/ لنومي على عيني تولّ بقربهم   ولَمَّا تولّوا عَاد نَوْمِيَ يُعزل [98 – ب]
أبيتُ ولي من لاعج الشّوق أنّةٌ   يُرضّ لها رضوى ويذبل يَذْبُل
أبيت ولي من صادع البَيْنِ صَعْقَة   تكَاد لَهَا صُمُّ الْجبال تَزَلْزَل
كأنّ فؤادي يوم زمُّوا مَطيَّهم   لِمَحْمُول هاتيك المطايا مُحمّل
وفي ساحر الألحاظ جسمي من ضنى   إليه غدا من سحرهنّ يُخَيّل

له قدٌّ بانٍ ناضر وهو ذابلٌ
وخدٌّ كغُصْن الورد والرّدف يذبل

تضيء الدّياجي من صبيح جبينه
ومن فَرعِهِ صبحُ المنيرة ألْيَل

متى افترَّ عَنْ منظوم جوهر ثغرِه
فما وصل منثورِ المدامع يُفصَل

على خده خط له فضل دائرٍ
له غاية في الارتفاع منزّل

محيّاه شمسٌ وهو قوْسُ نهاره
على أنّه قوسٌ به اللّيلُ أطول

ولم يكُ للشّمس انحرافٌ بِدَوْرِه
نعم هو سمتٌ للغرام موصّل

ولم أر أصلا مطلقا لصبابتي
سوى فرعِه والقدّ أصلٌ معدل

لئن مال في تلك المناطق ينثني
فللشّمس ميل في المناطق يُنقل

هو البدرُ في أفق الحشَا متوسّطًا
وغارب دمعي طالعٌ فيه يسبل

لتخصيص شوقي بالمبرّدِ ريقه
غدا بكساء الشّوق جسميَ يَشمَل

جهلت ضنى من حجب من لو أباح لي
مقابلة بالجبر ما كنت أجهل

أيزداد كسرُ القلب من كَسْرِ جَفْنِه
وضرب كُسُورٍ في الكُسُور مقلّل

كأنّ الحشَا منّي عدوٌّ لحاظه
يقارِعُ منها بالسّهام وينضل

إلى كم غرامي بالمدامع ظاهرٌ
وما النّوم يوماً للجفون مُؤَوّل

وما البحر إلاّ من دموعيَ زاخر
وما البَرُّ إلاّ من جماريَ يشعل

ولم أرَ فقد الصبح إلاّ لأنّه
إذا ما تبدّى من محيّاه يخجل

وطولُ بقاءِ اللّيل من حمل شِبْهِه
حمولَ سهادي فهو بالحمل مثقل

فمالي وللعذّال لم يك عذْلُهم
بمختصَر والشّوقُ منّي مطوّل

فشوقيَ حيٌّ في فؤاديَ نازلٌ
وصبري به ميْتٌ ودمعيَ مِغْسَل

قوادِحُه أبدت مسالِكَ علّتي
فسارت لنسخ العقل فيهن ترمل

/ وإني لأرجو منه تقبيلَ راحة [99 – أ]
وليت مكان الرّاح منه أقبّل

له وهم خصرٍ ناحل من وصاله
أخف ، وردفٌ من غراميَ أثقل

إذا قلت قد أنحلتَ يا خصر مهجتي
فصلنيَ ، قال الخِصْر : إنيَ أنحل

وإن قلت : لي أحشاءُ قد جُبِلت على
غرامك ، قال الردف : إني أجبل

إذا قلت : صِلني ، قال : ويحك تبتغي
وِصالي ؟ ودون الوصل موت مُعَجّلُ

فُرُوعِي حيّاتٌ ، وصدغي عَقْرَبٌ
وقَدّيَ رمح ، واللّواحظ أنصُل

ألاَ ليت شعري هلْ أرى ليَ ليلة
يضيءُ نهار الحظّ منها ويقبل

تنازعني الأيام في كلّ مطلب
كأنّ لها ثاراً علَيّ مسجّل

أرى كلّ سهلِ الأمر يصعب قبضُه
عليّ ، وما في قبضه لِي مُسهل

وأعذرها عن فعلها حيث لا أرى
بأنّيَ من أبنائهَا فأخوّل

عليّ لافات الزّمان تزاحمٌ
فكيف إلى قلبي الهنا يتوصّل

فأهونُ قسمٍ في الحُظُوظِ حرُمتُه
وأرفعُ خطب في الورى بيَ ينزل

فما سوء حظي منه خطبي مطلقٌ
ومطلقُ خطبِي منه حظِّيَ مجمل

حظوظا أرى الإقبالَ منهن مدبرا
ودهر أرى الإدبارَ لي منه مُقبل

يُقر بفضلي مُنكرُ الفَضل في الوَرَى
ويمنعُنِي حقِي الجلِيّ ويَخذُل

ويعلَمُ دهري والحواسدُ كلُّهَا
نباهةَ قدري ، هو عنِّي يَغفُل

إلى كم تَرى يا دهرُ فضليَ في الورى
يُعرّف من طيبٍ ، وقدري يُجهل

إذا لم تَثُب عني رفعتُ شكَايتي
إلَى مَن على أحكَامه الدهر يَنْزِل

أبي الحسن المولى الأميرِ عليّ مَن
به في العُلاَ والمجد تُضرب أمثُل

هو الملك الرّاقي إلى ذروة العُلاَ
حميد المساعي بِالسّعَادةِ يُشمل

جليل عريق الفرع من دَوْحَةٍ زَكَتْ
سلالة ملك في الجلاَلِ موصل

تقلّد سيف الحقِ والنصر صارماً
وقَام بأمر الله بالعدل يَفْعلُ

غدا واثِقًا بالله معتصما بِهِ
على ربه في أمره متوكّلُ

تحلّى بجنس العدلِ في فضلِ حُكمِه
وخُصّ بنوع الحلمِ والحكم يفصل

به تونس الغرّاءُ تَمّ نِظَامهَا
وآياتُها بين الأنام تُفصّل

[99 – ب] / وأضحت على ماضِي الزّمان برفعِها
تَجرُّ ثيابَ الفَخْر عنه وترفُل

وتشرُف قدرًا وَالتّشرُّفُ إنّمَا
يتم بِأبناء الحُسَيْنِ ويكمل

مليكٌ به الأيّامُ حُلّيَ جِيدُهَا
وكم مرّ دهرٌ عنه وهو معطل

مليك إذا المدح استهلّ بذكره
ترى منه وجها للنّدى يتهلّل
تغار بحارُ الأرض مِنْ فيض كفّه
ومن جوده فيض الغمائم يَخجَل
مليك إذا ما الحرب أضرِم نارُهَا
تراه قدوما في المواكب يُقبِل
له وقَعَاتٌ في الحروب حديثها
على صفحات الدّهر يُتلى وينقل
يصول على الأبطال في كل معرك
مصالَ هِزَبْرٍ في الذئاب ويَحمِل
يُرى فوق شُهب الصّافنات وقد نضى
ضبًا كغمام بين برقين يشعل
لئن حملته وهو برق فإنه
غَمام ، وما برق الغَمائم يُجْهَل
يصول على أسد الشرى حولَ غَابِها
ولكنّه في حومة الحرب أصْوَل
يَعُودُ خميسُ الجيش في اثنين إن سطا
من السّبت ، والأبطال في الحرب تبطل
فما ذكره بالبأس يوم كريهة
إذا صال منه الورد إلاّ قرنفل
يضارع ماضي العزم في الأمر سيفُه
إذا همّ بالفعل الّذي رام يفعل
وإن رام إنتاجا لصدق قضية
برأي ، فما حكم القضية يبطل

له بذكاء العقل صدق فِراسَةٍ
بها يُدرِكُ الأمرَ الخفيّ ويعقل
فلم يُخطِ في أمر تدبر فكره
كأنّ عليه الوحي بِالْغيب ينزل
مليك له في المُلْك حسنُ سياسة
على مثلها تسهو الملوك وتذهل
يروض لها ليثُ الشرى وهو عابِسٌ ،
ويغدو بها الصّعب الحرون يُذَلّل
له بِشر وَجه يُخجِل الشمسَ نورُه
ويسحر أرباب النهى ، وهو مقبل
ويزري بزهر الروض منه شمائلٌ ،
إذا مَا به مرّت جَنوبٌ وشَمأل
ولولا وقارٌ زان منْهُ وحلمه
على الأرض كادت بالبريّة تعدل
تَقِيٌّ ، نقيٌّ ، طاهرُ الذيل شاكرٌ
لهمّته فوق الْمَنَازِلِ منزل
مديدُ المزايا ، وافرُ الفضلِ ، كامل ،
سريعُ العطايا ، للعفاة مبجّل
/ وفيٌّ عهودٍ ، منجز لوعوده ، [100 – أ]
فلا العهد منقوض ، ولا الوعد يمطل
مليك إذا الآمَال أخلف برقُهَا
فما منه يَوْما قط يُخلف مَأمَل
له ملكاتٌ في العلوم وفطنةٌ
تملّك منها حلّ مَا هُو مُشْكِل

فعلم أصول الدين والفقه عنده
ضروريُّهَا مَا كان فيه تَأمُّل

وإن يُبدِ فِي النَّحو اشتغالَ ضَميرِه
فليس له في نعته مِنْه مُبْدِلِ

وإن رام بحْثا في البَيَان فذهنه
مجازٌ ، له كل الحقَايق مُرسَل

به روضة الآداب أثْمَرَ غصنُهَا
وعادت بأزهار المنافع تحمل

ألا أيهَا المولى الهمَام الَّذِي بِهِ
غدت في العلا والفضل تُضرب أمثُل

ومن هو بالمعروف والفضل قد غدا
لدى النَّاس معروفاً ، وفيهِ تجمّل

لقد ملأ الآفاقَ حبُّك ، والثّنا
عليك ، وما فيهَا سوى ذين مُشغل

وحمَّلتَ أعنَاق الأنام أيَاديًا
فما عجزوا عن شكر ما قد تَحمَّلوا

عفَوْتَ عن الجاني فَمَات ندامة ،
فما العفو إلا كالعقوبة يقتل

ولم يكفِ منك العفوُ حتى شمِلتهُم
بجاهٍ لهم فيه علا وتفضل

كأنّ جنايات الجناة جَمِيعهمْ
بهن لهم فضلٌ عليْكَ مطوّل

فعفوُك عنهم رَحْمَةً وتفضلاً
كأنْ عُوقِبُوا عمَّا جنوه ونُكِّلُوا

فما بين عفو منكمُ وعُقُوبةٌ
تمايزُ إلا المدح والذم ينقل

فكل الورى تدعو بطول بقائكم
إلى ربِّهَا الأعْلى بِمَا يتقبل

ففعلك بالتَّمييز إرثاً وَإنَّمَا
على الفَاعل التمييزُ قد يَتحول

فلا زلتَ في أفق الْكمَال مخيِّما
ورأيك محمود وذكرك يجمُل

ولا بَرِحت رحمى الإله وعفوُه
يهب بها ريحُ القبُول فتُقبل

إلى أبويكم — ما ثووا — وشقيقكم
تُساق برضوانِ الإله وتُحمَل

فلاَ زلت يا تاجَ الْمُلوك مهنّأ
ودهرُك بالإقبال والسعد يَكمُل

[اعتدال القوة الشهوية]

واما عفتــه

فقد نشأ من صباه في غاية الصَّون والنَّزاهة لم تحفظ له صَبْوةٌ ، ولم تؤثر عنه زلّة ، واتصل ذلك إلى أن فارق أوطان مُلكه وجال في مجالات الاغتراب ، فكان منه من صيانة العرض والاحتفاظ على المروءة والبعد عن مواقع الرّيب ما سارت به الرُّكبان ثم رجع / إلى مستقرّ عزِّه ، واستبدّ بسلطنته ، فما زاده [100 — ب] ذلك إلا التباسا بالعفاف ، واشتمالا على النزاهة ،وكانت حاله في هذا الوصف غير معهودة للملوك فإنه ترك الملاذّ والشهواتِ إيثارا لدينه ، ومحافظة على عرضه ، أخبرني — أيّده الله تعالى — أنه كان في أيام صباه هوى جارية صبيّةً لبعض أهله

وكتم أمرها ، وبقي على ذلك مدة لا يصلُ إليها ، ولا يقدرُ منها على شيء ، فاتّفق أن أذن له والده المقدّس ـ رحمه الله تعالى ـ في الخروج إلى بساتين منّوبَة بجميع حرمه والجارية فيهن ، قال فبينما هو ذات يوم يطوف في الجنان بين الأشجار في وقت هاجرة ـ وقد نام النّاس ـ إذ هو بالجارية ليس معها أحد ولا دونها مانع فأمكنته الفرصة فيها . فتناولها فلانت في يده وطاعت لما يريد منها ، فلمّا جلس منها مجلس الرّجل من امرأته ارتاعت وارتعدت وقالت له : سألتك بالله لا تفضحني ! فقام عنها ولم يمسّها ولا عادَ إليها بعدَ ذلك . وهذه الحكاية ادخل في باب العفّة وأغربُ مما يؤثر عن السلطان ملكشاه السّلجوقي ويُعدّ من عيون محاسنه ، وهو أنه أحضِرَت له مغنّية وهو بالرّي فاستطاب غناءها وهمّ بها ، فقالت : يا سلطان إني أغار على هذا الوجه الجميل أن يُعذّب بالنّار ، وإن الحلال أيسر ، وبينه وبين الحَرَامِ كلمة ! فقال : صدقتِ . واستدعى القاضي فزوجها منه ، وابتنى بها وتُوفّي عنها ، ونظير ما وقع في صحيح البخاري من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النّبيء ـ صلّى الله عليه وسلم ـ قال : بينما ثلاثة نَفَر يمشون أخذهم المطر فآووا إلى غار في جبل فانحطّت على فَمِ غارِهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم ! فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالا عملتموها صالحةً لله فادعوا الله بها لعلّه يفرّجها عنكم ، قال أحدهم ، الحديث ... وفيه : قال الآخر : « اللّهم إنها كانت لي ابنة عم أحبَبْتُها كأشَدِّ ما يُحبّ الرّجالُ النساءَ فطلبتها فأبَتْ عليّ حتى آتيها بمائة دينار فبقيتُ حتى جمعتُها ، فلمّا وقعت بين رجليها قالت : « يا عبد الله اتّقِ الله ولا تفتح الخاَتَم إلاّ بحقه . فقمت ! فإن كنت تعلم أني فعلته ابتغاءَ وجهك فافرُج عنّا فرجة ففرج ، الحديث... » . وكفاك شاهدا على عفافه وتجنّبه مواقع الرّيب ومظانّ التُّهم : أنه منذ وُلِّيَ الأمْر لم يحضُر مجلسه العالي شيء من المغاني وآلات اللّهو والطّرب ، ولا سمع غناء ، ولا قرّب من يحسنه ـ مع ميل طبعه السّليم إليه وتفرقته الجيّدة بين أقسامه ، ومعرفته بمواقع ألحانه ـ إلاّ ما يقع ليلتي العيدين من حضور منشدي الأتراك وغنائهم بشيء من الشِّعر باللّسان التُّركي على بعض آلاتهم ، ثم جلوس المطربين

والمغنين بالغناء العربي بعدهم ، فإن هذا من قوانين الملك القديمة بالحضرة ومن عادات التّرك التي لا يتهيّأ تغييرُها .

ومن عجيب / ما يؤثر عنه في النّزاهة والبعدِ من الرّيب والتُّهم أنه لمّا [101 ـ أ]
استقرّ والدُه المقدس ـ برّد الله ثراه ـ بالقيروان بعد وقعة سمنجة جريحا أُتي له برجل متطبّب فداواه من جرحه واستخرج حبّة الرصاص منه بشيء يسير من الدّواء حتى كان يظن به أن عنده شيئا من الأسرار ، وكان مولانا ـ أعزه الله تعالى ـ قد غلب على جسده أثر السوداء فكان لا ينام حتّى يحيط به جماعةٌ من غلمانه يحكّون جسده بأظافرهم ! وآلمه ذلك ، فاشتكاه إلى ذلك الطّبيب فالتزم مداواته وشرط عليه أن يعينه باستعمال المفرّحات النفسانية ، وسأله هل يشرب الخمر ؟ قال : « هذا شيء ما فعلته قط ولا أفعله ! » قال أما لا فلا بدّ أن تحضر عندك كلّ ليلة من يضرب لك العود وغيره من آلات الطرب ويغنّيك ، فإنّنِي حينئذ أجد الطّريق إلى مداواتك ! قال : « وهذا أيضا لا أفعله فإنّني بين ظهراني قوم لا يعلمون باطنَ أمري فإذا سمعوا عندي نَغَم الآلات وأصوات الغناء ذهبت أوهامهم كل مذهب ، ولا يظنون أنه مجرد سماع ، والعاقل من يباعد نفسه عن مظان التُّهم ! قال : إذن لا يمكنني أن أداويك ! فاستدعى المؤذنين بجامع الحنفية فكانوا يبيتون عنده فيقرؤون القرآن تارة ، ويغنون بالاشعار أخرى ، وأعطاه شيئا من الدّواء استعمله فبرىء ، وقد كان في بعض الأيام اعترى جسمه بعض التشويش فأشار عليه طبيبه بأن يتداوى بسماع الغناء والآلات في بعض اللّيالي فإنّ فيه إعانة على اعتدال المزاج وتقوية الرُّوح ، فأنكر عليه ذلك وقال له : « أردتَ أن تجعلني حديثا وسمرا ؟ » واستضعف عقله . ولقد كان قبل استقلاله أيام أخيه ـ رحمه الله تعالى ـ ولِعًا بلعب الشطرنج ، وله به خبرة تامة ، وكان يحضر مجلسَه المَهَرَةُ من المحسنين لعبه ويعطيهم على ذلك العطايا الجسيمة ، فمنذ استقلَّ بالأمر رفض جميع ذلك ، ولم يحضره في مجلسه في وقت من الأوقات إلى الآن ، وعلى الجملة فقد عَفّ عن جميع المحارم ، ونزّه نفسه عن كل ما ينقص دينه ، ويدنس عرضه ـ إلاّ خصلة واحدة لم يتأتّ له تركها ولا يساعده عليها

الوقت ولا يقوم الملك بدونها على ما استقر من قوانينه العرفية — وهي جباية
الأمْوال من الرّعايا على غير وجهها ، ولقد همّ بأن يترك على الرعايا جميع
المجابي والمكوس ويلزم النّاس بأداء الزكوات والأعْشار على الوجه الشّرعي
وتكلم في ذلك مع خواصّه ووزرائه فلم يوافقه أحد على هذا الرّأي ، وخوّفوه
من انتقاض الأمْر ، فإن أكثر الأعراب لم تجر عليهم عادة من القديم بأخذ
الزكاة منهم بل أمرها مفوض إليهم فلو ألزموا بأدائها لربّما جرّ ذلك فتقَ
رَتقٍ يصعب تلافيه ، ولمّا بلغ ذلك بعضَ الأعْراب ناشدوه الله تعالى أن لا
يفعل ! وقالوا له : إن وُضعت عنا هذه المجابي ورُدِدْنا إلى أخذ الزكوات
جاء مَن بعدك فقرر / علينا ما قررته من الزكوات وردّنا إلى المجابي التي [101 — ب]
وضعتها عنا ! حتى قال له بعض فقهاء حضرته ممن أقطعوا أعشارهم : الموت
أهون علينا من أداء ما لم تجر علينا ولا على آبائنا من قبلنا عادةٌ بأدائه ، ولقد
سمعته — أبقاه الله تعالى — يقول : « غلَبتُ نفسي على جميع الشهوات وأبعدتها عن
المآثم خوفا من النّار إلاّ هذه الخطة — يعني أخذ الأموال من غير حِلها —
فلم أستطع الجمع بين تركها وبين القيام بالملك ولا مخلص عنها إلاّ بالتخلي
عنه رأساً ! ولوددت أن أحدا ممن يصلح له يقوم على الرّعية قيامي ، ويرفُق
بهم مثلي ، فأتخلّى له عنه لكن من يتولاّهم ربما قرّر عليهم جميع المظالم
وزادهم فيها ما لا يحتسبونه ، فرأيت بقائي لهم أصلح وأرجو الله تعالى أن
يجازيَهم عني فيما آخذه من أموالهم على غير وجهه — حقق الله تعالى
رجاءه — ومع هذا فقد ترك كثيرا من المظالم ، وأسقط عن الرعايا أموالا جمة
رفقا بهم ، وتحرّز جهده من اختراع مظلمة عليهم لم يُسبق إليها ، خوفا من
الوقوع في وعيد : « من سنّ سنّةً سيئةً فعليه وزرُها ووزر من عمل بها إلى
يوم القيامة » ، ومن تتبع دفاتره وجده قد أسقط عن الرّعية ما لا يُعَدّ ،
ووضع عن كثير منهم أموالا عظيمة لا تكاد نفس ملك تسمح بمثلها ! فوضع
عن أهل قفصة وعملها في سنة من السنين نحواً من مائة ألف دينار وثلاثة عشر
ألف دينار بالدينار التونسي ترتّبت عليهم في سنين متعددة ، وعن أهل توزر
نحوا من ستين ألف دينار، وعن أهل نفطة نحوا من خمسين ألف دينار ، وعن

أهل نفزاوه نحوا من ثلاثين ألف دينار ، وذلك لرؤيا رآها وهي أن رجلا من
الصالحين أمره بالرفق بهم ، ثم وضع عنهم بعد ذلك أولَ خرجات مولانا أبي
محمد حمودة باشا — نصره الله تعالى — بالمحلّة المنصورةِ إلى الجريد ما فصلناه
فيما سبق ، وعن أهل قابس وعملها ستين ألف دينار ، وعن عمل ماطر أكثر
من مائة ألف دينار ، وعن الهمامّة نحوا من ألفي بعير ، كل ذلك جملة واحدة
— يعمد إلى أهل البلد ممن ذكر وغيرهم فيترك عنهم جميعَ ما هم مطالبون به
ضربةً واحدة — وتكرّر ذلك مرارا لو تتبعناه كله لطال الكلام .

وقد جرت العادة بالحضرة أن أعطيات الجنود وأرزاقهم الخارجةَ من
دار الخلافة موزعةٌ على العمال على قدر ما بأيديهم من الأعمال ، فيدفع كل
واحد منهم ما التزمه من عمل السّنة على ستّة أقساط — في كل شهرين
قسطا — لأن الجند يأخذون رواتبهم كذلك ستة مرات في السّنة ، فكثرت
البقايا على العمّال — شيء انكسر عليهم ، وشيء تعسّر عليهم خلاصه من
الرّعية — ولم يزل ذلك ينمو إلى أن بلغ ألف ألف دينار وأكثرهم يضعُف عن
حمل ما عليه ، فأسقطها عنهم كلّها وأبرأ جميع العمّال والرّعايا ، واستأنف
[102 — أ] الأمر ، هذا وأمثالُه يفعلُه حَزَمَةُ الملوك / وعقلاؤهم عند اعتلاجِ الأمور
عليهم ، واضطرابِ القواعد ، وانسدادِ المذاهب ، وتنكر المعارف ،
واكفهرار وجه الزّمان ، وترائي مبادىء الغِيَر ، فيتلافون رَتْقَ ما انفَتَقَ
عليهم ، ويلجئون إليه لتحصيل الأمان من طوارق الحدثان ، فقد قيل : « إن
المأمون قال في آخر مواقفه مع أخيه الأمين وقد نفدَت بيوت الأمْوال ،
وألحّت الأجناد على الأمين في طلب الأرزاق ، فقال المأمون : بقيت لأخي
خصلة لو فعلها ملَكَ ما تحت قدميَّ هاتين ! » فقيل له ما هي ؟ فقال :
والله إني لأضن بها على نفسي فكيف على غيري ! فلمّا خلص له الأمْر سئل
عن تلك الخصلة ؟ فقال : لو أن الأمين نادى في جميع بلده أنه قد حط
الخراجات والوظائف السلطانية وسائر الجبايات عشر سنين لملك الأمْر عليّ
« ولكنّ اللهَ غالبٌ على أمْرِه » . ولمّا خشي المأمون من انتقاض بيعته مع
أهل خراسان في فتنته مع أخيه الأمين استشار وزيره الفضل بن سهل فقال له

الفضل : قد قرأت القرآن وحديث الرّسول — عليه الصّلاة والسّلام — والرأي عندي أن تجمع الفقهاء وتدعوهم إلى الحق والعمل به ، وإحياء السُّنّة ، وبسط العدل ، والقعود على اللبود ، وتواصل النّظَرَ في المظالم ، وتكرم القُوّادَ والملوكَ وأبناءَ الملوك ، وتعدهم بالمواعيد الكريمة ، والمراتب السنية ، والولايات المشاكلة ! ففعل ذلك ، وحطّ عن أهل خراسان رُبُعَ الخَرَاج ، فمالت وجوه الخَلائق إليه وأحبّوه حتى تمّ له من الأمْر ما تم » ، وهذا الذي ذكرنا أن حَزَمَةَ المُلوك تَفْعله عند الحاجة إليه ، والاضْطرار إلى وقوعه — تسكينا للثائرة ، وصرفا لوجوه الناس إليهم وتثبتا لدعائم ملكهم — قد اتّخذه مولانا — أيده الله — خُلُقا وطبعا يصدر منه في حالة الأمْن وزمن هدوّ الثائرة ، واستقامة الأمور ، وانتشار العافية ، لتعلم بذلك مكانهُ من العقل والرأي والحزامة والسخاء وكرم النفس .

فأول ما افتتح به دولتَه الميمونة أن حطّ « المُشتَرى » عن الرّعيّة في جميع عمله — وقد كانوا في جهد من شأنها ومشقة فادحة — وصورتها : أن يعطى من جانب الدولة مالٌ يوزع على الفلاّحين من الرعايا — على صورة السّلم في القمح والشعير — لكنّه يقع بثمن بخس لا يبلغ في بعض السنين سدس القيمة ولا أقلّ منه ! ويقتضى ذلك منهم زمن الاقْتضاء بعنف شديد ، وأكثر ما يكون ذلك في سنة الجدب التي تقل فيها الحبوب والأقْوات ، وأدّى ذلك إلى ترك الفلح ، وتعطيل الفدادين في كثير من البلاد ، تفاديا عن المشترى ، فصاروا يطالبون بها من سبَق له فلح ، ولو في وقت مّا ، ولا يخلّصه ترك الفلح ! وهي من أقبح أنواع الظلم ، فافتتح دولته — أدامها الله تعالى — برفعها عن النّاس ، وكان ذلك من أقوى الأسْباب الباعثة لهم على عمارة الأرْض والإقْبال على الفلاحة حتى ارتفعت قيمة الفدادين شراء وكراء ارتفاعا ما وقف عند حدّ .
[102 — ب] وقد فصّلنا ذلك من قبل ، وكثرت بسبب ذلك / الحبوبُ والأقْوات حتى صارت سنة الجدب لا تؤثر في غلاء أسعارها لعموم البذر في كل مكان . وقد كان الملتزم لفدّان من فدادين المخزن إذا تقرّر عليه التزامه بمقدار من القمح والشّعير لا يمكنه تركه إلى أن يزيد عليه غيره في الالْتزام [وينتزعه من يده ،

فيبقى بيده السنين ، وربما توالى الجدب فينكسر الالتزام] ويترتب عليه من الطّعام ما يخرج بسببه عن جميع ماله وعقاره ولا يوفّي بما عليه من ذلك ، واجتيح بسبب ذلك خلائق من النّاس ، ثم إذا لم يوجد ملتزم للفدان يُنظر الموسر من أهل الفلح فيُجبر على التزامه ثم لا يمكّن من تركه ، فرفع — أيده الله تعالى — هذا الحَرَجَ على النّاس ، وجعل التزام فَدّادِين السّلطنة كغيرها من الأكْرية إذا تَمّ العام فإن شاء الملتزم جدّد للعام القابل وإن شاء ترك من غير إكراه له على ذلك ، وقد وجد — أيّده الله تعالى — بدفاتر علي باشا نيفا وثلاثين ألف قفيز قمح بقايا على الفلاّحين والملتزمين أكثرُها ترتب عليهم بهذا السّبب الذي ذكرناه وقد انكسرت عليهمْ ولا قدرة لهم على قضائها ، فأخّر عنهم طلبها مدة ثم حطّها عنهم جملة احتسابا لله تعالى .

وقد كان القانون بالحضرة أن جماعة من الخبّازين يلتزمون من السلطان عمل البشماط الذي يلزمه لعساكره في خروجهم للمحال وحراسة الثغور ، ويشترطون في التزامهم أن لا يبيع الخبزَ غيرُهم من أول النهار إلى الزّوال ، فيعملونه أسود رديّا ويبيعونه إلى منتصف النهار ، فحينئذ يبيع غيرُ الملتزمين الخبزَ الأبيض النقيّ الجيّد ، وكثير من السُّوقة يظل طاويا إلى منتصف النهار ، فلما كان في أواسط دولة علي باشا أبطل التزام الخبز وأطلق للخبازين عمل الخبز الجيّد من أول النهار لكنه جعل عليهم ضريبة يؤدونها في رأس كل شهر يتحصل منها في السّنة نحو ستة آلاف ريال ، ثم لمّا جاءت دولة مولانا محمد باي أعاد التزام الخبز إلى أصله ، فلما استقلّ مولانا — أدام الله تعالى وجوده — أبطل الالْتزام المذكور ، وحطّ عن الخبازين الضريبة التي كانت عليهم ، وأطلق عمل الخبز لكلّ من أراده ، واشترط عليهم الجودة في مقابلة ما حطّه عنهم .

وقد جرت العادة بافريقية — وهي من قوانينها القديمة — أن من مات قتيلا قُيِّدَتْ دِيَتُه خمسمائة دينار على قاتله إن عُلم وكان ذا مال وإلاّ فعلى عاقلته أو أهل بلده تؤدى إلى جانب المخزن عدى ما يستحقه أولياء القتيل من

القصاص أو الدّية ، وهذا جار في جميع العمالة إلاّ الحضرة ومشاهير المدن كالقيروان وإلاّ أهل جبل مطماطة ، وكانت الملوك لا يتسامحون في تركها ، حتى جاء مولانا — أبقاه الله تعالى — فصار لا يصل إليه من أموال الدوايا معشار ما يقيده في دفاتره وما سوى ذلك يحطه ويسقطه رفقا برعيته . ومن اطلع على دفاتر حساب العمال وجد الأمر كما قلنا .

ومن أتاه من الرعيّة يذكر أنه من حملة القرآن العظيم أمر أن يعرض على
بعض الكتّاب / فان كان صادقا كتب له ظهيرا بتحريره من جميع المطالب [103 — أ]
المخزنية والقوانين العرفية إعظاما لكتاب الله عزّ وجل ، وكذلك من أتاه منهم عاجزا أو ضريرا أو شيخا هرما أجراه على هذا الرّسم من التّحرير .

وبالدخلة القبلية من عمل جزيرة شريك بلد يسمى « الهوّاريّة » على الجبل المطل على البَحْر في موضع مخافةٍ من العدو الكافر — خذله الله تعالى — فانّهم يأتون في مراكبهم ويكمنون تحتَ الجبل فيأخذون ما قدروا عليه من شواني المسلمين المارة بهم — وربما نزلت سراياهم إلى البرّ — وكثرت إذايتهم بذلك المكان ، وأهلُ الهوارية دائما في رِباطٍ وحراسة لذلك الثّغر ، فبنى مولانا — أعلى الله بناءه — البرج المتقدم الذّكر بإزاء البلد حفظا لذلك الثّغر ، وأعان أهل الهوارية على رباطهم بل حطّ عنهم جميع ما هو موظف عليهم من القوانين المخزنية والطواري ، وأقطعهم أعشار زرعهم ، وأمدهم بالسِّلاح محافظة على حراسة الثّغر .

ومن عفته العظيمة ونزاهته البالغة التّي قلّ أن يشاركه اليوم فيها أحد من الملوك في أقطار الأرْض ممّن تبلغُنا أحوالهم : أنه منذ وُلِّي — خلّد الله ولايته — لم يتعرض لأموال التُّجار ولا ألزم أحداً منهم بأداء شيء كما يقع في غالب البلاد ، وما كفاه ذلك حتّى زاد عليه بدفع الأموال العظيمة لمن يُؤمَن عليها منهم يتّجر بها ، ويسافر إلى بلد الرُّوم والفِرَنج على وجه القِراض ، فيأخذ التّاجر الربحَ كلّه ويردُّ إليه رأسَ المال حرصاً على زيادة العمارة ودوران الأسْباب بين النّاس ، ولقد كانت التجار وغيرهم قبل هذا يتبرؤون من نسبة

الغنى إليهم خوفا من تطرُّقِ الأيْدي إلى أموالهم حتّى جاءت هذه الدّولة الغراء فصاروا يتفاخرون بالغِنى وينتسب إليه الفقير منهم ويتزيّدون فيه واتّسعوا في أحوالهم أمنا على أموالهم ، ومن مات من الغُرباء منهم من أهل الآفاق حفظ ماله تحت يد أمين إلى أن يتسلمه وارثُه ، ولا يدخل بيت المال منه شيء .

وقد كانت السلع التي ترد صحبة الركب من الغرب الأقصى ويفارق الركبَ أصحابـُها من توزر إلى الحضرة يؤخذ عليها الجمرك كغيرها من السِّلع الواردة من الآفاق ، فرأى — سدّد الله رأيه — أن هذه السلع إما أن تكون للحاج أو لداخل في غمار الحاجّ فلا ينبغي أن يؤخذ منهم شيء إعانةً لهم على حجِّهم ، فحط عنهم جمرك ذلك وأسقطه . وأمّا السِّلع الواردة صحبة الرّكب من المشرق فلا يؤْخذ عليها شيء من القديم .

وأسقط عن التجار أيضا جمرك الطيب كالمسك ، والعنبر ، والزّباد ، العود ، ونحوها ليكثر جلبها ، وذلك لشدّة حبه للطيب موافقةً للسنّة السّنية .

ولمّا كانت أيام الفتنة بين السلطان — نصره الله تعالى — وبين الموسكو — خذله الله تعالى — وملك الموسكو البحر الشاميّ واستولت عليه أساطيله، وجالت في نواحيه،
وامتدّت يده إلى أخذ المسلمين ونهب أموالهم / من مراكب المُصالحين من [103 — ب]
الفرنج كالفرنسيس والأنكليز وغيرهم وتجافت لهم ملوك الفرنج عن ذلك ، وأغضوا عنه تخذيلا لجانب الإسْلام وادعَوْا أنهم لا قدرة لهم عن كفّ عاديتهم ، في خلال ذلك خرجت من الحضرة مركبان احدهما للأنكليز والأخرى للفرنسيس مشحونتان بالشّاشية إلى القسطنطينية فتعرّض لهم الموسكو وأخذهما فيما أخذ ، وضجّ من ذلك التجار ورفعوا أمرَهم إلى مولانا — أعزه الله تعالى ، فخاطب الأنكليز والفرنسيس في ذلك وقال لهم : « نحن ما صالحناكم إلاّ على حفظ أموالنا في مراكبكم ، فاحتجوا بعدوان الموسكو ، وأنهم لا يقدرون على دفاعه ، فقال لهم : كان عليكم أن تخبرونا بعجزكم عنه فلا نغترّ بحمل أموالنا في مراكبكم ! وألحّ عليهم في طلب قيمة جميع ما أخذ الموسكو

لأهل الحضرة ووجّه عليهم الحجج حتى أذعنوا ، وأمر ــ أيّده الله ــ التجّار أن يقيدوا جميع ما أخذ لهم ويقدّروا قيمته ، فكان قيمة ما أخذ في مركب الأنكليز مائة ألف دينار ذهبا محبوبا وفي مركب الفرنسيس مائة ألف دينار من النعت فحملوها وأتى بها إلى الحضرة ، فأمر ــ أيّده الله تعالى ــ أمين التجار أن يتسلمها ويفرقها على أربابها ولم تشره نفسه إلى أخذ شيء منها .

ولقد أخبرني بعض من دخل بلاد المشرق من أهل بلدنا ــ حاطها الله تعالى ــ قال : « كنت ببيت الفقيه من بلاد اليمن وهي بلد على السّاحل تقصدها المراكب من الهند ومن جدة وغيرهما ، فورد عليها مركب من الهند بها رجلٌ من تُجّار الهند من أهل البيوت عندهم فاجتمعنا عنده في بيت رجل تاجر من أهل اليمن يعرف بناصر الدين فانجرّ بنا الحديث إلى ذكر أحوال الملوك في أقطار الأرْض من ظلمهم وامتداد أيديهم إلى أموال النّاس ، والزامهم التُّجّار بأداء الأمْوال العظام ، فذكر ذلك الهندي : أنه قام عندهم بالهند قائم يقال له « حيدر يناك » يحلق لحيته وشاربه وحاجبيه على صفة القلندرية ، ووصف من ظلمه وجوره وعدوانه ونهبه لأموال النّاس شيئا عظيما وأنه يدخل البلد فينهب ما وجده من أموال أهلها ثم ينتقل إلى غيرها فيفعل بها مثل ذلك ، ووصف ما لقي النّاس من شدّة عسفه : ثم قال ذلك الهندي : إنّه ليس في ملوك الأرض اليوم أحسن سيرة من علي باشا صاحب تونس ! قال : فلما ذكر ذلك تعجّبت منه غاية العَجَب ، فقلت له: من أين لك ذلك وكيف لأهل الهند العلم بأحوال ملك تونس ؟ ومن أين عرفت اسمه ؟ قال : « يبلغنا ذلك من تُجّار الفرنج الذين يصلون إلى بلادنا من المغرب فإنّا نتلقى منهم أحوال جميع الممالك التي يدخلونها ، فكان من جملة ما تلقيناه منهم ما ذكرت لك .

وأعظم من هذا كله عفافه عن سفك الدّماء وقتل الأنفس التي حرّم الله
بغير حق ــ شيء لا يكاد يؤْثر عن ملك غيره ــ وناهيك أنه منذ ولّي لم يتعلق
عليه أحد بسفك دم لم تسفكه الشّريعة / المطهّرة ، وما قتَل أحداً إلاّ في [104 — أ]
قِصاص أو حِرَابةٍ بعد الثبوت الشّرعي والإعْذار ومراجعة الأشْياخ المرّة

بعد المرّة . واتفاق المفتين والقضاة على قتله . ولقد قَبَض على رجل يُعرف بالدلاّجي اشتهر بقطع الطريق والحِرَابة ، وقتل الأنْفس وكثر ضرره وأذاه بذلك ، فصمّم على قتله ولم يتجاسر على ذلك حتى أرسل إلى القاضي وأمر أن يسجل عليه بوثيقة يبلغ عدد شهودها حد الاسْتفاضة لئلا يمكّن من الإعْذار فيهم ، فسجل عليه وشهد الجمّ الغفير بأنه من أهل الحرابة والمشتهرين بقطع الطرقات وقتل الأنْفس . فشاور فيه المفتيين فأفتوا بقتله فحينئذ قتله . ولقد عفا عن دم أقوام أثاروا الفتن ، وشبوا نيران الحرب ، ما كانت الملوك تسامح في أدنى رجل منهم . وقد تقدّم في بيان حلمه وعفوه كثير من هذا المعنى ، وما تعرض لأحد من أبناء أعدائه الذين ظفر بهم بل قد تسبب في حياتهم ! فلقد مرض مصطفى بن يونس باي بمكانه من الدّار التي سجن بها مع أهل بيته ، فلمّا بلغه ذلك أمر بإدخال الطبيب إليه فوَصَف له لَبَنَ الأتُن فأمر ــ أيده الله تعالى ــ بشراء أتانين وأدخلهما إليه ليتناول لبنهما ، فقيل له : أما كفاكَ أنك لم تقتلهم حتى صرت ترغب لهم في طول البقاء ؟ فقال : هؤلاء تحت يدي ، وأنا الّذي منعتهم من التّصرف فإن مرض أحد منهم ومنعته من التّداوي فمات كنت المتسببَ في قتله ، والمسؤول عنه يوم القيامة ! والشيء بالشيء يذكر ، لمّا خرج المولى الأمير وأبناؤه عن الحضرة وملكها علي باشا من أيديهم ترك المولى محمود باي ابنُ المولى الأمير ابنا صغيرا اسمه يوسف فكان مع أمه وأهل بيته بمكان سجنهم ، فلمّا شبّ وبلغ أشدّه استخرجه محمد باي بن علي باشا وأخوه سليمان من بين حرمه إلى مكان بالجنينة وأضجعاه وذبحاه ذبحا ونساؤُه ينظرن إليه من كوّة تشرف على موضع ذبحه ونالهنّ من الجزع لذلك ما تذوب له الأكباد ! وأتى بها علي باشا وولداه المذكوران شنعاء منكرة ، تمجها الأسْماع وتنفر عنها القلوب ، حتى أن يونس ابنه تبرّأ منها وشنّع بها عليهم وعدّها من مثالبهم حين ثار بالقصبة .

ويحسن أن يُورَد هنا ما حكاه شمس الدين بن خلكان في ترجمة أبي الفوارس سعد ابن الصَّيْفي التميمي المعروف بحيص بيص الشاعر المشهور عن الشّيخ نصر الله بن مجلي ، وكان من الثّقات أهل السُّنة ، أنه قال : رأيت في المنام

علي بن أبي طالب — رضي الله عنه — فقلت له : يا أمير المؤمنين تفتحون مكة فتقولون من دخل دار أبي سفيان كان آمنا ثم يتم على ولدك الحسين يوم الطّف ما تمّ ؟ فقال لي : أما سمعت أبيات ابن الصيفي في هذا ؟ فقلت لا ! قال فاسمعها منه ! ثم استيقظت فبادرت إلى دار حيص بيص فخرج إليّ فذكرت له الرؤيا فشهق وأجهشَ بالبكاء وحلف بالله إن كانت / خرجت من فمي [104 — ب]
أو خطّي إلى أحد وإن كنت نظمتها إلاّ في ليلتي هذه ! وأنشدني :

ملكنا فكان العفوُ منا سجيّةً ... فلمّا ملكتم سال بالدّم أبْطَح
وحلّلتم قتل الأسارى ، وطالما ... غدونا عن الأسْرى نَمُنُّ ونَصْفَح
وحسبكمُ هذا التفاوتُ بيننا ... وكل إناء بالذي فيه يرشَح

ثم إن مصطفى بن يونس المذكور أفاق من مرضه ودبّر هو وأبناء عمّه محمد باي المسجونين معه في الخروج من مكان سجنهم . فداخلوا الكنّاف الذي ينقض الكُنُف بباردو المعمور فحفر لهم سربا تحت الأرْض من محل الكنيف الذي بمحبسهم إلى مكان عينوه للخروج منه . وتحيّل في نقل التُّراب الذي استخرج بالحفر بحيلة تمّت له فلم يُطّلع عليه . ولم يترك إلاّ حائلا رقيقا بين منتهى السّربِ وبين المكان الذي أريد الخروج منه إذا أزيل خرجوا إلى الفضاء أبقوه إلى أن ينتهزوا فرصتهم ويتهيّأ لهم ما أرادوا . وقدّروا أنهم إذا خرجوا توثبوا في بعض الحصون أو الجبال الممتنعة أو يلجئون إلى مملكة الجزائر وبقوا على ذلك مستجمعين لما همّوا به ، فتدارك لطف الله وصنعُه الجميل وما قضاه من سعادة مولانا — دامت سعادته — وعاود مصطفى بن يونس مرضُه فهلك في ذي القعدة من سنة خمس وثمانين ، وخرج على نعشه ودفن بتربة جدّه وبقي السّربُ على حاله مدة لم يطّلع عليه أحد إلى أن أتت امرأة ، لم تعرف إلى الآن ، إلى بعض رجال الدولة فناولته كتابا مختوما وقالت له أوصل هذا الكتاب إلى الأمير فإن فيه نصيحة له وإن لم توصله فأنت أبصر ! فأوصله إلى مولانا — أعزه الله تعالى — ففتحه فإذا فيه شرح هذه القضية والإخبارُ بأمر السرب المذكور وما همّ به مصطفى وابناء عمّه من الخروج وذكر أشياء

أخر كانوا همّوا بها . وذكر أمارات عليها عرفها مولانا ! وداخلته الريبة لذلك في الحاج عنبر آغا كبير الطواشية فان المسجونين من آل علي باشا كانوا لنظره وثوقا بموالاته ، واعتمادا على سالف خدمته ! فاستدعاه مولانا — أيّده الله تعالى — وسأله عن القضية فأنكر أن يكون له شعور بها ، ثم نهض — أعزّه الله تعالى — بنفسه ومعه عنبر آغا المذكور وغيره ودخل دار محبس آل علي باشا فأتى موضع السّربِ ودخل فيه بنفسه حتى انتهى إلى آخره وعلم المكان الذي أرادوا الخروج منه ! وارتاع لدخوله أبناءُ محمد باي فسكّنهم وقال لهم : لا بأس عليكم . ثم خرج فبنى ذلك السرب وسدّه واحتاط في أمر المسجونين ! وقويت عنده تهمة عنبر آغا فما عاتبه إلاّ عتابا يسيراً وصفح عنه وبقي على مكانته موفور الجاه والحرمة إلى أن هلك ،وقَبَضَ على الكنّاف
[105 — أ] المذكور فحبسه زمانا ثم أطلقه . فهذا وأمثاله / مما لا عقاب له عند الملوك إلاّ القتل منتهى عقاب مولانا — سدّد الله رأيه — فيه السجن والعتاب والصفح والإغْضاء . لا جرم أنه لم ينتصف لنفسه فانتصف الله تعالى له وأهلك أعداءه واستأصل شافتهم . وأبقى من بقي منهم مهانا تحت ملكته ، ضارعا تحت كلاكل قهره .

ومن عفته وصيانته التّامة أنه لم يشرب مسكرا ولا رآه منذ خلقه الله تعالى ، ولقد نشأ في صِباه — وأكثر من يخدُمه ومماليكُه يتعاطون ذلك — وهو قد بغّضه [الله] إليه ، فكل من اطلع عليه منهم يفعل ذلك ضربه وطرده عن خدمته ، ولم يزل الأمْر على ذلك إلى أن ولاّه الله تعالى الملك واستقلّ به فصدرت عنه المكرمة الكبرى والمأثُرة العظمى التي سارت الركبان بخبرها وشاعت في الخافقين فضيلتها وارتفع في أقصى البلاد صيتها ، وهي إبطاله لعصر الخمر وبيعها وجلبها من بلاد النصارى — أهلكهم الله تعالى — في جميع أقطار مملكته وهدمُه لحاناتها . وإقامةُ الحدّ على شاربها والتنكيلُ بمن عثر عليه يعصرها أو يبيعها . فجاء بها أكرومة لم يسبق إليها أحد من ملوك أفريقية ولا قدر عليها غيره . وذلك أنه كان بتونس حاناتٌ كثيرة في أماكن متعددة تباع بها الخمور جهارا من غير تستر ولا نكير ، ويُتعلل لذلك بأن أوجاق

العسكر لا بد فيه من ذلك ، ولا بد من إطلاقه للعسكر ومهما منعوا منها خشي من ثورتهم وحدوثِ فتنة وسفك دماء هي أشد ضررا بكثير من بيع الخمر وشربها لمن أراده ، واستقرّ هذا الخيال في أذهان الملوك السابقة مع ما يحصل لهم من الأمْوال العظيمة التي يأخذونها من الملتزمين لبيعها في كل سنة ، ومن الضريبة التي يجعلـونها على من يبيعها من أسارى النصارى الذين بـأيديهم ، غير أن المقدس مولانا حسين باي بن علي والد مولانا — أبقاه الله تعالى — قد هدم عدة من الحانات بتونس وبنى في أماكنها بناءات لوجوه من الانْتفاعات ، منها : حانة الثوالث الكائنة داخل باب الجزيرة صيّر مكانها مسجدا جامعا من أحسن المساجد ومدرسة عظيمة لقراء العلم وتربة لمدفنه دفن بها — رحمه الله تعالى ، ثم جاء علي باشا بعده فعطّل حانة الحفصية وجعلَها دار ضرب ، وفي أواسط دولته منع من بيع العنب للخمّارة وعصره ، واقتصر بهم على بيع ما يجلب إليهم من بلاد النّصارى — أهلكهم الله تعالى — وما يستقطرونه بالطبخ من الزبيب والتين ، وعُدّ ذلك من حسناتهما — رحمهما الله تعالى ، ولمّا ملك مولانا — خلد الله ملكه — لم يزل يدور في خَلَده الشريف حسمُ هذه المادة بالكلية واجتثاثها عن أصلها بالمرّة ويُقَدّم في ذلك رجلا ويؤخّر أخرى خوفا من تشغيب يقع من غوغاء الجند ، فأول ما بدأ به من أمرها أن هدّم حانة القرامد
الكائنة داخل بـاب البحر وجعل مكانها خانين عظيمين / لسكنى التجار ودوراً [105 — ب]
ومخازن وغير ذلك وصرفها في وجوه البر كما تقدم ، وانحصر بيع الخمر في الحانات الكائنة ما بين باب القصبة وباب البنات تحت السور لبعد ذلك المكان عن الدور والأسْواق إلى أواخر سنة ثلاث وثمانين ، فحضر — أيده الله تعالى — صلاة الجمعة بجامع باردو المعمور فخطب خطيبُه خطبةً ذكر فيها إثم شرب الخمر وما ورد فيه من الوعيد ، وذكر في أواخرها عن رسول الله — صلّى الله عليه وسلم — أنه قال : « لعن الله الخمرَ وشاربَها ، وساقيَها ، وبائِعها ، ومبتاعها ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وحاملها ، والمحمولة اليه ، وآكل ثمنها » فارتاع من ذلك وأثرت فيه الموعظة وتمكنت من قلبه ورجع إلى نفسه فقـال : « أنا داخل في وعيد هذا الحديث من وجوه — وكأنه نزل

الإذْن في هذه الأشياء منزلة فعلها — وصمّم على إبطال بيعها وعصرها وجلبها من بلاد الكفر . وهدْمِ حاناتها وتركِ المال المأخوذ من لزمتها وقدره ، إذ ذاك سبعون ألف ريال في السّنة ، وشاور في ذلك خواصّه من الفقهاء والوزراء فوافقه عليه موافقون وخالفه مخالفون ، فلم يُصغ إليهم وأرسل إلى الحانات فأخرج النّصارى منها وأغلقها وأخذ مفاتيحها ، ورسم — أيده الله تعالى — باقامة الحدّ على من أخذ سكرانا وبتنكيل من عثر عليه يبيعُها أو يعصرُها ، والمبالغةِ في تعنيفه بحسب ما يقتضيه الاجتْهاد ، ثم هدم تلك الحانات كلها وبنى في أماكنها بناءات عظيمة صرفها في وجوه من وجوه الخير كما تقدّم ، فتباشر النّاس بـذلك وعظـم السُّرور لديهم ، وكثر الثّناء عليه والذكـر الجميل ، والابْتهال إلى الله تعالى بالدُّعاء له ، ولهِـج الناس بنشر هذه المنقبة وتحدّثوا بهـا ، وسارت بها الرُّكبان إلى قـاصي البلاد وانتشر له بهـا صيتٌ عظيم في الآفاق . وارتفعت — بحمد الله تعالى — مفاسد كثيرة تَحدُثُ من ذلك ، منها أنه لا يزال في كل وقت تُسفَكُ الدّماء في الحانات ، ويقتلُ السُّكَارى بعضُهم بعضاً خصوصا أيام العيد ، ولا يزال السُّكارى من الجند وغيرهم في الطُّرقات يروّعون النـاس بـإشهار السيـوف والتعرّض للحرم والصبيـان بكل قبيـح ، وأحسنهم حالا من يقتصر على مجرد العربدة ورفع الصّوت بالغناء على رؤوس الإشْهاد ، وترى أكثرَ من يتعاطى شربها فُقَرَاءَ لا يملكون شيئا ، وكلّما دخل في أيديهم شيء من الدّراهم صرفوه في شربها ، وربما وَرِث الواحدُ منهم الأمْوالَ الجليلةَ من العقارات وغيرها فيستهلكها في أقرب مـدة . وبالجملة فشرب الخمر رأس كل خطيئة فرفع الله ذلك كلّه بسعادة هذا الملك الجليل الّذي أنعم الله تعالى به على هذه البلاد في هذا الزمان السُّوء الذي صار المعروفُ فيه منكرا .

ومن سعادته — أدامها الله تعالى — أنه لم يقع من أحد من الجند من الأتْراك
وغيرهم إنكار بل أذعنوا لذلك كلهم ، وقبلوه وأظهروا الفرح / والابْتهاج [106 — أ]
به ، حتى أن طائفة العشّية وهم المشهورون بالشّطارة والدّعارة والمجون ، عثروا على واحد منهم سكرانا باللّيل فأخذوه وأتوا به من الغد إلى مولانا — أعزه

الله تعالى — وقالوا أتيناك بـه لتعاقبه على عدم امتثاله لأمر السلطـان وانتهاكـه للحرمة ! فشكرهم على ذلك وأحسن إليهم وقال لهم : أسامحه هذه المرّة تطييبا لخواطركم — وكأنه لم يجز شهادتهم عليه بالشُّرب فلم يَضربْه الحد — وما ذاك إلاّ أن قيامه في هـذه القضيّة كان لله تعالى بنيّة صادقـة فـعامله الله تعالى بنيّته ، وكفاه غائلة ما كان يَخْشَى من عاقبة هذه الأمور وبسط الله سبحانه وتعالى ألْسُن النّاس بالدعاء له ، والثّناء عليه ، والمدائح العظيمة فلم يبق شاعر ولا ناثر إلاّ مدحه وأكثروا من عمل القصائد والمقامات « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ » (1) ونحن نورد من ذلك في كتابنا هذا ما وقع عليه الاختيار .

فمن ذلك قولي ، وهي مقامة بديعة تشتمل على قصيدة فريدة :

«حكى أبو الفتح نَصرُ بن الفلاّح قال : ما زلت مذ نِيطت عليّ تمائمي ، ومن قبل أن تنشقّ عني كمائمي (2) ، أهيم بالأدب هيام جَميل ببُثينه (3) وأستديم رواية أخباره عن كل جُهَيْنه (4) ، وأستمطر نوأه من كل مُزَينه (5) وما انفككيت (6) مذ كنت يَفَعَة (7) ، ذا همة مرتفعة ، لا أستام إلاّ الغالي ، ولا أستاف إلاّ العالي (8) فحداني ذلك للتّطواف في الآفاق ، والتّجوال مع الرّفاق ، لأقتنص الأدب من مكامنه ، وأستخرج الدّر من معادنه ، ولم

(1) **القـرآن** سورة فاطر الآيـة 32.

(2) التميمة : ما يعلق على الصبي خفية العين ، والكمامة بالكسر : غشاء الزهر : وكنى بهما عن الطفولـة البـاكرة.

(3) جميل بن معمر العذري من عشاق العرب الاعفاء . اخباره في غالب دواوين الادب.

(4) جهينة بن زيد القضاعي : ابو قبيلة يضرب بها المثل في تنطس الاخبار (وعند جهينة الخبر اليقين) انظر الميداني 2 : 464.

(5) الاستمطار : سؤال المطر ، ومزينة تصغير مزنة بضم فسكون : المطرة.

(6) كذا في جميع النسخ وصوابه :انفككت لانـه فعل ماض صحيح اتصل بـه ضمير رفع بـارز فوجب فك ادماغه . قال ابن مالك :

وفـكّ حيـث مدغـم فيـه سكن   لكونـه بمضمـر الـرفـع اقتـرن

نحـو حللـت الـخ ، وعمليـة الفـك تعـني ارجـاع الحـرفيـن المـدغمين المتماثلين الى اصلهما بدون اعلال ، وهو امر يغلط فيه كثير من الكتاب انسياقا مع العامية.

(7) غلام يفع ويفعة بفتحتين : مترعرع.

(8) الاستيام : المغالاة بالسلعة ، والاستياف أصله شم التراب لمعرفة الطرق المسلوكة في الفلوات، واشتقت منه المسافة للابعاد . هذا مقتضى اللغة ، ولعله يريد انه يبعد في طلب المعالي.

يصدني ما قيل : إن الأدب قد غيض ثماده (1) ، وقوضت عماده ، ودثر ، فلا عين له ولا أثر ، واندَرس ، فلا حسّ له ولا نَفَس ، علماً مني بأن في الزوايا خبايا ، وفي المزايا بقايا ، فشمرت ذيلا ، وادّرعت ليْلا ، واقتعدت مطيّتي ، وذهبت لطِيّتي (2) ، أجـوب كل أقتم طامس (3) وأجول بكل أعتم دامس (4) كـأنني — وأنـا لا آتي مكانـا إلاّ أدَعه — (موكل بفضاء الأرض أذرعـه) (5) وخُيِّل لي أن التَوى في الثّوى (6) ، فرافقت كل بعيد المنتوى ، وفارقت حتّى لا أبالي من النّوى ، وفي خلال ذلك التقط الدرة بعد الدرة ، وأجمع الشّذرة إلى الشذرة ، وأحاضر كلّ نِقَاب الْمَعي (7) ، وأذاكر كل حَبْر ما حكـاه الأصْمعي (8) ، حتى جئت بالضِّحّ والريح (9) ، والمتجر الرّبيح ، وعدت مملوء الوطاب ، بكل ما عَذُب وطاب ، لا يشق غُباري ، ولا يُجْرى في مِضْماري ، أشهر من فارس الأبلق (10) ، وأظهر من نار المحلّق (11) ، بحراً لايغاض ثَبَجُه ، ولاَ تُخَاض لُجَجُه ، فطمحت هِمّتي العليا — ولا مطمح لها دون الغاية القُصوى — إلى ملك / تنفق عنده الفضائِل بعد كسادها ، وتصلح به الأشياء [106 — ب]
بعد فَسادها ، حضرته مطلع الشّموس ، ومطمح النفوس ، ومسرح للآمال ، ومشرع للإفضال ، لأعيش في كنفه ، ويستريح قلبي من كُلَفِه ، وأكون قد لجأت إلى أعزّ الدول ، أقلّب الطّرف بين الخَيْل والخَوَل ، ولم يكن فيمن رأيت من الملوك ، أيام السلوك ، إلاّ من لا يعرف الحوّ من اللّوّ (12) ،

(1) غيض : غـار . ثماد بالكسر جمع ثمد : ماء قليل لا مادة له .

(2) الطية بالكسر : تكون منزلا ومنتاى ومنوى.

(3) غبـــار كثيف .

(4) ليـــل مظلـــم .

(5) تضمين من قصيده ابن زريق المعروفه (لا تعذليه فان العذل يولعه) .

(6) الهـلاك في الاقـامـه .

(7) النقاب بالكسر والتخفيف : العالم بالامور والالمعي الذكي .

(8) راويـة مكثر معـروف.

(9) الضـّح بالكسر : الشمس وهو مثل « جـاء بالضح والريح » اي مـا طلعت عليه الشمس واتت عليه الريح . انظر الميداني 1 : 108 .

(10) مثل . او هو « اشهر من الفرس الأبلق » . انظر الميداني 1 : 392 .

(11) مثل منتزع من قول الأعشى : « وبات على الندى والمحلق » انظر **ديـوانـه** 120 .

(12) الحـق من البـاطل : **الميـداني** 2 : 240.

ولا يذرف نجمه بنو ، فلم أزل تقذفني البلاد ، وتطويني الأغوار وتنشرني النِّجاد ، ولا أجد نافخ ضَرَمَة ، يهتز لمكرمة ، إلى أن أسفرت بعض سفراتي الزّاهرة ، عن وجه مصر القاهرة ، فدخلتها صكّةَ عُمَيٍ ، (1) قبل أن يفيء الفي (2) ، فألجأني الحر إلى جوار تكيّة ، حول الأزبكية ، فتولّيتُ إلى ظله توليَ الكليم بمَدْين (3) ، وحالي بالشكاية من لساني أبين ، وقد كان النيل جرى بالوفاء على أحسن عادة ، ووافى بالحسنى وزيادة ، فأحيى موات الأرض بوروده ، وحيّى الروض برياحينه وورود ه ، ومضّت منه ثغور الأزهار ريّقا حاليا ، ونصّت به عرائس الهضاب جيداً حاليا (4) ، وتدبّجت الرُّبى وتلونت ، (وَأَخَذَتْ الأرضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ) ، واستنارت وجوه الرّباع والمعالم ، واستدارت البِرَك كالدّراهم ، فبقيت في ظل ذلك القصر ، إلى أن صلّيت العصر ، فإذا بلَمَّةٍ من الأعيان ، وجملة من الإخوان ، تلوح عليهم مخايل المجد ، وتفوح منهم روائِح العنبر والند ، قاصدين قصرا تجاهي ، لبروج الفلك يُباهي ، فقمت لهم ماثلا ، ودخلت فيهم واغِلا ، فقالوا : أخوك أم الذيب ؟ (5) — فقلت غريب ، ليس به ما يُريب ، فقالوا : بالرّحب والسعة ، والخفض والدّعة ، فلما استقرّ بنا المجلس ، وما منهم إلاّ من شمخ له في المجد معْطِس ، وأخذوا في غضون المحادثة ، وفنون المباحثة ، توسّمت الجماعة باللحاظ ، توسُّم العرفاء بعكاظ (6) ، فإذا بينهم فتى هو أملحهم إشارة ، وأفصحهم عبارة ، إلاّ أنه مخالف لهم في المنطق واللُّبس ، فحدست أنه غريب بلا لَبس ، فقلت لمن يليني : من هذا الرجل المؤنس ؟

(1) الصكة : شدة الهاجرة، وعمي مصغر مرخم : رجل من عدوان يغير في الهواجر، فضرب به المثل في الطروق عند الهجيرة انظر الميداني 7 : 154.

(2) يفيء : يرجع والفيء : ما انصرفت عنه الشمس وتوفر فيه الظل.

(3) اشارة الى قصة موسى في سورة القصص الآية 24 : (فسقى لهما ثم تولى الى الظل) .

(4) الريق بالتشديد : اول السقي ، والحالى الاول : من الحلاوة والثاني من الحلي.

(5) مثل في الشك ، انظر الميداني 1 : 52.

(6) التوسم : التفرس والتعرف ، والاشارة الى بيت طريف بن تميم العنبري :

او كلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا الى عريفهم يتوسم

انظره في المسند من شرح شواهد التلخيص 1 : 71.

فقال : مغربي من تونس . فقلت : أعلى الله منارها ، ورفع مقدارها ، فما زلت أسمع عن أهلها ما يشنف الأسماع ، من حسن العشرة ورقة الطباع ، ثم انجرّ بهم الحديث إلى وصف الموضع ، وما فيه من لذة ومستمتع ، والشّمس كادت تنحط عن ارتفاعها ، وقد ذهّبت البركة بشعاعها ، وخط فيها قَلَمُ النّسيم المُنْبري ، سطورا مثل الشكل المِنْبري ، ففكر ذلك الفتى ريثما تنداح دائرة ، وأنشد فترك الألباب حائِرة ، فقال :

لله مجلسنا الأنيقُ عشية بالازبكية في أجلّ فِناء
/ في علِيّة يتدفّقون كمائها — كرماً ويلتهبون فرطَ ذكاء [107 — أ]
ما شئت من أدبٍ جنيّ مثلماانـــــشقّ الكمام وهمّةٍ علياء
من كلّ ذي وجه أغرّ واضح كالبدر قد ملأ الفضا بضياء
حيث انتظمنا حول شاطىء بركة غنيت بنيل النِّيل عن أنواء
والشّمس قد ألقتْ شعاعا وسطها وخلَتْ جوانبُها من الأضواء
فترى بياض الماء في جنباتهَا كأسَ اللجين يحيط بالصّهباء
كالأقحوانة إذ غدت أطْرَافهَا بيضا تحف بهالةٍ صفراء
يا حسن هذا منظرا ، وكأنّما الـــــقنجات (3) خيلان بخدّ الماء
أو أنجمٌ كسفت ببطن مجرة سيّارةٌ ، ما سيْرُها بسواء
حتى إذا وقفت فكل صورة (2) منقوشة بزجاجة بيضاء
وتحل طي قلوعهَا في سيرهَا طيرا (3) فتغدو قيدَ عين الرّائي
مثل العُقاب له جناح أبيض قد مرّ يَهوي في سطوح هواء
وترى رؤوس الدّوح طافيةً بهَا والماء يستُر سُوقها بغطاء
فكأنها طغرا بني عثمان قد رُسِمت بصفحة مهرق زهراء
حتى إذا ما اللّيل ألقى عنبرا فيها وذُرّتْ مسكةُ الظّلْماء
وغدا خيالُ البدر معكوسا بها فترى سماء قُوبِلَتْ بسماء

(1) كذا في جميع النسخ ، ولا وجود لهذه المادة في العربية ، وكأن المراد بها زوارق كانت تسمى بذلك لان الاوصاف الآتية بعدها مؤذنة بهذا .

(2) في ز : باكمل صورة .

(3) في ز : طـــورا.

فما أحد من الجماعة إلاّ استحسنه ، وكتبه عنه ودوّنه ، ثم كأنهم داخلهم الحسد ، الذي لم يخلُ منه – إلا من عصمه الله – جسد ، فقالوا له : هل في بلدك « تونس » ، التي تزعم أنها لمن أتاها تونس ، مثل هذا المنظر الرّائق ، أو قريبٌ من هذا الطراز الفائق ؟ فقال : يا عُددي وعِمادي ، وطَريفي من النّاس وتِلادي ، ما لكم ولبلادي ؟ إني لأتأدّبُ معَكُم وأتهيّب أن أراجعكم ، لِما قلّدتموني من إحسانكم ، وطوّقتموني من امتنانكم ، ولكن حيث ذكرتم مسقطَ رأسي ، ومحلّ إيناسي ، فلا بد من المدافعة ، ولو أدّت إلى المرافعة ، وأنْ أحتجّ لبلدي منقولا ومعقولا ، (والفَحْل يحمي شُولَه مَعْقُولا) (1) ثم شرع في إقامة الحجّة ، وتبيين المحجّة ، في تفضيل بلده على بلدهم ، وتميز غماره من ثَمَدهم ، حتى بهرهم ببيانه ، وقهرهم ببرهانه ، فاضطربوا ومادوا ، وسلموا أو كادوا ، فقام رجل من أخريات المجلس ، كأنه ذئب أطلس ، وقد كان لا يلتفت إليه ،
(وإنما / المرء بأصغريه) (2) – فقال : أيّ فضيلة لبلد تباع بها الخمور ، [107 — ب]
ويُشاع في شربها بالفُجور ، وتُشاد بها الحانات والدساكر (3) ، إشادةَ رباطاتِ العساكر ؟ فأطرق الفتى واجما ، وكاد أن ينهلّ دمْعه ساجما ، وتصبّب عرقا ، وتنفّس حرقا ، وظهرت عليه خجلةُ الانكسار ، وأخذتْه قشعريرةٌ واصفرار ، ثم رفع رأسَه ، وصعّد أنفاسَه ، وقال : أمّا هذا فنعم ، على أن البلاء قد عم ! فلقد رأيت بمكة – شرفها الله تعالى – ما تصدّعت له كبدي ، قريبا مما ذكرتم في بلدي ! ولقد أخبرني من لا أتّهمُه أيام كنا نزولا على منى ، حيث يرجى من الله تعلى بلوغ المُنى ، أن بتلك الناحيـة – وأشار إلى ناحيـة مسجـد الخَيْف ، حيث يُعتَفُ حتى عن الطّيف – قوما عاكفين عن العُقّار ، قد اشتغلوا بها عن رمي الجمار ، فتوقّعت والله معاجلة العذاب ، [لولا النبي الأوّاب] ، ولكن الله حليم لا يعْجَل ،

(1) مثل للدفاع عن الحرمات ولو مع علة. انظر **الميداني** 2 : 18. والشول : النوق المتهيئة للحمل.
(2) هـو مثل في **الميـداني** 2 : 250 .
(3) الدسكرة : بيت الشراب والملاهي.

بل يملي للظّالم ويمهل ، وعهدي بمليكنا – أيده الله تعالى ونصره ، وأيقظه للصالحات وبصّره ، وكما متّع الخلق بلقائـه ، يُمتّعُهم ببقائـه عاضدا للدّين ، خاضدا للمعتدين – قد أحيا من السّنة غامرا ، وأعاد ربعَها عامرا ، وأنشر منها رُفاتًا ، وأغنى من طالبيها عفاةً ، ما خرج عن مضمار الشّريعة ، ولا رعى غير رياضها المريعة ، إلا أنه – أعزه الله تعالى – حلَب الدهرَ شطريه (1) ، وبلغ من العلم أطوريه (2) ، فهو يتربّص بالأمور لأوقاتها ، ويجلّيها لميقاتها ، وكأني به قد حسم المادّة ، ورَسَم بسلوك الجادة ، وغيّض من الخمر معينَها ، وقيّض للنكال قطينَها ، وأعاد مُنكرَها معروفا ، ونكد القلوب بها مصروفا ، ولا تمضي إن شاء الله تعالى إلاّ سنة ، حتى يبدل الله هذه السيئة حسنة ، فتصير الصُّدور مثلوجه ، والأمور سُلْكى وليست بمخلوجه (3) ، فلكلّ فساد جبر ، واليوم خمر وغدا أمر (4) ، ثم أخذ يصف الملك ببدائعَ اطلعها شموسا وأقمارا ، وروائعَ أدارها على الأذهان عُقارا ، لم يَقُلْها زُهَير لَهَرَم ابنِ سِنَان ، ولا نابغة بني ذُبيان للنُّعمان ، ولا حسّان لسراة غسّان (5) – فقلت في نفسي : إن صدق صاحبي ، وفقد أنْجَحَت مطالبي ، وفي النوى يكذبك الصّادق (6) – فالتفت إليّ ، التفات واجد عليّ ، وقد توَجّس ، ما بخاطري هَجَس ، وقال : «والشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتّسق» ، إن ما أخبرتك به لحق ، وبيني وبين الكذب بون ، ونعوذ بالله من الحور بعد الكون (7) . ثم انفضّ

(1) مثل مستعار من : حلب اشطر الناقة خلفين فخلفين **انظر الميداني** 1 : 204 ، والمراد بشطريه خيره وشره بمعنى عرفهما وجربهما.
(2) مثل ايضا اى حديه اوله وآخره انظر **الميداني** 1 : 99 .
(3) مثل ايضا والسلكى : الطعنة المستقيمة النافذة والمخلوجة المعوّجة ، انظر **الميداني** 1 : 36.
(4) مثل معروف لامرىء القيس انظره في **الميداني** 2 : 382.
(5) ضرب المثل باشهر المداحين والممدوحين في العرب ، وحوليات زهير في هرم واعتذارات النابغة للنعمان ومطولات حسان في الحارث ابن ابي شمر وبنيه اهم ما في دواوين هؤلاء الشعراء.
(6) مثل مورده في **الميداني** 1 : 483. واصله : عند النوى الخ ويضرب – كما قال الميداني – للصدوق يحتاج ان يكذب ، يعني في حالة البعد والانقطاع ، ومقتضاه ان الراوية شك في انجاح مطالبه لان المخبر حال النوى ربما مال مع الهوى فاحتاج المخبر الى التاكد بالقسم الآتي .
(7) حديث يروى : بالحور بعد الكور، فيه تفاسير اوضحها الرجوع عن الجماعة لان الحور هو الرجوع عن الشيء أو اليه والكور : الجماعة، ويروى بعد الكون بالنون اي الرجوع الى النقص بعد الكمال وكلا الروايتين في **صحيح مسلم** ، ذكره عياض في **المشارق** 1 : 215 – 349 وقد استعمل المؤلف الرواية الثانية للسجع.

الموكب ، فانقضّ عليّ انقضاض الـكَوْكَب ، وقال لي : الصحبةَ الصحبةَ ،
فقد جمعت بيننا الغربة ، وبيننا من الأدب ، أوكد نسب ، وشبهُ الشّيء
إليه منجذب ، فـكنت عند ظنه ، ومضيت معه إلى كنّه ، فبتنا نجتلي دُرَرَ
[108 — أ] الـكلام ، ونشقّ على أزهارها الـكِمام ، بليلة تنفح / بالمنى أطيب نفح ، ما
بـاتها الشّريف الرضي بالسفـح (1) ، وكلـّما انشرح ، وأبدى الفرح ،
استطلعتُه طليعةَ الخبَر ، عن الملك الأغر ، فيخبرني أنه منذ ملـَكَهم ،
وأدار فلـَكَهم ، صار الأمر إلى الوَزَعة (2) — وصار الرمي إلي النَّزَعة (3) —
فأقول في نفسي : فاز قدحي (4) ، وبان رِبْحي ، وفي أثناء ذلك ما أكثر
التلهف ، وأظهر التأسف ، تشوقًا لوطنه ، وتشوقا لسكنه ، وأبدى لي عن
إطرابه (5) ، لمفارقة أترابه ، ولما اقتضى السحر ، انقضاءَ السَّمَر ، أعلمني
أنه على جناح سفر ، وأنشدني مستروحا من غمته ، شعرا يدل على بعد همته :

تقول لي ناقتي والشّوقُ يزعجها   وما شددتُ لهَا رحلاً ولا قتبا
أمّ المغارب إما رُمْتَ نيل علاَ   أما ترى كل نجم طالع غربا
سأركبُ الصَّعباسميه الذلولَ ولا   أقيم حيث فؤادي ممتل كربا
وسوف يعرفني من كان يجهلني   إلاّ يكن رغَبًا منه يكن رهَبًا

ولما تبلّج الفلق ، وتأرّج عَرَفُه المنتشق ، ودّعته بعد أن حللت له
العـكوم (6) وأطلعته على السر المـكتوم ، وأعلمتـه أني ناحٍ نحوَه ، ومحتذٍ
حذوَه ، في قصد تونس الخضراء ، والإقامة بعقدة ملـكها الزهراء ، وأن
لا أطيل بعده المقام ، وفارقته عليه السّلام ، وبعد برهة ، خرجت مع جماعة

(1) اشارة لطيفة الى قصيدة الشريف الرضي :

يـا ليلة السفح الاّ عـدت ثانيـة   سقى زمـانك هطّـال من الـديم

وهي في **ديـوانـه** 2 : 722.

(2) الوزغة بفتحات : الولاة المانعون من محارم الله، انظر **الميـداني** 1 : 410.

(3) النزعة محركة : الرماة : عاد السهم الى النزعة : راجع **الميـداني** 1 : 479

(4) القدح بكسر فسكون : سهم الميسر يقترع بـه.

(5) اصل الطرب في الفرح ، والحزن ضد.

(6) جمع عكم بالكسر : حزمـة المتـاع.

لنزهة ، فما زلنا نستقرىء القُرى ، ونستمرىء القِرى ، إلى أن عنّ لنا رأي
رشيد ، في قصد رشيد (1) ، فأتيت مَرْسَاها ، فسمعت قائلا يقول : «بِسْمِ
اللهِ مُجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا» ، فنظرت فإذا صاحبي المغربي وقد ركب نقيرته ،
ورفَع عقيرتَه ، يقول :

هل لقلبي عن الجوى من سَراح ؟   أم لجسمي عن النوى من بَراح ؟
عركتني نَوائب الدّهر حتّى   تركتني مثقّلاً بالجراح
نامي الداء ، نائيَ الدّار ، مرتَاعاً   من البين ، لست بالمرتاح
عازماً أن أطير نحو فراخي   بشراع يهوي هُويّ الجنَاح
عزَم الله لي ويسّر أمْري   وكلاني ، وخار لي بالنّجاح

فقلت : سمع الله صُراخَك ، وبلّغك فراخك ، فالتفت إليّ لفتة مرتاح
وقال لـِي : هذه مقدمة النّجاح ، مرحبا بك يا أبا الفتح ، لقد أيقنت لما
رأيتك بالنُّجح ، وقد كنت متخوّفًا من هذا الفم ، فقد بلغني أنّه كاشر
غير مبتسم ، فاغر ينتظر ما يلتقم ، فقلت له : سر فسيلقاك بالبشر ، وتصل
منه سالما إلى الثغر ، لاجعلَك الله له طُعْمة ، وأتم عليك بالسّلامة النعمة ،
فقال لي / : أنجز حرّ ما وعد ، لا طوّل الله بيننا شقة البعد ، ولا جعله منك [108 — ب]
آخر العهد ، ثم انفصل ، وبعد مدة نما الخبرُ واتّصل ، بأنّه في بـلاده
حصل ، وجُلت بعده في الآفاق جولَة ، أنتقل من دولة إلى دولَة ، والشّوق
يحثّني إلى الخضراء ، والقدر يقول لي : هي مستقرُّك من الغبراء ، حتى
حسرت عن ساعد العزْم ، وأخذت في قصدها بالحزْم ، فدخلتها ضحى ،
يوم الإضْحى ، والناس قد انصرفوا من صَلاتهم ، ورجعوا من ربهم
بصِلاتهم ، ووجوههم مُسْفِرة ، ضاحكة مستبشرة ، ببزّة (2) كأجنحة
الطـواويس ، وهـزة كحداء العيس ، عليهم الحبور والحبـر ، وما خاطه

(1) بلـد بحـري بمصـر.

(2) بالاصل وغيره : نيـّـره، والاصلاح من بيرم الرابع.

البرور والإبر ، فجعلت أستقصي الخبر ، وأقتصّ الأثر ، عن سبب
نشاطهم ، وموجب انبساطهم ، فكلّما مررت بنادي ، أو أصخت لمنادي ،
لم أسمع إلاّ من أهلّ بالدعاء وعجّ ، كما لبّى المحرمون بالحجّ ، يدعون
لأميرهم ، ويذكرون حسن أثره في تدبيرهم ، إلى أن أدّاني الطّواف ،
والنّهار على الانصراف ، إلى ناد أزهر ، به كلّ وجه يبهر ، وقد عقدوا الحُبا ،
كما رست الرُّبا ، فلم أشعر إلاّ برفيقي المعلوم ، قد خرج من بُهْرَة القوم ، كأنما
أنشط من عقال ، فحيّى بأحسن مقال ، وقال : مرحبًا بابن أنسي ، وشقيق
نفسي ، البيتَ البيتَ ، يا معمول ليت (1) ، فذهبت معه ، حتى أتينا مربَعه ،
فأحسنَ مثواي ، وأكرم نزلي ومأواي ، وما زال يؤْنسني بغرائِب أخباره ،
ورقائق أشعاره ، إلى أن لذّ السّمر ، وطاب الحديث وطال السّهر ، فقلت له :
هات الآن نبّئني بالأمور من أصولها ، وعرّفني الحقيقة بأجناسها وفصولها ،
وأفْض إليّ بشعُورك ، ولا تخف شيئا مما في تامورك (2) وبيمن نقيبتك ،
انثل ما في حقيبتك ، وحدّثني عن الملك الأجل ، بكل ما دقّ وجلّ ، من
حسن سيرته ، فقال لي : إنّ حصر مكرماته ، واستقصاء كراماته ، بعد
إطنابُ الكلام فيه هذرا ، ويذهب فصيح القَوْل فيه هدَراً ، فإنّ من رام
حصرَ رمال الدهناء ، وتعدادَ نجوم السماء ، كان كمن طلب الأبْلقَ
العَقُوق ، وما هو أعز عن بيض الأنوق (3) ، ولكن أخبرك بجملة تُدرّجك
إلى التفصيل ، ولمحة يتضح لك منها السّبيل ، اعلم أن هذا الملك وهو السّيد ،
المنصور المؤيد ، أبو الحسن الباشا علي باي بن المرحوم المقدس المنّعم ، المعظم
المفخّم ، حسين باي ابن علي – بلّغ الله به أكلأ العمر (4) ، وكما جعله زينة
للسِّيَر ، يجعله آمنا من الغِيَر – ، ملكٌ نظم المعالي بعد شتّاتها ، وأحيى
المكارمَ بعد ممَاتها ، وألبس الدُّنيا بِزّة عِزّة ، فهي تختال بين اهتزاز

(1) ليت للتمني ومعمولها هو المتمنّى كما هو ظاهر.
(2) قلبك.
(3) كلاهما مثل ، والعقوق الحائل من النوق والبلق من صفات الذكور ، والانوق : العقاب ونحوه يحرز بيضه في رؤوس القلل انظر **الميداني** 1 : 505.
(4) أي اطوله وهو مثل ايضا راجع **الميداني** 1 : 116.

وهِزّة ، أجاد الأعمال ، وأجاب الآمال ، وأوقر الأحمال ، من المال ،
أصبح الدّين في إيالته منشرحا ، وبدولته فرحا ، / لياليه غرة في دُهمة [109 – أ]
الدّهر ، وأيامه كلها ربيع وزهر ، وحَضرته جنّة وارفة الظّلال ، وجُنّة
واقية من الضّلال ، ما خلت يوما من وفد ، ينصرف برفد ، ولا تعطلت من
مآثر ، كدُرّ متناثر ، طافت بها الآمال وحجّت ، وشكت من تبديدها
الأموالَ وعجّت ، ونفقت فيها أقدار العلماء ورَاجَت ، فعرّجت عليها
الهمم من كل صَوْب وعَاجت ، فاجتمعت بها الأمجاد والأنجاد ، والغور
والأنجاد ، فلا تخلو من مناظرة ، أو مذاكرة أو محاضرة ، أو فصل قضا ،
بسيف عدل منتضى ، أو إجابة نِدا ، أو بَذْل نَدى ، إلى كَرَم ، كالغيث
المنسجم ، ومضا ، كالسيف المنتضى ، وسجايا ، كلُّها مزَايا ، وأخلاق ،
هي نفايس الأعلاق ، وشيم ، أسح من الدّيم ، وصباحة ، ورجاحة ،
وديانة ، قامت بحمل الأمانة ، وعفاف ، كالمُحْرمين في الطّواف ،
ومعارف ، وإسداء عوارف ، وفكّ للعاني ، وكَفّ عن الجاني ، وثَبَات ،
عند الوثَبَات ، واحتمال ، واحتواء على الفضل واشتمال ، إنْ رَكِب ،
نزل عمرو بن معد كَرِبْ ، أو أقدم ، تَأخّر عنترة وأحجم ، أو صال ،
قطع الأوصال ، وإن افتخر ألقى عرابةُ الرّاية ، ولم يدّع الكماة من بني
عبس بلوغ الغاية ، لو شهد جَفر الهبَاءة ، لم يرجع قيس بن حمل وحُذيفة
بهباءة ، ولو جاوَره كليبٌ لبقِي أعزّ النّاس ، ولم يتجاسر على الفتك به
جسّاس ، ولو دخل مهلهل ذمّامَه ، لما قرّب الحارثُ بن عباد مربط
النعامة (1) ، ولما قدر عمرو بن ضبيعة (2) ، أن يضيعه ، ولما أقسم أن لا
يذوق الشّراب ، حتى يرد زنيب الهضاب ، ناهيك به من ملك يجير على
الأيام ، ويحمي من الحِمام ، عنايته تشفي الكرْب . وعطيته تنفي الحرب ،
لا تقرع له العصا ، ولا ينبّه بطرق الحصا ، (3) ولا يُقَعْقَع له بالشنان (4) ،

(1) هذه الشخصيات مذكورة في حربي داحس والغبراء والبسوس وهي من أشهر أيام العرب التي تضرب بها الامثال.
(2) شاعر حماسي قتله الحجاج سنة 711/83.
(3) مثلان . راجع **الميداني** 2 : 192.
(4) مثل مشهور به 2 : 215 . والشنان : القرب البالية يحركونها لزجر الابل.

ولا يرهب له جنان ، ولا ملكٌ إلاّ شعر قلبه منه خوف ، ولا حرّ بوادي عوف (1) ، كم من مال أفنى ، وعائلة أغنى ، وكم أفاد ، وأباد ، وحبا ، وجبى ، وأقال ، وأنال ، أذال الماء بعد عزته في البلاد ، وأروى منه عطش الأكباد ، فأصبح نَميرُه السلسبيل ، سائلا في الطُّرقات وابنَ سبيل ، وكلّما قطع الطريقَ سائلُ نهر نهره ، وذلّله للسّالكين وقهره ، وحين رأى السّابلة إلى عبوره مفتقره ، أنفق عليه الأموال الكثيرة فصار ذا قناطير مقنطره ، أما صدقاته الجارية ، السّاربة السّارية ، فالسيول والأمطار ، والأمواج والبحار ، رتّبها ترتيبا ، وبوّبها تبويبا ، من كسى ، وحسا ، ودرهم ودينار ، ورداء وإزار :

وجفانٍ كالجَوابي   وقُدُورٍ رَاسيات
/ صدقاتٌ كم ألانَت   من قلوب قاسيات   [109 — ب]
رجعت منها نفوسٌ   لعداه خَاسئات
وجياعٍ عَاريَات   طَاعِمات كاسِياتٍ

وَأما المأثرة التي تأكل المآثر أكلا ، وتكبر عَن أن تَجِد لها نظيرا وشَكلا ، فهي تعطيل الآثام ، وإراقة المُدام ، بعد أن شقيت بها القلوب دهورا وأعصارا ، وهبّت على النّاس ريحها إعصارا ، وجرّت إلى فساد عظيم ، وبلاءٍ عميم ، في الحال (2) والمال ، والحال والمآل ، كم أراقت من دما ، وأعادت ذا اليسار معدما ، وهدمت من حصُون ، وبذلت من مصُون ، إلى غير ذلك من مفاسدها الخبيثة ، القديمة والحديثة ، فقيّض الله تعالى لها من هذه الحضرة العلية ، التقيّة النقيّة ، الزكيّة الذكيّة ، المحتاطة للأمة ، الكاشفة للغمّة ، ما اجتثّها عن أصلها ، وحال دون وصْلِها ، وطهّر البلاد من مُدْمِنيها الفَجَرَة ، (فَهَل تَرَى لَهُم مِنْ بَاقِية) (3) ،

(1) عوف بن محلم الشيباني . انظر **الميداني** 2 : 187 .
(2) كذا ، ولعل صوابه في الاهل في النفس .
(3) اقتباس من القرآن سورة الحاقة الآية 8.

وقطع أصواتهم المنكَرة ، فـ(لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِية) (1) ، فَلاَ كَأسَ وَلاَ مُدَامْ ، وَلاَ جَارِيَةَ وَلاَ غُلاَمْ ، وَلاَ حَانَةَ وَلاَ دَسْكَرَة ، وَلاَ قطّار وَلاَ مَعصرة ، فانثالت الناس إلى المساجد ، ما بين راكعٍ وساجد ، وأصلحوا الأقوال والأعمال ، وأمّلوا في ملكهم الآمال ، واشتملت عليه القلوب ، وزُرَّت على محبته الجُيوب ، وعظم في الصُّدور موقعُه ، وارتفع فوق السّماك موضعُه ، وهابته الملوك في ديارها ، وخافته الجوارح على أوكارها ، فالحمد لله ، ثم الحمد لله ، إنّه وليُّ الشُّكر والحمْد ، (وَلَهُ الأمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْد) (2) ، أتذكر يَا أبا الفتح عشيتنا بالازبكية وكيف جرت عليّ تلك القصَّة ، وما تجرّعت فيها من الغصة ، (فالحمد لله الّذي أذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إنّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ) (3) قال الرّاوي : فلما نثل لي كنانتَه ، وعرّفني عَزّةَ الملك ومكانته ، ازددت رغبة ونشاطا ، وملئت مسرة واغتباطا ، وعلمت أن هذا الملك الجليل فردٌ جاد به الزّمان على بُخله . وقد تعقّمُ أم المعالي عن مثله ، ثم قال لي : يَا أبا الفتح إن مَدْح هذا الملك أولُ ذات يَدَيْن (4) ، من فروض العين ، وقد توافق الشُّعراء على إنشاد مديحه صبيحة غد بالمسجد ، توافق جرير والفرزدق للهجاء بالمِرْبَدْ ، وقد مدحته بقصيدة أطلعتها شموسا ، وأدرتُها على الأسماع كؤوسا ، فهل لك أن تحضر المحضر لتكون لي ظهيرا ، ومُمِدّا ونصيرا ، فقلت : حُبا وكرامة ، يا ليلَ تِهامة (5) ، ثم لم نلبث أن ظهرت تباشير الصّباح ، وحيعل
[110 — أ] داعي الفلاح (6) ، فأدينا الصلاة الوسطى ، وقمنا إلى المسجد نتخطى / . فوجدْنا به فِتْيَةً أبلجَ من الدّراري ، وأبهجَ من القمر الساري ، على وجوههم سيما الخَير ، وكأنّما على رؤوسهم الطّير ، فحلُّوا به الحبا ، وقالوا مرحبا مرحبا ، وأوسعوا

(1) القرآن سورة الغاشية ، الآية ١١.
(2) اقتباس من القرآن سورة الروم الآية 4.
(3) القرآن سورة فاطر الآية 34.
(4) اول شيء .
(5) تهامة : ما انخفض من بلاد الحجاز وليلها معتدل، وجاء هذا المثل في حديث ام زرع **بالصحيحين** زوجي كليل تهامه لا حـر ولا قـر ولا مخافة ولا سآمة.
(6) مركب من حي على الصلاة او حي على الفلاح في الآذان.

له عن الصّدر ، وحفّوا به حفّ النجوم بالبدر ، فأجلسني إلى جنبه ، وأراهم أني من حزبه ، ثم قال لهم : يا بني الأقوال ، ويا أئِمة السحر الحلال ، (ألْقُوا مَا أنْتُمْ مُلْقُونْ) ، وأجلوا بنات أفكاركم من أبكار وعون (١) ، فابتدر الذي عن يمينه ، وقام ينشد من حينه ، فأصاب غرض الإحسان ، وأتى بقصيدة أبهى من عقود الجُمان ، ثم قام الذي يليه فأنشد قصيدة غراء ، ثم قام الثّالث وهلمّ جرّاء ، إلى أن بلغت النوبة إليه ، فجثا على ركبتيه ، وأنشد قصيدة فريدة ترِفّ زهرةً لمُجتنيها ، وتروق غُرّةً لمجتليها ، أبدع فيها الإبداعَ كلَّه ، وخلعها على كتف الزّمان حُلَّه ، وهي :

عليك نفَضتُ من جفني منَامِي — وفيك بذلت نفسِي للحِمام
فديتُك ، هَل ترقّ وَلاَ تُضعِني — أما لِيَ — لاعدمتك — من ذِمام ؟
بجفن لاَ خُفُوقَ لَهُ ، وقلبٍ — خَفُوق لاَ يُفيق مِنَ الْهُيام
إذا ما شام بَرقًا مِنْ غَمام — كخمر جال في جَنَبَات جَام
يعاوده ارتياحُ الشّوقِ حَتّى — يكاد يطير في عرض الغَمَام
ولَمْعُ البَرق يشجِي كل قَلْبٍ — حكاه في اضطراب واضطرام
سقى الزمن الذِي قَدْ بَات فيه — يُنَادِمني ، وسُقياً للندام
فأوقد أكؤساً لم تَطْفُ إلاّ — وقد طفئت مصابيح الظّلاَم
وحيَّانَا بِوجه فَاض حسْناً — يرِفُّ كزهرة بَيْنَ الْكمَام
تنقب والحياء لَهُ نِقَابٌ — فألثِمُه حبَابا فِي مُدَام
كَأنَّ بَقِيّة الآثَار فيهِ — نجوم نَقّطت بدر التمام
تروقك فوق مصقول أسيل — كما رَاقَ الفِرنْدُ على الحسام
وألحاظ يجول السِّحرُ فيهَا — فتقتاد القُلُوبَ بِلاَ زِمَام
إذَا مَا سدّدت منهَا سهَاماً — تزاحمت القلوب عَلَى السِّهَام
كؤوس مدامةٍ ، وسيُوف حرب ، — ونَفْثةُ ساحر ، ونِبال رامي
أما عَهْدي به لم يرض شبهَا — بغُصن البَانِ في لين القوام
فمَا بَال القلُوب عَلَيْه طَيْراً — لها الأنَّات ترجيعُ الحمام

(١) العون جمع عوان : وهي المراة النَّصف.

/ وآيَة أنّهُ بَدر مُنِير ، — تبرّجه هلاَلا فِي اللِّثَام [110 — ب]
كلِفت به ، بماء الْحسن تَنْدى — سَوالِفُه ولا يَشْفِي أوامي
وبالغت المحبّةَ فِيهِ جهدِي — ولكن حسنُه فوقَ الغرَام
فليت قلوبَ كل الناس قلبي — فأعشَقه بأفئدة الأنَام
وليت جميع ألْسُنهم لِسانِي — فأبلُغ مِدْحةَ المَلِكِ الهُمَام
عليّ بن الحُسَين ! وكيف يُحصي — حلاه كلام غيري ، أو كلامي ؟
مليك فوق كل علا عَلاه — فلا أحَدٌ يُفاخِر أو يُسامي
جرى فِي وجهه الإحسان نُورًا — وفي كفَّيه ماء ذُو انْسِجَام
إذا الجَانِي أتَاه ولَيس يدري — أيُؤْخذ مِنْ ورَاء أم أمَام
تهلّل طِرْبَةً لِلْعفو حَتَّى — كأنّ العفو مِنْ شُعَب المدام
ولولا حِلْمهُ — والفضل يُعْدي — لما حلُم الزّمَان على اللئام
ولولا أنه لم يجن ظلما — ولم يكسب تراثا من حرَام
لما مرّت بِسَاحتِهِ اللَّيَالِي — عليها حلية الشّهب الوِسَام
ولو شَاءَت عزائمه لقَادَتْ — له كلَّ الْمَمَالِكِ في خطام
ولكن بيعةٌ سبقت وأعطى — بصَفقته فكانَتْ كاللِّزام
أيا ملكا ملوك الأرض منه — بمنزلة الصُّفوف من الإمَام
أقمت الدين وَحدك فِي زمَان — به بحر الهوى والغَيّ طامي
وكم أحييتَ من سنن عِظَامٍ — وكانت قبلُ باليةَ الْعِظَام
وأدخلْتَ الأنام حمى أمَان — حمايةَ والدٍ حدِبٍ مُحامِي
وقد كانُوا «بنو سام وحَام» — فصاروا كلّهم أولاد حَام
فما يحكيكَ يَوْمَ الرّوع حام — ولا يحكيك يومَ الفَخر سَامِي
بك الأيام تفخرَ واللَّيَالِي — فخار الغابِ بالأسْد الضّرام
وهذا النَّحر حلَّ ! فصلّ وانْحرَ — وقابِله ، ببشر وابتسام
كفاه أن يحنّ إلَيْكَ شوقاً — ولاَ يلقاكَ إلاّ بعد عَام
أتاك مهنّئاً — والشّكرُ فَرْض — بما عطَّلتَ فيه من الآثَام
/ ولولا وقفة التَّعريف حتّم — أتاكَ لغرة الشهر الحرام [111 — أ]

فقد كانَتْ لياليه تُقضّى   بترع الكأس من كفّ الغلام
فها هي ذا بعزْمٍ منكَ تُحيَى   بذكر فـي سُجُودٍ أو قيام
سلبتَ الكأسَ حليتَها فصارت   غنى بيد الفقير المستَظَام
فلا الصّهباء فيها ذَوْبُ تبر   ولا درّ الحبَاب على نظَام
ولا السّاقي ببدر ذي شُعَاع   ولا الشّادي بظَبي ذي بُغام
وسعْتَ النّاس كلّهم سرورا   بسيبٍ منْ أياديك الجسَام
فلم تترك لشرب الخمر عُذْراً   دفعتَ الهمّ بالمنن العظام
كأنّ نداك فيهم حين تابُوا   تعاليلُ الوليد عن الفطام
فعال مطهّر الأخلاق برّ   كريم مُبعَد عنْ كلّ ذام
فما كأس المُدام لديه إلاّ   حسامٌ من طُلى الفرسان دامي
أتيت على فساد منْ زمان   — أساء — وبُعد عهد بالكرام
فقلنا إذ دعاك النّاس منهم :   أهذا التبّر من هذا الرّغام ؟
وما ضاهاك في كرم وفضْلٍ   سوى أبنائك الغرّ الفخام
لقد خلقُوا كما تهوى المعالي   أُساة قد شفوها من سقام
رويدا يبلغُون الحلم تنظُر   عداك تصابُ بالموت الزؤام
ستبصرهم إذا ركبوا وساروا   تضيق الأرض بالجيش اللهام
فدُمتَ لهم ، ودامُوا كالثريّا   نظاما ، ما تداعى لانفصام
ولا زال الحسُود لهمْ وفيهِمْ   يبيت على فراش من ضرام
فدًى لك من ملوك الأرض جمعا   — عن الحسنى — ذوو مقل نيام
فما رفعُوا لمكرُمة منارا   ولا نصبوا لمَجْد منْ خيام
ولا عدلُوا فسوّوا بين ليث   له لبدُ ، وصعْل من نعام
ولا سلّوا لنصر الدين سيفاً   ولا شدّوا لغزْو منْ حزام
رأوك مبرزا في كلّ فضْلٍ   وغيثُ العرف من كفيك هامي
فنادوا لا فتى إلاّ علـيٌّ   وولّوا نبوة السّيف الكهام
[111 — ب] / مدحتك مدحة الجعفيّ لكن   مديحي مثل ما قالت حذام !
لعلّ الله يجعلُه مديحاً   يبلغني منَ العليا مرامي

فانك لو نظرت إلى جمادى   لساوت رتبةً شهر الصيام
وما الياقوت فيما قيل إلاّ   حصى نظرته شمس باحترام
عليك تحيّة تأتي بروح   وريحان من الملك السّلام
يضوع العنبر الورديّ منها   ويذكو مثلها مسكُ الختام

قال الرّاوي فلمّا تم إنشادها ، ورفع بها المحاسن وشادها ، قلت له : يا فارس البراعة ، ويا حاملَ راية البراعة ، لقد برّزتَ ، وقصبَ السبق أحرزتَ ، وجئت في الحلْبَة مُجليّا ، فمن شاء بعدك فليجيء مُصلّيا ، فما لأحد بلَحاقك طِلاب ، وجري المذْكيات غِلاب (1) ، فكأنّ القوم تغيرت نيتُهم ، وتحركت حميتُهم ، فانتصبوا لمُماراته ، وتصدّوا لمُجاراته ، فقلت لهم : الأليق بكم مداراته ، لا مباراتُه ، ومصافاتُه ، لا منافاتُه ، فإنه لقوّة عارضَته ، لا تقدرون على معارضته ، وسأريكم الأمر عيانا ، وأقيمُ لكم على ذلك برهانا ثم قلت له : يا أبلغَ من قدامة ، ومن صاحب الخمسين مقامة ، امدح هذا الملكَ الذي ديَمُ إحسانه هاطلة ، بأبيات عاطلة ، جاءت على أحسن نمط ، واستغنت بماء حسنها الغزير على النُّقَط ، قال : نعم سآتيك بها حافلة ، وألتزم فيها ما يلزم نافلة ، وفكّر مقدار ما عدّل أوزانها ، وأودعها ما زانها ، وأنشد :

هل حلّ حلوُ اللّمى لصاد   حام الهوى حوله وحلاّ
لاح له طالعاً هلالاً   أسلمه للهوى وولّى
أصماه لمّا رماه سهم   ما حده كالحسام ، كلاّ
دعْهُ وعُدْ مادحاً هُماما   على كمال الكرام دلاّ
مؤمّل ، كل ما حواه   أعطاه إلا العلا وإلا...
سماحة كالرُّكام هام   حلّ لكل امرىء محلاّ
حُسامه للعدى مُعدّ   أهلكهم ، والدّما أطلا

(1) المذكيات الخيل وهو مثل انظر الميداني 1 : 166.
(2) اكتفاء عن كلمة اخرى كالدين والحرم.

وهامُهم كُلَّما رأوه   هم ركعوا والحسام صلّى
دم مالكا راحما وَصُولاً   مُمدّحًا كاملا معلّى
/ وهاكَ سحر الحلال مدحا   ما ردّه سَامعٌ وَمَلاَّ [112 – أ]
واسمعه لا عاطل سواه   حَلاَ هو العاطل المحلّى

فقلت له : هاتها كلها مُعجَمة ، مُسرَّجة بالحسن مُلْجمة . فقال : مثل هذا لا يخلو عن ثقل ، فقلت : قل ولا تُبَل . فأطرق إطراقة حرّ . وأتى بها شجرةً تحمل الدرّ ، وهي :

فُتِنتُ بظبيٍ غضيض شنيب   بغنج يجنّنني بشَنَب
ظننت يقيني فخبت فغيِّضـــت (1) ظني بغيث يفيض نشب
تقيٌّ ، نقيٌّ ، نجيبٌ ، يُجيبُ   ضجيجي ، يشنّفني بنُخَب
يثيب ، يغيث ، يخفّ ، يشفّ   يقيني يثبّت ، يقضي ، يُجب

فقلت له : انظمها خيفاء ، ليست من الإحسان حيفاء (2) ، كأنها غادة هيفاء ، حروف إحدى كلمتيها كلها محلاّةٌ بالنقَط ، وحروف الأخرى مخلاّة فقط ، ففكّر مقدار حل عقال ، وأنشد بأعذب مقال :

لله ظبي هواه يضني   وصاله في الهوى تَجَنّي
وصده زين كل زَيْنٍ   أمطر جفني ، وكلَّ جفن
لملك ذي علا يقيني   آوى يقيني وآل ظَنّي
سماحُهُ في المحول غيثٌ   حُسَامه في المضاء يُغنِي
آراؤه في العلوم تشفي   عطاؤه في العموم يغنِي
وحلمه بذّ كل بثّ   وعلمه بثّ كلّ فنّ

فقلت له : يا أهدى من القَطا ، أمِنْت الخَطَا ، ائت بها رقطا ، حرف أهمل وحرف وُشح نقطا ، ففكر وما أبطَا ، وأنشدها مرتبطة بالحسن ربطا ، وهي :

---

(1) مأخوذ من غاض المـاء : اذا غار وذهب في الأرض وغيّضه اذهبه ونفاه.

(2) أي ليست خالية من الاحسان . والحيفاء في اللغة : هي الأرض المجدبة التي لم تصبها المطر.

بَات لي من دجَاي ليلٌ قصير   بان لي من مناي وبل نَمير
زمن لي أذاب ، أنعش مِنْهُ   ذو جميل يهش لي ويمير
بَاذلٌ فاض كفُّه بهبَاتٍ   من أتى بَابَه برفد جَدير
نَابِهٌ ، فَاضلٌ ، جليلٌ ، جميلٌ ،   فاخِر ، زَاخِرٌ ، خَطِيرٌ ، بصيرٌ

فقلت له : أبرزها مقطّعة ، بالجمال مقنّعة ، حروفها لا تنتظم ، ولا حرفَ مع حرفٍ يلتئم ، فقال : هذه لا تنسجم ! فقلت : أنظمها وخَلاَكَ ذَم (1) ، ففكر هنيئة ، وأنشد على تلك الهيئة :

دَع ودَّ رُود ذات دلّ رَدَاح   وردّ وِردا دَره دنّ راح
/ وزُرْ وَدُودًا درُّ إدراره   أزال أرْدَائي ، ودائي أزاح [112 – ب]
إذا رأى واردَه ردّه   ذا أدور أو ذات درّ رداح (2)

فقلت له : بقيت عليك الموصّلة ، التي حروف كل كلمة منها متصلة – وقد علمت أنه طرحها فيما طرح ، من قبل أن تُقترح ، ولكن أردت كشف اللثام ، وأن لا يقال رمية من غير رام (3) – فقال : هذه مرَّت ، في التي عجمت فما قرت ، فقلت له : يا مديد الباع ، ويا فريد الانطباع ، إني مولع من البديع ، بنوع التّشريع ، فانظم فيه أبياتا ، تجمع من الأوزان والقوافي أشتاتا ، يقول كل من سمعها أو قرا : «كلُّ الصَّيد في جَوْف الفَرا» (4) ، فأغور في التفكُّر وأنْجد ، ثم وشَّح وأنشد . فأتى بها مقطوعة ،

---

(1) مثل . انظر **الميداني** 2 : 27 يقال : افعل كذا وخلاك ذم أي عداك وتجاوزك الذم .

(2) قدم المؤلف اعتذاره عن عدم انسجام هذه الأبيات قبل ايرادها ، والرود وصف مولّد للمرأة وليس في اللغة الا قولهم : « امش على رود » أي مهل ، والدل بالكسر : الدلال . والرداح : العجزاء ، والورد بالكسر : الماء المورود، والمعنى اترك الغواني وأعرض عن موارد الشراب ثم عدل الى المدح بانّ ودوده يزيل بادراره ارداءه – اثقاله – ويزيح داءه وانه اذا ورد عليه وارد رده ذا ادور – جمع دار – او ذات حلي بمعنى اغناه وفي هذا النوع وسوابقه من البديع اللفظي ما لا طائل وراءه وصناعته اكبر من جدواه ، وقد ولع به اصحاب المقامات وامامهم في ذلك الحريري وله في المقامة الحلبية انواع مما أتى به المؤلف كما له في **الواسطية** خطبة عاطلة، ولليازجي في **مجمع البحرين** مثل ذلك وزاد عليه الملمّع وعاطل العاطل، والمؤلف هنا انفرد بالمقطع وهو النوع الأخير.

(3) مثل أصله : رب رمية الخ ، انظر **الميداني** 1 : 301 .

(4) مثل أيضا ، انظر **الميداني** 2 : 82 .

لا مقطوعة عن الإبداع ولا ممنوعة ، تصير بعد رمي بعض أجزائها بالحذف ، مقاطيع بعدد أصابع الكَف ، وهي :

حرّ الهوى بفؤادي جذوةُ القبَس — لا ينطفي مِنْ فتُور الأعين النعس
قلبي كوى مُذْ بَدا فالقلب أحرقه — تلهُّفي ، وجفوني منه في عرس
دع الجوى قد رجعت اليوم عن شغَفي — لأشتفي بمديح السيّد الندس (1)
غصني ذوى قبل أن ألقاه ممتَدِحاً — بمتلف من زماني صِرْت في يَبَس
ثم ارتوى فرياضي الآن زاهرة — بمن يفي ، ونداه خير منبجس

فقلت له : بَيِّن خفاياها ، وأخرِج خباياها ، فقال : إن طرحت أول جزء من كل صدر وعجز ناحية ، فخذها من بحر المديد بتلك القافية :

بفؤادي جذوة القبَس — من فتُور الأعين النعس
مذ بدا فالقلبُ أحرقه — وجفُوني منه في عرس
قد رجعت اليوم عن شغَفي — بمديح السيّد النّدس (1)
قبل أنْ ألقاه ممتدحاً — من زماني صرت في يبس
فَرِيَاضي الآن زَاهِرَةٌ — ونداه خير مُنْبَجِس

وإن أخذت ، ما نبذت ، تألف من أول جزء لكل صدر وعجز ، مقطوعة من منهوك الرجز ، وهي :

حرّ الهوى لا ينطفي — قلبي كوى تلهفي
دَعِ الجوى لأشتفي — غُصْني ذوي بمُتلِفي
ثم ارتوى بمن يفي

وإن أخذت أوائِل الصّدور فقط ، وجدتها منتظمة على نمط ، لكن بالغ فيها النهك والجزء ، حتى أتت على جزء جزء ، وكذا نظائِرها من الأعجاز تأتلف ، كمثل ما أخبرتك / لا تختلف : [113 — أ]

فالاولى :

حر الهوى — قلبي كوى

(1) الفهم الكيّس.

دع الجوى — غصني ذوى
ثم ارتوى

والثّانية :

لا ينطفي — تلهفي
لأشتفي — بمتلفي
بمن يفي

فقلت له : كفاك ، لا فَضّ الله فاك ، فقد أولجتك المضائق ، فما عاقك عن الخروج منها عائق ، وأركبتُكَ الصّعوبة ، فقُدتها أذلّ ركوبة ، وقلتُ للقوم : آقررتم ؟ قالوا : أقرَرْنا ، وإن كنّا أنكرنا فما أصررنا ، ولمّا انقضى الإيراد والإصدار ، وأقصر الإنجاد والإغوار ، نظرنا فإذا المسجد قد غصّ بأهله ، غصّا لا عهد لهم بمثله ، والنّاس قيام ، فئاماً خلف فِئام (1) ، وقد أتوا من كل فج عميق لاستماع الإنْشاد ، وانثالوا من كل مكان سحيق ما بين حاضر وباد ، فقال قائل : لو قام أحدكم في النّاس خطيبا ، فضوّع هذا المحفل طيبا ، واهتصر من المواعظ غصنا رطيبا ، فردّ الشيطان خائسا عطيبا ، وذكّر الناس بنعمة الله عليهم ، وصنيعته لديهم ، بهذا الملك الذي أقام أودَهم (2) ، وأزال نَكَدهم ، وسوّى اعوجاجَهم ، ونمّى ابتهاجَهم ، وأذهب عنهم الرجس ، وطيّب منهم كل نفس ، فإن الخُطَب تُنقِذ من العَطَب ، والموعظة ، من نوم الغفلة مُوقظة ، فالتفتوا إلى المشار إليه ، وطرحوها عليه ، فانتصب كجذل حكّاك (3) ، وتهيأ من غير ارتباك ، فقيل له : أمِنتَ الحَصْر ، وحميت من الخَصر ، قد اقترحت عليك الجماعة أن ترتجلها قصيدةً بنت السّاعة ، فأطرق إطراق الشجاع ، فقلت : مُخْرَنْبِقٌ

(1) جماعة خلف جماعة.
(2) الاود بالفتح : الاعوجاج.
(3) مثل مورده : انا جذيلها المحكك انظر الميداني 1 : 34. وتصغيره للتعظيم وهو اصل شجرة ينصب في مبارك الابل تتمرس به الجربى .

لينباع (1) ، فلم يكن إلاّ ريثما تنطفي شرارة ، حتى شن على القوافي الغارة ، وأنشد يقول :

الحمد لله الذي قد مهّدا … قواعد الدين بأعلام الهُدى
لم تَعدم الأمة منهم مُنجدا … يَجبر صدعًا ويقيم أوَدا
سبحانه لم يخلق الْخلق سُدَى … من يهدِه فذلك الذي اهتدى
ومن يرد بِهِ فلاحًا قلّدا … تدبير أمْرِهِ وليًّا مرشدا
حمدتُه وليس يُحصي عدَداً … نعماءَه الحمدُ ولو تردّدا
وقد شهدت ــ والهدى أن أشهدا ــ … أن لا اله غَيْرَ رَبي أحَداً
شهادة تعصمني من الرَّدى … يوم يخلّي والدٌ ما ولدا
وأن سيد الْوَرَى مُحَمَّداً … رسُولُه خَيْرُ نبيء أرشدا
صلى عَليه الله مَا تبدّدا … عقد من الدرّ حيًّا وبرَدا
فأودعته الأرضُ بطنَها مدَى … ثم انثنت تُخرجه زُمُرّدا
[113 ــ ب] / ثم يهيج فتَرَاه عَسْجداً … وآله وصحبه ومن غدا
على الْهدى يتبعهم طُول المدى … وبعد فَاعلمُوا ــ وُقيتمْ نَكَدَا ــ
واستمعُوا من قَام فيكم مُنْشداً … أن لربكم عَلَيْكمُ يَدَا
لا تملكون لأدائِهَا يَدا … ملّك فيكم عَادِلاً مُسَدّدا
يَعْمَل رشداً ويقُول سدَداً … فكم لهيب فتنة قد أخمدا
وكم سيوف عنكمُ قد أغْمَدَا … بسيفه المصقول أجْرَى موردا
من أمنكم يجلو عَنِ القلب الصدى … وكم غدا يمنعكم ممن عَدَا
ويدفع الضر ويقمع الْعِدَا … ويهدم الحان وَيَبْنِي المسجدَا
أعَادَ دِين الله غَضًّا وَاقْتَدَى … بالعمرين في زمان فسَدَا
فأهدر الْخَمر وكَانت أمدَا … أكثركُم قد ضَلّ فيهَا واعتَدَى
بِالله هلْ كنتم تَميزُون نِدَا … مؤذِنٍ من صوت عات عَرْبَدَا
فالآن صرتم ركّعا وسجّدا … لربكمْ في جنح ليل هُجَّدَا
وكلّ رجس عنكمُ قد أبعَدا … وكلُّ سوقٍ للفساد كَسَدا

(1) مثل أيضا ، انظر الميداني 2 265 . اي ساكن ليثبت .

فالحمد لله الذي قد أيّدا … لدينه هَذَا الْمليك الأسْعدا
أعني علي بن الحسين الأوحدا … الملك الأسمى الْهمام الأمجدا
الأمنع الأحمى الْغَمَام المجتْدى … ودام فينَا ملكا مخلّدَا
حتى يرَى أبناءه له ردا … وكلهم سَيْفاً بَدَا مجرّدا
هم الذينَ ملأُوا الدنْيَا جدَى … وأحرزوا فضائِلا وسؤددا
ورفعةً وعزّة ومحتدا … لا خانهم دهرٌ ولا تمرّدا
ولاَ الْتوى ولاَ عَدَا مما بدا (1) … ولاَ يَزَال الْمُلْكُ فيهم أبدا
حتى يعُودَ الشَيْخ طفلا أمردا … بجاه سيد الأنَام أحمدَا
صلّى عَلَيْهِ الله ما حَاد حَدَا … وآله وصَحْبِهِ أهْلِ الندَى
[ما حنَّت العيس وساقها الحِدا]

فلما فرغ من خطبته ، وقد صدع القلوب بِعِظَتِهِ ، جلس للدعاء والنّاس يؤمّنون ، بدوام البقاء لمن هم في إيالته آمنون ، ثم تفرّق الجمع ، وانسربوا في كل صقع .

ــ قال أبو الفتح ــ : فقلت له : قد صرّح الحق عن محضه ، وتبين نقد الكرم من عَرَضه . ولقد حَنَنْتُ إلى لقيا الملك / ورؤية طلعته الشريفة ، [114 ــ أ]
كما حَنّ إلى المدينة أبو قطيفه (2) ، وأنا ذاهب لالقاه ، وأستودعك الله ، فقال لي : ظفرتَ فاغتبط ، واستكرمتَ فارتبط (3) ، فسرتُ حتى أتيتُ قصر الملك فوجدته منتهى الجمال ، ومنيةَ الآمال :

قصر تود الشّمس وجداً لو غدا … برجاً لها أو أنّ منه طلوعَها
والأرض تحسُدها السّماء لأجله … وتودُّ لو ضمت عليه ضلوعَها

(1) مقتبس من مثل : ما عدا بدا . انظر الميداني 2 : 252 .
(2) ابو قطيفة عمرو بن الوليد بن عقبة الأموي شاعر مدني نفاه ابن الزبير في ثورته على بني امية الى الشام فترادف شعره في الحنين الى بلده حتى اذن له في العودة اليه ومات في طريقه سنة 70/690 . انظر الاصفهاني 1 : 12 .
(3) مثل . ويروى : اكرمت انظر الميداني 2 : 87.

خلعت عليه الدنيا زهرتها ، وأهدت إليه الرياض نضرتها ، فالأيام به مواسم وأعياد ، والدنيا لساكنه تنقاد ، لو رآه النّعمان ابن الشقيقة ما أعجبه الخورنق (1) ، أو ملكة الجزيرة ما قالت : تمرد مارد وعز الأبلق (2) ، ما التّاج ؟ وما أبيض ذي التّاج (3) ؟ وما الحَضْر وصاحبه الضيزن (4) ؟ وما غمدان واليمن ؟ وما سيف بن ذي يزن (5) ؟ والملك جالس في دسته ، وقد تحلّى بوقاره وسمته ، فلما رآني تهلل وجهه كبدر التمام ، وقال : «يابشُراي هذا غلام» فقلت : أيها الملك السعيد ، ذو الصّيت البعيد ، أنا طالعة النجاح ، ومفتاح الفلاح ، وقرين التمكين ، ونصر من الله وفتح مبين ، أرسلني إليك من أهّلك لنصرة دينه ، ولم يجعل لك وليًّا من دونه ، لأكون قائدَ جنودك ، وعاقدَ بنودك ، ومولّيا معك أينما ولّيت ، وحالاً معك حيثما حليت (6) جزاءً بما عاملت به دينه من التّمكين والتعزيز ، «ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقوي عزيز» (7) ، فَدُم أيها الملك في سعادة سلطانك ، واقتبال زمانك ، تبني القصور ، وتفني العصور ، يستسقى بوجهك المُزْن ، وينجلي بطلعتك الحُزْن ، وتُصلِحُ ما فسد ، وتُنفِقُ من المكارم ما كَسَد ، وتنتزع الفريسة من فم الأسد ، لاَ حطّت لك العلياءُ سَرْجا ، ولا حالت غيرَ السّعد برجا ، ولازلت للرّاهبين ملاذا ، وللرّاغبين مُعاذا ، وثبّت الله وطأتك ، وأسّس على العدل دولتك ، ونصر جيشك ، ونضّر عيشك ،

(1) اما النعمان فهو الأصغر ابن المنذر ملك الحيرة . واما كونه ابن الشقيقة فلم اجد له مصدرا اللهم الا ما يؤثر عنه من حماية زهر شقائق النعمان فلا يبعد انه نسب الى الواحدة منه . واما الخورنق فهو قصر بناه جده النعمان الاكبر . انظر **البكري** 515.

(2) هي الزباء ملكة الحضر غزت حصن دومة الجندل (مارد) وحصن السموال (الابلق) فلم تقدر عليهما فقالت هذا المثل ، انظر **الميداني** 1 : 133.

(3) التاج قصر الخلافة ببغداد بني من انقاض الايوان الكسروي الذي دعاه العرب بابيض كسرى وهو المعني بابيض ذي التاج ـ انظر **ياقوت** 1 : 100 . 2 : 348.

(4) الضيزن بن معاوية التنوجي جلا عن بلاد العرب فاختط الحيرة ثم اجلاه كسرى عنها فلجا الى الجزيرة وعمر حصن الحضر ـ بفتح فسكون ـ وامتنع به الى ان قتله جذيمة ثم كانت قصة ابنته الزباء . انظر مقدمة **البكري** 24 .

(5) هو آخر ملوك حمير باليمن استخلصه من الاحباش قرب المولد النبوي . واخباره في **الكامل** لابن الاثير 1 : 158 . وغمدان قصره بقصبة صنعاء : **البكري** 1002.

(6) انظر تعليقنا على عبارة ما انفكيت في اول هذه المقدمة.

(7) **القرآن** سورة الحج الآية 40.

وخلّد ملكك العالي ، وأبّده ما دامت الأيام والليالي ، مأمونا من الغِيَر والرّزايا ، محفوظا من النوائب والبلايا ، معروفا بالسّيادة ، محفوفا بالسّعادة ، قرير العين ببنيك الذين هم زينة الملك ، ولآلي السِّلك ، وفروع تفرعوا من دوحة مجد وسناء ، «أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ» (1) ، فجاءوا في المفاخر أشباها ، كالحلقة المفرغة لا يُدرى أين طرفاها ، وزيّنوا المواكب ، كما زينت السماءَ الكواكب ، فبقيت وبقوا ، ولقيت السعادة ولقوا ، ودامت لهم الدّنيا ، ودامت لهم العليا ، ولا انقرض ملكُهم ، ولا انفصم سلكُهم ، ورأيت منهم ما يكبت العدا ، ويملأ الدنيا / هدى ، وعشت [114 ـ ب] لهم مخلدا ، وعاشوا أبدا ، اللهم يا سامع الأصوات ، ويا محيي الرفات ، أجب ندائي ، وتقبل دعائي ، وواصل أطيب صلواتك ونوامي بركاتك ، وأزكى تحياتك ، على أفضل أنبيائك ، وأعز أصفيائك ، سيدنا ومولانا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى آله الأطهار ، وصحابته الأخيار ، ما تعاقب ليل ونهار .

قال أبو الفتح : فلمّا سمع الملك هذه الكلمات ، وما تضمّنته من صالح الدعوات ، تحقق فيها الإخلاص والإنابة ، وتيقّن لها من الله تعالى القبول والإجابة ، ثم أمرني ـ لازالت سعادته دائمة ـ أن أدعوَ له بحسن الخاتمة ، فقلت : اللهم اختم له بالسعادة ، وأنله الحسنى وزيادة ، فتهلّل وجهه وأسفر ، وتبسّم ضاحكا واستبشر ، وقرّبني منه وأدناني إليه ، فأقمت عنده في سرور هو النّهاية ولا مزيد عليه .

(1) **القرآن** : سورة ابراهيم الآية : 24.

[مقامة الورغى]

ومن ذلك مقامة الكاتب أبي عبد الله محمد الورغي تشتمل على قصيدة هي من غرر الشعر وقلائده وعيون فرائده ، وهي :

سعد السعود تهيَّا(1)   وطالع النَّحس لاذا
فقلت : يا سعد حدِّث   عما وراءك ماذا ؟
فقال : خير تراه   واسمع لقولي هذا :

يا رواةَ الأخبار ، وحملةَ القول المختار ، شمِلَ الله جمعكم بسلام ، وجمع شملكم في دار السَّلام ، خير المتكلمين من حدَّث بما نفع ، وخير المستمعين من أحرز ما جمع ، وخير ما قيل من الكلم . ما يقال لصاحبه سلِم ، فاسمعوا الآن لحديث حسن ، تخيَّرته من سالف الزمن .

كنت من حُبِّب إليه مُصاحَبةُ الأسفار ، وخُفِّفَ عنه مفارقةُ الأوكار ، ورأى أن من العجز تفضيلَ دار على دار ، وأن من الأسر اتخاذَ حليلة وجار ، وأن يعقد عن كسب يحويه ، ليوم تظهر فيه مساويه :

ما للشباب وللإقامَة   والشيبُ مُنتظر أمامه
والدَّهْر يسمح تارة   ويضنّ أخرى بالقُلامة
والحرّ يقطعُ ظهْرَه   أن يجتدي أهل الّآمة
فليركب الأخطار في   تحصيل ما ينفي الملامة
مال يقيه الذُّلَّ أو   علم يلقّيه الكرامه
فسيحمد المسعى إذا   أرخى معمَّرهُ حزامه

[115 — أ] / فشددت على وسطي أطماري ، وشمَّرت لقطع المفاوز إزاري — وأنا إذ ذاك باز على قُفَّاز ، ومستوفز على أوْفاز (2) —

فلا وليد عن الإرقال (3) يعقلني   ولا غريم إلى قاض يقاضيني
وليس لي غير نعلٍ بتُّ أخصفها   ومحجنٍ ، وقليل العيش يرضيني

(1) بالديـوان : تجـلى .
(2) البازي من جوارح الصيد معروف ، والقفاز ما يضعه الصائد على يده ليحمل عليه البازي عند الارسال ، والمستوفز الجاثي المتهيّء للقيام والوفز العجلة ، يعني انه دائم الحركة والتنقل.
(3) نـوع من السيـر .

فابتدأت الطريق بأول فرض ، واتَّبعته بقول الله : «قُلْ سِيرُوا فِي الأرض» ، مجمعا على ترك الرَّاحة ، ملاحظا قول الرَّسول : الموت راحة ، تاركا كل فضول مكانه ، قاطعا ما بين فرغانة وغانة :

يوما أكون مَعَ المُلاَّح مُمتطئا   ذات الدسار على قاموس تيار (1)
وتارة بين بُهمى (2) لا يصاحبني   سوى الظليم وغير الضيغم الضّاري
وساعة بَيْنَ غوغا لاَ خَلاق لهم   ومرة بَيْنَ بيطار وعطّار
وتارة بَيْنَ أعلام أفاوضهم   فيما يقربني من رحمة البَاري

وما همّتي إلاّ حكمة أحويها ، أو قصة غريبة أرويها ، أو عظة أسمعُها ، أو مكتوبة أركعُها ، فجمعت مما يهذب الأخلاق ، ما لا يكون بعده إملاق ، ورأيت من البلاد ألوفا ، ولقيت من أهلها صنوفا ، وما رأيت صلاحها إلاّ بصلاح من ملِك ، وبعدم عدله هلك من هلك ، وتأملتُ الناسَ جيلا بعد جيل ، فالفيتُهم — وحقِّكم — كما قيل : خلق النَّاس أطيافا (3) ، وتميزوا أوصافا ، فطائفة للعبادة ، وطائفة للتجارة ، وطائفة خُطباء ، وطائفة للبأس والهيجاء ، ورِجْرِجة بين ذلك يكدّرون الماء ويكسرون الابريق ، ويُغلّون السعر ويُضيّقون الطَّريق ، وتعاقبت عليّ أحيان ، لا أستقر فيها بمكان .

من كَانَ يطلب رأس العز يملكه   فالجوّ (4) والدوّ في مرآه سيان
لا خير في عيشة في دار مَسْكَنَةٍ   لو كَانَ صاحبها في رأس غُمدان

إلى أن آذن روض الشباب بالاندراس ، وأعلن نجم الصّحة بالانعكاس . فأعملْتُ الفكرة في اتخاذ السَّكن ، لما يعرض في الكبر من المحن ، وفي اختيار منزل للإقامة ، ليحفظ به المرء صاحبته وغلامَه ، وكنت في زمن

(1) السفينـة في البحـر.
(2) في ز : وتارة في فسيح لا يصاحبني سوى ابن آوى والا الخ..
(3) اما جمع طيف للخيال الطائف في المنام — ولا يتناسب مع ما بعده — واما جمع طائفة على غير قياس باعتبار تجريدها من هاء التانيث ان استقام ذلـك.
(4) الجو يطلـق على الهـواء ما بيـن السمـاء والارض وعلى المنخفض من الارض ومتسع الاوديـة ، والـدّو المفـازة وهي متباينـة.

تطواني ، وتهذيب أوصافي ، رأيت صُقعا (1) لم ألق إليه بالا ، ولا أنعمت عليه سؤالا ، لِمَا رأيت عليه من الكآبة ، لحادث بين ذوي رحم أصابه (2) ، ولاشتغالي بما هو أولى ، واكتسابي لِما هو أوفق وأغلى ، غير أنه علق بقلبي / [115 — ب] وسمه ، وإن لم يحفظ حينئذ اسمه ، فصرفت نحو جهته العنان ، واتّبعت صوبه من أقصى مكان ، فوافيتُه والرَّبيع في عُنفوانه ، والدوحُ يرفل في أفنانه ، فتخلّلتُه تخلّلَ المُرتاد ، وتصفحت منه الأغوار والأوهاد ، ونظرت منه ما زان ، لتبدل حاله عن الذي كان ، فبينما أنا أجول خلاله ، وأتأمل نساءه ورجاله ، فإذا أنا بدمية حوْرا ، جلست من الأرض غورا (3) ، فتأملتُها تأمل إياس (4) ، فإذا هي مِغْناطيس الأكياس ، فقلت : أيتها الحره ، من استخبر المليحة ما ضره ؟ أفتأذنين لي بالسُّؤال ، عما خطر بالبال ؟ فقالت : أما الحرية فليس لي فيها نسب ، وإنما أنا مملوكةٌ لمن غلب ! وأما السُّؤال فأمره إليك ، فاسأل عما شئت ولا شيء عليك ، فقلت : من ملك هذه الذّات ، فإنه لم يغظه من أمر دنياه ما فات ! فقالت : ملكت مرارا ، ولاقيت إحلاء وإمرارا ، وإذا رأيت من حسني ما هالك ، فإنما هو بحسب المالك ، فقلت : لوّح هذا البيان ، بالثناء على ربلك الآن ، فقالت : بَخٍ بَخٍ ، فخر رسخ ، ذلك الفحل لا يقذع أنفه (5) ، والفيض لا ينقبض كفه ، لم يفته من المحاسن أصل ولا فرع ، وسأخبرك عنه بمثل حديث أبي زرع (6) ، إنّه الرفيع العماد ، كثير الرماد ، خفيف على ظهور الخيل ، ثقيل على أعدائِه يوم الويْل ، راضي الأهل والجناب ، رائِق للعقول

(1) الصقع بالضم : الناحية.

(2) اشارة الى الفتنة الحسينية الباشية وبهذا التاريخ معظم اطوارها.

(3) بالاصل : بدمية حسناء وحورية غناء ، وهو غير صواب ، اولا لان نسخ هذه المقامة متداولة بالايدي كثيرا وهي والنسخة . ز . تتفق في الجملة التي اثبتناها ، وثانيا لان الغناء من اوصاف الرياض والشجر الملتف لا من اوصاف النساء ، وثالثا حسن الاشارة الى موقع المدينة المنخفض.

(4) هو اياس بن معاوية القاصي مضرب المثل في الذكاء والفطنة . انظر **الميداني** 1/338.

(5) المثل كما في **الميداني** 2 : 359 : هو الفحل لا يقدح انفه ، اي صعب المراس لا يمكن من خطم انفه ومعاني القدع لا تلتئم مع هذا.

(6) في **الصحيحين** : انه اجتمع احدى عشرة امرأة عند عائشة فوصفن ازواجهن مدحا وذما وكان من ابلغهن مدحا امرأة ابي زرع.

والألباب ، ليست شِملته بالتفاف (1) ، ولا شربه باشتفاف (2) ، ولا ضجعته بانجعاف (3) ، ولا يشبع ليلة يُضاف ، ولا ينام ليلة يَخاف ، فقلت لها : يا هنتاه ، سبحان من خلقكِ وسوّاه ، ولولا أن سؤال الشخص عن اسمه ، من سوء الأدب ورسمه ، لسألتكِ عما هو لكما ، من اللّقب والسُّمى ، فقالت : ما تركت شيئا من الجفا ، إذ جهلت من لم يكن به خفا ، ولكن لا أجمع لك بين الحرمان والعتاب ، فافهم إن كنت من أهل الآداب :

عَمّ ما أنت فيه عن كلّ حاسد ... تلق أمنا من اعتراض المكائد
لا تثق بالكذوب واطلب صديقا ... واشكر السعي إن ظفرت بواحد
يسهل الأمر غير هذا فإني ... نلت في كسب مَن يليق الشدائد
يا مريدا على الزمان معيناً ... سُدّ والله عنك بابُ المساعد

ثم قالت : أعرفت جوابك من هذا التحْبير ؟ فقلت : إي والله وصناعة التخيير (4) ، فقالت : بيّن تلك الصناعة ، لأعرف ما عندك من البضاعة ، فقلت :

عم مَا أنت فيه عن كل ماكر ... تلق أمنا من اعتِرَاضِ المنَاكر
لا تثق بالكذوب واطلب صديقاً ... واشكر السَّعي إن ظفرت بشاكر
/ [116 — أ] يسهل الأمر غَيْر هَذَا فَإنِّي ... نلت في كسب مَن يليق الفْواقر
يا مريداً عَلَى الزّمان معيناً ... سدّ والله عَنْكَ باب المؤازر

فقالت : أمنت عليك من البلادة ، وعرفت حقك في الإجادة ، فقلت : لكني أحب التصريح ، باللفظ المليح ، لتأنس أسماعي ، بما علقت به أطماعي ، فسكتت قليلا ، ثم قالت فأحسنت قيلا :

(1) الشملة بالكسر : هيئة الاشتمال بالثوب ، وادارته على الجسد حتى لا تخرج منه اليد ، وهو المنفى هنا .

(2) اشتف ما في الاناء شربه كله .

(3) المنجعف : المصروع .

(4) التخير : نوع من البديع وهو الاتيان بقافيه قابلة للتغيير بمفردات اخرى كما في هذين المقطوعين ، وفيهما ايضا ترصيع الصدور بحرف اسم الممدوح والاعجاز باسم البلد .

يا طالبَ التصريح ياكيّس   صدقت فالتلويح لا يؤنس
بل إنمَا يحسن كتم الـْخنَا   وكيف يخفى الأحسن الأنفس
فاسمع إذن وانعم بها كلمة :   ربّي «عليّ» وأنَا «تُونِس»

فقلت لها : في أول الاسمين اجمال ، وفي الثاني منهما إشكال ، وإني في هذه الدّيار لغريب ، وليس جهلي الحال بعجيب ، وفيما بلغنا من الأخبار ، عن الأخيار ، أن تونس اسم لذات أسوار ، لا سوار ، وذات أبواب ، لا جلباب ، فكيف يفهم هذا التوضيح ؟ ولعلّه ليس بصحيح ، فقالت : إن إشكالك لوارد ، وله عندي جواب طارد ، إنّك لمّا نزلت هذه المدينة ، واخترت ركوبها على كل سفينة ، صورها الله لك في هذا المثال ، كما تُصوّر يوم القيامة الأعْمال ، لتأخذ خبرها عن شخص ، ولا تتعب فيه بكثير الفحص ، فقلت : الله أكبر ، قد تمّ لي ما سرّ ، ظفرت بِجُهَيْنَه ، وفقأت من إبليس عينه ، وزدتني نشاطا ، وملأت قلبي انبساطا ، وإني عَزَمتُ على استيطان هذا البلد ، وركودي فيه إلى الأبد ، فلا بد من تعرّف أحوال سلطانه ، ومعرفة خراج أوطانه ، وسيرته في رعيّته ، وعمل عُماله في دولته ، وحاله مع من يتاخمه ، أيفوته أم يقاومه ، فإذا استقامت هذه الأحوال ، صلُحَتْ الذرية ونما المال ، وعلم جميعها عندكِ شهير ، «ولا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِير» ، فاشرحي الحال ، وارفعي الإجمال ، ولا تحوجني إلى المراجعة ، فإنّها لحلاوة الترسل قاطعة ، فامتثلت مقترحي وَجَالَت ، ورفعت عقيرتَها وقالت :

ومالكي ما مالكي ؟   غيث الزمان الممحل
تاهت به أيامه   على الملوك الأوّل
فاسمع كلاما جامعا   عن الهوى بمعزل
ما نافع إلاّ التقى ،   (ولاَ فَتًى إلاّ عَلِي)
ابن الحسين المرتضى   عن غيره لا تسأل

[116 — ب] / ملاقاته أفراح ، ومحادثته انشراح ، ومجلسه علم يستفاد ، أو طعام مستجاد ، أو منحة وإرفاد ، لا يغفل عن رواية ، ولا يسأم من درايه ، وأعلق

شيء بقلبه من الأناجيل : صحيح محمد بن اسماعيل (1) ، فهو هجِّيراه (2) ، ومن أوثق عراه ، ولا يزال يبحث عن دينه ، ويسأل أهله عن غثّه وسمينه ، ويُكرِمُهم كل حين على ذلك ، كما تُكْرِم العزيز من عيالك ، وإذا غفلوا عن استدرار إنعامه ، أغراهم على ذلك بفعله أو كلامه ، فربما نثر الدنانير فوق البسط ، وقال لمن حادثه : ما هذا ؟ التقط التقط ! فإذا لمها من استعداه ، عدّ أمثالها لكل من عداه ، وإذا رأى في صحبه انقباض ، نزعه من غير اعتراض ، وربما ملّح معهم ومزَح ، إذا نصب الخاطر ونَزَح ، وخلوته لها أطوار طويلة الذّيل ، في ذكر واعتبار طَرَفَيْ النّهار وزُلَفاً من اللّيل ، مادّاً لمولاه كفّه ، نابذاً كل شاغل خلفه ، مخلصا لله فيها النّيه ، مستشعرا حصول الأمنيه ، وأما حاله مع بنيه ، الذين هم مبلغ أمانيه ، فتربية الربانيين من تعليم أبواب الدين ، والترغيب في الحياء ، والتحذير من الأشْقياء ، وتحسين الكرم ، والعفو عمن ظلم ، والنهي عن الاسْتعجال ، وعن الجُبن في كل حال ، وهلم جرّا ، مما يصلح الدنيا والأخرى ، وقد ظهرت فيهم النّجابة ، فلتحمد الله أمةُ الإجابه ، وأما حال حرمه ، فهم على قدمه ، من مراعاة الصّلاح ، في المساء والصّباح ، مع أدعية تملى ، وسور تتلى ، وعبادة تامّة ، وصدقة عامّة ، فقيراتهم مكسوّة ، ويتيماتهم مجلوّة ، وزلاّت إمائهم معفوّة ، وجميع أحوالهم في الغاية ، كما تخبرك به الدّاية ، وأما مدينته ، التي هي زينته ، فهي محط الرّحال ، ومطمح الآمال ، تجارتها نافقة ، ومبانيها رائقة ، وسلعتها ثمينة ، ومياهها التي عمّها بها معينة ، ومساجدها معمورة ، وبركاتها منشورة ، ومرتباته لمدرسيها جارية ، ولا تخلو عن صدقاته الطارية ، وأما خراج بلاده ، فقد زاد على معتاده ، لكثرة العمارة ، بحسن سياسة الإمارة ، وأما سيرته في الرعايا ، وحاله في فصل القضايا ، فإن حجابه رقيق ، وخطابه رفيق ، ولا يصدر عن قضية حتى تُفْهَم ، ولا يفصلها قبل أن تُعْلَم ، وكثيرا ما يندب للصلح الّذي هُوَ

(1) البخـــــاري .
(2) الـداب والعـادة اللذان يهجر فيهما غيرهما .

خيْر ، ويعطي لإتمامه من ماله إن بخِل الغير ، ولا يمنع الحقّ ، ممن استحق ، ويستعظم قَتْلَ النفس ولو في حق ، وكل وقت يتصفّح ديوان رعاياه ، فيحط عن كل مُثْقَل ما أعياه ، وزلتهم عنده لغو ، وقد تمم طاعتهم بالعفو ، ومما أصّلته الفرس والترك ، (عفو الملك أبقى للمُلك) ، وعند جميع المِلَلْ ، ممن وفق للحقّ أو ضل ، (الدّين بالمُلْك يَقْوَى ، والمُلْكُ بالدّينِ / يَبْقَى) ، وأما حاله مع من تاخمه ، فإن حوزته من عدواه سالمة ، [117 — أ]
ولولا اختلاف بنيها ، ما قدر أحد يعنّيها ، وهي أقرب لصلاح الحال ، فابشر ببلوغ الآمال ، وأما حال العمال في هذه الأيام ، فسل عنها غيري والسّلام ، فقلت : أيتها الكريمة ، قد أسمعتني مزايا عظيمة ، فليس بعدها إلاّ المقام ، تحت إيالة هذا الهمام ، وإني عزمت على ملاقاته ، لأتيمّن بمشاهدة ذاته ، وآمن بقربه من تسلُّطِ الأوْباش ، فأسلَم من إفساد العبادة وتكدير المعاش ، أما سمعت يا كريمة ، ما حفظ من الأبيْات القديمة :

ولن تبصري شخصاً يُسمَّى مُحَمَّداً   من الناس إلاّ مُبْتلى بأبي جهل

أفأقدم بين يدي ذلك ، قصيدة تسهِّل المسالك ؟ فإنه من سنن سيد المرسلين ، ومنهج خلفائه الراشدين ، فقالت : بدار بدار ، فما بعد العيشة من عرار (1) ، واذكر فيها خصلته الجديدة ، التي هي من أفعاله الحميدة ، فيالها منقبة لم يُسبَقْ إليها ، ولا وُقف في سابق الآثار عليها ، وهي قطعه لداعية الخمور ، الباقي ذكره بها إلى يوم النشور ، فقد عجز عنها من قبله ، وضرب الله على أيديهم حتى وصلت له ، والظن بالله أن يجازيَه باللطف به ، وأن يجعلها كلمة باقيةً في عقبه ، وجوّد المطالع وتأنّق في المقاطع ، ولا تجعل كل الكلام شريفا عاليا ، ولا وضيعا واهيا ، بل فصّله تفصيل العقود ، ولا تكلّفه بالخاطر المكدود ، فإن العقد إذا كان كله نفيسا ، لم يظهر منه ما كان رئيسا ، ولا يتبين كمال واسطته ، ولا أعلاه من قاعدته ، واقصد

(1) العرار بالفتح نبت طيب الريح ، والجملة عجز بيت صدره : (تمتع من شميم عرار نجد) ذكره الزبيدي 3 : 391 ونسبه للصمة بن عبد الله القشيري.

القوافي السهلة المستحسنة ، دون الصعبة المستهجنة ، ولتكن ألفاظ مبانيك ، على مقدار معانيك ، فالثّوب إذا زاد على الجسد كد (1) ، وإذا نقص عنه فسد ، وإياك وثقيل الألفاظ ، فتنصرف عنك الحفاظ ، وإنما قدمت لك هذه الوصيّة ، الضامنة لمن عمل بها بلوغ الأمنية ، لأن الذي قصدته بمديحك ، وأردت أن توقفه على صريحك ، أحق بالمدح من كعب بن مامة ، وأعرف بنقد الكلام من قُدامة (2) ، وليس ممن يخدع بالأباطيل ، ويغير الحكم بالبراطيل (3) ، فلا تقدم عليه بما يُسمع ساعة ، ثم يُطرح في خزانة الإضاعة ، بل بما تتخذه الحور للنُّحور ، وينطبع في غرر الأيام سطور ، وتتأبطه الركبان ، لأقصى مكان ، في كل زمان ، فبادر بها قبل رجوع الفَيْ ، ولا يسمعها منك حي ، حتى تعرضها عليّ ، فقلت : قد حضر ما غاب ، فاسبريه هل طاب ؟ واسمَعِي وعِي ، وليكن قلبك كله معي :

[117 — ب] / طالعُ اليمن مقبلٌ فِي ازدياد
سالم الكون من قبول (4) الفساد
فتح الوقتُ منه للأنس بَاباً
أيّ باب عليْه سعد يُنَادِي
فاطْوِ عن جانب التوقّي بساطا
وامضِ طلقَ العِنان نحو المنادي
واطرح النصحَ من ثقيلٍ تعنّى
ربمَا كَانَ وَاحد الحُسَّاد
ما صوابٌ قعود من قد هَدَاهُ
لاغتنام النّعيم والبسط هادي

(1) اتعب
(2) كعب تقدم له تعريف ، وقدامة بن جعفر امام النقاد توفي سنة 310/923.
(3) الرشا .
(4) ز : م : كمون .

إن من صدّ عَنْ جَمِيل أتَاه
كان أحرى بهجره والبعَاد

هذه جَنَّة التّهَانِـي تَجلّت
بين مُمْسٍ من الرباب (1) وغادي

في شبَاب الزّمَان والأرض حاكت
من غـَزِيلِ السّماء برد الوهاد

فانظر الزّهر طالعاً في بَيَاضٍ
وانظر الزُّهر صوبت في سواد

يكشف الليل هذه ، عكس هذا
فالجديدان منهما في عنَاد (2)

وانظر الودق كيف يقطف خطوا
بين خاف من الرُّبُوع وبادي

كلـّما لاح في مَوَاطِيه خط
صور الوهمُ قلبه شـكلَ صاد (3)

فالبطاحُ استبان فِيهَا مِثَالٌ
من قَطِيف موطإ في مهاد

والرُّبَا هَوَدج تَحمّل عرسا
أو كبيرٌ مُزمّلٌ في بِجاد (4)

(1) الرباب بالكسر : الاصحاب ، وبالفتح : الجماعة ، وكلاهما صالح.

(2) ذكر في هذه الأبيات ما اشتركت الأرض والسماء في صنعه من مباهج الطبيعة فالسماء اسدت الغزل من مائها والارض حاكته بردا ، والارض اطلعت زهر النبات والسماء ابدت زهر النجوم ، والاول يظهره النهار والأخرى يكشفها الليل وكلها مقابلات عجيبة.

(3) الـودق : المطر . وقطف خطوة كناية عن تقاصره وخفته أخذا من قولهم فرس قطوف أي قصير الخطا ، ومواطيه مواقع نزوله ، والخط آثاره فيها ، والصادى العطشان . يصور نزول مطر لين بأرض عطشى تنشرب مزنه فلا يبقى منه الا خطوط آثاره ، وفيه تورية بالخط الكتابي وحرف الصاد الاجوف وقد اخذه مأخذ الوهم فلا يتعمق فيه وهو من اللطائف.

(4) قارن بين البطاح والـرّبا في جمال الطبيعة فشبّـه الاولى بالزرابي المنجدة في مستوى ممهد ، والثانية بمحمل العروس المائن وضمن فيه تشبيه امريء القيس « كبير أناس في بجاد مزمل » وكبير جبل ، والبجاد ثـوب مخطط.

أطلع الوشي فِيهِ للعيْنِ نَوْرا
يطلع النُّور في صميم الفؤاد

من بيَاض ، وزرقة ، واحمرار ،
واصفرار ، وشقرة ، وَاسْوِداد

صبغة الحقّ ، لو تأملت فيهَا
كيف كانت من وحدة في مداد

واصغ للطير ، وانظرن كيف عادت
تُنْشِطِ النّفس بالحديث المعاد

راقها الجوّ فَهْـيَ فِـي كل وجه
تسرع المرّ ، في النواحي بداد

ما لها تملأ المسَامِـعَ سجعا ؟
وهي مِنْ عظم مَا بهَا في طراد

تلك هِـيَ التِـي تَعَرَّفت ، لـكن
زاد مَا عِنْدَهَا عَلَى المعتَاد

أتُراه لِحَادث حلّ فِيهَا ؟
أم تنادت لِحَادِثٍ في العِبَاد ؟

بل تغنّت بابن الحُسَين علي
عندمَا سدّ بَابَ كل الفساد

حيّهل (1) بالحديث عنه وعبر
عَنْهُ فِـي كلّ قولة بسعَاد

ذلك الفَجْر أجْفَلَ الدجن مِنْهُ ،
واستوى فِيه حاضر والبوَادي

(1) اسـم فعـل للاستحثاث .

 / أم هوَ البدر ؟ بل له الفضل لَمـَّا
كان في الأرض طالعا في الدآدي (١)

أعجز اللاّحقين عَنْهُ فَخَابـُوا
وهو للسَّابِقينَ أنف الهوَادِي

واقتنى الشكر والمثوبة لَمـَّا
أبصر العَيْش صَائِراً للنفَاد

صبّح الخلق بَعْدَ ضيق بعيش
لم يكن قبلُ عندهم في اعتيَاد

أشرك الكل فيه مِنْ غير فرق
بين عجما وناطق والجماد

أصله الغَيْث والذنُوب عداهُ
وهو مِنْ أجْلِ قطعها في جهاد

كم عيُوب علَى الملوك تعايت
وهو يمحي عظيمهَا في اتّآد

قال لِلْخمر مرة : خبّريني
عنك حقا في المُنْتهَى والمبادِي

قالت الخمر : ستر ما شان خيرٌ
لو سهَا عنك باحث ذو انتقاد

أنا ما قدْ علمتَ قَطْرةُ مَاء
طيب الأصل جئت من أرض عاد

كنت في غُرْبَةٍ بأرْضك مَالي
من مواليك غيْر خصم معادي

(١) جمع دؤدؤ : للّيلة الحالكة السواد .

لا يليني مِنَ الأنَامِ خلِيلٌ
غيْر رهط صحبتهم في بلادي

عشت فيهم علَى المذلّة دهراً
في احتراس مِنْ أمة لي أعَادي

ثم أجمعت بَعْدَ ذَلِكَ رَأياً
أن أوالي جمَاعة الأوغَاد

فاستلمت النفوس منهمْ بلهو
يوهم الغرّ يقظة في الرُّقاد

واستمال القَريب مني بَعيداً
هكذا كانَ أمْرهم في تمَادي

فإذا الهزل عِنْدهُمْ صار جدّاً
وإذا النَّاس كلهم في قيادي

يدأب المَرْء لي ويترك أهلا
مِنْ وليداته ، وذات الولاد

فأنا اليَوم أكثر الخلق جيشا
مهطعين لِدعْوَتي في احتشاد

أسلب المال حيثما كانَ منهم
بعد سلبي عقُولِهمْ واقتيادي

لم يفتني سوى القليل وإني
لاحتواش جميعهم في اجتهاد

عن قريب ترى الصَّريخ يُنادي
باحتكام الكميت في كل نادي !

قال : أفصحتِ عن حديث مُمضٌ
يمنع العَين مِنْ لذيذ السهاد

لا أرَى العَيْش بعد قولكِ يصفو
أو أبكّي عليك صمّ الصّلاد

إن من كان يحسم الشر مثلي
ثم أبقَاه ، فهو بالشر بَادي

[118 – ب] / لا وحق البريّ مِنْ كل ذنب
لاكوتني ذنُوبهُمْ فِـي معَادي

لا ولا عقت أمةً لِحَبيب
هو في الضّيق ملجئي وَاعتِمَادي

قَالت الخمر : أظهر الغيب عيبا
دون مَا تبتغيه خرط الْقتَاد

ليس في الوهم مَا تظنّ ، وإني
لأُهيّي لما توهمتَ زَادِي

كم رآني مِنْ قبل كونك صِيدٌ
من ملوك زحمتهم في الْبِلاَدِ

مَا سمعنا بمثل مَا قلت منهم
بل لنَا عقد ذمة مِنْ مراد (1)

غير أن الْقَلِيل قَدْ همّ همًّا
فإذا هُوَ نَافخ فِـي رمَادِ

بل أبُوك الْجَلِيل غيَّر رسمي
ثم لو عاش كَانَ أعدى العوادي

إن لي شيعةً مِنَ الإنس تبدو ،
ثم أخرى خميسهَا غير بَادي

(1) اشارة الى مراد ابي باله آخر المراديين صاحب الفظائع الشهيرة ، وسياتي ذكره في هذا التاريخ.

فإذا رام لطمَ وجْهي زعيم
أعملَ الجِدَّ كلهم فِـي مرادي

ثم إني حميت ثغري بوفري
فإذا مَا استزدت خذ من تلادي (1)

ما تَراه ، فان أحمد رأيي
أن تؤم طَرِيقَة الأجْدَادِ

قَال : أخطَاتِ مَا حديثكِ هذا
غير ضرب عَلَى حَدِيد بُراد

لم يُغَادر من الْحمَاقة شيئاً
من رَأى العقل أسوة في الْعِبَادِ

ومن الردّ أن يقلد شَخْص
ذو اجتهَاد في حكمه ذا اجتهَاد

بل مِنَ الغَيْظ أن يُخَادع كَيس
بافتلاذ منْ كِيسه مُسْتَفَادِ

وإذَا مَا دفعتُ لله قَرْضاً
ضاعفَته يَدُ الْكَرِيم الجواد

يا لَـكَاعِ : أئن خسفتكِ خسفا
ينتطح في الْوجُودِ قرناً جراد ؟

فانْدُبِـي شيعتيك ! إن شئت حربا
يركبوا للهيَاج عوج الْجيَادِ

واكتبي لليسوع يبعثْ شفيعاً
أو بِرُقيا تقال عِنْدَ الْجلاد

(1) حمت ضعفها بما لها وعرضت عليه تلادها اي مالها القديم المدخر واغرته بطلب الزيادة

مَا يميني كَمَا سمِعتُ بصدق
إن رأتك العُيُون من بعد ساد (1)

فانتهى القول عِنْدَ هَذَا وتاقت
كل أذن لِصدْمةِ الْمِيعَادِ

وامتطى الناس متن عشوا وخاضُوا
من هلاك الكميت في كلّ وادي

جلهم يمنع الْوُقُوع ، ونزر
قَال يرجى ، والبعض في ترداد

ثم مَا دار دائِر السّبع حتى
عَاينُوا فَلّهَا ببرك الغَماد (2)

/ تلك حَانَاتهَا أيَامى كأنْ لم [119 – أ]
تغنَ بالأمس ، أصبحت في حِداد

ليت شعري أرنّ إبليس مِنْهَا
مثل مَا رنّ للدّواهِي الشداد

فَاختبر بعدهَا اللّيالِيَ تَسْمَع
من حديث – مع طوله – مستعاد

عزمة من أتم أكْمَل حزمًا
علمته الخطُوب عِلْمَ الطراد

يَا أميرًا أتى الزمَان أخيرًا
وهو في الْفَخْرِ أول الأعدَاد

لاَ غضاضَةَ إنمَا أنْتَ سر
بيّن الصدق ، في حديث العهَاد

---

(1) ترخيم في غير منادى على غير قياس ، اي سادس .

(2) مكان يضرب به المثل في البعد . انظر **ياقوت** 2 : 149 .

إن يك البِرّ زاد لِلْبَرّ عمرًا
عشت كالخضر آخر الآبَادِ

ولمّا أتممت إنشادي ، وأعجبني إيرادي ، قالت : قد قاربت ياسكيت ، أن تجلي بالكميت : فقلت : اذمّ هذا أم مدح ؟ وهل أنت في جد أو مزح؟ فما ظننت أن تجبهيني بهذا ، ولا أن تتركي قلبي أفلاذا . فقالت : ها أنا أعترف بذنبي ، لترجع عن مؤاخذتي وعتبي ، إني طبعت على الغيرة من الأفاضل ، فتجدني لا أعترف بفضيلة لفاضل ، وربما فضلت البليد ، على الحديد ، ورجعت عن اجتهادي إلى التقليد ، وقلت لمن أتى بالاغلى . لو كان غير هذا لكان أولى ، وأخذت في التّعديل والتّجريح ، لغير أصل صحيح ، وكل ذلك مزاح وطريقة ، وإلاّ فالحقيقة الحقيقة ، على أن اعترافي لك بالإجادة ، لا يعود عليك بالإفادة ، وإنما المعوّل عليه ، من تُزف هذه الخريدة إليه ، فإن جوّزك فأنت النابغة ، وإن عجّزك فتلك الدّامغة ، فقلت : قد عرفت مغزاك ، وما صاحت به معزاك ، فلا يصدّني ذلك التغرير ، عن بذل الجهد في التّحرير ، فإنما يسعى الموفّق لما يبقى ، ولا يجتنب ذلك إلا الأشقى ، ثم قالت : عد إلى مؤانسة المُجالس ، واسمع لما تتحدث به المجالس ، إنه لمّا ماتت أم الخبايث ، وعبثت بأهلها الرّياح العوابث ، اجتمعت أرواح الأدباء للأفراح ، وأخذت في مطارحات واقتراح ، فسمعت أحد الجماعه ، يقول : خذوها بنت الساعه ، وأنشد :

سقاك الغيْث يَا باب الجزيرة   فكم جازتك من حوْرًا عطيره
تميل إذا مشت كالسروِ مرت   عليه الريح في أرضٍ مطيره
ويرجع كل ذي عَين رآها   بِكَفّ عن تناولها قصيره
إذا ما قال ذو طمع لمن ذا ؟   تقول : لمن دراهمه كثيره

فاستظرفه كل من حضر ، ثم ابتدر آخر فذكر :

/ ومختصر الكلام فهمت منه   قليلا ، والكثير من الإشارة [119 – ب]
تملك سَائِري فَطَلَبت رفقاً   فقال : اسكت ، في هذا جساره

وأبعد نيله وأودّ أنّي   أعاتبه فتغلبني العبارة
ولمّا لم أجد منه اتصالا   صحبتُ عشيرهُ وقصدت داره
وقلت له : أما للخشف مأوى ؟   فقال : اطلبه من باب المناره
فقلت : فتحت من أمري عويصاً   فضم الميم أعجلُ بالبشاره

ثم استخفهم الطرب ، فما منهم إلاّ من اضطرب ، وقام كل على حياله يرقص ، ويأتي بمصراع لا يزيد عليه ولا ينقص ، حتى تمّت الأبيات ، وتجمعت بعد الشتّات :

قم بليل يا نديم   واشكر البرّ الرحيم
واشكر الباشا عليّا   صاحب الخلق الوسيم
عالج الخمر فزالت   وهي من داء قديم
علة أحجم عنها ،   كل عرّاف حكيم
صانه الله وأبْقى   للصراط المستقيم
وأرانا في بنيه   كلّ أنواع النعيم
وجزاهمُ بعظيم   وفق ذا الأمر العظيم
خصلة يعنو إليْها   من له قلب سليم
صدقُوا إذْ أرّخوها :   (أبطل الخمر كريم)
(1183)

ثم لمّا قضت من الحديث نهمتها ، وبلغت منه أمنيتها ، قالت : إلى متى قعودك عن الغرَض ؟ وتأخيرك الأمر المفترض ؟ فاجمع عليك الأثواب ، وبكر بكور الغراب ، وأتِ الأمر من بابه ، واستعن على كل صعب بأربابه ، واترك في طريقك المِرَا ، ولا تلتفت إلى ورَا ، فابتدرت الطريق الجادة ، واستسهلت فيها العوارضَ الحادّة ، حتى وقفت على السُّلطان السّعيد . فإذا هو فوق ما نريد ، ورأت منه العيون ، أحسن مما ظنّته الظُّنون ، فألقيت له ما في جرابي ، حتّى استفرغت ما في وطابي ، فلمّا وعى قصتي ، وأساغ من حينه غُصّتي ، قال : ما اسمك أيُّها الودود ؟ فقلت له : سعد السُّعود !

فقال : باسمك الفال ، وعلى الله الاتكال ، فرحم الله صاحبَ فتح البَاري . إذ أنشد في شرحه لصحيح البخاري :

/ تفاءل بما تهوى يكن ، فلقلّما   يُقال لشيء كان إلاّ تحققا [120 – أ]

فقلت : الحمد لله على الموافقة ، فقال : ولك منّي المرافقة ، فها أنا أمرح في ظلاله ، لا يطرقني طارق بمجاله ؛ سائِلا من المولى المتعالي ، بقاءه لي ولأمثالي ، فهل سمعتم يا أولي الأبصار ؟ بمثل هذا في الأخبار ؟ فقلنا :لا ومكور اللّيل على النّهار ، فقال : اقتدوا بي في قصدي لهذا السّعيد فاقصدوه ، فلعلكم إن شاء الله تحمدوه ، وتنهلوا من فواضله وتعلّوا ، وعليكم السّلام والرحمة أينما تُولُّوا .

انتهى الجزء الأول في السيرة
ويليه الجزء الثاني في التاريخ .

فهرس

صحيفة

انتهى طبع هذا الكتاب بطريقة مونوتيب في معامل المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية في جوان 1970